مذكرات
تشرشل

Sir Winston Churchill

أيام الحرب العالمية الثانية، حيث كان هناك مطار حربي بجوار إحدى المحاكم، ونظراً لكثرة هبوط وتحليق الطائرات أدي الصوت إلي التشويش علي أعمال المحكمة، مما دفع القاضي إلي إصدار حكماً بنقل المطار إلي مكان آخر (برغم ظروف الحرب)، فرفض قائد المطار تنفيذ الحكم واشتكي إلي (تشرشل) رئيس الوزراء فرد عليه بهذه العبارة:

من الأفضل أن تخسر (بريطانيا) الحرب على أن يقال إنها لا تنفذ أحكام القضاء.









إعداد وتقديم
د. الحسينى الحسينى معدِّي

دار الحرم للتراث

مذكرات
تشرشل

اسم الكتـــــاب : مذكرات تشرشل

اسم المـــؤلـــف : د / الحسينى الحسينى معدى

النـاشـــــــر : دار الحرم للتراث

العنـــــــوان : ٤٥ سوق الكتاب الجديد بالعتبة. ت: 25916021

رقـــم الإيـــداع : 3542 /2011

الترقـيم الدولى : I.S.B.N.977- 6038 - 89 - 1

الطبــعــة الأولى: 2011



مذكرات تشرشل

إعداد وتقديم

د. الحسينى الحسينى معدِّى



٤٥ سوق الكتاب الجديد بالعتبة ـ القاهرة

٢٥٩١٦٠٢١

مقدمـــة

وُلِدَ ونستون ليونارد سبنسر تشرشل فى ٣٠ تشرين الثانى/ نوفمبر ١٨٧٤ لأسرة محافظة سياسيا، فى قصر بلاينهام بالقرب من مدينة أوكسفورد مقر حكام مقاطعة مارلبورو فى بريطانيا، وكان جده السابق دوق مارلبورو الأول قد بنى ذلك القصر تيمناً بالانتصارات التى حققها عام ١٧٠٤.

كان والده اللورد راندولف تشرشل، ووالدته أميركية الأصل تدعى جينى جيروم، توفى والده وهو فى السادسة والأربعين من عمره فى ظروف مأساوية أدت إلى تجريده من لقبه، رغم أنه كان قد بدأ حياته السياسية بنجاح عظيم واستطاع أن يتولى منصب وزارة المالية وهو فى الثلاثين من العمر.

وهكذا كان على تشرشل أن يشق طريقه بنفسه وأن يكسب رزقه بقلمه ولسانه، ساعدته فى ذلك والدته. ولم يظهر أى نجاح فى المدرسة الثانوية التى دخلها عام ١٨٨٨، حتى إنه لم يتمكن من الوصول أبدا إلى الصفوف العليا. إذ كان غير مبال باللغة الإنكليزية وأدبها الكلاسيكى، مفضلا استعمال لغته الخاصة.

ترك تشرشل الثانوية والتحق بالمدرسة الحربية الملكية فى ساندهيرست وتخرج منها عام ١٨٩٤، وفى العام نفسه أرسل مع الجيش الإسبانى فى كوبا الذى كان يقاتل الاستقلاليين الكوبيين. وفى عام ١٨٩٥ انتقل إلى الهند حيث قضى هناك نحو ٤ سنوات كانت كافية لقيامه بنوع من التربية والتثقيف الذاتيين، فقد كانت أمه ترسل له صناديق من الكتب، وكان يطالعها كلها. نقل بعد ذلك إلى السودان وجنوب إفريقيا فى العام ١٨٩٩، حيث قام بوظيفته كجندى وبعمل آخر هو مراسلة صحيفة مورننغ بوست.

وهناك تعرض للاعتقال من قبل قوات البوير فى إفريقيا الجنوبية ولكنه تمكن من الفرار عبر جمهورية وسط إفريقيا وعاد مجدداً إلى جبهة القتال فى الناتال وهو الأمر الذى أدى إلى شهرته عالمياً.

دخول عالم السياسة

قام بعد مغامرته تلك بجولة فى الولايات المتحدة ألقى خلالها محاضرات عن هربه، وحصل من تلك الجولة على مبلغ من المال مكنه من دخول البرلمان (لم يكن أعضاء البرلمان فى ذلك الحين يتقاضون أية رواتب فى ذلك الحين)، وذلك فى العام ١٩٠١ حيث انتخب ممثلاً عن حزب الأحرار فى العام ١٩٠٤ بعد خلافات بينه وبين الحزب بعد. انضمامه لحزب الأحرار أصبح نائب وزير المستعمرات وكان له دور بارز فى إنهاء حرب البوير. أصبح وزيراً للتجارة عام ١٩٠٨ ثم وزيراً للداخلية فوزيراً للحربية عام ١٩١١، وأسهم فى الفترة من ١٩١٠ ـ ١٩١٥ مع وزير البحرية اللورد فيشر فى تطوير الأسطول البريطانى فى مواجهة القوة البحرية الألمانية. مع بدء الحرب العالمية الأولى واحتلال الألمان لـ بلچيكا، قاد تشرشل حملة مضادة إلا أنها فشلت فى تحقيق أهدافها، كما فشل فى محاولة احتلال الدردنيل لعزل تركيا عن أوروبا، وبعد سقوط حكومة الأحرار واستبدالها بحكومة ائتلافية مع حزب المحافظين فى العام ١٩١٥، اشترط المحافظون للدخول فى التحالف تجريد تشرشل من منصبه كقائد للقوات البحرية.

بدا لتشرشل أن حياته السياسية قد انتهت فتعلم الرسم لتمضية وقته، واستمر يمارس الرسم حتى نهاية حياته، وفى العام ١٩١٦ ولاه رئيس الوزراء لويد جورج منصب وزير الإمدادات العسكرية، وبنهاية الحرب صار وزير الدولة لشؤون الحرب والقوات الجوية، حيث عمل على تحديث القوات الجوية البريطانية، وصار هو نفسه طياراً. استلم بعدها وزارة المستعمرات بعد وضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى سنة ١٩٢٠. سقط تشرشل فى الانتخابات البرلمانية عام ١٩٢٢ وابتعد

مؤقتاً عن السياسة، ثم عاش فترة مضطربة تنقل خلالها بين عضوية حزب المحافظين وحزب الأحرار. كما تسلم عدة مناصب وزارية، إلا أنه لم يكن سعيداً بالصلاحيات المحدودة التى منحت له فابتعد عن السياسة تماماً فى الفترة من ١٩٢٩ إلى ١٩٣٩، وإنصرف إلى الكتابة وإلى ممارسة هوايته الجديدة الرسم.

تشرشل والقضية الفلسطينية:

زار تشرشل - خلال رئاسته وزارة المستعمرات فى العام ١٩٢١، مصر وفلسطين، وإطلع خلال زيارته على المشكلة التى يعانى منها الفلسطينيون نتيجة خطورة وعد بلفور على مستقبلهم، واستمع تشرشل إلى المشكلة من الوفد العربى برئاسة موسى كاظم الحسينى الذى طالب بإلغاء وعد بلفور، وبعد عودته إلى لندن بشهر اندلعت مواجهات بين الفلسطينيين واليهود، وفى صيف العام نفسه توجه وفد عربى إلى لندن لمقابلة تشرشل وألح الوفد عليه لإلغاء وعد بلفور، لكن تشرشل إستخف بهم ولم يعر طلبهم أى اهتمام.

أصدر بعدها تشرشل الكتاب الأبيض ووافق عليه البرلمان البريطانى عام ١٩٢٢، وقد تضمن الكتاب الأبيض شرحاً من وزارة المستعمرات لطبيعة السياسة البريطانية فى فلسطين وتفسيرها لوعد بلفور، وجاء فيه أن الغرض ليس تحويل جميع فلسطين إلى وطن يهودى، بل قيام هذا الوطن فى جزء منها، على ألا يؤدى ذلك إلى إخضاع السكان العرب أو اختفاء اللغة أو الثقافة العربية. كما نفى فى الكتاب حجة العرب بتعهدات بريطانيا إلى الشريف حسين بن على وأصر على استثناء فلسطين من التعهدات، وأكد الكتاب تمسك بريطانيا بوعد بلفور وبأن وجود الشعب اليهودى فى فلسطين يقوم على حق.

العودة للسياسة

مع بداية الحرب العالمية الثانية استعانت به الحكومة نظراً لخبرته والجهود التى بذلها لتنظيم القوى البحرية والجوية عندما كان فى السلطة، فعين قائداً أعلى للبحرية، ولكن الهجوم الألمانى على أوروبا كان سريعاً

وفعالاً. فسقطت بولندا والبلاد المنخفضة وتبعتها فرنسا، دونما مقاومة تذكر. كانت بريطانيا تشهد فى تلك الفترة عدم استقرار سياسى، فأسندت إليه فى أيار/مايو ١٩٤٠ رئاسة الحكومة وكان قد عاد قبلها لحزب المحافظين، كما تولى وزارة الدفاع على مدى السنوات الخمس التالية.

دوره فى الحرب العالمية:

عمل تشرشل على احتضان المقاومة الفرنسية التى كان يقودها شارل ديغول، لاقتناعه بأن بريطانيا لن تستطيع قتال الألمان لوحدها بعد أن خسرت العديد من معداتها الحربية إثر احتلال فرنسا، كما اعتمد فى تلك الفترة على صداقته للرئيس الأميركى فرانكلين روزفلت، التى بدأت نتائجها تظهر من خلال تزويد الأوروبيين بالسلاح والعتاد أولاً ثم فى دخول الولايات المتحدة نفسها الحرب وتشكيل ما عرف بقوات الحلفاء، بعد فترة من نشوب الحرب تولد لدى تشرشل نوع من الاعتقاد بأن ألمانيا لن تجازف بمحاولة احتلال بريطانيا. وقد شجعه ذلك على إرسال واحدة من الفرقتين العسكريتين الباقيتين فى الجزيرة إلى مصر للإمساك بالمعبر الأساسى إلى الشرق الأوسط.

وبعد انضمام الولايات المتحدة إلى الحرب وخسارة ألمانيا الحرب مع روسيا انتهت الحرب بانتصار الحلفاء.

سعى تشرشل خلال مؤتمرى طهران ويالطا إلى الحد من التوسع السوفيتى داخل أوروبا إلا أن الرئيس الأميركى لم يوافقه الرأى، ما أدى إلى مد النفوذ الروسى على معظم دول أوروبا الشرقية.

وفى أيار/مايو ١٩٤٥ قاد تشرشل مواكب المحتفلين بالنصر فى شوارع لندن، إلا أنه ـ كما ورد فى أحد كتبه ـ كان يشعر بغصة فى القلب لعدم قدرته على الحد من النفوذ الشيوعى داخل أوروبا. وبعد شهرين من ذلك سقطت حكومته فى الانتخابات، وبعد تولى حذب العمال للسلطة انصرف تشرشل إلى الكتابة والرسم مرة أخرى.

العودة مرة أخرى:

عاد تشرشل إلى رئاسة الوزارة مجدداً عام ١٩٥١ وهو فى السابعة والسبعين من العمر، واستمر حتى العام ١٩٥٥، عندما استقال فى عيد ميلاده الثمانين. وخلال فترة حكمه شارك فى تتويج الملكة إليزابيت الثانية فى حزيران/يونيو ١٩٥٣ بصفته «فارساً»، كما نال جائزة نوبل للآداب فى السنة نفسها.

ورغم استقالته إلا أنه لم ينقطع عن ممارسة السياسة، حيث حرص على حضور جلسات مجلس العموم البريطانى حتى تقاعده فى تموز/يولو ١٩٦٤، وفى ٢٤ كانون الثانى/يناير ١٩٦٥ وافته المنية، ودفن فى حديقة الكنيسة الصغيرة التابعة لقصر بلاينهايم، حيث ولد قبل تسعين سنة.

وقد عرف عن تشرشل نزعته الارستقراطية البعيدة عن الشعب فى الداخل، والاستعمارية المتطرفة فى الخارج.

مؤلفاته

- ١٨٩٨ قصة قوات سهل مالاكاند.
- ١٩٠٦ اللورد راندولف تشرشل.
- ١٩٠٨ رحلتى الإفريقية.
- ١٩٣٠ طفولتى.
- ١٩٣٨ ـ ١٩٣٣ مارلبورو (٤ أجزاء).
- ١٩٣٢ أفكار ومغامرات.
- ١٩٣٧ معاصرون عظماء.
- ١٩٥٣ ـ ١٩٤٨ الحرب العالمية الثانية (٦ أجزاء).

لكل أمة من الأمم، فى تاريخها رجال. وبقدر ما يكون عطاء الرجال

لأمتهم يكون لهم فى تاريخها أثر، وونستون تشرشل، من رجال الإمبراطورية البريطانية... أعطاها يوم كان جنديّاً محاربا بصدق وأمانة، وبذل وهو فى ميدان السياسة من أجلها الكثير، فكان لبريطانيا تاريخ حافل بالأحداث العظام... وكان تشرشل يمثل عظمة الأحداث تلك بالنسبة لوطنه، وليس بالغريب، أن تكون حياة تشرشل صورة لكفاح الأمة البريطانية فى سبيل وجودها وسيادتها.

د. الحسينِى الحسينِى معدِّى

الجزء الأول

الفصل الأول

جهل المنتصرين

١٩١٩ ـ ١٩٢٩

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، كان هناك اعتقاد شامل فى العالم كله، بأن السلام سيسود العالم. وكان ممكناً تحقيق هذه الأمنية القلبية لدى الشعوب، وذلك بواسطة التزام الثبات على المعتقات العقائدية الصحيحة، والمنطق السليم، وبعد النظر. وكان شعار «حرب من أجل إنهاء الحرب» يتردد على كل لسان، وقد اتخذت الإجراءات اللازمة لتحويل هذا الشعار إلى حقيقة واقعة. وقد تمكن الرئيس ولسن، عن طريق نفوذ الولايات المتحدة من جعل مفهوم عصبة الأمم، يطغى ويدخل جميع العقول. وشكلت الوكالة البريطانية فى فرنساى هذه الفكرة وكونتها وحولتها إلى آلة ستبقى دائماً مقاساً لطريق تقدم الإنسان. وكانت جيوش الحلفاء المنتصرة بالنسبة لهزيمة الأعداء مضطرة إلى مجابهة مصاعب داخلية، لا تعرف كيف تقضى عليها، لكن القوة التوتونية المتكتلة فى أوروبا الوسطى قد أضحت مطروحة أمامهم الآن، كما أن روسيا التى هشمتها المطارق الألمانية كانت هى الأخرى مضطربة نتيجة للحرب الأهلية التى أوقعتها فى قبضة الأحزاب البلشفية أو الشيوعية.

* * *

فى صيف عام ١٩١٩ وقفت الجيوش الحليفة على ضفاف الراين، ورؤوس جسورهم امتدت داخل ألمانية المهزومة، المنزوعة السلاح، والجائعة. واجتمع قادة الدول المنتصرة فى باريس ليبحثوا فى أمر المستقبل ويخططون

له. وأمامهم كانت خريطة أوروبا كى يعيدوا رسمها حسبما يروه ويتفقوا عليه لقد أصبح التكتل التوتونى تحت رحمتهم بعد اثنين وخمسين شهراً من الألم والمخاطر، ولم يكن فى إمكان أية دولة من دوله الأربع، أن تعارض مشيئة المنتصرين. وألمانية المعتبرة الرأس المدبر للأذية وواجهتها والسبب الأول للكارثة التى أحاقت بالعالم، أصبحت الآن تحت رحمة المنتصرين الذين كانوا يترنحون من العذاب الذى قاسوه أثناء الحرب. لقد كانت الحرب حرب شعوب لا حكومات. فقد امتزجت جميع طاقات الحياة داخل أتونها الملتهب، وفى اجتماع قادة الحرب فى باريس، كانت التيارات العنيفة تتجاذبهم من كل صوب. فقد ولت أيام معاهدات أو تراخت وفينا، عندما كان الساسة والدبلوماسيون الأرستقراطيون - سواء كانوا من الفريق المنتصر أو المهزوم - يجتمعون ليدخلوا فى نقاش لطيف مهذب، بعيداً عن هتافات الديمقراطية وصخبها، كى يصلوا بالنتيجة لوضع الأنظمة التى لا خلاف حولها فى الأساس، وكانت الشعوب التى تشربت بالتعاليم والدعاوات تطالب بإنزال أقصى العقوبات بالمنهزمين، ثأراً لملايين الضحايا من البشر... والويل للذين يفرطون بمكاسب الجنود ويضيعونها على طاولة المؤتمر...

كان زمام القيادة فى يد فرنسا التى أسكتت به بفضل جهودها وخسائرها الفادحة، وبفضل المليون والنصف من الضحايا من الجنود الذين لاقوا حتفهم دفاعاً عن الأرض الفرنسية. فقد شاهدت كنيسة نوتردام، خلال قرن من الزمن، خمس مرات وميض المدافع الألمانية، وسمعت ضجيجها الرهيب خلال أعوام ١٨١٤ و١٨١٥ و١٨٧٠ و١٩١٤ و١٩١٨. وخلال السنوات الأربع الرهيبة، وقعت تحت نير الاحتلال العسكرى الروسى ثلاث عشرة مقاطعة فرنسية، وقد دمر العدو مساحات كبيرة من الأراضى الفرنسية، ولم تخل مزرعة واحدة أو عائلة واحدة من العائلات الفرنسية التى تعيش بين فردان وطولون من مأساة لفقدان عزيز، أو رجوعه مشوهاً من الحرب.

لقد كان الفرنسيون يعيشون فى رهبة مستديمة من الإمبراطورية الألمانية الجبارة وكانت ذكرى الحرب الوقائية التى أراد بسمارك شنها عام ١٨٧٥ لا تزال عالقة فى أذهانهم، بالإضافة إلى التهديد الذى أدى إلى سقوط حكم دكلاسيه عام ١٩٠٥. وكانت خطب غليوم النارية، وتهديداته التى كانت تقابل بالسخرية فى إنكلترا وأميركا، كانت تدخل الهلع فى قلوب الفرنسيين الذين عاشوا خمسين عاماً تحت ظل الإرهاب الألمانى وتهديداته. والآن لقد جنوا ثمرة الدماء والتضحيات، فزال الخطر والظلم، وحل محله السلم والأمن. وكنت تسمع الشعب الفرنسى يردد عبارة واحدة لا غير هى «أبداً، مرة أخرى».

لكن الخوف من المستقبل لا يزال قائماً. فالشعب الفرنسى لا يبلغ بعدده ثلثى الشعب الألمانى، الذى يزداد نموه سريعاً، ولن يمض وقت طويل حتى يتضاعف عدد القادرين على حمل السلاح فى ألمانيا، وقد جابهت ألمانيا العالم كله وحاربته منفردة تقريباً، وكادت أن تبلغ النصر. وكان المراقبون يعلمون أن نتيجة الحرب كانت، أكثر من مرة تميل بفضل بعض الحوادث العرضية وحسن الحظ، نحو الحلفاء.

وعندما عادت الجيوش الألمانية، يوم الهدنة إلى وطنها قال الجنرال فوش، القائد الأعلى للقوات الحليفة: «لقد حاربوا بشجاعة، لذلك يجب أن تتركوهم يحتفظوا بسلاحهم»... وفى الوقت نفسه طلب أن تصبح حدود فرنسا على نهر الراين، منذ الآن، وربما ستجرد ألمانيا من السلاح، وقد يتلاشى جهازها العسكرى وتجرد قلاعها من سبل الدفاع، وربما سيفرض الفقر على ألمانيا بعد أن تفرض عليها أعباء ضخمة من التعويضات. لكن هذه بأكملها ستبقى ظروفاً طارئة وستزول بعد عشر سنوات أو بعد عشرين سنة. وستنطلق من جديد صيحة القبائل الألمانية بمجموعها وترتفع نيران بروسيا المحاربة مرة أخرى. لكن الراين ذلك النهر الكبير الشديد العمق، سيكون بمثابة الدرع الواقى الذى ترتكن وراءه فرنسا وتشعر بالاطمئنان

لأجيال قادمة طويلة. لكن آراء العالم الآخر الناطق باللغة الإنكليزية، ومشاعره كانت تختلف عن ذلك. وهذا العالم له قيمته وأهميته الكبرى. فلولا معاونته لها لما استطاعت النجاة. وهكذا جاءت الاتفاقية فى معاهدة فرساى منجسمة مع وضع ألمانيا، إذ تركتها بلداً سليماً غير مجزأ، فبقيت ألمانيا أكبر مجموعة عنصرية فى قارة أوروبا. وعندما إستمع المارشال فوش إلى نص اتفاقية الصلح فى فرساى، علق عليها بقوله: «إنها ليست سلاماً، بل هدنة لمدة عشرين سنة».

* * *

وكانت البنود الاقتصادية فى تلك المعاهدة سخيفة إلى حد جعلت منها بنوداً غير صالحة. فقد وجب على ألمانيا أن تدفع مبالغ هائلة كتعويضات. وكان هذا المطلب ليس إلا تعبيراً عما يشعر به المنتصرون من غضب ومن فشل لدى الشعوب فى تفهم الحقيقة الواقعة وهى أن ليس فى وسع أى شعب أن يقوم بدفع الجزية التى تتفق مع متطلبات الحرية العصرية.

وكانت الشعوب غارقة فى الجهل لأبسط القواعد الاقتصادية، وكان قادة الشعوب، بدافع من حرصهم على الأصوات الانتخابية، لا يتجرأون على توضيح هذه الحقيقة. ولكن بعض الأصوات الضعيفة ارتفعت لتوضح أن دفع تلك التعويضات لن يتم إلا عن طريق الخدمات أو عن طريق شحن البضائع بواسطة القطارات أو البواخر. وعند وصول تلك البضائع إلى البلاد التى فرضتها فستطغى على الصناعة المحلية. وكانت الطريقة الوحيدة لسلب شعب مهزوم، هى فى نقل كل ما هو قابل للحركة، ثم فى سوق قسم كبير من رجاله إلى العبودية الدائمة أو المؤقتة. لكن الأرباح الناجمة عن عمليات كهذه لا تتناسب مع نفقات الحرب. ولم يكن فى وسع أى زعيم أن يجرؤ على الجهر بهذه الحقيقة المؤلمة للجماهير الناخبة. لذلك استمر الحلفاء بتبجحهم بأنهم سيستمرون فى عصر ألمانيا حتى «يسمع صرير أنابيبها» وبالتالى

تختنق. وكان لهذا أثر كبير فى ازدهار العالم، وفى أوضاع العنصر الألمانى.

لكن هذه البنود من المعاهدة لم تنفذ، فقد حصل العكس تماماً. فبعد أن صادر الحلفاء موجودات ألمانيا بمبلغ ألف مليون جنيه، قاموا هم أنفسهم فيما بعد وعلى رأسهم بريطانيا وأميركا بإعطاء ألمانيا قرضاً بمبلغ ألف وخمسمائة مليون جنيه، وذلك لترميم ما دمرته الحرب فى بلادها وبأسرع وقت ممكن. كل هذا ولم يزل ساسة الشعوب المنتصرة يذكرون أن ألمانيا ستدفع لآخر بنس كل التعويضات رغماً عنها.

إن التاريخ سيصف هذه العمليات بالجنون. لقد ساعدوا على تنمية اللعنة العسكرية و«الزوبعة الإقتصادية». وبدأت ألمانيا بالاستدانة من جميع الجهات وتبتلع بسهولة جميع المساعدات الممنوحة إليها بسخاء. إن هذه قصة محزنة من الغباء المعقد الذى استنزف فيها الكثير من الجهد والفضائل.

* * *

لقد استنزفت الحرب دماء فرنسا، وانتصر الشعب الفرنسى بعد أن ظل منذ عام ١٨٧٠ يحلم بالثأر، لكن هذا الانتصار كلفه غالياً. ولكن الخوف من ألمانيا ظل يعكر صفو احتفالات الشعب الفرنسى بالنصر. ولاشك كان هذا الخوف المتأصل هو الذى دفع المارشال فوش إلى المطالبة بجعل نهر الراين حداً فاصلاً لفرنسا، وذلك كى يضمن سلامة فرنسا من جارتها القوية.

لكن الساسة البريطانيون والأميركيون أصروا على تمسكهم بالنقاط الأربعة عشرة، التى تتعارض مع مطالبة فرنسا بضم جزء من الأراضى الألمانية إلى ممتلكاتها، بالإضافة إلى أن هذه المطالبة تتعارض مع مبادئ القومية وحق تقرير المصير التى قامت معاهدة الصلح هذه على أسسها. وقد تمكن هؤلاء من كسب كليمنصو إلى صفوفهم حين تمكنوا من إقناعه بأنهم سيقومون بضمان حدود فرنسا، وإقامة منطقة غير عسكرية ثم تجريد ألمانيا

من السلاح بصورة كلية ودائمة. وسرعان ما وافق كليمنصو على هذه الضمانات بالرغم من معارضة المارشال فوش لها، ولم يلبث أن وقع ويلسون ولويد چورچ وكليمنصو على معاهدة الضمان تلك، إلا أن مجلس الشيوخ الأميركى رفض أن يصدق على توقيع لرئيس ويلسون. وقد قيل لنا نحن بأنه يترتب علينا أن نكون على علم ومعرفة بنصوص الدستور الأميركى، نحن الذين كنا نرضخ لآراء الرئيس ويلسون ورغباته بما يتعلق بقضايا السلام.

لكن الشعب الفرنسى أسقط الرجل الصلب كليمنصو، فى إحدى نزواته الخائفة الغضبة. وكما قال بلوتارك: «إن الجحود نحو الرجال العظام، هو من ميزات الشعوب القوية». وكانت ضرباً من الحماقة أن تلجأ فرنسا إلى هذا الأسلوب، سيما فى الوقت الذى أصبحت فيه شديدة الضعف. وجاء بوانكاريه إلى سدة الحكم، الرجل ذو الشخصية القوية، خليفاً لكليمنصو، فحاول أن يجعل من المنطقة المحيطة بالراين، أرضاً مستقلة تحت حماية فرنسا وإشرافها. إلا أن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح. وكانت محاولته فى غزو منطقة الروهر كمحاولة لفرض التعويضات على ألمانيا. لكن هذا الغزو أثار النقمة لدى الرأى العام البريطانى والأميركى، بالرغم من اتفاقه مع نصوص معاهدة فرساى. وكانت النتيجة أن تدهورت أوضاع ألمانيا الاقتصادية والمالية، وأدى ذلك إلى تدهور المارك الألمانى بسبب التعويضات الباهظة التى دفعتها خلال عامى ١٩١٩ و١٩٢٣. كما أن موجة الغضب والكراهية التى اجتاحت ألمانيا، نتيجة لغزو منطقة الروهر، دفعت بالمسؤوليين إلى طبع كميات هائلة من الأوراق النقدية، بقصد القضاء على النظام الاقتصادى برمته. وأصبح الجنيه الإسترلينى يعادل ثلاثة وأربعين مليون مليون مارك ألمانى. وقد أدى هذا التضخم الفظيع إلى تلاشى المبالغ التى وفرتها الطبقات الوسطى ومالت بطبيعتها نحو الحركة الاشتراكية الوطنية.

وتشوه النظام الصناعى الألمانى بأكمله نتيجة لنمو الاحتكارات، واختفى

الرأسـمـال العـامل من البــلاد. وبالتـالى أُلغـيت القـروض الداخليـة والديون الصناعـيـة القـائمـة على الرهونات والفوائد، لكن هذه لم تعوض عـن خسـارة الرأس المال العامل. وأسفرت النتيجة عن قروض خارجية تعطى لأمة مفلسـة، وهى الصورة التى تبلور عنها الموقف فى السنوات التالية.

أما بالنسبـة لبريطانيا فقد تحول موقفها تجاه ألمانيا، تحـول من العنف إلى العطف. ونشـبـت الخـلافـات بين لويد چورچ وبوانكاريه واتسـعـت حـدة الشـقـاق بين الشـعـبـين قلباً وقـالباً. ووجـد العطف الإنكليـزى على ألمانيا، أو الإعجاب بها، صدى حسناً قوياً.

وما إن ظهرت عصبة الأمم إلى الوجود حتى تلقت ضربة قوية، إذ تخلت عنها الولايات المتحدة. وأصيب الرئيس ويلسون بالشلل، بعد أن كان مستعداً للكفـاح من أجل مـثله العليـا وعـقـائده. وأصـبح بعـد ذلك كـتلة مـن الحطام وأصـيبت سـياسـتـه وسـياسـة حـزبه بهـزيمة سـاحـقة فـى مـعـركة الرئاسـة، وفـاز الديمـقـراطيـون فـى عـام ١٩٢٠. وفـى عـشـيـة فـوز الديمـقـراطيـين، سـيطرت المفـاهيم الانعـزاليـة على النـاحـيـة الأخـرى من المحـيط الأطلسـى، وكـان على أوروبا أن تجـنـى مـا زرعـتـه وتـدفـع ثمـن ديونهـا، وفـى الوقت نفـسـه ازدادت التعريفة الجمركية وذلك للحيلولة دون دخول البضائع التى يمكن لوارداتها أن تسـدد بعض الديون. وراحت بعـد ذلك الحكومـتـان البـريطانيـة والأمـريكيـة تحطم وتغرق بـواخـرهـا ومنشـآتهـا العـسكرية، وذلك لأنه من غـيـر اللائق أن ينزع السلاح من يد المغلوب ويبقى فى يد الغالب... كما اعترضت أميركا لدى بريطانيـا عن أن الاسـتـمـرار فى عـلاقـاتهـا الودية مع اليابان سـيشـكل بعض الخطر على مجـرى العـلاقـات البـريطانيـة، الأمـريكيـة، مع أن اليـابان كـانت تحـتـرم هذه العــلاقـات وتحـافظ عليـهـا بكل صـدق. وبناء لهـذا التـحـذير، اضطرت بريطانيـا إلى قطع تلك العـلاقـات مع اليـابان مما أدى إلى اسـتـيـاء الحكومـة اليـابانية، واعتـبـرت أن هذا التـصـرف يعتـبـر امتهـاناً من بلد أوروبى نحو شعب آسيوى صديق.

لقد كان باستطاعة اليابان أن تعتبر نفسها ثالث دولة بحرية بعد هزيمة ألمانيا وروسيا فتتمتع بمركز مرموق. ورغما عن أن الاتفاق البحرى يقضى بأن يخصص لليابان نسبة خمسة إلى ثلاثة من السفن المخصصة إلى الدولتين الكبيرتين، إلا أن هذه النسبة كانت مناسبة لإمكانيات اليابان المالية للسنوات التالية، وبالتالى راحت تراقب الانخفاض الكبير فى الإنتاج الأميركى والبريطانى بالنسبة لإمكاناتهما المالية ومسؤولياتهما الجسيمة. وبذلك يكون الحلفاء قد مهدوا لتجدد الحرب فى أوروبا وأسيا، وبإعتقادهم أن هذا قد يؤدى إلى السلام الدائم.

وفى أوروبا أخد الخلاف الجديد الأكثر فظاعة يبرز إلى حيز الوجود، هذا الخلاف الرهيب الذى خلفته الحرب الأهلية الروسية وإنتصار الثورة البلشفية الساحق، فبالرغم من أن الجيوش السوفيتية المتقدمة نحو بولنده، قد صدت فى معركة وارسو، إلا أن ألمانيا وإيطاليا قد بدأتا تذعنان للدعاوة الشيوعية ومشاريعها. كذلك هنغاريا التى سقطت فى قبضة الدكتاتور الشيوعى بيلاكون. وبالرغم من أن المارشال فوش لاحظ بحكمه بأن «البلشفية لم تتخط حدود النصر» إلا أن أسس الحضارة الأوروبية اهتزت فى السنوات الأولى بعد الحرب، فالفاشية كانت ظل الشيوعية أو ليدها البشع. وبينما كان العريف هتلر يحاول تقديم خدماته على الضباط الألمان فى ميونخ، ويحرض الجنود والعمال ويغذى فى صدورهم الحقد على الشيوعية واليهود الذين ألقوا بمسؤولية الهزيمة عليهم، كان هناك مغامر آخر، بينيتو موسولينى الذى قدم لإيطاليا نموذجاً جديداً من الحكومة التى صرحت بأنها ستنقذ الشعب الإيطالى من الشيوعية، ورفع نفسه إلى قمة الدكتاتورية. وكما انبثقت الفاشية عن الشيوعية، كذلك النازية تطورت من الفاشية الفاشية. وهكذا تمكنت هذه الحركات من الوقوف على قدميها وتمكنت بعد ذلك من جر العالم إلى صراع عنيف لا يمكن للمرء أن يقول إنه انتهى بانتهائها...

فى هذه الصفحات، سأحاول أن أقص قصة أسوأ مأساة تعرض لها الجنس البشرى فى تاريخه المضطرب. إن المأساة المخيفة لم تقتصر على الضحايا وعلى الدمار الذى لابد منه فى الحروب، ففى الحرب العالمية الأولى وقعت مجازر رهيبة، كما فقدت كنوز كثيرة من الثروات التى جمعتها الشعوب... وإذا ما استثنينا الأعمال العنيفة التى حصلت أثناء الثورة الروسية، فإن الحضارة الأوروبية، بقيت ولم تزل حال انتهاء الحرى العالمية. كما أن الشعوب المتحاربة عادت لتعترف ببعضها البعض، وبقى الجميع يحترمون القوانين والأعراف الحربية. كما أن معاهدة الصلح كانت منسجمة مع المبادئ المتبعة فى القرن التاسع عشر بين الشعوب المتحضرة. كذلك يمكن القول إن الجهاز الدولى الذى أنشئ لحمايتنا كلنا، وخاصة حماية أوروبا نفسها ضد أخطار جديدة.

إلا أن الحرب العالمية الثانية، لم تكن كذلك. لقد زالت الروابط التى كانت تربط بين الإنسان وأخيه الإنسان. لقد قام الألمان، تحت الحكم الهتلرى باقتراف جرائم منكرة ووحشية لا مثيل لها. ولاشك أن المجازر التى أودت بحياة ستة أو سبعة ملايين رجل وامرأة وطفل فى معسكرات الاعتقال الألمانية قد تطغى على جرائم جنكيز خان الهائلة، وتفوقها وحشية. وقد رسمت المخططات أثناء الحرب فى الجبهة الشرقية لإفناء شعوب بأسرها على أيدى الجنود الألمان والروس. أما من ناحية الحلفاء أنفسهم فقد قاموا بغارات وحشية تفوق الغارات الألمانية عشرين مرة، بل كانت تزداد حدة يوماً بعد يوم، إلى أن بلغت ذروتها فى إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما وناكازاكى وإزالتهما من الوجود.

والآن بعد أن خرجنا من جو الخراب المادى والمعنوى، نجد أننا لا نزال نواجه نفس المشاكل والأخطار نفسها التى تخلصنا منها بأعجوبة، هذا إن لم نقل إنها أشد وأدهى.

سأحاول أن أكشف للقارئ كيف كان بإمكاننا تجنب وقوع حرب عالمية ثانية، نظراً لكونى عشت هذه الأيام وعملت فيها. سأحاول أن أبين كيف أن ضعف الفضلاء قد أدى بالنتيجة إلى تقوية الأشرار، كما سأبين أن أجهزة الدول الديمقراطية تفتقر إلى مقومات الإيمان ما لم تندمج مع أجهزة أقوى وأكبر منها. إن مقومات الإيمان والثبات هى التى تتمكن من إحلال الأمن والسلام والطمأنينة فى نفس الجماهير. كما أنى سأبين كيف أن لا يمكن لأى سياسة أن تستمر لعشرة أو لخمسة عشرة سنة فى آن واحد، وذلك فى قضية الدفاع عن النفس والمحافظة عليها. وسنرى كيف أن اتباع سياسة التردد قد تصبح عاملاً أساسياً للخطر، وكيف أن الحل المعقول الذى ينبع من الرغبة فى السلامة والحياة الهادئة قد يؤدى بنتيجته إلى مواجهة الكارثة. كما أننا سنرى أنه من الضرورى القيام بعمل دولى مشترك بين دول يرجع تألفها إلى سنين سابقة، دون الالتفاف إلى التيارات المتماوجة فى السياسة القومية.

لقد كانت سياسة إبقاء ألمانيا مجردة من السلاح، سهلة الحفاظ عليها، وإبقاء المنتصرين بسلاحهم الكامل لمدة ثلاثين سنة على الأقل، وبالوقت نفسه بذل المحاولات لجعل مسألة التفاهم مع ألمانيا حقيقة واقعة، وإنشاء عصبة للأممم قوية قادرة على الحفاظ على المعاهدات وتطبيقها، ولا تغير أو تبدل دون اللجوء إلى المفاوضات والاتفاقات. وعندما تتعاون ثلاث أو أربع دول قوية، وتطلب من شعوبها تقديم أقصى ما يمكنها من تضحيات، وتقوم هذه الشعوب بتضحياتها فى سبيل الهدف المشترك، عند ذلك تصبح النتائج المطلوبة معقولة جداً إلا أن قوة المنتصرين وعلمهم وثقافتهم كانت عاجزة عن الوصول إلى هذه النتيجة المتواضعة. فقد ظلوا يعيشون ليومهم دون التفكير بالغد، وعندما دقت طبول الحرب العالمية الثانية، كان من الواجب أن نكتب عن أبناء الذين حاربوا وقتلوا بكل إخلاص:

كـــتف إلى كــــتف، وجنبـــاً إلى جنب

اجـــتـــازوا نور الحـــيـــاة المشـــرقـــة

الفصل الثانى

ظهور هتلر

فى شهر تشرين الأول عام ١٩١٨ كان العريف الألمانى أدولف هتلر طريح الفراش فى إحدى المستشفيات بعد أن أصيب بالعمى المؤقت من قنبلة الغاز فى إحدى المعارك التى شنتها القوات البريطانية بالقرب من كوفنر. وبينما كان طريح الفراش فى المستشفى حلت الهزيمة بألمانيا وعمت الثورة البلاد.

كان هذا العريف ابناً لموظف من موظفى الجمرك نمساوى الأصل.

وكانت الأحلام تراوده بأن يصبح فناناً عظيماً، لكنه بعد أن فشل فى الالتحاق بأكاديمية الفنون فى فينا، اضطر إلى البقاء فى العاصمة فقيراً سيئ الحال.

وما لبث أن غادرها إلى ميونيخ وعمل هناك كدهان، وكعامل مؤقت وعاش حياة شقية يغذيها الحقد على العالم كله، والنقمة عليه، لأنه حرمه من نعمة النجاح. إلا أن الشقاء والفقر لم يدفعا به إلى أحضان الشيوعية، بل ظل يقدس الولاء العنصرى الذى كان يتملكه بالإضافة إلى إعجابه الشديد بألمانيا وبالشعب الألمانى. وقد التحق بالجيش الألمانى عند نشوب الحرب العالمية الأولى، وبقى لمدة أربع سنوات فى الجبهة الغربية ملتحقاً مع أحد الأفواج البافارية.

وعندما كان فى مستشفاه فى شتاء عام ١٩١٨، بدى له فشله السابق وكأنه اختلط مع الكارثة التى حلت بالشعب الألمانى كله، فسادته نزعة عارمة

من الحزن على نفسه وعلى شعبه، خاصة بعد أن حلت الثورة وعمت الفوضى جميع البلاد.

لم يتمكن أدولف هتلر من فهم أو من تفسير الأسباب التى أدت إلى هزيمة ألمانيا، إلا أنه كان متيقناً من ضروب الخيانة الشديدة التى طعنت الجيش الألمانى من الخلف. وراح يفكر فى تلك الأسباب العديدة التى أدت إلى الهزيمة من خلال تجاربه الشخصية. فهو قد اختلط بفئات عديدة متطرفة فى فينا واستمع إلى قصص الغدر والخيانة التى قام بها عِرّق غريب آخر هو عدو لدود للشعب الجرمانى العريق، ألا وهم اليهود. وهكذا تطورت نقمته الأولى المنصبة على الأغنياء والناجحين وتحولت إلى كراهية عارمة.

وعندما خرج من المستشفى، رأى بعينيه التى أبصرت النور من جديد نتائج ما خلفته الهزيمة وما يدور فى المدينة من ملامح ثورة حمراء مرعبة، وشاهد السيارات تطوف بالمدينة، تلقى بالمنشورات وتطلق العيارات النارية على المتشردين من أبناء الشعب. ورأى زملاءه فى الجيش يضعون الأشرطة الحمراء على أذرعهم، فوق بزاتهم العسكرية، ويهتفون بغضب شعارات غريبة تتنافى مع كل ما يعتقده ويؤمن به. وهكذا صدمته الحقيقة المرة، ورأى أن ألمانيا قد أصيبت بطعنة غادرة من الخلف، كان أبطالها من اليهود الذين أمعنوا تقطيعاً بها ليرغموها على الاستسلام بدسائسهم ومؤامراتهم، ويؤيدهم فى ذلك حلفاء لهم من البلاشفة ليتمموا تنفيذ مخططات ومؤامرات دولية يقوم بها المثقفون اليهود، وشعر بالواجب يحتم عليه بأن يخلص ألمانيا من هذا المرض الخبيث، والأخذ بالثأر من الذين ألحقوا بها الإساءات العديدة، ثم النهوض بالشعب المتفوق إلى مستقبل أفضل.

وانطلق أدولف هتلر يصعد بخطى سريعة نحو القيادة والزعامة يناصره فى ذلك ضباط فوجه. وفى مساء أحد الأيام من شهر أيلول عام ١٩١٩، ذهب لحضور إحدى اجتماعات حزب العمال الألمان فى أحد المصانع. وسمع

لأول مرة فى حياته أناساً يتحدثون بما كان هو يؤمن به من خيانات اليهود ومجرمو شهر تشرين الثانى. الذين دفعوا بألمانيا إلى الهزيمة. فانضم إلى هذا الحزب، وخلال فترة بسيطة أصبح أدولف هتلر زعيم الحزب الأول. وغدا يحمل لقب الزعيم أو «الفوهرر» وأصدر جريدة تنطق باسم حزبه هى جريدة «الفولكشاير بيوختر».

إلا أن الشيوعيين لم يقفوا مكتوفى الأيدى، فحاولوا تحطيم حزبه وتفريق اجتماعاته الناجحة. واضطر هتلر إلى إنشاء حرس خاص لصد الهجمات الشيوعية، ونشأت بذلك الوحدات الأولى لقوات العاصفة. وكان نشاطه محصوراً فى تلك اللحظة على بافاريا فقط، وكان الجميع فى كافة أنحاء الرايخ الألمانى كانوا يستمعون بشغف لتعاليم هذا الإنجيل الجديد. فقد كانت النقمة على الأوضاع الحالية تعم ألمانيا كلها. وأدت موجة الغضب التى عصفت بالشعب كله من احتلال فرنسا للروهر عام ١٩٢٣ إلى انضمام الألوف من أبناء الشعب إلى الحزب الجديد الذى أصبح الآن «الحزب الاشتراكى الوطنى».

ومنذ البداية وضح هتلر، أن السبيل الوحيد للوصول إلى الحكم هو فى الثورة والعنف ضد حكم ويمار وجمهوريته التى خلقت فى عار الهزيمة، وانضم إلى دعوة الفوهرر فئة ضمت بين صفوفها، غورنغ وهيس وروزنبرغ وروهم، الذين من ثم إتفقوا على وجوب إستلام السلطة فى بافاريا، وانضم إليهم الجنرال فون لوندورف الذى كان رئيس أركان الجيش الألمانى أثناء الحرب الأولى، وسار على رأس قوة مجهزة لاحتلال بافاريا. إلا أن رجال الأمن من شدة احترامهم للجنرال لم يطلقوا عليه النار بل اكتفوا بالتصويب على المتظاهرين، وتمكنوا من اعتقال فئة كبيرة منهم ومن بينهم هتلر نفسه الذى حوكم وحكم عليه بالسجن لمدة أربعة سنوات، خفضت إلى ثلاثة عشر شهراً.

وفى سجنه هذا تمكن من تأليف القسم الأكبر من كتابه «كفاحى» الذى أصبح فيما بعد من أهم الكتب التى أقبل على قراءتها قادة الدول الحليفة وزعماؤها العسكريون.

وفى عام ١٩٢٤ خرج هتلر من السجن وصرح أنه لن يتمكن من إعادة تنظيم حزية قبل خمس سنوات. وفى عام ١٩٢٨ لم يكن لحزبه فى البرلمان الألمانى «الرايشستاغ» سوى اثنى عشر مقعداً. ومن ثم ابتدأ الرقم بالارتفاع إلى أن أصبح البرلمان فى عام ١٩٣٢ يضم ٢٣٠ عضواً من الحزب، كما أصبحت الدولة الألمانية كلها خاضعة لنفوذ الحزب الاشتراكى الألمانى، وبدأت حركة الاضطهاد بمختلف أنواعها وانصبت النقمة كلها على رؤوس اليهود انتقاماً لما اقترفوه فى السابق من جرائم وخيانات ودسائس.

وما إن أطل عام ١٩٣٣ حتى وصل هتلر إلى سدة الحكم. أولاً كمستشار لألمانيا. وكانت أولى أعماله أن أصدر أمراً يمنع فيه الحزب الشيوعى من العمل فى البلاد. وبدأت حملة قوية عمت البلاد كلها لمصادرة الأسلحة من أيدى الشيوعيين. ونشبت الاضطرابات وبلغت ذروتها حين هب حريق فى دار الرايشستاغ، فاستدعيت فرق رجال القمصان السوداء للعمل وللمحافظة على الأمن. وفى الليلة نفسها تم اعتقال أربعة آلاف زعيم شيوعى، ومن بينهم أعضاء اللجنة المركزية التابعة للحزب الشيوعى. وكان غورنغ الآمر لهذه الإجراءات كلها بعد أن أصبح وزيراً للداخلية. وبذلك يكون قد أمن هزيمة الشيوعيين خصوم الحزب الإشتراكى الأشداء، لكى تكون مقدمة للفوز بالانتخابات الجديدة المقبلة.

وفى الانتخابات فاز النازيون بـ ٢٨٨ مقعداً فى البرلمان، واقترع إلى جانبهم ١٧,٣٠٠,٠٠٠ ناخب. وبذلك تمكن هتلر من السيطره نهائيّاً. وفى الحادى والعشرين من شهر آذار عام ١٩٢٣ افتتح هتلر أول مجلس للرايشستاغ فى الرايخ الثالث. وجلس حوله كبار القادة، وضباط جيش

العاصفة والحرس النازى الخاص الذين يمثلون ألمانيا الجديدة. وفى الرابع والعشرين من الشهر ذاته وافق الرايشستاغ على منح هتلر سلطات استثنائية لمدة أربع سنوات.

* * *

بينما كان هذا التغيير المخيف يجرى فى ألمانيا، كانت حكومتنا مضطرة إلى التخفيض والتقنين انسجاماً مع الأوضاع والأزمات المالية الراهنة التى حدت من تسلحنا. وبقيت حكومة مكدونالد بالدوين مصمة آذانها عن سماع أو رؤية الأخطار المحدقة بنا نتيجة التغيرات فى أوروبا. ثم حاولت الحكومة أن تطبق قوانين معاهدة فرساى القاضية بنزع السلاح من المنتصرين، فقدمت عدة مشاريع ومقترحات إلى عصبة الأمم لتضمن تطبيق هذه القوانين. كما أصرت فرنسا على وجوب بقاء جيشها الذى تعتبره محور حياتها ووجودها. وقد شجعت هذه المحاولات الحكومة الألمانية، وادعت أن هذا السلوك إنما هو نابع من صميم المجتمع البرلمانى الديمقراطى الضعيف والمنحط بطبيعته.

وراح الألمان بدافع من هتلر الذى أوحى إليهم بهذه الأفكار، يبدون أكثر عجرفة وكبراً. وما كان من أعضاء الوفد الألمانى الذين حضروا مؤتمر نزع السلاح، إلا أن انسحبوا من الاجتماع فى تموز عام ١٩٣٣. وحاول الحلفاء مراضاة الألمان بشتى الوسائل إلى أن توصلوا إلى إقرار مشروع اقتراح دعى مشروع هريو، وهو يقضى بإعادة تنظيم جميع القوات العسكرية الدفاعية فى أوروبا، وجعلها جيوشاً محدودة العدد، وفرض المشروع على وجوب تخفيض عدد الجيش الفرنسى من خمسمائة ألف إلى مائتى ألف جندى، بينما يرتفع عدد الجيش الألمانى إلى هذا الرقم. إلا أن الجيش الألمانى قد أصبح عدده يجاوز المليون متطوع مجهز بأحدث الأسلحة التى تنتجها المصانع الألمانية التى تم تحويلها إلى مصانع للسلاح. وكانت النتيجة غير المنتظرة هى فى الأوامر

الصادرة عن هتلر والقاضية بالانسحاب من كل مؤتمر ومن عصبة الأمم.

لقد كان فى وسع عصبة الأمم أن ترد على تحديات هتلر وتهديداته العسكرية. وذلك بفرض العقوبات عن طريق القانون الدولى. كما أن الحكومة الأميركية لم تكن تكترث لهذه التهديدات إلى أن حان الوقت بعد عدة سنوات، فوجدوا أنفسهم عند ذلك مضطرين للتضحية بأرواحهم لينقذوا أنفسهم من الخطر المميت.

* * *

وفى مطلع عام ١٩٣١ سافرت برحلة إلى الولايات المتحدة الأميريكة لإلقاء سلسلة محاضرات هناك. وفى نيويورك تعرضت لحادث سيارة كاد أن يودى بحياتى. فقد نزلت من سيارتى من الجانب المعاكس وعبرت الشارع الخامس، وكانت أنظمة السير المطبقة فى أميركا وخاصة فيما يتعلق بالسير المعاكس والأضواء الحمراء التى لم يكن معمولاً بها فى بريطانيا فى ذلك الحين. وفجأة وقع اصطدام عنيف كانت نتيجته أن لازمت الفراش فى المستشفى لمدة شهرين وأنا محطم شر تحطيم. ومر هذا العام وأنا بصحة سيئة للغاية، إلى أن بدأت أستعيد صحتى تدريجيّاً بعد ذلك.

لقد كانت السنوات ما بين عام ١٩٣١ و١٩٣٥ من أمتع سنوات عمرى، فقد انصرفت إلى التأليف وإلى إلقاء المحاضرات، وقد كسبت الكثير من عائدات مقالاتى وكتبى التى لاقت رواجاً كبيراً فى بريطانيا العظمى وفى الولايات المتحدة الأميركية، كذلك فى القارة الأوروبية كلها.

وفى عام ١٩٣٢ اضطررت للسفر إلى ميونيخ وذلك لمتابعة تأليف أحد كتبى عن تاريخ حياة مارلبورو. وقد أمضيت فى ميونيخ حوالى الأسبوع، ونزلت فى فندق ريچينا. وهناك تعرفت إلى شخص يدعى الهر هانغستانغل الذى كان من المتحمسين لهتلر والذى كان على علاقات طيبه معه. وقد دعوته

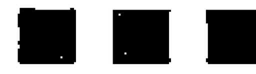
فى أحد الأيام لتناول العشاء معنا بعد أن أعجبتنى لباقته. وأثناء العشاء حدثنا كثيراً عن هتلر وعن نشاطاته وآرائه وكنت أشعر وأنا أصغى إليه، أن الرجل كان واقعاً تحت سحر هتلر دون ريب. وقد علمت أن الأوامر قد صدرت إليه بالاعتناء بى. وبدا أنه يرغب فى إدخال السرور والبهجة إلى نفسى. لقد كان الرجل لطيفاً إلى أبعد الحدود، ومن المقربين إلى الفوهرر. وقد دعانى إلى الاجتماع به وتطوع إلى إعداد الموعد معه، إذ إن الفوهرر يتردد كل يوم إلى الفندق فى الساعة الخامسة مساء، وسيسره الاجتماع بى شخصياً.

فى ذلك الحين لم أكنّ أى عداء لهتلر بالذات، ولم أكن أعلم الكثير عن عقيدته وفلسفته وشخصيته. بل كنت معجباً به، لأنه تمكن من النهوض ببلاده بعد الهزيمة النكرة التى لحقت بها. وفى أثناء حديثى مع الهر هانغستانغل تطرقت إلى الحديث عن اليهود بشكل لاحظت أنه لم يكن راضياً عنه. وفى اليوم التالى عندما اجتمعت به للمرة الثانية قال لى إن الفوهرر لن يتمكن من الاجتماع بى، فهو لن يأتى إلى الفندق فى هذا اليوم. وكانت هذه آخر مرة رأيت فيها «بوتزى» وهو اسمه الصغير. بالرغم من أننى أمضيت عدة أيام أخرى فى الفندق. وهكذا أضاع هتلر فرصته الوحيدة فى مقابلتى، وفيما بعد تلقيت عدة دعوات من الفوهرر، بعد أن أصبح فى ذروة القمة، لكنى كنت أعتذر عن قبولها. لأن أشياء عديدة حدثت أثناء ذلك.

* * *

أما فى الشرق الأقصى، فكان الاستعداد للحرب ينبع فى اليابان بصورة خاصة. فقد أثرت الأزمة الاقتصادية عليها بين عامى ١٩٢٩ و١٩٣١ بشكل كبير. فقد ارتفع عدد سكانها من خمسين مليوناً إلى سبعين مليوناً وازدادت أعداد مصانعها من خمسين إلى مئة وثمانية وأربعين مصنعاً، كما ارتفعت نسبة المعيشة، وبقى إنتاج الأرز على ما هو فيما كان استيراده من الخارج

باهظ التكاليف. واشتدت الحاجة إلى المواد الأولية وإلى الأسواق الخارجية فاضطرت بريطانيا وأربعون دولة أخرى إلى زيادة التعرفة الجمركية العالمية على البضائع المستوردة من اليابان، لمواجهة الكارثة الاقتصادية، وخوفاً من طغيان تلك البضائع على البضاعة الوطنية. فتحولت أنظار اليابان إلى الصين الرئيسى لتصريف منتجاتها من القطن، بالإضافة إلى كونها المورد الوحيد لاحتياجاتها الهائلة إلى الفحم والحديد. لذلك أصبحت السياسة اليابانية تقضى بفرض السيطرة على الصين ووضعها تحت إشرافها وسيطرتها واختلقت اليابان عذراً تافهاً وانقضت على منشوريا واحتلت منطقة سكة الحديد، ثم طالبت بحل المنظمات الصينية المعادية لليابان، إلا أن الحكومة الصينية رفضت هذا الطلب، فأنزلت اليابان قواتها عند ذلك إلى المنطقة الشمالية من شنغهاى، وقد قاوم الصينيون ببسالة لمدة شهر واحد، إلا أنهم اضطروا بعد ذلك إلى الانسحاب، وتقدمت القوات اليابانية متوغلة فى داخل الصين إلى أن بلغت سورها العظيم. ومن ذلك الوقت بدأت الاستعدادات اليابانية تزداد وتقوى، خاصة قواتها البحرية.



الفصل الثالث

المنظـر القاتـم

لقد كانت فكرة احتلال النمسا تراود مخيلة هتلر منذ البداية، فقد كتب فى كتابه «كفاحى» العبارة التالية وفى الصفحة الأولى منه، يجب على النمسا الألمانية أن تعود إلى الوطن الأم الكبير". لذلك فقد كانت النظرات الأولى تتجه نحو فينا منذ تسلم الحكومة النازية السلطة فى علم ١٩٢٣. إلا أن هتلر كان يخشى الاصطدام مع موسولينى الذى كان يطمح ويطالب بمصالحه فى النمسا، خاصة وأن الدوتشى لم يكن متحمساً لوصول هتلر إلى سدة الحكم. لذلك فقد تحتم على ألمانيا أن تكون على حذر شديد فى أعمالها ونشاطاتها السرية. وبالرغم من ذلك فقد بدأ الضغط على النمسا يظهر منذ الشهور الأولى. وراح الحزب النازى يطالب الحكومة النمسوية بشدة بوجوب إدخال أعضاء من الحزب النمسوى النازى فى الوزارة وفى المراكز الحساسة فى الدولة. وبدأ النمساويون النازيون يتلقون التدريبات العسكرية فى معسكرات أعدت خصيصاً لهم فى بافاريا. وراحت الطائرات الألمانية تلقى المنشورات على سالزبورج وأينزبروك، والتى كانت تنغص عيش الجمهورية الوادعة.

وفى عام ١٩٣٤ وصل كبير مستشارى موسولينى فى الشؤون الخارجية إلى فينا، وكانت زيارته بمثابة تحذير للحكومة الألمانية، وما لبث أن صرح أن إيطاليا تؤيد استقلال النمسا وتحافظ عليه. ولم تمض أسابيع ثلاثة على هذه الزيارة، حتى قامت الحكومة النمسوية بسلسلة من الإجراءات ضد الأحزاب الاشتراكية فى فينا، وقامت بعد ذلك بحملة عنيفة لنزع السلاح من أيدى المنظمات الشبه عسكرية التابعة للاشتراكيين النمسويين. وأسفرت هذه الحملة عن اصطدامات عنيفة بين الأحزاب والقوات الحكومية، وأدت إلى

انهزام الاشتراكيين، كما أدت إلى تقوية مركز إيطاليا مستقبلاً فى صد تسلل النازيين وتآمرهم. إلا أن عدداً كبيراً من الاشتراكيين والشيوعيين انضموا إلى المعسكر النازى، كتعبير عن سخطهم الشديد، وأدى ذلك بمجموعه إلى تقوية النازيين والنازية.

وفى شهر حزيران من العام نفسه، طار موسولينى إلى البندقية لمقابلة الفوهرر لأول مرة فى حياته، وعندما نزل هتلر من طائرته فوجئ بمظاهرة عسكرية يرأسها الدوتشى بنفسه، وهو يتألق ببزة عسكرية أنيقة. وكانت أول كلمة قالها موسولينى لمرافقه حين رأى هتلر"لم أحب شكل هذا الرجل". وقد جرى الاتفاق فى هذه المقابلة على تخفيف حدة الضغط على حكومة النمسا، وقد أكد له هتلر ذلك بوعود قاطعة.

ولم تكن هذه التأكيدات أو هذا التوقف، بسبب من مداخلات موسولينى، بل بسبب انشغال هتلر بمشاغل داخلية محضة..

نشبت الخلافات بين هتلر وبين الذين حملوه إلى سدة الحكم. وكان جيش الصاعقة يمثل الفئة الثورية فى الحزب، تحت قيادة روهم. وفى ربيع عام ١٩٣٤ بلغ عدد أفراد هذا الجيش ثلاثة ملايين مجند من ذوى القمصان البنية. وشعر هتلر بالقلق نتيجة لهذا النمو الهائل، بالرغم من يقينه بولاء جميع أفراد هذا الجيش، وتعلقهم بشخصه. وكان يردد أمام قادة جيشه هذا، بأنه سوف يقاوم ويقمع أية محاولة لتغيير نظام الحكم القائم بمنتهى الشدة والبطش، وأن كل ما يجرؤ على رفع رأسه ضد الدولة فسيحطمه بكل شدة وقسوة، وكانت هواجس هتلر ومخاوفه صحيحة، إذ إن روهم قائد جيش الصاعقة، بدأ محاولة للإطاحة بحكم هتلر. وفى كانون الأول من العام نفسه، عندما أعلنت الوحدة بين الحزب والدولة، غدا روهم عضوا فى مجلس الوزراء وبحث فى أمر دمج ذوى القمصان البنية مع بقية أفراد الجيش النظامى. ألا أن روهم خاف من هذه التضحية بجيشه الذى مضى السنين الطويلة فى إنشائه، ومن ذلك الوقت بدأ الخلاف يذر قرنية بين روهم

ورئيس الأركان الجنرال فون بلومبرغ، الذى كان يبدى تذمره الشديد أمام الفوهرر من تصرفات ذوى القمصان البنية الحمقاء. وكان على هتلر أن يختار بين أمرين أثنين أما التضحية بقادة جيشه المنظم أو بقادة جيش الصاعقة الذى رفعه إلى قمة المجد. وأخيرا قرر التضحية بقادة جيش الصاعقة واستدعى روهم واجتمع به لمدة خمس ساعات حاول خلالها التفاهم مع روهم المتعصب الشاذ دون جدوى...

وكانت قد تألفت من جيش الصاعقة فرقاً جديدة من ذوى القمصان السود، ليكونوا بمثابة الحرس الخاص للفوهرر، وللقيام بالمهام السرية الخطرة. وقد تولى قيادة هذه الفرق الجديدة هنريك هملر!

وهنا تختلف الأقاويل عن الأسباب التى جعلت هتلر يقوم بضربته القوية ضد روهم ورفاقه. فمنهم من كان يقول إنه بسبب وجود مؤامرة تحاك ضده، ومنهم من كان يقول إن الفوهرر أراد القيام بحركة تطهير شاملة وهو لا يزال فى أوج عظمته وجبروته. وعلى كل حال، فقد تطورت الأحداث فى يوم الخامس والعشرين من شهر حزيران، إذ طلب هتلر من رجال الجيش البقاء فى تكناتهم، ثم قام بتوزيع السلاح والعتاد على أفراد الحرس الخاص من ذوى القمصان السود، وبالوقت نفسه أصدر أمرا لذوى القمصان البنية ليكونوا على أهبة الاستعداد، وطلب من جميع قادة جيش الصاعقة الحضور إلى اجتماع ينعقد فى الثلاثين من شهر حزيران. وترددت شائعات،وصلت إلى هتلر، أن مساعد روهم يحاول القيام بثورة. عندئذ قرر هتلر القيام بعمل سريع يقضى به على خصومه دفعة واحدة، فأمر غورنغ بالدخول إلى برلين والسيطرة عليها، وطار هو إلى ميونيخ ليقوم بمفاجئة خصومه شخصياً ويعتقلهم بنفسه يساعده فى ذلك اثنا عشر رجلا من ذوى القمصان السود. وما إن وصل إلى مقر قيادة جيش الصاعقة، حتى فاجأ كبار القادة بنبأ اعتقالهم، ثم استقل سيارة يرافقه هذا العدد القليل من الحرس واتجه إلى ويبسى حيث كان روهم. فوصل إلى هناك فى تمام السابعة صباحاً.

ترجل هتلر من سيارته واتجه إلى المنزل وحيداً دون سلاح واقتحم غرفة

نوم روهم الذى أذهلته المفاجأة الشديدة، وتم اعتقاله مع عدد من أركان حزبه. وعاد الجميع مع الأسرى إلى ميونيخ، حيث وضعوا جميعهم فى نفس السجن الذى اعتقل فيه هتلر قبل عشر سنين. وفى اليوم نفسه بدأ تنفيذ حكم الإعدام بجميع المعتقلين دون استثناء، واستمرت عملية الإعدام طيلة بعد الظهر، وقد أمر هتلر بتغيير الفرق التى كانت تقوم بمهمة الإعدام، بسبب الإجهاد العقلى الذى أصابهم نتيجة للوحشية التى تم بها تنفيذ حكم الإعدام.

وفى برلين تمت العملية نفسها التى جرت فى ميونيخ، فقد قام غورنغ بتنفيذ حكم الإعدام بجميع الذين اعتقلهم، وبلغ عدد الذين أعدموا فى ذلك اليوم سبعة آلاف شخص!!

ورجع هتلر إلى برلين حيث أطل من شرفة دار المستشارية ليتلقى هتافات الجماهير، التى كانت تعتقد أن الفوهرر كان ضحية مؤامرة رهيبة خرج منها سالماً بفضل قوته وسرعة بديهته، وهكذا تمكن هتلر بفضل هذه المجزرة الرهيبة من تثبيت أسس حكمه وترسيخ عقيدته، كما حافظ على وحدة ألمانيا الاشتراكية الوطنية، لتحمل لعنتها تلك إلى العالم بأسره..

وأظهرت هذه المذبحة أن الفوهرر لن يردعه أى شىء عن تنفيذ كل ما يريده، وبدت الأوضاع القائمة، بالنسبة للعالم الخارجى، أوضاعاً لا يمكن وصفها بالأوضاع المتمدنة. وأصبح على هذا العالم أن يواجه حكما دكتاتوريا يقوم على الإرهاب وسفك الدماء.

نشطت الحركة بين بافاريا والحدود النمساوية فى شهر تموز من عام ١٩٣٤. وبدأ الإعداد للثورة وقلب نظام الحكم فيها، وفى صباح الخامس والعشرين من الشهر نفسه غدت الثورة واضحة إذ دخلت جماعة من المسلحين دار المستشارية ، وقتلوا الرئيس دلفوس ، كما استولت فصيلة أخرى من الثوار النازيين على دار الإذاعة وأعلنت حل حكومة الرئيس دلفوس، وتعيين رينتلين رئيساً جديداً.

إلا أن هذا الانقلاب المفاجئ لم يعمر طويلا، إذ قام رئيس الجمهورية

بالرد على الحركة الانقلابية، أيده فى ذلك موسولينى من إيطاليا وأرسل ثلاث فرق عسكرية إلى ممر برينر، معا اضطر هتلر إلى التراجع، وطلب من وزير ألمانيا المفوض وبعض الذين اشتركوا فى المؤامرة الرجوع إلى بلادهم فوراً حيث فصلهم من الخدمة، وبذلك أنهى المحاولة الأولى للإطاحة باستقلال دولة النمسا.

وقد قربت هذه الأحداث بين إيطاليا وفرنسا، فقد أدى هذا التهديد لاستقلال النمسا إلى أعادة النظر فى العلاقات بين فرنسا وإيطاليا. كما شملت الأبحاث موضوع توازن القوى وأوضاع فرنسا وإيطاليا بالنسبة إلى جنوب إيطاليا الشرقى. وكان هدف موسولينى الحفاظ على مصالح إيطاليا الاستعمارية فى إفريقيا، بالإضافة إلى تقوية مركزه فى أوروبا ضد التهديدات الألمانية.

أما فرنسا التى كانت ترغب منذ وقت طويل فى الوصول إلى اتفاق رسمى حول إجراءات الأمن والسلامة فى الشرق. إلا أن تردد بريطانيا فى التورط بأية تعهدات وراء نهر الراين، ورفضها عقد محالفات مع بولندا وتشيكوسلوفاكيا، كما أن مخاوف دول التحالف الصغيرة من نوايا الروس ومطامحها، بالإضافة إلى شكوك روسيا فى الغرب. كل هذا أدى إلى فشل برامج فرنسا، إلا أن السيد بارتو وزير خارجيتها عزم على المضى فى برنامجه، واتبع برنامجاً يقضى بعقد اتفاق يضم ألمانيا وروسيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا ودول البلطيق، تقوم فيه فرنسا بضمان حدود روسيا فى أوروبا، وتضمن روسيا حدود ألمانيا الشرقية. إلا أن ألمانيا وبولندا عارضتا الفكرة، لكن بارتو نجح فى إقناع روسيا بوجوب الدخول إلى عصبة الأمم.

وكان هدف فرنسا الأول هو البحث عن حلفاء جدد ضد ألمانيا، فاتجهت نحو روسيا محاولة أن تبعث فكرة توازن القوى التى كانت قائمة قبيل الحرب العالمية الأولى، إلا أن مأساة وقعت فى شهر تشرين الأول حين دعى الملك الكسندر اليوغوسلافى لزيارة رسمية إلى باريس. وعندما نزل فى مرسيليا،

كان فى استقباله المسيو بارتو والجنرال جورج، بينما كانت الجماهير محتشدة فى الشوارع تهتف معربة عن فرحها الكبير. وفجأة ظهر شخص من بين الحشود وتسلق سيارة الملك وأطلق عليه الرصاص من مسدس كان يحمله، وهجمت الحرس عليه وأمعنت فيه ضربا بالسيوف وقطعته إربا. وقد قتل الملك على الفور، وأصيب المسيو بارتو والجنرال جورج بإصابات بالغة، ولم يتمكن الوزير بارتو من المقاومة فتوفى بعد بضع ساعات. وبوفاته أصيبت السياسة الخارجية الفرنسية بضربة قاصمة، وخلفه فى الوزارة بيير لافال.

إن تاريخ لافال المشين اللاحق، ومصيره لن يحولا بيننا وبين الإعراب عن حقيقة قوته الشخصية ومقدرته. فقد كانت وجهة نظره صافية وصلبة، فهو قد آمن بضرورة تجنب الحرب، خاصة بالنسبة لفرنسا، وهدف إلى إجراء ترتيبات مع حكام ألمانيا وإيطاليا، اللذين لا يحمل ضدهما أية ضغينة. وكان لا يثق بروسيا ونواياها، كما أنه كان لا يحب بريطانيا، بالرغم من مظاهر الصداقة التى كان يظهرها تجاهها، وكان يعتقد بأنها حليف لا نفع منه. لذلك قرر الابتداء بالتفاهم مع إيطاليا، سيما وأن الخوف من ألمانيا أصبح كبيرا جداً، إلا أنها كانت مستعدة للتساهل طمعاً فى كسب صداقة إيطاليا... وسافر فى كانون الثانى عام ١٩٣٥ إلى روما حيث عقد عدة اتفاقات بين الدولتين لإزالة العقبات التى تعترض طريق التفاهم بينهما، وخاصة الاتفاق حول معارضة إعادة تسليح ألمانيا، وتعهدت فرنسا بالتساهل مع الإيطاليين فى تونس، كما سلمت لإيطاليا مساحات شاسعة من الأراضى الواقعة على حدود ليبيا والصومال، وإعطاء إيطاليا نسبة ٢٠٪من عائدات سكة حديد جيبوتى - أديس أبابا. وكان من المقرر أن تكون هذه الاتفاقات بداية محادثات رسمية تشمل فرنسا وإيطاليا وبريطانيا العظمى، لإقامة جبهة تقف فى وجه الخطر الألمانى المتزايد. إلا أن الصدام بين الجنود الإيطاليين والحبشيين على حدود الحبشة والصومال الإيطالى، كان الحجة التى استخدمتها إيطاليا فى المطالب التى وجهتها إلى الحبشة. وهكذا أدى مصير الحبشة إلى اضطراب فكرة التضييق على ألمانيا وحصرها فى القارة الأوروبية.

الفصل الرابع

فقدان التوازن الجوى
والعقوبات ضد إيطاليا

لم تكن ألمانيا تعتقد أن فى إمكانها إعادة تسليح جيشها تسليحا كاملاً متفوقا قبل عام ١٩٤٣، إلا أن الاكتشافات العلمية الحديثة، وخاصة اختراع الآلة ذات الاندفاع الداخلى، وتقدم فن الطيران، جعلا من مسالة التفوق العسكرى والقوة العسكرية أمراً يتوقف على جهود الدولة فى ميدان العلم والمعرفة. وكانت ألمانيا تتمتع بإمكانات ضخمة فى هذه الميادين، فتمكنت ألمانيا من خلق هيكل سلاح جوى فى الجيش، بعد أن كان محروماً من هذه القوة الجوية الهامة. ولم يمض وقت طويل حتى ظهرت أمام أعيننا الحقيقة المرعبة فقد توصل هتلر إلى الرقم المعادل فى عدد الطائرات، الذى وصلت إليه بريطانيا. ولم يتبق عليه إلا أن يصدر أوامره بزيادة الإنتاج والإسراع به كى يرفع من مستوى الطائرات الموجودة ويحسنها، وأصبحت لندن مهددة من الجو، ووجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار هذه الحقيقة الثابتة فى جميع القرارات التى نتخذها، إذ لم يعد فى إمكاننا اللحاق بألمانيا، إلا أننا بذلنا مجهودات ضخمة جبارة، وحلقت فى سماء العاصمة طائرات «الهاريكين» و«السبيتفاير» فى عام١٩٣٥، إلا أن العدد لا يزال ضئيلا، وعندما نشبت الحرب شعرنا بتفوق السلاح الجوى الألمانى الذى بلغ بمجموعه ضعف سلاحنا الجوى الملكى.

وفى اليوم التاسع من شهر آذار عام ١٩٣٥ أعلن هتلر بصورة رسمية

إنشاء السلاح الجوى الألمانى، كما أعلن عن التجنيد الإجبارى فى جميع البلاد. وفى الوقت نفسه أعلنت فرنسا تمديد مدة الخدمة العسكرية إلى سنتين. وشرعت ألمانيا فى تنظيم جيشها على أسس حديثة. كما أصبح الجيش تابعاً للفوهرر مباشرة، وغدا القائد الأعلى له، وأصبح على كل جندى أن يحلف يمين الولاء لهتلر لا للدستور، كما أصبحت وزارة الحربية تابعة لأوامره مباشرة. واتخذت الإجراءات اللازمة لتدريب الشباب الألمان، فما أن ينشا الولد حتى ينضم إلى شبيبة هتلر التى تضم جميع أولاد ألمانيا، ثم ينتقلوا بعد ذلك إلى الحرس النازى بعد أن يبلغوا الثامنة عشرة ويعملوا فيه لمدة سنتين، وعندما يصبح الشاب فى سن العشرين يفرض عليه تأدية الخدمة العسكرية لمدة ستة أشهر يقضيها فى شق الطرق وبناء المعسكرات وتجفيف المستنقعات، وبعد ذلك ينتقل للعمل مع القوت المسلحة.

وفى الخامس عشر من تشرين الأول عام ١٩٣٥ افتتح هتلر كلية أركان الحرب الألمانية، وبدأ بذلك الإعداد الكبير لتدريب الجيش وتوسيع صفوفه.. كما استدعيت الفئة الأولى من مواليد عام ١٩١٤ للخدمة العسكرية، حيث تقرر أعداد وتدريب ٥٩٦ ألف رجل على فنون القتال. وهكذا قفز رقم الجيش الألمانى إلى ٧٠٠ ألف رجل. إلا أن هذه الأرقام المخيفة لم تبلغ بعد عدد وقوة الجيش الفرنسى واحتياطيه الكبير. وكان بالإمكان حتى هذا التاريخ اتخاذ أى قرار من جانب عصبة الأمم لوقف هذه العمليات الرهيبة المخالفة لمعاهدات الصلح واتفاقاته. كما كان بالإمكان تقديم ألمانيا إلى المحاكمة أمام هيئة دولية، تقدم فيه بياناً عن تسلحها وتسمح للجان الحلفاء بالتحقيق فى هذه الأوضاع. أما فى حالة رفضها الإذعان لهذه الإجراءات، تقوم الجيوش الحليفة باحتلال جميع المنافذ والمعابر على نهر الراين حتى يضمن الحلفاء تنفيذ ألمانيا لتعهداتها. وبذلك يصبح بالإمكان تأجيل وقوع الحرب العالمية الثانية إلى أجل غير مسمى.

كانت الضربة الثانية للسلام العالمى، بعد خسارة بريطانيا للتعادل الجوى، حين انتقلت إيطاليا إلى جانب ألمانيا، وبذلك تمكن هتلر من التقدم فى طريقه نحو القتال. فبعد أن ساعد موسولينى النمسا على الحفاظ على استقلالها، قرر أن ينتقل إلى الجانب الآخر. ولم تعد ألمانيا وحيدة فى الميدان العسكرى بفضل أطماع ديكتاتور إيطاليا لتوسيع رقعة إمبراطوريته التى شرع فى إنشائها.

وقد ظهرت جلية استعدادات موسولينى لاحتلال الحبشة، بعد مؤتمر ستريزا. وكان من الواضح أن الرأى العام البريطانى سيعارض مثل هذا الاعتداء الصارخ. كما أن البعض كان يجد فى هذه المعارضة تشجيعاً لإيطاليا فى المضى نحو ألمانيا، خاصة وهى الدولة المعتبرة من الدول الكبرى، فبانضمامها إلى ألمانيا ستخسر بريطانيا حليفاً مهماً.

ولا أزال أذكر الحديث الذى جرى بينى وبين المستر دف كوبر حول هذا التبدل فى الميزان الأوروبى الذى جاء معاكساً لمصالحنا، وقد اقترح البعض أن نؤلف وفداً لمقابلة موسولينى يشرح له النتائج التى ستؤدى إليها حركته فى بريطانيا. وبالطبع لم يؤلف هذا الوفد، فلم يكن هذا سيؤدى إلى أية نتيجة، فقد كان موسولينى يعتقد أن بريطانيا أصبحت عجوزاً ضعيفة لا تستطيع القيام بأى عمل حربى عدا الصراخ والضجيج.

وكانت وجهة نظرى فى هذه المسألة هى فى حمل القضية إلى عصبة الأمم ضد إيطاليا، ومطالبة فرنسا بتاييدنا، إلا أننى حذرت من الضغط عليها، وذلك بسبب ارتباطاتها مع إيطاليا، وانشغالها فى المشكلة الألمانية، كما أننى نصحت بعدم تزعم هذه القضية والتحمس لها، وذلك بسبب خوفى من ألمانيا ومن الأوضاع التى وصلت إليها أجهزتنا الدفاعية.. إلا أن الحكومة وقفت موقفاً مكشوفاً وصرحت بأن بريطانيا ستقف إلى جانب التزاماتها وإلى جانب ميثاق عصبة الأمم. وسافر بعد ذلك وزير الخارجية إلى جنيف

ليجمع تأييد الدول الأعضاء فى عصبة الأمم لفرض عقوبات على إيطاليا، إذا هى قامت بضرب الحبشة، وكانت هذه العقوبات تعنى قطع المساعدات المالية، والمواد الاقتصادية عن إيطاليا، وتزويد الحبشة بها. وكانت هذه العقوبة شديدة الخطورة على إيطاليا التى تعتمد على استيراد البضائع التى تحتاج إليها فى الحرب، من الخارج.

وفى الثانى عشر من شهر أيلول وصلت البارجتان البريطانيتان «هود» و«ريناون» إلى جبل طارق بالإضافة إلى سرب من الطرادات والمدمرات. كما اتخذت عصبة الأمم قراراً بأغلبية خمسين صوتاً يقضى باتخاذ إجراءات جماعية ضد إيطاليا، وعينت لجنة قوامها ثمانية عشر عضواً لتقوم بمحاولة أخيرة للوصول إلى حل سلمى، وعندما أصدر موسولينى بيانه التاريخى بقوله: «أن إيطاليا ستواجه العقوبات بالنظام والاقتصاد والتضحية» إلا أنه أضاف أن إيطاليا إذا وجدت أن هذه العقوبات ستعرقل برنامجه لغزو الحبشة فسيشن الحرب على كل دولة تقف فى طريقه، وقد أضاف معلقاً على قرار عصبة الأمم بقوله «خمسون دولة، نعم هذه الدول كلها تقودها دولة واحدة»!

أثار سفك الدماء فى ايسينيا، والكراهية للفاشية وتطبيق العقوبات من قبل عصبة الأمم، هياج الطبقات العاملة فى بريطانيا، وحزب العمال البريطانى. ولم يكن النقابيون وعلى رأسهم المستر ارنست بيفن ميالين إلى المهادئة والسلام. واجتاحت الرغبة العازمة فى محاربة الدكتاتور الإيطالى، وتطبيق أقصى العقوبات عليه، وتدخل الأسطول البريطانى إذا لزم الأمر، وكان عدد كبير من أعضاء مجلس العموم يشاطر النقابات رأيها فى هذا الصدد. واستقال مستر لانسبورى من رئاسة الكتلة البريطانية لحزب العمال. وتولى الميجور أتلى الرئاسة خلفاً له.

وفى هذا الوقت حل البرلمان وأجريت انتخابات جديدة، وأعلن رئيس الوزراء أن العقوبات تعنى أولا الحرب، لكنه كان مصمماً على ألا تكون هناك

حرب، إلا أنه مصمم فى الوقت نفسه على العقوبات. وتجنبت عصبة الأمم بطلب من بريطانيا، فرض العقوبات خوفاً من استفزاز إيطاليا وإكراهها على الحرب. فاكتفت بمنع بعض السلع من الوصول إلى إيطاليا وبعض المواد الحربية، ولم تقطع الزيت عنها واستمر فى الوصول إليها بكل حرية. إذ إن قطعه يعنى الحرب بصورة قاطعة. وكان من جملة السلع الممنوعة، تصدير الألومنيوم. إلا أن هذا المعدن كانت إيطاليا تنتجه بشكل ضخم يفوق حاجاتها. وبالإجمال كانت العقوبات المفروضة لا تعتبر عقوبات بالمعنى الصحيح، يقصد منها شل حركة المعتدين ومنعهم من العدوان.

أما بالنسبة لبريطانيا فقد كان بإمكانها منع إيطاليا من المرور فى قناة السويس، وأن تخوض معركة بحرية مع الأسطول الإيطالى، بالرغم من أن بوارجنا كانت قديمة، وأن الأسطول يفتقر إلى المدافع المضادة للطائرات، كما يفتقر إلى الغطاء الجوى الضرورى، إلا أنه باستطاعتنا قطع الإمدادات والمواصلات الإيطالية مع الحبشة. وكنت واثقاً من أن موسولينى لم يكن ليجرؤ على الاشتباك مع قواتنا، فقد كان العالم كله ضده فى تلك الوقت، وكان من المنتظر أن يتعرض حكمه للخطر، فى حالة خوضه غمار الحرب مع بريطانيا. ومع أننى كنت أعارض فكرة القيام بأى عمل فردى تقوم به بريطانيا، إلا أننا قد قطعنا شوطاً بعيداً فى هذه المرحلة، ومن المار أن نتراجع الآن. لكن الحقيقة كانت ظاهرة فى حب الحكومة الحاضرة للسلام والحفاظ عليه، هذا الحب الذى جر العالم إلى حرب أكثر فظاعة.

أدى سقوط البلاد الحبشية وضمها إلى الممتلكات الإيطالية، إلى نتائج إيجابية فى ألمانيا، فقد بدا الإعجاب بموسولينى وطريقته القذرة السريعة التى أنهت فيها إيطاليا الحملة على الحبشة. وكان الرأى العام السائد أن بريطانيا خرجت من هذه الأزمة مقهورة ضعيفة. وقال أحد ممثلينا فى بلغاريا: «إن إشارات الاحتقار لبريطانيا أصبحت ظاهرة سافرة فى جميع

الأوساط. وهذا مما جعل ألمانيا تتصلب فى مواقفها للتفاوض لإيجاد تسوية فى أوروبا الغربية وتسوية أكبر لجميع الشؤون الأوروبية والعالمية». وكانت هذه الأقوال صحيحة تماماً. فقد تولت حكومة جلالته، دون تفكير بالأمر، زعامة خمسين دولة للتعبير عن الشجاعة لوقف إيطاليا عند حدها. وما إن واجهت الحقائق القاسية حتى تراجعت الحكومة عن موقفها الشجاع وتخاذلت. وبذلك أصابت عصبة الأمم بخيبة أمل كبيرة وألحقت بها أشد الأضرار.



الفصل الخامس

هتلر يضرب

لقد كان الاحتلال الوحشى للحبشة، الصدمة القوية التى أحس بها الشعب البريطانى من اتفاق هور ـ لافال وفشل عصبة الأمم من العوامل التى غيرت أوضاع حزب العمال وحزب الأحرار بالإضافة إلى الرأى العام الحسن النية. وبدت فكرة قبول نشوب الحرب ضد الطغيان الفاشى والنازى، تلاقى صدى حسناً فى النفوس، حتى الذين يحبون السلام ويعتزون بالمهادنة. وبالرغم من معارضة حزبى المعارضة لجميع الإجراءات المؤدية إلى إعادة التسلح، إلا أن مجال الاتفاق كان واسعاً، ولو حاولت حكومة جلالته أن ترتفع إلى مستوى الأحداث، لتمكنت من تزعم جبهة شعبية متحدة، تقودها فى طريق حملة قوية للتأهب والاستعداد.

إلا أن الحكومة بقيت متمسكة بسياسة الاعتدال وأنصاف الحلول. وقد أذهلنى عدم اهتمامها بالبحث عن توحيد الانسجام الذى أخذ يسود صفوف الشعب. ولو أنها حاولت البحث عن هذا التوحيد، لقوت بذلك مركزها وكسبت قوة كانت ضرورية للبلاد.

أما بالنسبة لألمانيا، فقد أدى تسليحها من جديد إلى اقتراب موعد الحرب العالمية، وأصبح نشوبها أمراً مؤكداً. فبعد أن تأخرنا عن توقيف هتلر عند حدوده، وبعد أن فرض هتلر الخدمة الإجبارية فى الجيش، متحدياً بذلك جميع المعاهدات. وبعد أن غفرت بريطانيا له هذا التحدى العجيب، وعقدت معه اتفاقاً وسمحت له بإعادة بناء أسطوله البحرى الذى يضم عدداً

من الغواصات يوازى عدد الغواصات البريطانية. وبعد أن صرحت ألمانيا بنفسها أنها أصبحت تملك سلاحاً جوياً يضاهى السلاح الجوى الملكى البريطانى، بدأت الآن تدخل عامها الثانى فى الاستعداد والعمل النشط لإنتاج العتاد الحربى الرهيب. وأصبحت بريطانيا وأوروبا كلها، وأميركا التى كانت تعتقد أنها بعيدة عن الخطر، تواجه الآن قوة ضخمة منظمة، بالإضافة إلى التصميم على خوض حرب ضروس ضد سبعين مليوناً من البشر.

وكانت من جملة بنود معاهدة فرساى، البنود القائلة بعدم السماح لألمانيا بإقامة تحصينات دفاعية على الجهة اليسرى من نهر الراين، وإلى خمسين كيلو متراً من الجهة اليمنى من النهر، كما أنها منعت أى وجود لقوات عسكرية ألمانية فى هذه المنطقة. كما أن معاهدة لوكارنو التى نصت على حفظ الحدود القائمة بين ألمانيا وبلجيكا، وبين ألمانيا وفرنسا. وتعهد الفرقاء بعدم القيام بأى هجوم عبر هذه الحدود، وإذا ما خرقت إحدى الدول هذه الاتفاقات، فإن عملها هذا يعتبر عملاً عدوانياً لم يسبقه استفزاز، ويتوجب على الدول المعتدى عليها أن تقوم بأعمال إفرادية، وتنقل المشكلة إلى عصبة الأمم، وأن تطلب معاونة الدول الأخرى الموقعة على هذه الاتفاقية.

وفى اليوم نفسه الذى عهد فيه تسليم هذا الاقتراح لعقده كميثاق يعمل به لمدة خمسة وعشرين عاماً أعلن هتلر أنه قرر احتلال منطقة الراين، وزحفت القوات الألمانية فوراً لتأخذ مواقعها على طول المنطقة وعرضها.

وهبت فرنسا تطلب العون من حلفائها، وتشكو أمرها إلى عصبة الأمم. وكان من حق فرنسا أن تطالب بريطانيا بتنفيذ اتفاقها القاضى بحماية حدودها ضد أى اعتداء من ألمانيا، نتيجة للضغط الذى قمنا به فى السابق لإجلائها عن منطقة الراين. وكان المسيو سارو، رئيس الوزراء، يرتأى إعلان التعبئة العامة فوراً، إلا أنه لم ينفذ هذا الرأى قبل الحصول على موافقة بريطانيا عليه أولاً. إلا أن حكومة جلالته أقنعت فرنسا بوجوب الانتظار،

حتى تقوم الدولتان بعمل مشترك، بعد أن يتمكنا من درس الوضع دراسة شاملة وافية. أما الرد غير الرسمى، الذى أجابت به لندن، فقد بعث فى نفسى القشعريرة، إذ سارع المستر لويدجورج إلى القول: إن جريمة هتلر الكبرى كانت فى الاستفزاز لا فى خرقه الفاضح للمعاهدة، وإنه كان يأمل بأننا سنبقى رؤوسنا منخفضة. كان الاستفزاز فى الظاهر، هو فشل الحلفاء فى نزع السلاح، أكثر مما فعلوا حتى اليوم.

لقد أخطأت الحكومة الفرنسية فى انصياعها لمشيئة بريطانيا وعرضها للمشكلة على عصبة الأمم، وهى التى أصبحت ضعيفة لا قيمة لها بعد فشلها الذريع فى مهزلة العقوبات. فلو نفذت الحكومة الفرنسية تعبئتها العامة، وجهزت مئة فرقة لكانت تمكنت من حمل هتلر على التراجع والانسحاب، فقد كانت فرنسا فى ذلك الوقت من القوة بحيث تتمكن وحدها من إرغام الألمان على الانسحاب.

وعندما اجتمع هتلر بقادته العسكريين بعد نجاح حملته فى احتلال منطقة الراين، كان فى وده أن يصارحهم بأن مخاوفهم السابقة كانت كاذبة، لكنه برهن لهم بعمله هذا أن أحكامه وآراءه الخاصة أهم وأقوى من أحكام القادة العسكريين، ولهذا أحنى القادة رؤوسهم باحترام. وكانت الفرحة تغمرهم، كألمان مخلصين، حين رأوا أن بلادهم قد بدأت تستعيد مكانتها السابقة فى القارة الأوروبية فى هذه السرعة الهائلة. بالإضافة إلى أن أعداءهم السابقين قد أصبحوا ممزقين مشتتين. وأعلن الفوهرر للعالم: لقد حققت ألمانيا جميع مطامحها الإقليمية...

وأصيبت فرنسا بالتفكك وسيطر على البلاد الخوف من الحرب، والرغبة فى اجتنابها. أما الإنكليز السذج فقد أبلغتهم صحافتهم: «أن الألمان، على كل حال، لم يفعلوا شيئاً سوى أنهم عادوا إلى بلادهم، إذ كيف يمكن أن نشعر نحن الإنكليز، لو تحتم علينا أن نبقى بعيدين عن يوركشاير مثلاً لمدة عشر

سنوات أو خمس عشرة سنة؟»... إلا أنهم لم يفكروا أن الحدود الأمامية قد تقدمت إلى الأمام مئة ميل، وأصبح غزو فرنسا أقرب وأسهل...

مرت سنتان على الاستيلاء على منطقة الراين، لم تضع ألمانيا خلالها أية دقيقة من وقتها. إذ بدأت التحصينات تظهر على طول الخط فى تلك المنطقة. وأخذت المصانع الألمانية تعمل ليلاً ونهاراً لتجعل من صناعة ألمانيا كلها جبخانة مسلحة، وتحول الشعب بأسره إلى آلة للحرب.

وافتتح هتلر عام ١٩٣٦، مشروع السنوات الخمس لإعادة تنظيم الاقتصاد الألمانى وإعداده لمرحلة الاكتفاء الذاتى أثناء الحرب. كما حقق فى الخارج «التحالف القوى» الذى كتب عنه فى كتابه «كفاحى» وبين أهميته لسياسة ألمانيا الخارجية، فتفاهم مع موسولينى وتم تشكيل محور برلين - روما.

كانت سياسة هتلر العدوانية لا تعتمد على القوة العسكرية، بل تعتمد على الخلافات الناشبة بين فرنسا وبريطانيا، وعلى شدة خوفهما بالإضافة إلى عدم اكتراث الولايات المتحدة الأميركية. وكانت أعماله وتحدياته الأولى عبارة عن مغامرة يعرف أنه لن يتمكن من الصمود لنتائجها، إذا ما شعر بأن لدى الحلفاء قليلاً من الجدية الصادقة. وكان احتلاله لمنطقة الراين وإقامته للتحصينات فيها أولى هذه المغامرات التى نجح فيها نجاحاً كبيراً. أما خصومه فقد كانوا على أشد ما يكونوا من الضعف والتردد، إلى درجة أنهم لم يشعروا بهذه "البلفة" التى قام بها. أما حين تحركت جحافله فى عام ١٩٣٨ لم تكن هذه التحركات عبارة عن «بلفة» أخرى، فقد أصبح العدوان الجديد مدعوماً بالقوة المتفوقة، وما إن بدأت الدولتان البريطانية والفرنسية تشعران بهذا التحول المفاجئ، كان الوقت قد فات.

أما فى إسبانيا فقد تدهور النظام البرلمانى فيها عام ١٩٣٦ إلى حد أدى لنمو حركة جديدة تتجه إلى إقامة نظام شيوعى أو حتى فوضوى فى البلاد، ومن ثَمَّ إلى قيام ثورة عسكرية مبيتة. وكانت التعاليم الشيوعية وكتبها

المدرسية التى ألفها لينين نفسه، تقول بأن الواجب يقضى بضرورة التعاون مع جميع الأحزاب والحركات اليسارية فى البلاد، ودعمها للوصول إلى الحكم. عندئذ يصبح من السهل الانقلاب عليها ونسفها من الداخل، وإقامة الدولة الماركسية. وكانت هذه التجربة التى نجحت فى روسيا، تحدث الآن فى إسبانيا. إلا أن الجيش الإسبانى كان محتفظاً بقوته، لذلك فقد سار مع الحركات الشيوعية، بينما كان يبيت ضدها مؤامرة عكسية.

وكانت أعمال العنف والقتل بين الفرقاء المتخاصمين تنتشر انتشار الوباء فى البلاد، وازداد الوباء الشيوعى حدة جعل من مسألة حمل الخصوم السياسيين من بيوتهم وقتلهم دون محاكمة أمراً طبيعياً. وقد حدثت حوادث كثيرة من هذا النوع فى العاصمة مدريد بالذات. وبلغت هذه الحوادث حدتها حين قتل الزعيم الإسبانى المحافظ السنيور سوتيلو، وكانت هذه الحادثة إشارة الانطلاق للقادة العسكريين لابتداء العمل. وكان الجنرال فرانكو قبل شهر من هذا الحادث قد أرسل إلى وزير الحربية الإسبانية رسالة قال فيها «إنه إذا لم تتمكن الحكومة من المحافظة على الضمانات العادية للحياة، فإن الجيش سيضطر للتدخل فوراً..» وعندما تمرد الجنرال فرانكو وحمل راية الثورة، انضمت إليه فرق الجيش كلها، وأصبح السيد المطلق على الكثير من الولايات. أما البحارة الإسبان فقد هبوا لفورهم وقتلوا ضباطهم وانضموا إلى ما سمى بعد ذلك بالجانب الشيوعى. وقد استطاع الشيوعيون أن يسيطروا بعد أن انهارت الحكومة وراحوا يطبقون نظرياتهم وتعاليمهم.

وبدأت الحرب الأهلية المخيفة، وقام الشيوعيون بجرائم عديدة وقتلوا خصومهم السياسيين، والأغنياء. أما قوات فرانكو فقد قامت بدورها بقتل العديد من الشيوعيين وانتقمت للضحايا. وسارت هذه القوات تحتل القرى الشيوعية وتنتقم من كل شيوعى تجده.

ووقفت الحكومة البريطانية موقف عدم التدخل، واقترحت كذلك فرنسا

مشروعاً بعدم التدخل، وترك الفريقين يحلان مشاكلهما دون مساعدات خارجية. وأيدت الحكومة الإيطالية والألمانية والروسية هذا المشروع. وقد حافظت بريطانيا العظمى على هذا الاتفاق، إلا أن ألمانيا وإيطاليا من جهة، وروسيا من جهة أخرى، سارعت إلى خرق هذا الاتفاق، وراحت ترسل بالإمدادات العسكرية لفريق من الفرقاء المتخاصمين. وراحت الطائرات الألمانية تغير على المدن الصغيرة بشكل وحشى. ولم تلبث فرنسا هى الأخرى أن راحت تبعث بطريقة سرية بأسراب الطائرات للدفاع عن الجمهورية....

فى الثامن والعشرين من أيار عام ١٩٣٧، اعتزل المستر بلدوين منصب الحكم، بعد تتويج الملك جورج السادس. وقد نال لقب اللوردية تقديراً لخدماته الطويلة، بالإضافة إلى وسام ربطة الساق. وقد خلفه فى الحكم المستر نافيل تشمبر لين وزير المالية السابق، والذى كان يقوم فعلياً بأعباء الحكم طيلة السنوات الخمس الماضية. وكان من أقدر الوزراء، يتمتع بمزايا ومواهب جمة. وقد رحبت بتسليمه مقاليد السلطة، لأنه كان من الشخصيات المرموقة النابضة بالحيوية، بالإضافة إلى كفاءته.

إن باستطاعتى إجراء مقارنة بين الشخصيتين المستر تشمبرلين والمستر بلدوين، اللذين عرفتهما مدة طويلة، وكان مقدراً لى أن أعمل معهما. فقد كان ستانلى بلدوين يتمتع بشخصية حكيمة بعيدة النظر، إلا أنه كان يفتقر إلى المقدرة على التنفيذ واتخاذ القرارات. وكان بعيداً عن شؤون الحرب والجيش والشؤون الخارجية، فقد كان يعرف بدقة مجرى السياسات الحزبية البريطانية. وكان قد ترشح خمس مرات عن حزب المحافظين باعتباره زعيماً للحزب، نفاز فى ثلاث مرات. أما رباطة جأشه فكانت صامدة قوية، فقد كان يتمتع بموهبة فذة فى الصمود تجاه الأحداث والانتقادات المعادية، وكان ماهراً فى تحوير الأحداث إلى خدمته، وانتهاز اللحظة المناسبة عندما تحين.

أما المستر نافيل تشمبرلين فقد كان يقظاً، متشبثاً برأيه، وشديد الثقة

بنفسه إلى حد المبالغة. وكان على عكس زميله يعتقد فى نفسه المقدرة على تفهم جميع المسائل المتعلقة بأوروبا، بل وفى العالم. وقد حافظ على سياسة تضييق الخناق على الإنفاق الحربى طيلة عهده فى الوزارة سواء حين كان وزيراً للمالية أو حين أصبح رئيساً للوزارة. وكان العدو اللدود لجميع إجراءات الطوارئ. وقد سن قوانين وأحكام على الشخصيات السياسية المعاصرة لعهده، سواء فى داخل بريطانيا أو فى العالم الخارجى، وكان يشعر بأنه قادر على التعامل مع جميع تلك الشخصيات. وكانت آماله وأمانيه فى أن يحصل على لقب بطل السلام، لذلك عمل مخلصاً لتحقيق هذه الغاية. وقد عرض نفسه بذلك لأشد الأخطار كما عرض البلاد أيضاً. لكنه وقع فى تيارات لم يتمكن من تقدير قوتها، فواجه أزمات لم يتمكن من حلها أو من الابتعاد عنها ولا الصمود فى وجهها.

لقد كنت أؤثر العمل مع المستر بلدوين فى تلك السنين التى سبقت الحرب العالمية الثانية، على العمل مع تشمبرلين. إلا أننى كنت أشعر أن أياً من الاثنين لم يكن راغباً فى التعاون معى إلا عند الضرورة القصوى.

فى ذات يوم من عام ١٩٣٧ قابلت سفير ألمانيا فى بريطانيا الهر فون ريبنتروب. وكنت قد كتبت مقالاً شرحت فيه أن الهر ريبنتروب قد أسىء فهمه نتيجة لخطابه الذى ألقاه مؤخراً. وقد التقيته فى إحدى الحفلات، وطلب منى أن أقوم بزيارته فى السفارة، لنتحدث سوياً. وقد استقبلنى فى دار السفارة، حيث قضينا ساعتين فى الحديث. وكان ريبنتروب طيباً دمث الأخلاق، دبلوماسياً إلى أبعد الحدود. وقد قال لى إن ألمانيا لا تريد إلا كسب صداقة إنكلترا. وقال إنه كان فى استطاعته أن يصبح وزيراً لخارجية ألمانيا، إلا أنه طلب من هتلر إرساله سفيراً إلى إنكلترا، كى يتمكن من العمل لتحقيق فكرة عقد اتفاق أو محالفة بين إنكلترا وألمانيا. وقد كان فى وسع ألمانيا أن تصبح حارساً للإمبراطورية البريطانية، وبالطبع ستطلب استعادة مستعمراتها

السابقة، إلا أن ذلك لا يعتبر أمراً أساسياً. لكن ما تطلبه ألمانيا هو أن يسمح لها بإطلاق يدها فى أوروبا الشرقية. إذ إن من حق ألمانيا أن تحصل على مداها الحيوى، لتضمن العيش لشعبها الذى يتكاثر عدده. لذلك فمن الواجب على ألمانيا أن تهاجم بولندا وممر دانزيغ. ولا يمكن للرايخ الكبير أن يحيا، وهو يضم سبعين مليوناً من البشر، بدون روسيا البيضاء وأوكرانيا. ولا يمكن للرايخ الألمانى أن يكتفى بأقل من هذا. لذلك فمطلبه الوحيد هو ألا تتدخل بريطانيا فى شؤونه تلك. وكانت فى الغرفة، حيث جلسنا، خارطة ضخمة معلقة على الجدار، وكان يشير إليها السفر ريبنتروب ليبين لى ما يقوله.

وبعد أن أنهى حديثه، أجبته برأيى الصريح رداً على كل أقواله. ومما قلته: «إن الحكومة البريطانية لن توافق على إطلاق يد ألمانيا فى أوروبا الشرقية. فبالرغم من علاقتنا السيئة مع روسيا السوفياتية، وبالرغم من عدائنا الشديد للشيوعية الذى لا يقل عن عداء هتلر لها، فإنه لو ضمنا سلامة فرنسا فإننا لن نتخلى عن أوضاع القارة الأوروبية ونترك المجال أمام ألمانيا لتسيطر على شرقى أوروبا ووسطها».

والتفت فون ريبنترون إلىَّ فجأة وهو يقول: «إذن، فلابد من الحرب، ولن يكون هناك أى سبيل لتجنبها، فالفوهرر مصمم، ولن يقف شىء فى طريقه».

وأجبت السفير بقولى: «عندما تتحدث عن الحرب، فستكون حرباً عامة شاملة، وهنا يجب على أن أنبهك بألا تستهين بقوة إنكلترا، فهى بلاد عجيبة، يصعب على الأجانب فهمها. ولا يمكنك أن تحكم عليها من موقف حكومتها الحاضر. فعندما تعرض للشعب قضية عادلة، فستتحقق عندئذ بنفسك أن هذه الحكومة بالذات بالاشتراك مع الشعب سيقومان بأعمال عظيمة غير متوقعة...، لذلك لا تستهن بقوة إنكلترا أبداً، فهى حادة الذكاء، وإذا ما أردتموها حرباً عالمية، فستحرض إنكلترا العالم كله ضدكم، تماماً كما حدث فى الحرب الأولى».

وهنا ظهر الغضب على وجهه، فهب من مقعده واقفاً وهو يقول: «ربما تكون إنكلترا ذكية كما تقول، لكنها هذه المرة لن تتمكن من تحريض العالم ضد ألمانيا».

وانتقلنا بالحديث إلى مواضيع أخرى أكثر سهولة. وعندما جرت محاكمة فون ريبنتروب بعد انتهاء الحرب، ذكر حديثنا هذا، لكن بصورة مغلوطة، وأصر على استدعائى للشهادة. ولو طلب إلى ذلك لما زدت أو أنقصت حرفاً واحداً عما كتبته هنا...



الفصل السادس

المستــر ايـدن
فى وزارة الخارجية- واستقالته

إن وزير الخارجية فى إنكلترا يتمتع بمكانة خاصة. ومع أنه يعامل بمنتهى الاحترام واللباقة، إلا أن أعماله ومهامه المتعلقة بالشؤون الخارجية تبقى دائماً تحت المراقبة، إن لم يكن من جميع أعضاء وزارته، فمن المتنفذين منهم على الأقل. كما أنه يتوجب عليه تقديم تقارير كاملة لزملائه. كما أنه يتحتم على وزير الخارجية إطلاع رئيس الوزراء على جميع الأسرار مهما كانت.

وفى هذه الحقبة من الزمن كان المستر ايدن وزيراً للخارجية فى حكومة بلدوين الذى كان معروفاً بميله الشديد إلى السلام والحياة الهادئة، كما أنه لم يكن يسهم إسهاماً فعالاً فى السياسة الخارجية. أما بالنسبة للمستر تشمبرلين فكان الوضع مختلفاً، فهو يريد الإشراف الفعلى على وزارة الخارجية، وكانت له آراء ووجهات نظر قوية فى الشؤون الخارجية. لذلك فقد أكد رغبته منذ البداية فى بحث هذه الشؤون والنظريات مع جميع السفراء الأجانب. ولهذا السبب أدى توليه منصب رئيس الوزراء إلى تغير ملحوظ فى وضع وزير الخارجية المستر ايدن. بالإضافة إلى بعض الأمور الأخرى التى كانت تباعد بين رئيس الوزراء ووزير الخارجية. لقد كان رئيس الوزراء راغباً فى إجراء شبه تفاهم مع الدكتاتورين الأوروبيين، وكان اعتقاده أن هذا يقوم فى تجنب كل ما يسىء إليهما بالإضافة إلى روح التفاهم الخالصة... أما ايدن فقد نال شهرته من جراء تحريضه لجميع دول أوروبا ضد موسولينى لدرجة أنه كان

يريد المضى فى فرض العقوبات ولو أدى ذلك إلى نشوب الحرب وكان ايدن يؤمن أشد الإيمان بفرنسا، كما أنه كان يرغب فى إقامة علاقات متينة مع روسيا السوفياتية، لأنه كان يشعر بخطر هتلر، وكان يخاف ضعف تسلحنا وانعكاسه على سياستنا الخارجية. لذلك كنت واثقاً أن الخلاف سيدب بين هذين الرجلين، خاصة بعد تأزم الأوضاع العالمية واشتدادها.

وكان رئيس الوزراء يجد فى اللورد هاليفاكس، زميلاً ينسجم مع سياسته الخارجية كل الانسجام. وكنت أفضل، والحالة هذه، لو اعتمده وزيراً للخارجية منذ تكليفه بتأليف الوزارة، وأن يعهد بوزارة الحربية إلى المستر أنتونى ايدن. وهكذا بدأت الخلافات تذر قرنيها إلى أن توسعت شقة الخلافات فى الفترة الواقعة ما بين صيف عام ١٩٣٧ ونهاية العام، إلى أن اضطر بعد ذلك المستر ايدن إلى تقديم استقالته فى شهر شباط من عام ١٩٣٨م.

لقد كانت سياستنا الخارجية تجاه ألمانيا، من أهم أسباب الخلاف بين رئيس الوزراء ووزير خارجيته المستر ايدن. فقد قرر المستر تشمبرلين أن يتابع سياسة التقرب من الديكتاتورين، واستدعى فى شهر تموز من عام ١٩٣٧ سفير إيطاليا الكونت غراندى للاجتماع به فى دواننغ ستريت. وكان المستر ايدن يعلم مسبقاً موضوع الحديث، لذلك لم يحضر الاجتماع هذا. وقد أفصح المستر تشمبرلين عن رغبته فى تحسين العلاقات مع إيطاليا، واقترح عليه السفير أن يبعث برسالة إلى موسولينى يطلب إليه ذلك، ويناشده العمل فى هذا الاتجاه. وسارع المستر تشمبرلين إلى كتابة هذه الرسالة، أثناء المقابلة، وبعث بها دون مراجعة وزير الخارجية الذى كان فى مكتبه على بعد بضعة خطوات من مكان الاجتماع. ولم تسفر هذه الرسالة عن أية نتيجة إيجابية بالطبع، بل ظلت علاقاتنا مع إيطاليا تتدهور بسبب تدخل هذه فى شؤون إسبانيا الداخلية.

وكان المستر تشمبرلين، يشعر بأن رسالته تتخلص فى خلق جو من العلاقات الودية بين الدكتاتورين، وخيل إليه أنه قادر على ذلك. وكان راغباً

فى أن يعترف بحق إيطاليا فى احتلال الحبشة كخطوة أولى نحو التقارب وكمقدمة لإيجاد حل شامل لجميع الخلافات. كما أنه كان يرغب فى التنازل لهتلر عن بعض المستعمرات البريطانية. وفى الوقت نفسه لم يكن يرغب فى العمل على تحسين أوضاع التسلح فى بريطانيا. أو فى إيجاد تعاون وثيق مع فرنسا سواء فى الشؤون العسكرية أو فى الشؤون السياسية. أما المستر ايدن فكانت نظرته تقضى بأن أى تعاون مع إيطاليا، يجب أن يشمل جميع الشؤون المتعلقة بالبحر الأبيض المتوسط، بما فى ذلك مشكلة إسبانيا. وكان يريد أن يجعل من مسألة الاعتراف بحق إيطاليا فى الحبشة وسيلة للمساومة معها أثناء المفاوضات. لذلك وجد أن الاعتراف بهذا الحق أولاً ثم الرغبة فى إجراء التفاوض لا يدل على الحكمة وبُعد النظر.

وفى الخريف اشتدت هذه الخلافات، واعتبر المستر تشمبرلين أن وزير الخارجية يقف عقبة فى طريق التفاهم مع الدكتاتورين وفى الشروع فى إجراء المحادثات مع ألمانيا وإيطاليا، كما شعر المستر ايدن أن رئيسه متسرع جداً فى محاولته التقرب من الدولتين المذكورتين لا سيما فى الوقت الذى كانت فيه بريطانيا على أشد ما تكون من الضعف من الناحية العسكرية.

على الرغم من خلافاتى مع الحكومة، فقد كنت أشعر بالعطف نحو وزير الخارجية المستر ايدن. فقد ظهر لى أنه أكثر الوزراء شجاعة وتصميماً، على الرغم من أنه أثناء عمله كسكرتير خاص وكوكيل لوزارة الخارجية، من قبل، كان مجبراً على أن يكيف نفسه مع أمور عديدة كنت أهاجمها شخصياً، إلا أننى كنت أشعر أنه فى قرارة نفسه يعارضها ويستنكرها، كما أنه بدا لى عنصراً طيباً وممتازاً. وكان يدعونى مراراً إلى وزارة الخارجية، وكثيراً ما كنا نتبادل الرسائل بانطلاق وحرية. ولم يكن هذا الأمر مستغرباً، فقد كان المستر ايدن شأنه شأن بقية الوزراء، يرغب دائماً فى الاتصال بالشخصيات البارزة فى البلاد ليستمزج رأيها فى شؤون الساعة وفى القضايا الدولية...

وكنت قد انتهيت إلى وجهة نظر مشابهة مع وجهة نظر ايدن فيما يتعلق بنشاط دول المحور حول تدخلهم فى الحرب الأهلية الإسبانية. وكنت دائماً أؤيده عندما يقف موقفاً صامداً فى مجلس العموم، مهما كانت أهمية المواضيع المطروحة، فقد كنت عارفاً بالصعوبات التى يواجهها من بعض أعضاء الوزارة وخاصة رئيس الوزارة بالذات، وكنت على يقين من أن تشجيعى له سيبعث فى نفسه روح الأمل والقوة. وما إن نشبت أزمة جديدة فى البحر المتوسط، حتى عالجها بعزم ومهارة، واستطاع الوصول إلى حل اتبعته الوزارة على الفور. فقد حدث أن أغرقت غواصات إيطالية عدة سفن تجارية، بينما أدعت إيطاليا أن الغواصات ليست إيطالية بل إسبانية. ودعى مؤتمر الدول البحرية إلى الانعقاد فى (نيون) فى العاشر من شهر أيلول. وذهب وزير الخارجية يرافقه فانسيتارت واللورد شاتفيلد، لورد الأميرالية الأول. وقرر المؤتمر إيفاد غواصات بريطانية فرنسية تقوم بعمل دوريات فى البحر المتوسط، وتحمل أوامر مشددة بإغراق كل غواصة تقابلها. وفى الحال رضخت إيطاليا إلى هذا القرار واختفت أعمال القرصنة.

ويعتبر هذا الحادث دليلاً ظاهراً على أهمية العمل المشترك بين بريطانيا وفرنسا، إذا نفذ بصدق وقوة تجاه الديكتاتورين الأوروبيين. إن مثل هذه السياسة كان فى مقدورها لا أن تمنع نشوب الحرب بل أن تؤجل وقوعها على الأقل. فالحقيقة الماثلة أمامنا هى أن سياسة التهدئة كانت تزيد من حدة عدوان الديكتاتورين، وتزيد من شعبيتهما، وأن أى هجوم إيجابى معاكس من قبل الديمقراطيات الغربية سيؤدى فوراً على التخفيف من حدة هذا العدوان. وقد بقيت هذه النظرية سائدة طيلة عام ١٩٣٧، أما بعد ذلك فقد تغيرت الأوضاع وتبدلت كل التبديل.

وشعر ايدن بقلق يتزايد يوماً بعد يوم من بطء تسلحنا، وما كان منه إلا أن قابل رئيس الوزراء وشرح له مخاوفه وشكوكه، وكان رد رئيس الوزراء عليه

بأن نصحه أن يعود إلى منزله ويتناول قرصين من الإسبيرين.

أما الخلاف الحقيقى فنتج عن مسألة مختلفة تمام الاختلاف عن المسائل السابقة. ففى مساء الحادى عشر من شهر كانون الثانى عام ١٩٣٨، قام وكيل وزارة الخارجية الأميركية، المستر سمنر ويلس بزيارة السفير البريطانى فى واشنطن. وكان يحمل معه رسالة سرية من الرئيس روزفلت إلى المستر تشمبرلين. فقد شعر الرئيس الأميركى بخطورة الوضع الدولى المتدهور، وأحس بالقلق المتزايد فاقترح دعوة بعض ممثلى دول معينة إلى اجتماع لبحث المشاكل الحالية، لكنه أراد قبل تنفيذ هذا الاقتراح، أن يستشير الحكومة البريطانية فى وجهة نظرها حول هذا الاقتراح. وطلب أن يكون الرد جاهزاً قبل السابع عشر من كانون الثانى، وأشار فى رسالته إلى أنه إذا وجد اقتراحه هذا قد حظى بموافقة حكومة جلالته القلبية وتأييدها المطلق، فعندئذ، وفى هذه الحالة فقط، سيباشر اتصالاته مع حكومات فرنسا وألمانيا وإيطاليا... وللحقيقة كانت خطوة هائلة وفوق ما يتصوره الإنسان.

وعندما قام السفير البريطانى بنقل هذه الرسالة إلى لندن، أوصى حكومته بضرورة الموافقة عليها بأسرع وقت ممكن. وتلقت وزارة الخارجية برقية واشنطن ووزعت نسخاً عنها فى الثانى عشر من كانون الثانى إلى منزل رئيس الوزراء فى الريف. وفى صباح اليوم الثانى حضر رئيس الوزراء إلى مكتبه، وأرسلت الوزارة بردها على رسالة الرئيس روزفلت، حسب تعليمات رئيس الوزراء. أما المستر ايدن فكان فى إجازة قصيرة يمضيها فى جنوب فرنسا. وكان رد المستر تشمبرلين، أنه يقدر هذه الثقة التى وضعها الرئيس روزفلت حين استشاره فى موضوع اقتراحه المتعلق بإزالة حدة التوتر فى أوروبا، إلا أنه يريد أولاً أن يشرح له الموقف بالنسبة إلى الجهود التى يقوم بها للوصول إلى اتفاق مع ألمانيا وإيطاليا، لا سيما إيطاليا بصورة خاصة. ومضى يقول فى رده: «إن حكومة جلالته مستعدة، بتفويض من

عصبة الأمم إن أمكن، للاعتراف باحتلال إيطاليا للحبشة، إذا ما وجدت أن الحكومة الإيطالية على استعداد هى الأخرى لتبرهن عن رغبتها فى الإسهام فى إعادة الثقة والعلاقات الودية». وأنهى المستر تشمبرلين رسالته بقوله: إنه يعرض هذه الحقائق ليرى الرئيس روزفلت ما إذا كانت اقتراحاته تتعارض والمجهود الذى تبذله بريطانيا، أما إذا كان الرئيس يرى أنه من الأفضل تأجيل اقتراح مشروعه الأميركى هذا...

وكانت خيبة الأمل كبيرة لدى الرئيس روزفلت لهذا الرد. وقد قال للسفير البريطانى بأنه سيجيب على رسالة تشمبرلين برسالة يبعثها له فى السابع عشر من الشهر الحالى، أما ايدن - وزير الخارجية - فقد قطع إجازته وعاد إلى لندن على وجه السرعة، بعد أن علم من موظفيه المخلصين فى الوزارة، ما جرى أثناء غيابه. وقد انزعج ايدن من هذا الحادث كثيراً، فقد عمل طويلاً لتحسين العلاقات بين بريطانيا وأميركا. وحاول أن يخفف من تأثير الرد فأبرق إلى المستر رونالد ليندسى، حول الموضوع.

ووصلت رسالة الرئيس روزفلت إلى لندن فى الثامن عشر من الشهر الحالى، وفيها قال الرئيس: إنه يوافق على تأجيل اقتراحاته لأن الحكومة البريطانية تفكر فى إجراء مفاوضات مباشرة، وأضاف معرباً عن قلقه الشديد من اقتراح تشمبرلين حول اعتراف بريطانيا باحتلال إيطاليا للحبشة. وقال إن مثل هذا الاعتراف سيترك أثراً سيئاً على سياسة اليابان فى الشرق الأقصى، وعلى الرأى العام الأميركى أيضاً. وقد أضاف المستر كوردل هل الذى قام بتسليم الرسالة إلى السفير البريطانى، بقوله: «إن هذا الاعتراف سيبعث على الازدراء، وسيرسم صورة واضحة للمساومة القذرة التى ستنفذ فى أوروبا على حساب المصالح الأميركية فى الشرق الأقصى والتى تهم أميركا كثيراً»..

وقامت اللجنة الوزارية للشؤون الخارجية بدرس رسالة الرئيس روزفلت،

وبعد سلسلة من الاجتماعات أرسلت إلى واشنطن رسالتين مضمونهما أن رئيس الوزراء يرحب كثيراً برسالة الرئيس روزفلت إلا أنه لا يتحمل أى مسؤولية فى حال فشلت العروض الأميركية. كما أنه يلفت نظر الرئيس روزفلت إلى أنه ربما قد أساء فهم موقف حكومة جلالته بالنسبة إلى الاعتراف. وقد شرح فى الرسالة الثانية حقيقة موقفنا. فقد كنا عازمين على تقديم اعتراف كهذا ليكون جزءاً من تسوية عامة مع إيطاليا.

وعندما قام السفير البريطانى بتسليم المستر سمنر ويلس الرسالتين قال له: «إن الرئيس روزفلت يعتبر مسألة الاعتراف هذا كدواء مر، إلا أنه يجب علينا أن نشربه معاً، كما أنه يريد أن نشرب هذا الدواء معاً وفى آن واحد...».

وهكذا رفض المستر تشمبرلين اقتراح الرئيس روزفلت، علماً أن نفوذ الولايات المتحدة كان ضخماً مع ما يمكن لها أن نستعمله من قوة جبارة!

وفى ساعة متأخرة من ليل العشرين من شباط، جاءنى الخبر إلى غرفتى القديمة فى شارنويل بأن المستر ايدن قد قدم استقالته من الوزارة. وهنا يتحتم على أن أعترف بأنى حزنت كثيراً، وشعرت باليأس يسيطر علىَّ. لقد مررت بظروف عصيبة طيلة حياتى، وفى سنين الحرب، وفى أحلك ساعاتها المرعبة لم أشعر بالقلق الذى يحرمنى طعم النوم. ففى أزمة عام ١٩٤٠ حيث كانت المسؤوليات الضخمة ملقاة على عاتقى، وفى السنوات الخمس التى تلتها، كنت فريسة للقلق والفزع، إلا أنى كنت أمضى إلى فراشى وأغرق فى سبات عميق، وأستيقظ فى الصباح نشيطاً، لا أشعر بتعب الليل الفائت بل أمضى إلى عملى لأواجه المشاكل الضخمة وأحاول أن أعالجها. أما اليوم وفى ليل العشرين من شهر شباط عام ١٩٣٨، وفى هذه المناسبة فقط، شعرت بالأرق، ولم أنم طوال الليل، وبقيت حتى الصباح فى فراشى أفكر بكثير من الأسى والخوف بذلك الشاب القوى الذى صمد بوجه تيارات مخيفة من الانشقاق والاستسلام، ومن الحسابات الخاطئة، والدوافع الضعيفة...

الفصل السابع

اغتصاب النمسا

عندما تنهزم دولة من الدول أثناء الحرب، فإنها تبقى محتفظة بكيانها وجهازها وسرية وثائقها. وقد استطعنا أن نحصل على أسرار العدو بكامله، بعد أن خضنا غمار الحرب إلى نهايتها. وكان بإمكاننا أن نتأكد من صحة المعلومات التى توفرت لنا فى السابق، وما قمنا به أثناء الحرب على ضوء تلك المستندات والوثائق التى حصلنا عليها فى النهاية. ففى شهر تموز عام ١٩٣٦، كان هتلر قد أصدر أوامره بإجراء الاستعدادات ووضع الخطط لاحتلال النمسا عندما يحين الوقت المناسب. وقد دعيت هذه العملية عملية «اوتو». وقد كشف عن مخططه هذا فى الخامس من شهر تشرين الثانى عام ١٩٣٧ عندما قال لقادة القوات المسلحة بأنه يترتب على ألمانيا أن تضمن لنفسها «مداها الحيوى» وهذا المدى يمكن ضمانه فى شرقى أوروبا، أى بولندا وروسيا البيضاء وأوكرانيا. أما احتلال هذه البلدان فيعنى حرباً رئيسية وإبادة للشعوب التى تعيش فى تلك المناطق. لذلك وجب على ألمانيا أن تصفى حسابها أيضاً مع «العدوين المكروهين» إنكلترا وفرنسا اللتين تعتبران أن قيام العملاق الألمانى وسط أوروبا سيكون غير محتملاً. ولكى تستغل ألمانيا ما وصلت إليه من تفوق فى الميدان العسكرى، وما بعثه الحزب النازى من حماس وطنى صادق، فإن من الواجب عليها أن تقوم بالهجوم فى أول فرصة ممكنة، لكى تقضى على هاتين العدوتين، قبل أن تتمكنا من الاستعداد.

لقد كان هناك سببان آخران دفعا بهتلر إلى اغتصاب النمسا خلاف ما ذكره من تصميم فى كتابه «كفاحى» من رغبته فى ضم جميع الشعوب

التوتونية إلى الرايخ. فاحتلال النمسا يعنى فتح أبواب تشيكوسلوفاكيا من جهة، ومداخل جنوب شرق أوروبا من جهة أخرى.

أما داخل النمسا فكانت الحركة النازية تنمو مع كل انتصار يحققه هتلر سواء فى داخل ألمانيا أو فى خارجها. وقد صدرت تعليمات خاصة إلى فون بابن لكى يبقى على أحسن العلاقات مع الحكومة النمساوية بالإضافة إلى محاولته الحصول على اعتراف رسمى من الحكومة بالحزب النازى النمساوية كمؤسسة مشروعة. وأتقن فون بابن دوره وعمل بذكاء كبير داخل النمسا، وقد رضخ الكثير من الزعماء النمساويين لضغطه ومكائده. وكانت الحركة السياحية التى تعتمد عليها النمسا، قد تأثرت إلى حد كبير نتيجة للاضطرابات الداخلية ولأعمال الإرهاب ولحوادث القنابل التى كانت تهز أسس الجمهورية النمساوية.

وساد الاعتقاد أن الوقت قد حان لاستلام زمام الأمور عن طريق إدخال زعماء الحزب النازى النمساوى إلى الحكم عن طريق الوزراء، بعد أن تم الاعتراف به مؤخراً...

وفى الثانى عشر من شهر شباط عام ١٩٣٨ استدعى هتلر المستشار النمساوى الهر فون شوشنيغ إلى مقره فى برختسغادن. وحضر المستشار برفقة وزير خارجيته غيدو شميدت. وبين أيدينا الآن نسخة عما كتبه شوشنيغ عن هذه المقابلة التى جرت بينه وبين هتلر، وننقل النص الحرفى لهذا الحوار.

وقد بدأ هتلر بالسخرية من التحصينات العسكرية التى أقامتها الحكومة النمساوية على الحدود، وقال إنها لا تتطلب أى مجهود من المعتدى سوى عملية عسكرية بسيطة لإزالتها من الوجود. ثم استطرد قائلاً:

هتلر: لن أحتاج إلا لإصدار أمر، وستختفى هذه الخيالات المضحكة التى

وضعتموها على الحدود، فى ليلة واحدة. ولا أظن أنكم تصدقون أن فى إمكانكم الوقوف أمامى أكثر من نصف ساعة. ومن يعلم، فقد أصل إلى فيينا فجأة كعاصفة من عواصف الربيع. وعندئذ ستختبرون تجربة جديدة. لكنى أريد أن أوفر عليكم هذه التجربة، التى ستكلفكم الكثيرين من الضحايا. فبعد الجيش، سيصل جيش الصاعقة، ثم الحرس النازى. وعندئذ لن يتمكن أحد من أن يمنعهم من الثأر، حتى أنا نفسى. فهل تريد أن تجعل من النمسا إسبانيا أخرى. إن كل ما أريده أنا هو تجنيبكم كل هذا.

شوشنيغ: سأوقف عملية التحصينات الدفاعية على الحدود فى الحال، كما أنى واثق من أنك تستطيع أن تزحف على النمسا. ولكن، يا سيدى المستشار، إن زحفكم هذا سيؤدى إلى سفك الكثير من الدماء وربما سيؤدى إلى حرب عالمية، فأنت تعلم أننا لسنا وحيدين فى العالم!

هتلر: إنه لمن السهل أن تقول كل هذا وأنت جالس على كرسيك المريح، إلا أن وراء هذه الأقوال الكثير من الويلات والدماء. فهل أنت على استعداد لتحمل مسؤولية كلامك؟ لا تعتقد أن فى هذا العالم من يستطيع أن يقف بينى وبين ما قررت أن أنفذه. أتقصد إيطاليا؟ لقد تفاهمت مع موسولينى ونحن الآن على خير ما نكون. من؟ إنكلترا؟ لن ترفع إصبعاً واحداً من أجلكم! فرنسا؟ لقد غامرت، منذ سنتين، عندما زحفت لاحتلال منطقة الراين بمجموعة من الكتائب. ولو قابلت فرنسا هذا الزحف بالهجوم لاضطررت إلى الانسحاب... أما الآن فقد أضاعت فرنسا الفرصة على نفسها.

حصلت تلك المقابلة الأولى فى تمام الساعة الحادية عشرة صباحاً. وبعد الغذاء استدعى النمساويون إلى غرفة صغيرة كان بانتظارهم فيها ريبنتروب وبابن، حيث قاما بتسليمهم الإنذار الخطى الذى لم يكن يقبل أية مناقشة. وقد تضمن الإنذار تعيين سايكس ـ انكورات وهو نمساوى نازى، وزيراً للأمن فى الحكومة النمساوية. كذلك تضمن الإنذار عفواً شاملاً عن جميع النازيين

المعتقلين، ثم ضم الحزب النازى النمساوى رسمياً إلى الجبهة الوطنية التى تشرف عليها الدولة.

وبعد ذلك استقبل هتلر المستشار شوشنيغ وقال له: «سأكرر عليك، إن هذه هى فرصتكم الأخيرة. وإنى منتظر تنفيذ الشروط خلال ثلاثة أيام». وفى مذكرات «يودل» عن هذه الحادثة نفسها العبارة التالية: «وقد تعرض فون شوشنيغ وغيدو شميدت إلى أعنف ضغط سياسى وعسكرى، إلى أن وقع البروتوكول فى تمام الساعة الحادية عشر مساء، وعندما عاد فون بابن مع شوشنيغ قال له: «هذه هى طريقة الفوهرر، وقد اختبرتها بنفسك، ولكن فى المرة المقبلة سيكون الفوهرر شخصاً آخر، إنه للحقيقة ساحر كبير».

ومضت المهزلة بأن أرسل موسولينى برسالة شفوية إلى شوشنيغ يقول له إن ما جرى فى برختسغادن كان مشرفاً وعادلاً. ثم أكد له أن موقف إيطاليا من النمسا لن يتغير أبداً، كذلك أعرب له عن إخلاصه وصداقته الشخصية له. وفى الثالث من شهر آذار بعث شوشنيغ برسالة سرية إلى موسولينى يعلمه فيها أنه قد عزم على إجراء استفتاء شعبى عن الوضع السياسى. وبعد أربع وعشرين ساعة جاءه الرد من الملحق العسكرى لبلاده، يخبره باجتماعه بموسولينى ويحذره من مغبة هذا الاستفتاء الذى وصفه بأنه «خطيئة» وقال إن كانت النتيجة مرضية فسيقول الناس إن الاستفتاء لم يكن نزيهاً، أما إذا لم يكن مرضياً فستصبح وضع الحكومة حرجاً للغاية. وإذا كانت النتيجة //// فلن تكون ذات نفع على الإطلاق. إلا أن شوشنيغ لم يأخذ بنصيحة موسولينى وتحذيره، فقد أعلن فى اليوم التاسع من شهر آذار عن رغبته فى إجراء استفتاء عام فى جميع البلاد صباح الأحد المقبل فى الثالث عشر من الشهر الجارى.

وفى بداية الأمر، بدا أن سايكس ـ انكوارت قد قبل بالفكرة. إلا أنه فى صباح يوم الحادى عشر تلقى شوشنيغ مكالمة هاتفية من مركز الشرطة فى

فيينا تقول إن الحدود الألمانية فى سالزبورغ قد أقفلت، وسحب موظفو الجمارك الألمان وقطعت مواصلات السكك الحديدية. ووصلت رسالة ثانية من القنصل فى ميونيخ تقول إن القوات الألمانية متأهبة للتوجه إلى النمسا...

وبعد قليل وصل سايكس ـ انكوارت ليخبره أن غورنغ طلب منه أن يلغى الاستفتاء خلال ساعة. وإذا لم يصله الرد بالإلغاء خلال المدة المذكورة فسيفترض أن سايكس ـ انكوارت قد منع من استخدام الهاتف للاتصال به. وأنه سيتصرف على ضوء هذا الافتراض. وعندما علم شوشنيغ أن الجيش لا يمكن الاعتماد عليه، أبلغ سايكس ـ انكوارت أن الاستفتاء قد ألغى. وبعد ربع ساعة عاد هذا يحمل إليه خبراً سجله على ورقة كتب فيها:

«لا يمكن إنقاذ الوضع إلا باستقالة شوشنيغ فى الحال، وإذا لم يعين سايكس ـ انكوارت خلال ساعتين مستشاراً، فإن غزو ألمانيا للنمسا سيتلوه فوراً».

وفى خلال هذا الوقت انتظر شوشنيغ وصول الرئيس ميكلاس ليقدم له استقالته. وعندما دخل إلى مكتب الرئيس جاءته رسالة بالشيفرة من الحكومة الإيطالية تقول إنه ليس فى إمكانها تقديم النصح مرة أخرى أو أن تقوم بأى عمل من أجلهم. ورفض الرئيس تعيين المستشار النازى، وقرر أن يجبر الألمان على القيام بأعمال عنيفة معيبة. لكنهم كانوا على أتم الاستعداد لارتكاب هذه الأعمال، فأصدر هتلر أوامره بالزحف على النمسا ومباشرة عملية «أوتو».

وفى محاكمات نورمبرغ قدمت هذه المحادثة الهاتفية التى دارت بين هتلر وبين الأمير فيليب هيسى، مبعوثه الخاص إلى الدوتشى، التى قدمت كوثيقة مهمة، وجدنا أن ننقلها بنصها الحرفى:

هيسى ـ لقد وصلت لتوى من قصر البندقية. وقد وافق الدوتشى على الموضوع بروح ودية. وهو يرسل إليك بالتحيات والاحترام. وقد وصلته

المعلومات من النمسا ومن شوشنيغ بالذات. وأعلن أن تدخل إيطاليا هو مستحيل، وهو لن يعدو أن يكون إلا كذبة كبيرة أو «بلفة» وليس فى إمكانه أن يقوم بها. وهكذا أفهم شوشنيغ أن سوء الحظ قضى بذلك، ولا يمكن تبديل الأمور الآن. ولم يلبث أن أعلن موسولينى أن أمر النمسا لا يهمه على الإطلاق.

هتلر ـ حسناً، أخبر موسولينى، أنى لن أنسى عمله هذا.

هيسى ـ نعم.

هتلر ـ أبداً، أبداً، مهما حصل. وأنا لازلت مستعداً لإجراء معاهدة مختلفة معه.

هيسى ـ نعم، وقد أخبرته بذلك أيضاً.

هتلر ـ وعندما تنتهى عملية النمسا، سأكون مستعداً للمضى معه إلى آخر الطريق. ولن يهمنى شىء.

هيسى ـ نعم أيها الفوهرر.

هتلر ـ اسمع، سأعقد أية معاهدة. ولن أخشى بعد الآن عما سيترتب من الناحية العسكرية إذا ما اشتبكنا فى صراع ما. ويمكنك إبلاغه شكرى العميق، ولن أنسى مطلقاً عمله هذا.

هيسى ـ نعم، أيها الفوهرر.

هتلر ـ لن أنساه مطلقاً، مهما حدث. وإذا ما احتاج إلى أية مساعدة، أو حين يجد نفسه فى أى خطر فليثق بأنى سألازمه مهما حدث، ولو كان العالم كله ضده.

هيسى ـ نعم، أيها الفوهرر.

ولا شك عندما قام بإنقاذه من الحكومة المؤقتة الإيطالية عام ١٩٤٣ قد

وفى هتلر بوعده.

لقد كانت أمنية العريف النمساوى، أن يدخل إلى فيينا دخول المنتصرين. وفى يوم السبت فى الثانى عشر من شهر آذار، أعد الحزب النازى استقبالاً حافلاً للبطل المظفر. إلا أنه لم يصل أى شخص إلى العاصمة، بل وصل ثلاثة من الجنود البافاريين الذين قدموا لإعداد الترتيبات اللازمة للجيش المحتل، فرفعوا على الأكتاف. وبدأت الأخبار تتسرب ببطء، فقد توقف الجيش عند الحدود متردداً، ثم بعد ذلك عند لينز. وبالرغم من الأحوال الجوية المؤاتية وسهولة المواصلات، فقد تحطمت معظم الدبابات. وبانت نقائص المدفعية الثقيلة وعيوبها، التى سدت الطريق من لينز إلى فيينا المتوقفة عن الحركة. وقد ألقى باللوم على الجنرال فون ريخناو، وهو من أقرب المقربين إلى الفوهرر، الذى كشف التقصير الفاضح فى تجهيزات الجيش الألمانى.

وقد استاء الفوهرر كثيراً حين مر فى شوارع لينز ورأى هذه الفوضى فى حركة السيارات، وأمر بفصل الدبابات الخفيفة لتستمر فى مسيرها، وهكذا دخلت العاصمة فى صباح يوم الأحد، ثم نقلت السيارات المصفحة والمدفعية الثقيلة وغيرها فى شاحنات ضخمة لتصل إلى فيينا فى الموعد المحدد وتشترك فى الاستعراض. ولا شك أن صورة هتلر، لا تزال ماثلة أمام أعيننا، حين عبر بسيارته شوارع فيينا بين ألوف الجماهير المحتشدة، منهم المتحمس له ومنهم الخائف منه. إلا أن الفوهرر لم يكن راضياً عن فشل آلياته الثقيلة، وراح يوزع التهم على جنرالاته الذين ردوا عليه بأنهم حذروه من مغبة هذا الهجوم لأن الجيش لم يكن مهيئاً بعد للاشتراك فى صراع كبير. إلا أن الجميع سيطروا على أعصابهم، فاحتفظوا بالمظاهر، وسارت الاحتفالات الرسمية والاستعراضات فى مواعيدها. وبانتهاء الاستعراض وقف هتلر وأعلن حل الجمهورية النمساوية، وضمها إلى الرايخ الألمانى.

فى هذه اللحظة كان الهرفون ريبنتروب يستعد لمغادرة لندن لاستلام مهام منصبه الجديد كوزير للخارجية. وقد دعى المستر تشمبرلين، فى هذه المناسبة إلى حفلة غداء تقام على شرف السفير بمناسبة سفره.. وكنت من جملة المدعوين. وكانت زوجتى تجلس قرب السير الكسندر كادوغان على مقربة من طرف الطاولة. وبينما كنا نتناول الطعام جاء رسول من وزارة الخارجية يحمل رسالة إلى السير الكسندر، الذى ما إن قرأها حتى هب واقفاً من مكانه، ثم تقدم من رئيس الوزراء وسلمه الرسالة. وقد لاحظت أن الرئيس قد غرق فى قراءة الرسالة، التى بدت مهمة للغاية، بينما عاد السير الكسندر إلى مكانه بكل هدوء. وكانت محتويات الرسالة، كما علمت بعد ذلك، أن هتلر قد غزا النمسا فى هذه اللحظة، وأن قواته تتقدم نحو العاصمة. وبعد قليل، قامت السيدة تشمبرلين ودعت الحضور إلى شرب القهوة فى غرفة الجلوس. وبدا فى هذه الدقيقة أن المستر تشمبرلين وزوجته أرادا إنهاء المأدبة بأسرع وقت، فسيطر شعور من الخوف والقلق على الحضور، وقاموا ليودعوا ضيف الشرف.

أما فون ريبنتروب فكان محتفظاً بهدوئه ووقاره، كأنه غير عالم بما يحدث فى تلك اللحظات. وتقدمت من السيدة ريبنتروب، وقلت لها «أرجو أن تتمكن ألمانيا وإنكلترا من الحفاظ على صداقتهما...» وقد أجابتنى بلهجتها الرقيقة... «أرجو أن تحرصوا على أن لا تفقدوا هذه الصداقة». وأكد لى أن السفير وزوجته كانا على علم بما جرى، وأنهما يحاولان إبعاد الرئيس تشمبرلين عن عمله وعن جهاز الهاتف. إلا أنه اضطر إلى أن يقول للسفير «أنا آسف جداً، لاضطرارى للذهاب لأمر مهم جداً...» ثم غادر الغرفة على الفور. وبقى فون ريبنتوب وزوجته، حتى اضطر الجميع بعد ذلك إلى مغادرة المنزل. وكانت هذه آخر مرة شاهدت الهر ريبنتروب قبل أن يشنق.

وتحرك الروس هذه المرة، ليدعوا إلى مؤتمر عام لبحث الوضع العام.

واقترحوا إعادة البحث فى مشروع تنفيذ الميثاق الفرنسى ـ السوفياتى، ضمن حدود عصبة الأمم، فى حال تكررت تهديدات ألمانيا للسلام. إلا أن باريس ولندن استقبلتا هذا الاقتراح بكثير من البرود. فقد كانت فرنسا منشغلة بأشياء أخرى. وكان المستر تشمبرلين لا يزال على تشاؤمه وانهيار معنوياته، ولم يكن ليتفق معى حول تفسير الأخطار المتوقع حصولها وإمكانية تجنبها أو معالجتها حين تحصل. فقد كنت فى ذلك الوقت أحبذ هذه الفكرة، أى فكرة قيام تحالف فرنسى ـ بريطانى ـ روسى، وكنت متأكداً أن هذا هو الحل الوحيد لكبح جماح النازيين.



الفصل الثامن

تشيكوسلوفاكيا

عندما كان هتلر متجهاً فى سيارته نحو فيينا، التفت إلى الجنرال فون هولدر وقال له «لا شك أن خطوتنا هذه ستقلق التشيكيين». وأدرك هولدر على الفور ما قصده هتلر بكلمته تلك، وظهرت له نواياه المقبلة.

وقد سمعنا أن غورتغ، يوم دخلت الجيوش الألمانية أراضى النمسا، قال للوزير التشيكى المفوض فى برلين - مؤكداً له بصورة قاطعة - بأنه ليس لألمانيا أية نوايا سيئة ضد تشيكوسلوفاكيا. كما أعلن المسير بلوم، رئيس وزراء فرنسا يوم الرابع عشر من شهر آذار، فى حديث له مع الوزير المفوض فى باريس، أعلن له بكل جدية ووقار، أن فرنسا ستقوم بالتزاماتها تجاه تشيكوسلوفاكيا دون أى قيد أو شرط. إلا أن جميع هذه التأكيدات لم تستطع أن تغير شيئاً من الحقيقة الرهيبة.

ومن جهة ثانية، حاولت بريطانيا الوصول إلى اتفاق مع إيطاليا حول البحر الأبيض المتوسط، رغبة منها فى وقف ألمانيا عند حدها، كما أن مثل هذا الاتفاق سيقوى من مركز فرنسا، ويمكنها هى من مراقبة ما يجرى من أحداث فى أواسط أوروبا. وقد حاول موسولينى أن يتخذ لنفسه مركزاً قوياً للمساومة خاصة بعد أن اطمأن لسقوط أيدن. فقرر الاتفاق مع بريطانيا، وتم توقيع الاتفاق الإنكليزى الإيطالى فى السادس عشر من شهر نيسان عام ١٩٣٨، الذى يقضى بالسماح لإيطاليا بالعمل فى الحبشة وإسبانيا على هواها، مقابل حسن نيتها فى أواسط أوروبا. وكانت وزارة الخارجية كثيرة

التشكك فى هذه الاتفاقية. وقد قال لنا مؤرخ حياة تشمبرلين، فيليتغ: إنه كتب فى رسالة شخصية خاصة: «لو رأيت مسودة الاتفاقية التى قدمتها وزارة الخارجية، لقلت إنها كافية لان تجمد دباً قطبياً!»

وكنت من ناحيتى أشاطر وزارة الخارجية مخاوفها تلك.

وكان هتلر من جهته يراقب الوضع باهتمام، فهو يعلم أن موسولينى بحاجة إلى مساعدته حين تطلق يده للعمل فى الحبشة، وهذا ما سيفرض عليه قبول ما ستعمله ألمانيا فى تشيكوسلوفاكيا. وراحت الدوائر الرسمية تدرس البيانات الإنكليزية والفرنسية، وشعرت بارتياح لعزم الدولتين الغربيتين على إقناع التشيكيين بوجوب التروى حفاظا على السلام فى أوروبا. وفى هذه الأثناء، بدأ الحزب النازى السودينى بزعامة هانلاين، بوضع لائحة بمطالبه المتضمنة الحصول على الحكم الذاتى فى المناطق المجاورة لألمانيا. وسارع الوزيران البريطانى والفرنسى إلى زيارة الوزير التشيكى لإقناعه و«للأعراب عن أملهما الصادق فى أن تمضى الحكومة التشيكية إلى هذا الحد، رغبة منها فى تسوية النزاع وحسمه».

وفى شهر آيار، وصلت التعليمات من ألمانيا، إلى الألمان فى تشيكوسلوفاكيا، بزيادة الاضطرابات. وكان موعد الانتخابات قد حان، وبدأت الحكومة الألمانية تساعد الفوضى، بحملة مركزة من حرب الأعصاب، والإشاعات القائلة إن القوات الألمانية تتجمع على الحدود التشيكية. ولم تؤد التطمينات التى أذاعتها حكومة ألمانيا، إلى تهدئة التشيكيين الذين أعلنوا هم أيضا التعبئة العامة فى صفوفهم.

لقد كان هتلر متيقناً أن إنكلترا وفرنسا لن تدخلا الحرب دفاعاً عن تشيكوسلوفاكيا. لذلك دعا مستشاريه وأصدر التعليمات بالاستعداد للهجوم على تشيكوسلوفاكيا. إلا أن هذا الهجوم المطلوب لم يكن بالأمر السهل، إذ يترتب على ألمانيا أن تقذف نحوا من خمس وثلاثين فرقة عسكرية لتتمكن من اختراق

الخطوط الدفاعية التشيكية، فالجيش التشيكى يعتبر من أحدث الجيوش كفاءة وتجهيزاً. هذا بالإضافة إلى أن روسيا السوفيتية مرتبطة مع تشيكوسلوفاكيا، وهى تتربص بألمانيا فى حال محاولتها الهجوم على الأراضى التشيكية.

إلا أن هتلر، بالرغم من اعتقاده بنجاح فكرته بالاستيلاء على تشيكوسلوفاكيا، فقد حاول أن يطمئن قادته الذين عارضوا فكرته تلك، بأن قال لهم بأنه لن يبدأ هجومه إلا حين يتأكد أن فرنسا وإنكلترا لن تتدخلا فى هذه المعركة. إلا أنه فى الثانى عشر من شهر أيلول وفى خطاب ألقاه فى اجتماع لشبيبة الحزب فى نورمبرغ، هاجم الحكومة التشيكوسلوفاكية بعنف، ولم تلبث الحكومة هذه أن ردت عليه فى اليوم الثانى بأن فرضت الأحكام العرفية فى بعض المناطق من الجمهورية...

وفى الحادى والعشرين من شهر أيلول ألقى لتفينوف فى جلسة الجمعية العامة لعصبة الأمم إنذار رسمياً هذا نصه:

«إن جمهورية تشيكوسلوفاكيا، تعانى فى الأيام الحاضرة من تدخل إحدى الدول الأجنبية المجاورة، فى شؤونها الداخلية، كما أنها تتعرض لتهديد سافر بالهجوم عليها. ولذلك سيجد هذا الشعب الذى نعتبره من أعرق الشعوب الأوروبية حضارة، والذى كافح طويلاً من أجل الحصول على استقلاله، سيجد هذا الشعب نفسه مضطراً على حمل السلاح من أجل الدفاع عن كيانه واستقلاله. وقد تلقيت منذ أيام سؤالا من الحكومة الفرنسية، عن موقف بلادى فى حال تعرضت تشيكوسلوفاكيا لهجوم أجنبى مفاجئ. وقد وجهت إلى الحكومة الفرنسية جواب بلادى الصريح التالى:

«إننا سنقوم بالتزاماتنا وسنطبق ميثاق عصبة الأمم، وستقدم كل مساعدة ممكنة لتشيكوسلوفاكيا، وذلك بالتعاون مع فرنسا. كما أن وزارة الحربية على أتم الاستعداد للاشتراك فى أى مؤتمر ينعقد بين فرنسا وتشيكوسلوفاكيا لدرس الوسائل المناسبة لمواجهة الأحداث». كما أن حكومتى

قد تلقت من الحكومة التشيكوسلوفاكية سؤالا حول موقف الاتحاد السوفييتى هل هو على استعداد لتقديم المساعدات بموجب الاتفاق السوفييتى - التشيكى، إذا قامت فرنسا هى الأخرى بالوفاء بالتزاماتها. وكان جواب حكومتى على هذا السؤال واضحاً بالإيجاب».

ولم يلق هذا البيان الصريح أذناً صاغية لا من حكومة بريطانيا العظمى ولا من حكومة فرنسا. فقد تجاهلت الدولتان هذا العرض، ولم يحسب أى حساب لهذه الدولة الكبرى. وقد أثرت هذه المعاملة المنطوية على الكثير من الازدراء، وتركت أثراً كبيراً على عقلية ستالين وتفكيره، وقد كلفنا الازدراء والتجاهل الكثير من التضحيات الغالية فيما بعد.

وألقى هتلر فى السادس والعشرين من الشهر الحالى، خطاباً هاجم فيه بعنف تشيكوسلوفاكيا ورئيسها، إلا أنه كان معتدلا تجاه فرنسا وبريطانيا العظمى. ومما قاله فى خطابه، «إنه يجب على تشيكوسلوفاكيا أن تتخلى فوراً عن بلاد السوديت، وأنها إذا ما تخلت عن هذه المناطق، فسيعتبر القضية منتهية تماماً ولن يعود يهمه أمر تشيكوسلوفاكيا على الإطلاق». وأضاف بقوله أن هذا المطلب هو آخر مطلب إقليمى له فى قارة أوروبا». وفى الساعة الثامنة من الليلة نفسها صدر البلاغ التالى عن وزارة الخارجية البريطانية:

«بالرغم من المحاولات المبذولة من جانب بريطانيا لتسوية المشكلة التشيكوسلوفاكية، وإذا ما حدث أن تعرضت البلاد إلى هجوم ألمانى عليها، فإن فرنسا ستسارع إلى مساعدتها. كما أن بريطانيا العظمى والاتحاد السوفييتى سيقفان بلا شك، إلى جانب فرنسا».

وشعرت أن ساعة القتال قد اقتربت، فقد كان عدد الجيش التشيكى مليوناً ونصف المليون من الجنود بأحدث الأجهزة، تساندهم آليات جبارة رائعة التنظيم. وبدأت تعبئة الجيش الفرنسى فى الحال، كما أصدرت الأميرالية البريطانية الأوامر بتعبئة الأسطول.

وفى هذه الأثناء، بدأ الصراع بين هتلر ومستشاريه. فقد بدا لهم أن الأزمة قد تفاقمت بشكل خطير. فهناك نحو من ثلاثين إلى أربعين فرقة مدرعة قد احتشدت على طول الحدود الشرقية لألمانيا، كما أن الجدار الغربى للبلاد قد سدته الحشود الفرنسية التى كانت تفوق قوة ألمانيا بنسبة ثمانية إلى واحد. كذلك الجيوش السوفييتية التى راحت تشق طريقها عبر بولندة ورومانيا.. وفى الحال قام فريق من الجنرالات الألمان بمؤامرة لاعتقال هتلر و«إنقاذ ألمانيا من هذا المجنون».

وفى هذا الوقت، أبرق المستر تشمبرلين إلى هتلر، دون أن يستشير أحداً، مقترحاً عليه زيارته وطار المستر تشمبرلين إلى ألمانيا وقد اقتنع أن حل المشكلة التشيكية هو فى فصل منطقة السوديت عن تشيكوسلوفاكيا، ولذلك سيقنع هتلر ويتخلى عن هجومه. وفى ميونيخ، حيث نزل المستر تشمبرلين، لحق به المسيو ديلادييه رئيس وزراء فرنسا، وموسولينى، ولم توجه دعوة إلى روسيا لحضور هذا الاجتماع، كما لم يسمح للتشيكيين بالحضور أيضاً. وقد أبلغت الحكومة التشيكوسلوفاكية بأن مؤتمراً سينعقد فى اليوم التالى يضم ممثلين عن الدول الأوروبية الأربع فقط. وانعقد المؤتمر عند الظهر من اليوم نفسه واستمر حتى الساعة الثانية من صباح اليوم التالى، وتم الوصول إلى اتفاق بين «الأربعة الكبار»، وأعدت مذكرة وقع عليها الجميع فى الجلسة نفسها، وكانت المذكرة تتضمن قبولاً بكل ما تطلبه ألمانيا وموافقة تامة على وجوب الجلاء عن منطقة السوديت خلال عشرة أيام، كما تقرر تعيين لجنة دولية للإشراف على تخطيط الحدود النهائية.

وهكذا بدأت عملية تقطيع تشيكوسلوفاكيا. ولم تنته المشكلة عند هذا الحد، فقد وجهت بولندا إنذاراً إلى الحكومة التشيكوسلوفاكية يقضى بتسليم منطقة «تيشين» الواقعة على الحدود بين البلدين، وذلك خلال أربع وعشرين ساعة، ولم يكن هناك من سبيل لرفض هذا المطلب القاسى. كما جاء

المجريون يطالبون هم أيضا بحصتهم من الغنيمة.

ليس من السهل، بعد أن مررنا خلال تلك السنوات القاسية أن نصور للأجيال القادمة حقيقة المشاعر المتأججة فى نفوس البريطانيين نتيجة لاتفاق ميونيخ. فقد انقسم الرأى بين أفراد أسر المحافظين وأصدقائهم إلى حد كبير جداً لم أر مثيلاً له فى حياتى. وكان الرجال والنساء الذين تربطهم ببعضهم البعض علاقات متينة ينظرون إلى بعضهم البعض نظرات كلها احتقار وغضب. ونحن لم نكن لنهتم كثيراً آنذاك بالرغم من نظرات السخرية والهزء التى يقابلنا بها أنصار الحكومة. واهتزت أركان الحكومة. إلا أنها ظلت متماسكة. ولم يصعد إلا وزير البحرية المستر دا فكوبر، الذى قدم استقالته بعد أن بقى محافظاً على كرامته حين أمر بتعبئة الأسطول. ففى الوقت الذى كان المستر تشمبرلين يسيطر على الرأى العام البريطانى سيطرة تامة، كان المستر كوبر يندفع من بين الصفوف ليعلن إلى الرأى العام معارضته التامة لموقف رئيسه.

وألقى المستر كوبر خطاب استقالته، فى مجلس العموم أثناء مناقشة موضوع اتفاق ميونيخ. وقد اعتبرت هذه الاستقالة حدثاً بارزاً فى الحياة البرلمانية. وتحدث الوزير لمدة أربعين دقيقة بحرية تامة مرتجلا خطاباً وطنيّاً سيطر فيه على مشاعر خصومه ومعارضيه من نواب الحزب. وصفق له نواب العمال والأحرار المعارضين للحكومة، طويلاً وهتفوا له محبين. وكانت هذه الحادثة بداية انشقاق فى حزب المحافظين.

ولا زلت أذكر حين قمت فى المجلس وأعلنت «أننا قد منينا بهزيمة منكرة لم يسبق لها مثيل، فقد ثارت ضدى عاصفة ضخمة فى المجلس مما اضطرنى إلى التوقف عن الكلام لفترة قبل أن أعود إلى متابعة كلامى. فقد كان هناك شعور من الإعجاب بما يبذله المستر تشمبرلين من جهود صادقة للمحافظة على السلام، وخاصة محاولاته الشخصية التى قام بها فى هذا

الصدد. وهنا لا بد لى من ذكر الأخطاء وسوء التقدير للحقائق الراهنة التى وقع فيها تشمبرلين فى محاولاته، وإن كنت لا أعارض الدوافع التى حدت به إلى اتخاذ المواقف التى وقفها والتى تحتاج إلى الكثير من الشجاعة الأدبية التى كان المستر تشمبرلين يتمتع بها. وقد مدحت فيه هذه الشجاعة بعد عامين فى خطابى الذى ألقيته بمناسبة وفاته.

لقد كان فى إمكان الحكومة أن تعتمد حجة أخرى، بالرغم من أنها تعرض بسمعة الحكومة نفسها. فلم يكن أمر عدم استعدادنا لدخول الحرب بالأمر الخفى، لكن هل كان من هو أسرع منى للإدلال على هذه الحقيقة؟ لقد سمحت بريطانيا للقوة الجوية الألمانية أن تتفوق عليها. وكانت جميع مراكزنا معرضة للهجوم، دون أية حماية. ولم يكن فى بلد من أكبر بلدان العالم وأكثرها كثافة فى السكان، سوى مائة مدفع مضاد للطائرات. وهذا المثل من أبسط الأدلة على الواقع الأليم.

لقد أدى اتفاق ميونيخ إلى سلب الحلفاء جيشاً قوياً، هو الجيش التشيكوسلوفاكى المجهز بإحدى وعشرين فرقة نظامية، بالإضافة إلى فرق الخط الثانى التى تبلغ ست عشرة فرقة. أما خط دفاعها المحصن، فقد كان يتطلب فى هذه الأثناء، ثلاثين فرقة ألمانية أى ما يعادل قوة الجيش الألمانى الرئيسية بأسرها. وقد ذكر الجنرال الألمانى يودل أن ثلاث عشرة فرقة ألمانية، بقيت فى الغرب عندما جرى توقيع اتفاقية ميونيخ. وكانت الخسارة الفادحة حين قضت تلك المعاهدة بسلخ جزء مهم من الأراضى التشيكية بما فيها مصنع سكودا البالغ الأهمية الذى كان يعتبر أهم مصنع فى أوروبا الوسطى، وكان إنتاجه بين شهر آب ١٩٣٨ وأيلول ١٩٣٩ معادلاً لما تنتجه جميع المصانع البريطانية من سلاح. وبذلك أصبح هذا المصنع ملكاً خاصاً لهتلر قدمناه له على طبق من فضة.



الفصل التاسع

براغ، ألبانيا، وضمانة بولندا

فى شهر كانون الثانى عام ١٩٣٩، سافر فون ريبنتروب إلى وارسو لمواصلة هجومه الدبلوماسى المركز على بولندا، فابتلاع تشيكوسلوفاكيا يجب أن يتبعه حصر بولندا. والمرحلة الأولى تقضى بعزلها عن البحر وتأكيد سيادة ألمانيا فى دانزيغ، ومد سلطتها على سواحل البلطيق حتى ميناء ميميل الليتونى. أما الحكومة البولندية فقد قاومت بشدة هذا الضغط، بينما كان هتلر يترقب الفرصة المناسبة لبدء العمليات العسكرية.

وفى شهر آذار انتشرت الشائعات عن تحركات مريبة تقوم بها الجيوش الألمانية فى ألمانيا والنمسا، خاصة فى منطقة فينا سالزبورغ وقد قالت الشائعات إن أربعين فرقة قد أصبحت جاهزة للمعركة. وفى الوقت نفسه كان السلوفاكيون بعد أن تأكدوا من أن ألمانيا ستقوم بمعاونتهم، يخططون لفصل بلادهم عن الجمهورية التشيكوسلوفاكية. وأحست بولندا بشىء من الارتياح، بعد أن زال الخطر عنها مؤقتاً، وأعلن وزير خارجيتها فى وارسو أن حكومته تعطف على مطالب وآمال السلوفاكيين.

وفى بريطانيا ساد الشعور بالتفاؤل الضال على الرغم من المحن التى كانت تقاسيها تشيكوسلوفاكيا فى ذلك الحين نتيجة للضغط الهائل من ألمانيا، أما الصحف البريطانية التى سبق وأيدت اتفاقية ميونيخ، فلم تفقد ثقتها فى السياسة التى جرت إليها البلاد. وقام وزير الداخلية وألقى خطابا فى العاشر من شهر آذار أعرب فيه عن أمله فى مشروع خمس سنوات من السلم يؤدى

بعد ذلك إلى خلق «العصر الذهبى». وكان البحث جارياً لإنشاء علاقات تجارية مع ألمانيا. وقامت الصحيفة الأسبوعية الشهيرة "بنش" بنشر صورة كاريكاتورية لجون بول، وهو يستيقظ من كابوس مرعب. وفى اليوم نفسه الذى نشرت فيه هذه الصورة، وجه هتلر أخر إنذار إلى الحكومة التشيكية التى أصبحت ضعيفة وأمنه بعد أن ضاعت خطوطها الدفاعية المحصنة نتيجة لاتفاقية ميونيخ وهجمت الجيوش الألمانية على العاصمة براغ واحتلتها دون مقاومة. ولازلت أذكر أنى كنت فى غرفة التدخين، أجلس مع المستر إيدن حين طالعتنا صحف المساء بهذا النبأ المهم، وقد ذهلنا من هذا العدوان السافر المفاجئ الذى لم نكن نتوقعه، ولم نصدق أن حكومة جلالته، بما لديها من أجهزة قوية للاستخبارات لم تعلم من قبل بمثل هذا الهجوم المفاجئ.

وفى اليوم الرابع عشر من آذار أعلن السلوفاكيون استقلالهم. واجتازت القوات الجوية التى تؤيدها بولندا، الحدود إلى المناطق الشرقية من تشيكوسلوفاكيا التى سبق وطالبت بها. ووصل هتلر بعد قليل إلى براغ ليعلن فرض حماية ألمانيا على تشيكوسلوفاكيا ويعلن ضمها إلى الرايخ الألمانى.

وكان رد المستر تشمبرلين على هذا العدوان فى خطاب ألقاه فى مجلس العموم يوم الخامس من شهر آذار حيث قال: «فى تمام الساعة السادسة من هذا الصباح تم احتلال القوات الألمانية لبوهيميا، كما أصدرت الحكومة التشيكوسلوفاكية: أوامرها بعدم المقاومة ثم قال عن الضمانة البريطانية لحدود تشيكوسلوفاكيا «لقد تبدلت الأوضاع كلية عندما أعلن مجلس الداييت السلوفاكى انفصاله واستقلال سلوفاكيا. وأدى بالتالى هذا الإعلان إلى نهاية الدولة التى ضمنا حدودها بسبب من الانشقاق الداخلى. لذلك فإن حكومة جلالته تجد نفسها غير مرتبطة بذلك الالتزام...».

وكان من المقرر أن يلقى رئيس الوزراء المستر تشمبرلين خطاباً فى برمنغهام بعد يومين. وكنت أتوقع أن يكون هذا الخطاب متسامحاً، إلا أنى

فوجئت بتغير شامل لم أكن أنتظره. وقد أدرك تشمبرلين الخطأ الذى وقع فيه كما أدرك أنه خدع نفسه، وفرض هذا الخطأ على الرأى العام البريطانى. فبدل موقفه المسالم السابق مديراً له ظهره، وقام ليكشف أمام العالم عن حقيقة شخصيته القاسية الصلبة. قام المستر تشمبرلين ليلقى خطاباً عنيفاً هاجم فيه هتلر بشدة متهماً إياه بالتنكر لجميع الوعود التى قطعها على نفسه فى مؤتمر ميونيخ وذكر جميع التأكيدات التى أكدها هتلر حين قال: «إن هذا هو آخر مطلب إقليمى لنا فى آوروبا» وقال رئيس الوزراء:

«لقد كانت غالبية الشعب البريطانى مقتنعة، بعد مؤتمر ميونيخ، بوجوب التقيد بسياسة الحفاظ على السلام، أما الآن فلا يسعنى إلا أن أشارك هذا الشعب خيبة أمله المريرة وسخطه الشديد لتحطيم تلك الآمال. إذ كيف يمكننا جمع هذه النقائض بين تأكيدات هتلر السابقة وأحداث هذا الأسبوع؟ وكيف سنطمئن إلى أن هذا الهجوم لن يتلوه الهجوم الجديد على دولة صغيرة أخرى؟ وهل سيكون هجومه هذا كخطوة أولى نحو فرض سيطرته على العالم بالقوة»؟

وفى الثلاثين من شهر آذار أعلن المستر تشمبرلين فى البرلمان: بعد أن تأكد له أن خطوة هتلر التالية هى الهجوم على بولندا وابتلاعها..

«فى حال وجود أى اعتداء من شأنه أن يهدد استقلال بولندا، فإن حكومة جلالته ستجد نفسها مضطرة فى الحال إلى مساعدة الحكومة البولندية بكل ما فى وسعها. وقد أكدت حكومة جلالته ذلك إلى الحكومة البولندية».

«وأود فى هذه المناسبة أن أقول، إن حكومة فرنسا قد فوضتنى أن أوضح موقفها المطابق لموقفنا من هذه المسألة المهمة... وقد أبلغت جميع حكومات الدومينيونات بهذا القرار.»!!

ولم يكن الوقت يسمح لتبادل التهم بين الأحزاب فى المجلس، وأيد جميع الزعماء الضمانة التى قدمتها الحكومة إلى بولندة. وقلت معلقاً على هذا

القرار «لن نجد أية وسيلة أخرى سوى أن نعمل هذا» فقد كان هذا العمل ضرورياً بعد أن وصلنا إلى هذا الحد. ولكن هذه الضمانة تعنى حتماً نشوب حرب عالمية...

وهكذا نصل الآن فى هذه القصة من الأحكام الخاطئة التى ارتكبها رجال أكفاء من ذوى النيات الحسنة. ولا شك، بعد أن وصلنا نتيجة لتلك الأخطاء إلى هذا المأزق، لنضع المسؤولين عن زمام الأمور مهما كانت نياتهم حسنة، يتحملون وزر أعمالهم أمام التاريخ. وبنظرة إلى الوراء سنجد ما سبق وقبلناه أو ما سبق وتخلينا عنه: لقد كانت ألمانيا منهوكة القوى مجردة من السلاح بفضل معاهدة صارمة. وبعد ذلك قامت ألمانيا للتسلح من جديد وتتحدى تلك المعاهدة، ثم تخاذلنا فتفوقت علينا ألمانيا فى ميدان الطيران الحربى، ثم احتلت منطقة الراين بالقوة واحتلت بناء تحصينات خط سيغفريد، ثم أنها أقامت معاهدة محور بينها وبين إيطاليا، ثم انقضت على النمسا وابتلعتها. ثم تخلينا نحن عن تشيكوسلوفاكيا، وساعدنا على تحطيمها حين وقعنا معاهدة ميونيخ وسلمنا بذلك خط دفاعها المحصن إلى الألمان بالإضافة إلى مصانع السلاح فى سكودا التى انتقلت بموجب تلك المعاهدة إلى أيدى الألمان ليقوموا بتزويد أنفسهم بالسلاح. ثم تجاهلنا وساطة ومساعى الرئيس روزفلت لإقامة سلام فى أوروبا، ثم إهمالنا لرغبة الاتحاد السوفييتى الصادقة فى الاشتراك مع دول الغرب لإنقاذ تشيكوسلوفاكيا. كل هذه الأخطاء والتخليات ذهبت هباء منثوراً.

والآن جاءت بريطانيا لتقدم ضمانتها لبولندا، تلك الدولة التى ساعدت على تقطيع أوصال تشيكوسلوفاكيا قبل ستة أشهر فقط. وسنضطر الآن لكى ندافع عنها أن نهاجم ألمانيا التى أصبحت أكثر قوة ومناعة مما كانت عليه عام ١٩٣٨ حين تراجعنا. أما الآن فقد عقدنا العزم على مجابهة ألمانيا. لكن هذا القرار قد اتخذناه فى أسوء الظروف، وعلى أسس غير مقنعة والتى

ستودى بحياة الملايين من البشر...

ودفع البولنديون ثمن مقاطعة تيشن التى استولوا عليها من تشيكسلوفاكيا. فعندما استقبل فون رينبتروب سفير بولندة فى برلين، كانت لهجته جافة حادة أكثر من المرات السابقة، فقد نجم عن احتلال بوهيميا وإنشاء دولة سلوفاكيا، وصول الجيش الألمانى إلى حدود بولندا الجنوبية. وقد قال له السفير البولونى: إن رجل الشارع العادى لا يمكنه فهم السبب الذى دعا ألمانيا إلى حماية سلوفاكيا بشكل يعتبر عملاً عدوانياً موجهاً ضد بولندة، كما طلب السفير معلومات عن المحادثات التى جرت بين فون ريبنتروب ووزير خارجية ليثوانيا، وبالأخص فيما يتعلق بمرفأ ميمل. ولم يأت الرد على سؤاله هذا إلا بعد يومين حين احتلت ألمانيا هذا المرفأ.

ولم يعد بالإمكان صد الهجوم الألمانى على أوروبا الشرقية. إذ إن المجر قد وقفت إلى جانب ألمانيا. كما أن بولندا حين تخلت عن تشيكوسلوفاكيا أصبحت غير مستعدة للتعاون مع رومانيا، كما أنها ورومانيا لا ترضيان بمرور القوات الروسية عبر أراضيها للوقوف فى وجه ألمانيا. وكان محور الموضوع يدور حول التفاهم مع روسيا بالذات!!

وفى السادس والعشرين من شهر آذار ألقى موسولينى خطاباً عنيفاً بيَّن فيه بشدة مطالب إيطاليا من فرنسا بشأن البحر الأبيض المتوسط. وفى السابع من نيسان نزلت القوات الإيطالية فى ألبانيا، ولم تلبث أن احتلت البلاد كلها بعد مدة وجيزة. وهكذا أصبحت ألبانيا نقطة ارتكاز للجيوش الإيطالية للاعتداء على اليونان، بالإضافة إلى تهديدها ليوغوسلافيا وشل حركتها.

وفى الخامس عشر من نيسان بعث الرئيس روزفلت رسالتين شخصيتين إلى هتلر وموسولينى طلب منهما التعهد بعدم القيام بأى عدوان جديد لمدة عشر سنوات أو خمس وعشرين سنة... وقد رفض موسولينى أن يقرأ الرسالة تلك. إلا أنه قال بعد أن قرأها: «إنها نتيجة لمرض شلل الأطفال».

ولم يكن ليعلم أنه سيعانى هو نفسه فيما بعد من آلام مبرحة أشد من آلام شلل الأطفال.

فى شهر آذار من السنة نفسها، شاركت فى وضع مشروع قرار إلى المجلس نطلب فيه تأليف حكومة جديدة. وقد شاركنى فى وضع هذا المشروع حوالى ثلاثين نائباً محافظاً من بينهم المستر أنطونى إيدن. وظهرت حركة قوية تدعو إلى تأليف حكومة جديدة قوية، واستمرت طوال الصيف. وكانت الشعارات تنادى بإدخالنا إلى مثل هذه الحكومة. وشعر السير ستافورد كريبس، الذى كان مستقلاً فى موقفه، أحس بقلق شديد من الأخطار التى تهدد الوطن. وقام بزيارتى وزيارة عدد من الوزراء ودعى إلى تأليف حكومة «تضم الجميع». ولم يكن باستطاعتى أن أفعل شيئاً فى هذه الحال، إلا أن وزير التجارة، المستر ستانلى، كان متحمساً لهذه الفكرة، فكتب إلى المستر تشمبرلين عارضاً منصبه الوزارى إذا كان هذا يسهل إعادة تأليف وزارة جديدة وعلى أسس جديدة. وقد اكتفى المستر تشمبرلين باستلام رسالته دون التعليق عليها.

وتبنت الصحف هذه الفكرة على مرور الأيام وتزعمت الدايلى تلغراف والمانشستر غارديان هذه الحملة وراحتا تطالبان بوزارة جديدة. وقد دهشت لهذا الحماس فى المطالبة بوزارة جديدة، وصرت أرى فى الشوارع اللافتات ترتفع وتحمل شعارات «تشرشل يجب أن يعود». وبدأت التظاهرات السلمية تجوب العاصمة وتتجمع أمام المجلس تطالب باشتراكى بالوزارة. ولم أكن فى ذلك الحين على اطلاع بهذه الأساليب من الإثارة، إلا أنه لو طلب منى المشاركة فى الحكم لما ترددت فى ذلك. وقد شاء الحظ أن يحالفنى فى هذه الفترة، فسارت الأمور بطريقها الصحيح لتؤدى إلى النتيجة المرتقبة والمخيفة...



الفصل العاشر

على حافة الحرب

وأخيراً وصلنا إلى النقطة الحاسمة، التى تدهورت فيها جميع علاقاتنا مع ألمانيا، والتى راحت تهدد بالانقطاع. ونحن الآن نعرف أن هذه العلاقات لم تكن صادقة بين بريطانيا منذ اليوم الذى جاء فيه هتلر إلى سدة الحكم. فقد كان هتلر يحاول إكراهنا بشتى الوسائل والطرق على قبول الوضع الحاضر والسماح له بإطلاق يده فى شرق أوروبا، بينما كنا نقوم بدورنا فى تهدئة الخواطر بكل إخلاص. وها قد جاء الوقت الذى فقدت فيه حكومة تشمبرلين كل أمل فى تسوية الوضع المتأزم. وما إن اقتنعت الوزارة أن ألمانيا جادة فى طريق الحرب، حتى سارعت إلى عقد المحالفات ومنح الضمانات دون تفكير بما قد تجره هذه الضمانات علينا من أعباء مرهقة، بالإضافة إلى إمكاناتنا المحدودة فى تقديم العون لتلك البلاد. وهكذا منحت ضمانات أخرى بالإضافة إلى الضمانات السابقة، إلى كل من اليونان ورومانيا وعقدت حلفاً مع تركيا.

وترتب بالتالى، على الحكومة، أن تدرس إمكانية تطبيق الوسائل العملية لتنفيذ هذه الضمانات نحو بولندا ورومانيا. وقد كانت هذه الضمانات غير ذات قيمة، من الناحية العسكرية، ما لم تكن ضمن برنامج من الاتفاقات يعقد مع روسيا. وحاولت الوزارة أن تنفذ هذا التحالف مع روسيا فطلبت من السفير البريطانى فى موسكو أن يبدأ سلسلة من المحادثات مع المسيو لتفينوف. ولم أكن أنتظر أية نتيجة من هذه المحادثات بسبب معاملتنا الجافة لروسيا فى السابق. وبالرغم من ذلك فقد قدم الروس مشروعاً لعقد تحالف

بين بريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفييتى يقضى بتقديم العون إلى دول أوروبا الشرقية التى تتعرض للغزو الألمانى. وكانت العقبة الكبرى التى عرقلت هذا التحالف، هو خوف تلك الدول الصغيرة من التعاون مع روسيا الذى يقضى بدخول الجيوش السوفييتية إلى أراضيها للدفاع عنها ضد ألمانيا، والسبب فى ذلك خوفها من قلب نظام الحكم الحاضر وضم تلك البلاد إلى النظام الشيوعى السوفييتى التى كانت تعارضه تلك البلاد. ووقعت البلاد فى حيرة من أمرها، هل تخاف الغزو الألمانى أكثر أم العون الروسى. وكان هذا التردد السبب فى شل حركة السياسة البريطانية والفرنسية فى تلك المنطقة.

وقف المستر تشمبرلين مذهولاً أمام هذه المشكلة الجديدة، وبدأ طريقة المماطلة والتسويف. ولو أنه قبل هذا العرض الروسى لتغير وجه التاريخ وسارت الأمور بطريقة تختلف عما وصلت إليه، وعلى الأقل، لن تكون النتيجة بأسوء مما أصبحت عليه بالفعل.

وساد الصمت، وأعدت أنصاف الحلول والتسويات والمساومات. وأصيب المشروع بضربة قاصمة، ومنيت محادثات ليتفينوف بالفشل الذريع، وبدا له أن التفاهم مع الدول الغربية أصبح مستحيلاً، وفقدت الثقة بين الروس والغرب، وشعروا بوجوب اتباع سياسة خارجية مختلفة تماماً عن السابق، وذلك للحفاظ على سلامتهم. وصدر البيان الرسمى القاضى بعزل لتفينوف من منصبه فى وزارة الخارجية، وتكليف مولوتوف، رئيس الوزارة، بمهام الوزارة بدلاً منه. وهكذا تم إقصاء الوزير اليهودى الذى كانت ألمانيا تكره وجوده، وتعاون مولوتوف مع ستالين نفسه فى رسم سياسة خارجية جديدة أكثر تحرراً من السياسة السابقة، وأكثر انسجاماً مع مصلحة روسيا الخاصة. ولم يكن أمامهم إلا طريقاً واحداً، هو تأييد هتلر المطلق.

كان خوفى شديداً من تراجع حكومة جلالته عن ضمانتها لبولندا فى حال تعرضها لهجوم ألمانى واسع النطاق. ولكن المستر تشمبرلين كان قد عقد العزم

على خوض معركة ضارية مهما كان هذا العزم مريراً بالنسبة له. ولكنى لم أكن على معرفة وثيقة به كما أصبحت فيما بعد. وكان خوفى أن يقوم هتلر "ببلفة" جديدة من بنات أفكاره، كاختراعه لسلاح جديد رهيب يمكنه من تخويف مجلس وزارتنا المثقل بالأعباء. وكان الأستاذ ليندمان يحدثنى دائماً عن الطاقة الذرية، وقد طلبت إليه أن يطلعنى على المعلومات الكافية حول هذا الموضوع، ففعل وبعثت برسالة إلى كنغزلى وود، وزير الطيران، هذا نصها:

«قرأت فى إحدى الصحف قبل أسابيع، عن قصة الطاقة الهائلة التى يمكن بعثها من الأورانيوم، وقد توصلت الاختبارات الحديثة إلى اكتشاف هذه الطاقة بعد أن يتجزأ هذا النوع من الذرة بواسطة النيوترون. وقد أوحت هذه التجارب عن وجود قوة هائلة من المتفجرات التى يمكن أن تحتوى على قوة تدميرية مخيفة. ولكن يمكننا الاطمئنان إلى ناحية مهمة، هو أن هذا الاكتشاف الجديد لا يمكن وضعه فى موضع الاستعمال قبل عدة سنوات».

«وهناك دلائل تشير إلى أن القصص والروايات ستحاك حول إمكانية استخدام هذا الاختراع العلمى الجديد لاستخراج مواد متفجرة سرية منه، قادرة على محو لندن من الوجود. وستجرى محاولات عديدة من قبل رجال الطابور الخامس لإقناعنا باستخدام هذه التهديدات لقبول عملية استسلام من نوع جديد. لذلك رأيت من واجبى أن ألفت نظرك إلى ذلك».

«أما الخوف من أن يكون الألمان قد اكتشفوا مثل هذا السلاح الرهيب، فهذا لا يستند إلى أى أساس علمى صحيح. ولا شك فى أن التلويح بهذا السلاح سيظهر وستنتشر الأقاويل المخيفة وستتضخم الإشاعات،وكل أملى أن لا تأخذ الجهات المسؤولة بهذه الإشاعات المضخمة».

لقد كان هذا التكهن صحيحاً ودقيقاً بنفس الوقت. فالألمان لم يجدوا الطريق الصحيح، بل تبعوا طريقاً خاطئاً وما لبثوا أن تخلوا عن فكرة البحث عن اختراع القنبلة الذرية، واستمروا فى أبحاثهم لاختراع الصواريخ الموجهة

والطائرات التى تطير دون طيارين، بينما كنت والرئ ى روزفلت نتخذ المقررات المهمة التى سأتى على ذكرها فى الوقت ا اسب، لإتمام صنع القنابل الذرية على نطاق واسع.

فى السابع من شهر تموز صرح موسولينى للسفير البريطانى بكلمة حول موقف بلاده من ألمانيا فقال: «قل لتشمبرلين، إنه إذا كانت بريطانيا راغبة حقاً فى الدفاع عن بولندا وحمل السلاح من أجلها، فإن إيطاليا لن تتأخر عن حمل السلاح والاشتراك مع حليفتها ألمانيا». أما موقف موسولينى المستتر فكان اهتمامه الشديد فى تثبيت مركزه فى البحر الأبيض المتوسط وشمال إفريقيا، وحصوله على نتائج مرضية من جراء تدخله فى إسبانيا، واحتلاله لألبانيا. ولم يكن يرغب فى الدخول فى حرب أوروبية من أجل احتلال ألمانيا لبولندا. فبالرغم من تبجحه وادعاءاته فكان يدرك فى قرارة نفسه ضعف مركزه العسكرى السياسى. وربما كان على استعداد للدخول فى الحرب عام ١٩٤٢ بعد أن تزوده ألمانيا بالسلاح أما فى عام ١٩٣٩ فلا، ثم لا....

وفى الصيف، بعد أن اشتد الضغط على بولندا، أراد موسولينى أن يمثل الدور الذى مثله فى ميونيخ، كوسيط للسلام. إلا أن هتلر كان قد عقد العزم على احتلال بولندا، وأوضح لتشيانو عن تصميمه لتسوية الوضع مع بولندا، وأنه سيضطر للدخول فى حرب مع إنكلترا أو فرنسا، وهو يطلب من إيطاليا الدخول معه فى هذه الحرب، وقال: «وإذا قررت إنكلترا الاحتفاظ بقوات كافية فى بلادها، فعليها أن ترسل بفرقتين من المشاة إلى فرنسا مع فرقة مدرعة. وعليها أن تبعث بقاذفات القنابل إلى ألمانيا. أما الطائرات المقاتلة فيمكنها الاحتفاظ بها فى بلادها، لأنها ستحتاج إليها هناك، لأن قواتنا الجوية ستهاجم إنكلترا فى الحال. وستحتاج إلى تلك المقاتلات للدفاع عن بلادها». أما عن فرنسا فقال إن تدمير بولندا لن يستغرق طويلاً، وستتمكن ألمانيا من حشد جيوشها على خط ماجينو وستكون على أتم الاستعداد

للدخول فى معركة الحياة و الموت... ورجع تشيانو لينقل إلى رئيسه ما سمعه من هتلر، فلقاه مقتنعاً هو الآخر أن الدول الديمقراطية ستخوض الحرب، كما وجده أكثر تصميماً على البقاء خارجها.

وقامت محاولات جديدة للتقرب من روسيا، إلا أنها باءت جميعها بالفشل الذريع، وقد قال لى ستالين حين زرته فى شهر آب (أغسطس عام ١٩٤٢)، عندما كنا فى الكرملين، موضحاً ناحية واحدة من موقف روسيا عندما قال: «لقد تأكد لنا أن الحكومتين البريطانية والفرنسية غير عازمتين على الدخول فى حرب مع ألمانيا إذا ما هاجمت بولندا، وأن رغبتهما فى عقد الحلف الروسى ـ الفرنسى ـ البريطانى ليست كما تبدو فى الظاهر، بل لرغبتهما فى كبح جماح هتلر. وكنا على ثقة تامة أن هذا الحلف لن يوقف هتلر».

وقد سأل ستالين أحد المفاوضين: «كم فرقة تستطيع فرنسا أن تقذف بها إلى الميدان ضد ألمانيا؟» وكان الرد «مائة فرقة» ثم سأل «وكم تستطيع إنكلترا أن ترسل؟» وجاءه الرد «فرقتين أولاً، ثم فرقتين فيما بعد».

ثم سأل «هل تعلمون كم فرقة نستطيع أن نقذف إلى الميدان فى حال دخلنا الحرب ضد ألمانيا؟» ولما لم يجبه أحد من المتفاوضين استطرد قائلاً: «أكثر من ثلاثمائة فرقة!»....

وهنا أرى من الواجب أن أسجل نص الميثاق المعقود بين ألمانيا وروسيا، بعد أن فشلت المحاولات الغربية لإشراك روسيا فى حلف ضد ألمانيا، وبعد أن اتجهت روسيا نحو ألمانيا التى سارعت إلى عقد ميثاق عدم اعتداء هذا نصه:

«ترى الدولتان المتعاقدتان، أن من الواجب عدم القيام بأى عمل وقد احتفل بتوقيع هذا الميثاق باحتفال رسمى كبير، وقام ستالين ليشرب نخب هتلر وقال: «أنا أعرف أن الشعب الألمانى يحب زعيمه حباً كبيراً. لذلك أحب أن أشرب نخبه».

نستخلص مما تقدم أن الاستقامة هى السياسة المثالية. وسنرى فى هذا الكتاب أمثلة عديدة على هذه النظرية. فقد يبدو الساسة والدهاة، على خطأ فى حساباتهم التى افترضوها. إلا أن هذا المثل يبقى أوضح من غيره. فبعد اثنين وعشرين شهراً أرغم ستالين وعشرات الملايين من الشعب الروسى أن يدفعوا ثمناً باهظاً ومخيفاً لما وقع...



الفصل الحادى عشر

الحــرب

أصدر هتلر بيانه الأول فى الحادى والثلاثين من شهر آب (أغسطس):

١ ـ لما فشلت جميع الاحتمالات السياسية لتسوية الوضع على الحدود الشرقية بطريقة سلمية، ولما كانت الأوضاع الراهنة غير محتملة، فقد قررت أن أفرض الحلول بالقوة.

٢ ـ يجب تنفيذ الهجوم على بولندا حسب الخطة المرسومة، وقد تقرر موعد الهجوم يوم الأول من شهر أيلول عام ١٩٣٩ فى تمام الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين صباحاً.

٣ ـ من المهم أن يكون الاعتداء من جانب إنكلترا أو فرنسا بشكل واضح. وفى حال وقوع حوادث طفيفة على الحدود، يجب الاكتفاء بالعمل المحلى فقط.

وهكذا قامت ألمانيا بهجومها على بولندا فى صباح الأول من شهر أيلول عام ١٩٣٩، كما أصدرت حكومتنا أمرها بتعبئة جميع القوات المسلحة. وبعد ظهر ذلك اليوم طلب منى رئيس الوزراء أن أحضر لزيارته فى دوانغ ستريت. وقد قال لى إنه لم يعد هناك من أمل فى تجنب الحرب مع ألمانيا، لذلك فهو يقترح تشكيل وزارة صغيرة للحرب، تضم وزراء دون وزارات معينة لتسيير دفة الحرب. وقال إن حزب العمال غير مستعد للاشتراك فى حكومة ائتلافية. أما الأحرار فهم يطلبون المشاركة فى الحكم. ثم طلب منى أن أكون عضواً فى تلك الوزارة الحربية. وقد وافقت على هذا الاقتراح دون أى تعليق.

وفى المساء انعقد المجلس، وألقى رئيس الوزراء خطاب تهدئة استقبله

المجلس استقبالاً سيئاً. وعلا الصراخ والهتافات، وأن هذا الإنذار سيعقبه إنذار ثان وثالث. وأعلنت الإذاعة أن رئيس الوزراء سيوجه كلمة إلى الشعب فى الساعة الحادية عشرة والربع من صباح الثالث من أيلول، أى بعد أن تنتهى مهلة الإنذار الثالث.

وتوجه الرئيس بكلمته معلناً أن بريطانيا أصبحت فى حالة حرب مع ألمانيا. وما أن أنهى كلمته، حتى سمعنا صوتاً حاداً غريباً ينطلق، سرعان ما اعتدنا عليه فيما بعد. وهبطنا إلى الملجأ المخصص لنا على بعد مائة ياردة من البيت، ويتألف من قبو يلجأ إليه السكان. وكانت دلائل المرح بادية على الوجوه، وهى عادة إنكليزية يتمسك بها الإنكليز فى أوقات الشدائد.

وبعد عشر دقائق دوت الصفارة من جديد معلنة انتهاء الغارة. فصعدنا وتفرقنا إلى بيوتنا وتوجهنا إلى أعمالنا. وكان علىَّ أن أتوجه إلى مجلس العموم الذى اجتمع عند الظهر حسب العادة بعد أن تلونا صلاة استهلالية قصيرة. وفى أثناء الجلسة تلقيت رسالة من رئيس الوزراء يطلب منى موافاته إلى مكتبه بعد انتهاء الجلسة. وقال لى المستر تشمبرلين: إنه يعرض على وزارة البحرية، مع مقعد فى وزارة الحرب. وسررت جداً لهذا العرض، فقد كنت آمل أن يعهد إلى بمهمة معينة محدودة وها قد عرضت علىَّ هذه المهمة بالإضافة إلى مركزى السابق فى الوزارة.

وما إن توليت مركزى فى وزارة الحربية، حتى بعثت بكلمة سريعة إلى الأميرالية، أخبرهم فيها عن توليتى للقيادة فوراً، وأبلغهم بأنى سأصل إلى الأميرالية فى تمام الساعة السادسة. وكان المجلس رقيقاً جداً إذ بعث بهذا الخبر الطريف إلى جميع الوحدات يقول «لقد عاد ونستون». وهكذا رجعت مرة أخرى إلى الغرفة نفسها التى غادرتها حزيناً منذ ربع قرن، عندما تنحيت عن وزارة البحرية بعد استقالة اللورد فيشر. وعندما جلست إلى مقعدى القديم، رأيت شنطة الخرائط القديمة التى أعددتها فى سنة ١٩١١،

وفيها خريطة بحر الشمال التى كنت أطلب من دائرة المخابرات أن تسجل لى عليها تحركات الأسطول الألمانى كل يوم، كى أكون على اطلاع دائم على تحركاته. وهكذا بعد مضى ربع قرن، عاد الخطر القاتل نفسه يهددنا مرة أخرى، وها نحن نضطر مرة أخرى إلى حمل السلاح لنصرة بلد صغير تعرض للغزو وأن نقاتل دفاعاً عن حياتنا وشرفنا ضد قوة وغضب شعب شجاع هو الشعب الألمانى المحب للنظام، والبعيد عن الرحمة...

كان أول عمل قمت به فى وزارة البحرية، تشكيل دائرة خاصة بى للأرقام، وعهدت إلى الأستاذ ليندمان، صديقى والمؤتمن لدى منذ سنوات بها. وقد اضطررت إلى إبقائه بصورة مستديمة مع نخبة من الرجال الأخصائيين والاقتصاديين الذين لا يهتمون بشىء سوى بالحقائق والوقائع. وقد استطاعت هذه المجموعة من الرجال الأكفاء أن تقدم أصدق الجداول والرسوم، وتشرح لى سير الحرب يوماً بيوم.

ولم تكن ثمة هناك دائرة خاصة للإحصاء. فقد كانت الوزارات تقدم ما لديها حسب أرقامها وحساباتها. وكانت كل وزارة تتبع طريقة فى الإحصاء تختلف عن طريقة زميلتها الأخرى، كما كانت الوزارات تتحدث بلغات واصطلاحات مختلفة، كثيراً ما كانت تخلق البلبلة وإضاعة الوقت. أما أنا فكانت مصادرى كلها أكيدة وثابتة فى المعلومات التى كنت أقدمها.

وفى مجلس الوزراء كنا نراقب عمليات التدمير السريعة لدولة ضعيفة، حسب البرنامج الذى أعده هتلر. فقد قذف بألف وخمسمائة طائرة إلى بولندا كما أرسل جميع فرقه الآلية والمدرعة، التى اشتركت مع ست وخمسين فرقة أخرى من المشاة. ولم يكن البولنديون أكفاء لملاقاة هذا العدد الضخم، أو هذه المعدات الهائلة، كما لم يكونوا قد استعدوا ورسموا خطة حكيمة لحماية أنفسهم، فكل ما عملوه من استعداد عسكرى أنهم وزعوا جيشهم على طول الحدود، بينما بقيت البلاد دون أية قوة احتياطية. وهكذا لم تصمد

بولندا أمام الجيش الألمانى إلا أسبوعين اثنين، وما لبث جيشها الذى يعد مليونين، أن فقد معظم محاربيه وأضحى لا قيمة له.

أما روسيا، فقد أرسلت بجيوشها فى السابع عشر من شهر أيلول عبر حدود بولندا الشرقية الخالية من أى مقاومة، ثم سارت غرباً، وفى الثامن عشر منه تلاقت مع الجيوش الألمانية فى بريست ليتوفسك. وزادت بذلك عملية التدمير المخيفة ودافعت وارسو بشجاعة فائقة واستبسل أبناؤها، وبعد عدة أيام من القصف الجوى المستمر، من المدفعية الألمانية الثقيلة التى نقلت عبر الطرق الرئيسية الألمانية من الحدود الغربية، توقفت إذاعة وارسو عن البث، ودخل هتلر إلى المدينة الخربة. وانتهى كل شىء خلال شهر واحد وأضحى الشعب البولندى الذى يبلغ عدده خمسة وثلاثين مليوناً تحت رحمة الغزاة الذى أمعنوا فيه تقتيلاً.

لقد شاهدنا تكتيكاً جديداً من التعاون الوثيق بين القوات الجوية المغيرة والقوات البرية الزاحفة والقصف العنيف للمدن وطرق المواصلات الرئيسية كذلك رأينا تسليح الطابور الخامس وبث العيون، وهبوط المظليين بصورة واسعة النطاق، كما رأينا الاندفاع الهائل لقوات ضخمة من الآليات والمدرعات التى لا يمكن مقاومتها... ولم تكن بولندا آخر من تحتم عليها أن تعانى مثل هذه المحنة.

ساد الجمود لفترة طويلة، العالم الغربى، بعد هجوم هتلر الساحق على بولندا، وعمت الدهشة لهذا التوقف الغريب، بد أن أعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب على ألمانيا.. إلا أن التحرشات الألمانية، وعمليات الهجوم المباغت على السفن التجارية فى البحر، قد أزعج حركة التجارة. وبدأت السفن التجارية، تغادر الموانئ يومياً على شكل مجموعات وقوافل وتزودت كل واحدة منها بمدفع مضاد وببحارة مدربين. وراحت كانسات الألغام تجوب البحار بالإضافة إلى القطع البحرية الصغيرة المجهزة بقنابل الأعماق ضد الغواصات

وأدت عملها على خير ما يرام، وشعرنا بأن هجوم الغواصات الألمانية على السفن التجارية قد انتهى، وغدت البحار تحت إشرافنا وسيطرتنا. وكان المتوقع أن يزداد عدد الغواصات الألمانية بعد مدة وجيزة، لأن بناء الغواصات كان يجرى فى جميع الموانئ الألمانية بسرعة هائلة، وكان علينا أن ننتظر بدء حرب الغواصات خلال سنة أو سنة ونصف على الأكثر. إلا أننا كنا ننتظر إكمال بناء مدمراتنا وقطعنا المضادة للغواصات التى أصبحنا بفضلها نملك زمام الأمور لمواجهة الخطر بقوة.

وتلقيت رسالة من الرئيس روزفلت، وكنت قد قابلته مرة واحدة أثناء الحرب الأولى فى حفلة عشاء، وقد أدهشتنى حيويته وشبابه وحضور ذهنه. وقد كتب لى فى رسالته الشخصية تلك: «لما كنا قد توصلنا إلى مراكز مشابهة أثناء الحرب العالمية الأولى، فإنى أريد أن تعلم مدى سرورى وغبطتى حين علمت برجوعك مرة أخرى إلى الأميرالية. وربما تكون مشاكلكم قد ازدادت تعقيداً، إلا أن المشاكل الرئيسية لم تتغير. وفى هذه المناسبة أود أن أؤكد لك ولرئيس الوزراء عن استعدادى التام وترحيبى الكبير حين ترغبون الاتصال بى شخصياً بواسطة رسائل مغلقة، وأن تنقلا لى كل ما تريدان نقله. وبوسعكما إرسال رسائلكما الشخصية ضمن حقيبتنا الدبلوماسية أو حقيبتكم».

وأجبت على رسالته فى الحال واستخدمت توقيع «شخص من البحرية» وبدأنا بذلك سلسلة من المراسلات الطويلة الخالدة التى بلغ عددها ألف رسالة، والتى استمرت حتى وفاة الرئيس روزفلت بعد خمس سنوات.

وقع فى شهر تشرين الأول حادث أثر على الأميرالية بشدة. فقد جاء التقرير يقول إنه فى ليل الرابع عشر من الشهر ذاته دخلت غواصة إلى ميناء سكابافلو، وأغرقت إحدى بوارجنا وهى فى الميناء، بعد أن انطلقت الطوربيدات بشكل لا يصدق، وأصاب أحدها قوس البارجة وأحدث فيه انفجاراً كبيراً، ولم يصدق قبطان البارجة ما حدث لبارجته وهى راسية فى

الميناء مطمئنة. وظن أن الانفجار داخلى. ومرت عشرون دقيقة بين الطوربيد الأول والثانى الذى ألحقته بسيل كبير منها فأغرقت البارجة بعد أن تحطمت شر تحطيم. وفى عشر دقائق ابتلعتها المياه. وكان معظم البحارة فى مراكز عملهم، لكن السرعة التى تم فيها إغراق البارجة جعل من المستحيل عليهم النجاة من الغرق المحتم.

ولا ريب أن هذه المأساة، كانت عملاً بطولياً رائعاً لقائد الغواصة الألمانية القبطان برامبين. وقد اهتز الرأى العام البريطانى لهذا العمل الجرىء. وكان فى إمكان هذا الحادث أن يقضى على أى وزير من الوزراء لو اعتبر مسؤولاً عن الإجراءات الدفاعية التى اتخذت قبيل الحرب. أما لكونى حديث عهد فى الوزارة، فقد تخلصت من هذه الأزمة ومن اللوم ومن استغلال المعارضة لهذا الحادث.

وجاءنا الخطر المميت الثانى. فقد أغرقت اثنتى عشرة سفينة تجارية عند مدخل موانئنا خلال شهرى أيلول وتشرين الأول، بالرغم من تنظيف تلك الموانئ من الألغام. وقد شكت الأميرالية على الفور، بإمكانية استخدام العدو للألغام المغنطة. ولم تكن هذه الألغام جديدة علينا، فقد استخدمناها على نطاق ضيق فى نهاية الحرب الأولى، لكن الأضرار الفظيعة التى يمكن أن تحدثها الألغام الأرضية، لم يكن فهمه شيئاً سهلاً، وكان من المتعذر علينا أن نجد طريقة لعلاج هذه المشكلة الجديدة قبل أن نرى نموذجاً من هذه الألغام. وقد تطورت الأعمال وازدادت الخسائر، إذ بلغت خلال شهرى أيلول وتشرين الأول نحواً من ستة وخمسين ألف طن، مما حدا بهتلر إلى الإشارة إلى هذا «السلاح السرى» الجديد الذى لا يمكن اتقاؤه. وفى ذات ليلة، بينما كنت فى شارتويل جاءنى الأميرال باوند، وقد بدا عليه القلق والاضطراب وأخبرنى أن ست بواخر جديدة قد أغرقت عند مداخل نهر التايمز. وكانت البواخر التى تدخل موانئنا وتخرج منها تجاوز المئات كل يوم، وكانت حياتنا كلها متوقفة

على هذه الحركة المستمرة. ولا شك أن الخبراء لدى هتلر قد أبلغوه أن هذا النوع الرهيب من الهجوم سيقضى علينا ويدمرنا. ومن حسن الحظ أن هتلر كان ينتج هذا السلاح على نطاق ضيق محدود.

وفى الثانى والعشرين من شهر تشرين الثانى، وفى تمام الساعة التاسعة شوهدت طائرة ألمانية تسقط شيئاً ضخماً بمظلة كبيرة إلى البحر قرب شوبارنيس، ويطوق الساحل هنا مساحات شاسعة من الطمى التى تظهر عند حدوث المد ومن الممكن فحص هذا الشىء الضخم حال حدوث الجزر، وهنا ساعدنا الحظ وواتتنا الفرصة المناسبة، وفى الحال استدعى إلى مركز الأميرالية ضابطان من أبرز الضباط المتخصصين بالأسلحة البرمائية وهما أوفرى ولويس، وتحدثت معهما ومع لورد البحر الأول، واستمعت إلى آرائهما. وفى تمام الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل توجها إلى ساوثيند لأداء مهمتهما الخطرة فى الكشف عن هذا الشىء الغامض. وتمكنا قبل فجر يوم الثالث والعشرين من العثور على اللغم وفحصه.

وبدأت عملية دقيقة عندما وجد الضابطان لغماً آخر قريباً من اللغم الأول. وراح أوفرى يحاول تعطيل اللغم الأول، بينما وقف زميله لويس ومعه البحار القدير فيرنيكومب يراقبه استعداداً لكل مفاجئة. وبعد ساعات رهيبة تم تعطيل اللغم الأول واستخلاصه، ثم أرسل إلى بورتسماوث لإجراء الدراسات الدقيقة عليه. ووصل فى الحال أكثر من مئة ضابط ليشاهدوا الخطر الذى كان يهدد حياتنا.

وبدأنا منذ ذلك الحين سلسلة من التجارب العلمية، بعد أن تمكنا من اكتشاف سر تركيب الألغام، لاختراع وسائل الدفاع ضد هذه الألغام وتوصلنا إلى اختراع بعض الأسلاك الكهربائية وتطويق السفن بها. إلا أن هذه الطريقة لم تؤد إلى النتيجة المطلوبة، فقد استمرت حوادث الانفجارات لكن السفن المصابة لم تغرق فى الحال، بل كانت تستمر فى مسيرتها إلى أقرب

مرفأ لإصلاحها من جديد.

وبعد مدة طويلة من التجارب توصلنا إلى اختراع وسائل أكثر فعالية لمكافحة الألغام، وكانت النتيجة مدهشة. وتمكنت أخيراً كانسات الألغام من تطهير البحار من جميع الألغام المزروعة وبدأ الخطر يزول. وقد كلفتنا هذه العملية الكثير من المجهود الحربى، واضطررنا إلى تحويل الكثير من المعدات والأموال من ميادين أخرى إلى هذا الميدان، وقد جندنا لهذه العملية المهمة ما يقارب الستين ألف رجل، إلا أن النتائج كانت مذهلة وتأثيرها المعنوى على رجالنا ورجال أسطولنا التجارى كانت رائعة. ولم نكن حتى ذلك الوقت قد تعرضنا لأى اعتداء معين فى الميدان الواسع للمعارك البحرية. لكن هذا الاعتداء سرعان ما حدث...

ففى يوم الثالث والعشرين من شهر تشرين الثانى، شاهد الطراد المسلح «راولبندى» بينما كان يقوم بعملية استكشاف بين أيسلنده وفاروس، شاهد بارجة عدوه تقترب منه بسرعة. وظن قائد الطراد أن البارجة هى بارجة الجيب «دويتشلاند» فأبرق إلى الإدارة المركزية فى الحال، وكان قائد الطراد يعلم أنه من الجنون أن يحاول الدخول فى معركة بحرية مع البارجة العدوة، أما الطراد لم يكن أكثر من سفينة تجارية تحولت إلى طراد مجهز بأربع مدافع قديمة من عيار أحد عشرة بوصة لذلك أبرق إلى الإدارة المركزية وقرر المجازفة والقتال حتى النهاية. واقتربت البارجة بسرعة هائلة وراحت تطلق نيرانها من مسافة عشرة آلاف ياردة، فرد الطراد عليها، وبدأت النيران الهائلة تنصب عليها حتى تحولت إلى كتلة من النار، وما لبث أن غرقت بعد حلول الظلام مع قبطانها و٢٧٠ رجلاً من رجالها الشجعان.

وبالطبع لم تكن البارجة العدوة هى البارجة «دويتشلاند» وإنما كانت الطراد «شارنهورست» ومعها «غنيزناو». اللذان غادرا ألمانيا لمهاجمة قطع أسطولنا فى الأطلنطى. إلا أنهما بعد أن اصطدما براولبندى، اضطرا إلى

العودة فى الحال بعد اكتشاف أمرهما... وهكذا لم تذهب تضحيات رجال الطراد البواسل هباء، فقد تمكن الطراد «نيوكاسل» من التقاط إشارة الطراد «راولبندى» وتوجه إلى ميدان المعركة وحاول مطاردة العدو، إلا أن هذا تمكن من الإفلات منه.

وفى شهر آب وصلت الأنباء إلى القيادة العليا، أن بارجة أو اثنتين قد غادرتا ألمانيا متوجهتان إلى الأطلنطى. فقام أسطولنا فى الحال بالبحث عنهما. وعلمنا بعد مدة أن البارجة غراف شبى الألمانية قد أغرقت إحدى بواخرنا الضخمة كليفت فى شهر أيلول، وذلك قرب برنا مبوكو. واضطربت الأميرالية لهذا النبأ المفجع، وضج الرأى العام، وارتسمت علامات الاستفهام وراح الهمس يدور: «أين هو أسطولنا؟»... فتألفت على الفور وحدات مسلحة لمطاردة البارجة وإغراقها، وقد انضم إلى الوحدات عدد من حاملات الطائرات والبوارج والطرادات المجهزة بقوة كافية لتتمكن من القضاء على البارجة الألمانية.

وخلال الأشهر التالية كانت تسع وحدات بحرية مطاردة تجوب البحار بحثاً عن البارجتين الألمانيتين «دويتشلاند» و«غراف شبى». وكانت الثانية أكثر جرأة من الأولى، فقد استمرت بنشاطها، فكانت تضرب السفن الصغيرة ثم تختفى فى الآفاق الشاسعة. واستمر البحث عن «غراف شبى» إلى أن عثر عليها فى الثانى عشر من كانون الأول، قرب مصب نهر لابلاتا، من قبل الطراد «أجاكس». وكان على ظهره الكومودور هاروود. وتم فى الحال حصار البارجة العدوة وانضم إلى المعركة الطرادان «أخيل» و«لايكستيتر». وبدأت معركة حامية الوطيس واشتعلت البحار بالنيران اللاهبة لمدة ساعة وعشرين دقيقة. وأصيبت طراداتنا بأضرار بالغة مما اضطرها إلى الانسحاب تحت ستر الدخان الكثيف بانتظار حلول الظلام، كما أصيبت البارجة العدوة وشوهدت أبراجها تتساقط مشتعلة. وكانت فرصة العدو الذهبية حين شعر

قائد الطراد بأن الذخيرة ستنضب فاضطر إلى الانسحاب تاركاً الفرصة للبارجة العدوة للانسحاب إلى ميناء مونيتفيديو فتبعها الطرادان البريطانيان دون أن يشتبكا معها فى أية معركة، ودخلت البارجة إلى الميناء للتزود بالوقود ولإصلاحها من جديد. بينما وقف الطرادان بانتظارها وإغراقها فى الحال عند خروجها من الميناء.

وأبرق قائد البارجة فى السادس عشر من كانون الأول إلى القيادة يقول إن سبيل النجاة قد سد أمامه وطلب تزويده بالتعليمات اللازمة هل يقوم بإغراق الطراد أم يستسلم؟ وجاءته التعليمات من الأميرالية الألمانية: «حاول أن تبقى فى المياه المحايدة... ثم حاول أن تتجه إلى بيونس أيرس إن استطعت. ولا تستسلم فى أورغواى... وإذا قررت إغراق البارجة دمرها تدميراً كاملاً».

وهكذا، بعد ظهر اليوم التالى، شوهدت بحارة البارجة تغادرها إلى إحدى السفن الألمانية الراسية فى الميناء، وعند المساء توجهت البارجة ببطء إلى عرض البحر حيث كانت طراداتنا بانتظارها. وما إن اقتربت من عرض البحر حتى سمعنا انفجاراً مدوياً وشاهدنا النيران تشتعل فى البارجة العدوة، فعلمنا أن «غراف شبى» قد أغرقت نفسها، كما علمنا أن قائدها لانغسروف قد أصيب بانهيار عصبى لخسارته الفادحة فانتحر بعد يومين.



الفصل الثانى عشر

الجبهة فى فرنسا

اتجهت الحملة البريطانية حال نشوب الحرب إلى فرنسا، وما إن انتصف شهر تشرين الأول حتى كانت أربع فرق بريطانية تتمركز على الجبهة الفرنسية ـ البلجيكية، وانضمت إليها ست فرق أخرى فى شهر آذار. وقد وجدت القوات البريطانية أن الجبهة مستعدة تمام الاستعداد، فقد حفرت الخنادق لمقاومة الدبابات، وأنشأت مراكز من الأسمنت المسلح، ركزت عليها مدافع ورشاشات مضادة للدبابات، بالإضافة إلى الأسلاك الشائكة الممتدة على طول الجبهة. وكانت مهمة جنودنا تحسين الجبهة الدفاعية التى أعدها الفرنسيون وتنظيم شكل من أشكال خط سيغفريد. وتقدم العمل بصورة سريعة بالرغم من الجليد، وعندما أخذت الصور الجوية تبين أن الألمان بدورهم بدأوا يوسعون خط سيغفريد من الشمال عبر الموزيل. وقد كانت المواد الأولية فى متناول أيديهم مما سهلت لهم مهمة العمل، إلا أننا كنا نسير بسرعة تضاهى سرعتهم فى التنفيذ. وتم تشييد المنشآت اللازمة لقاعدة ضخمة. وأنهينا تعبيد الطرقات وتحسينها ومدت سكة حديد جديدة يبلغ طولها مئة ميل. ثم أتممنا إنشاء نحو من خمسين مطاراً جديداً وقاعدة جوية صغيرة. كما تزودنا بكميات هائلة من العتاد والذخيرة توزعت فى المستودعات على طول طرق مواصلاتنا. وقد تزودنا بالمؤن التى كانت تكفى لمدة عشرة أيام بين السين والسوم، بالإضافة إلى كميات أخرى تكفى لسبعة أيام شمالى السوم. وقد ساعدتنا هذه المؤن وأنقذتنا بعد أن تمكن الألمان من اختراق الجبهة.

كانت روح الجيش الفرنسى، تختلف عن السابق أثناء الحرب الأولى، فقد ولت تلك الروح الثائرة المشبعة بالانتقام بعد أن حققت نصرها الأول وكان معظم القادة الذين تولوا زمام الأمور، قد قضوا نحبهم منذ وقت طويل. وكان الشعب الفرنسى لا يزال مشدوهاً من هول المذبحة التى ذهب ضحيتها نحو مليون ونصف المليون رجل. وكانت فكرة الهجوم لا تزال مرتبطة بمخيلتهم وبالفشل الذى أصابهم أثناء هجومهم عام ١٩١٤ وعام ١٩١٧ وبالآلام والخسائر التى تكبدوها أثناء الهجوم، وسيطر عليهم الشعور بأن الأسلحة والاختراعات الحديثة قد زادت من قوة الدفاع، وأصبحت تشكل خطراً أكبر على الهجوم والمهاجمين. ولم يكن هناك من يمكنه أن يتفهم الحقيقة الجديدة القائلة بأن السيارات المدرعة قادرة على الصمود أمام نيران المدافع، بالإضافة إلى سرعتها الفائقة التى تمكنها من قطع مائة ميل فى اليوم الواحد. ولم يكترث رجال الجيش وقادته لذلك الكتاب القيّم حول هذه المواضيع، الذى كتبه شخص يدعى ألفومندان ديغول... فقد كانت أفكار المارشال العجوز بيتان مسيطرة على عقول القادة ومغلقة الطريق أمام الأفكار الجديدة الجريئة.

وقد سمعنا بعد انتهاء الحرب بالنقد الكثير حول سياسة خط ماجينو. ولا شك أن فكرة الدفاع لدى الفرنسيين كانت نتيجة هذه السياسة إلا أن التدابير الاحترازية الصحيحة للدفاع عن حدود شاسعة تمتد إلى مئات الأميال، تقضى بإقامة أكبر عدد ممكن من الحواجز والعقبات والحصون، فهى توفر من استخدام القوات المحاربة. ولو أحسن استعمال خط ماجينو لكان باستطاعته أن يقدم خدمة كبيرة لفرنسا.

هناك نكتة معروفة فى بريطانيا تقول إن وزارة الحربية اليوم تستعد للحرب الماضية. وكانت هذه النكتة مطابقة لواقع حال الجيش الفرنسى آنذاك، وكنت من جملة المؤمنين بنظرية الإجراءات الدفاعية التى يجب

تنفيذها بدقة. وكنت بالإضافة إلى ذلك عارفاً بمدى تخوف الفرنسيين من الهجوم نتيجة المذابح المخيفة فى الحرب الأولى. كما أن الوقت الذى أضعناه قد فسح المجال أمام الألمان لبناء خط سيغفريد. وكانت المجازفة ضخمة لو فكرنا بقذف البقية الباقية من الشبيبة الفرنسية لاقتحام هذا الجدار الهائل من الأسمنت المسلح. وكانت نظرتى فى الأشهر الأولى للحرب لا تختلف كثيراً عن وجهة النظر السائدة المتعلقة بالدفاع. وكنت أعتقد أن الأجهزة المضادة للدبابات ومدافع الميدان قادرة على صد أى هجوم مهما كان. إلا أن هذه النظرية كانت خاطئة، فقد قدر لنا أن نشهد بعد ثمانية أشهر هجوماً هائلاً شنته القوات الألمانية تتقدمها السيارات المصفحة التى لم تؤثر فيها قوة المدافع لقساوة فولاذها، فتمكنت من تحطيم جميع ما أعددناه من مقاومة دفاعية، وجعلت من المدفعية سلاحاً لا قيمة له، لأول مرة فى تاريخ الحروب منذ اختراع البارود.

لكن الجيش الفرنسى لم يكن فى وسعه شن أى هجوم قبل نهاية شهر أيلول، إلا أن بولندا فى ذلك الوقت كانت قد استسلمت. ولم يحل شهر تشرين الأول حتى تمكن الألمان من حشد سبعين فرقة من الجبهة الغربية متفوقين بذلك على الحشود الفرنسية. ولو فكر الفرنسيون بشن هجوم من الجبهة الشرقية لتركوا الجبهة الشمالية خالية، وهى الجبهة الأكثر أهمية.

أما السؤال الذى طالما أثير: «لماذا بقيتم جامدين إلى أن دمرت بولندا؟» فالجواب عليه هو أن المعركة قد تقررت نتيجتها منذ سنوات. فالفرصة كانت مواتية ومضمونة عام ١٩٣٨ يوم كانت تشيكوسلوفاكيا موجودة. وفى عام ١٩٣٣ كان فى وسع عصبة الأمم أن تستصدر أمراً ترغم به ألمانيا على الرضوخ دون حاجة إلى إرهاق نقطة دم واحدة. ولا يجوز أن نلقى باللوم على الجنرال غاملان لأنه لم يقم بهذه المجازفة التى ازداد خطرها منذ الأيام الأولى للأزمات التى تخاذلت أمامها فرنسا وبريطانيا.

والآن ما هى احتمالات شن هجوم ألمانى عام على فرنسا؟ كانت هناك ثلاث احتمالات هى: أن تقوم ألمانيا بشن هجومها عبر سويسرا للالتفاف حول الجبهة الجنوبية لخط ماجينو. إلا أن العقبات الطبيعية والاستراتيجية كانت تحول دون قيام هذا الهجوم. أما الاحتمال الثانى فهو فى إمكانية غزو فرنسا من الحدود المشتركة بين البلدين. ولم يكن هذا الاحتمال ممكناً، إذ لم نكن نعتقد أن الجيش الألمانى يملك المعدات اللازمة لتحطيم المنشآت المقامة واختراق خط ماجينو. يبقى الاحتمال الثالث وهو الهجوم عن طريق بلجيكا وهولندا. فبإمكان الجيش الألمانى أن يتجنب اختراق خط ماجينو ويوفر الخسائر المتوقعة من جراء الهجوم على التحصينات المنيعة. ولم يكن فى استطاعتنا صد الهجوم على بلجيكا، وإن كان ذلك فى مصلحتنا. وكان هناك خطان يمكننا أن نتقدم نحوهما إذا ما دعتنا بلجيكا لاحتلالهما. فالخط الأول هو ما يدعى خط «الشلدت» وهو قريب من الحدود الفرنسية، ويمكن الوصول إليه بسهولة، وبإمكاننا الاحتفاظ به للتضليل، وهذا فى أسوأ الاحتمالات، كما يمكننا إذا ساعدتنا الظروف أن نقوم بإنشائه وتدعيمه. أما الخط الثانى فهو الخط الذى يسير مع نهر الوز عبر جيفيت ودينانت ونامور ولوفين إلى أنتويرب. ولو استطعنا أن نحتفظ بهذا الخط مهما كلفنا الأمر، فإن الجناح الأيمن للجيش الألمانى سيتوقف، وسيمكننا معرفة قوة الجيش الألمانى، فإذا كان ضعيفاً، عندئذ يمكننا ابتداء هجوم كاسح ندخل به إلى ألمانيا ونشرف على منطقة الروهر المهمة بالنسبة للإنتاج الحربى الألمانى.

ويقول رؤساء الأركان: «إن الخطة الفرنسية المسماة خطة «د» تقضى بأن يسرع الحلفاء إلى احتلال خط جيفيت ـ نامور، إذا تمكن البلجيكيون من الاحتفاظ بحوض الموز، كما أنه يترتب على القوات البريطانية أن تعمل فى الجهة الشمالية. ونحن نجد أن هذه الخطة غير معقولة، إلا إذا وضعنا خططها مع البلجيكيين أنفسهم لاحتلال هذا الخط، قبل مدة من الزحف

الألمانى، وبعد أن يتبدل موقف بلجيكا الحالى، وترسم الخطط اللازمة بوقت قريب لاحتلال خط جيفيت ـ نامور والمسمى فى بعض الأحيان خط الموز ـ انتويرب. ونحن نجد أنه يترتب علينا أن نواجه الزحف الألمانى فى أماكن نعدها فى وقت مبكر على الحدود الفرنسية بالذات».

وفى اجتماع مجلس الحلفاء الأعلى فى باريس، اتخذ القرار التالى: «نظراً للأهمية الكبرى المترتبة على وجوب إبقاء الألمان فى أقصى مكان ممكن إلى الشرق. فمن الضرورى جداً بذل كل محاولة للمحافظة على خط الموز ـ انتويرب، فى حال تعرضت بلجيكا للهجوم الألمانى».

وهكذا أمضت الحملة البريطانية فصلى الربيع والشتاء فى تجهيز مواقعها وتحصينها، واستعدادها للحرب الدفاعية أو الهجومية. وقد كانت استعدادات الجيش رائعة ومنظمة وأكثر قوة فى نهاية فصل الشتاء. إلا أننا كنا لا نزال نشكو نقصاً كبيراً فى الدبابات، ولم يكن لدينا فرقة مدرعة واحدة ضمن الحملة البريطانية فى فرنسا. فقد أهملنا تطوير هذا النوع من السلاح الفعال فى فترة ما بعد الحرب الأولى، ولم يكن عندنا سوى كتيبة تضم سبع عشرة دبابة خفيفة ومائة دبابة «مشاة» معظمها مجهزة بالمدافع الرشاشة فقط. لقد أهملنا هذا السلاح المهم الذى قدر له أن يسيطر على ميادين القتال...

أما الجيش الفرنسى فلم يكن بحالة حسنة، ففرنسا لم تواجه الحرب عام ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ بروح معنوية مرتفعة أو بشىء من الثقة والإيمان. فالسياسة الداخلية المضطربة قد خلقت نوعاً من الانقسام والسخط. وكانت الدعايات السامة التى يبثها غوبلز تلاقى آذاناً صاغية تحفظها وترددها. وكانت تأثيرات الانقسام والشيوعية والفاشية تنعكس على الجيش وتتغلغل فى صفوفه خاصة فى فترة الانتظار الطويلة قبل الهجوم. ولم يكن هناك من أدنى شك فى أن الانتظار الطويل قد أخر فى كفاءة الجيش الفرنسى فلو

قاتل فى الخريف مثلاً لكان قتاله رائعاً وأروع منه فى الربيع... وسرعان ما وجد هذا الجيش نفسه عرضة لهجوم ألمانى كاسح صعقه بعنف.

وختاماً لهذا الفصل أذكر هذه الحادثة المهمة التى حدثت فى اليوم العاشر من شهر كانون الثانى عام ١٩٤٠ والتى أكدت المخاوف بالنسبة إلى الجبهة الغربية، فقد قضت الظروف بأن تهبط طائرة ألمانية كانت تقل ضابطاً ألمانياً، فى بلجيكا، وعندما اعتقلته القوات البلجيكية حاول الضابط أن يتلف بعض الوثائق التى كان يحملها، إلا أنهم تمكنوا من مصادرتها قبل أن يتمكن من إتلافها. وقد تضمنت تلك الوثائق الخطة الكاملة لغزو بلجيكا وهولندا وفرنسا، هذه الخطة التى وضعها هتلر بنفسه. وبعد قليل أطلق سراح الضابط فعاد إلى بلاده وأخبر قادته بما جرى له. وعندما نقلت إلىَّ التفاصيل ذهلت وأنا غير مصدق كيف لا يضع البلجيكيون خطة يشركوننا فيها فى الحال. لكنهم لم يفعلوا شيئاً من هذا وقد طلبنا منهم أن يتعاونوا معنا، لكن الملك وقادة الجيش آثروا التروى والانتظار عله يأتيهم المستقبل بأشياء جديدة تقلب الأوضاع مرة أخرى. أما من الناحية الثانية، فقد استدعى هتلر غورنغ وأمطره بسيل من الشتائم ثم اضطر إلى تغيير خطة الغزو من أساسها. وقد تأكد لنا الآن من الوثائق المصادرة أن هذه الخطة كانت صحيحة.

لقد آثر ملك بلجيكا أن يبقى على الحياد، آملاً أن يتمكن من الصمود أمام الجيش الألمانى، ثم يطلب الجيوش البريطانية والفرنسية لتسارع إلى نجدته... لقد كان العصر عصر التردد والتخاذل، ولم نكن لنلومه على موقفه هذا...



الفصل الثالث عشر

اسكندنافيا وفنلنده

إن لشبه الجزيرة الممتدة من داخل البلطيق إلى الدائرة القطبية أهمية عسكرية كبيرة. وتمتد سلسلة الجبال إلى المحيط ويفصل بينها ممر من المياه الإقليمية تتمكن ألمانيا بواسطته من المرور والاتصال بالبحار الخارجية، مما يجعل حصارنا البحرى لا قيمة له. وكانت ألمانيا تعتمد بصورة رئيسية على استيراد مسحوق الحديد من السويد الذى يصلها فى أيام الصيف من ميناء لوليا السويدى عند رأس خليج بوثنيا، أما فى الشتاء وعندما تتجمد مياه الخليج تصلها من النرويج. لذلك فإن احترامنا لحياد هذه الخلجان يعنى سماحنا لهذا الاستيراد والتصدير الذى تستغله ألمانيا تحت ستار الحياد متحدية بذلك تفوقنا البحرى. وقد شعرت الأميرالية بهذا الخطر، وأخطرت بدورى وزارة الحرب عن هذا الموضوع.

وعندما أثرت هذا الموضوع المهم اصطدمنا بعقبة احترامنا التام لحياد الدول الصغيرة! هذا المبدأ الذى كنا نتعلق به بالرغم من استغلال ألمانيا لهذا الاحترام. ولبث الموضوع بينِ أخذ ورد إلى أن أخذت الوزارة باقتراح بعد مدة طويلة حيث بدا أن الوقت قد فات على اتخاذ مثل هذا القرار.

وفى الوقت نفسه كان الألمان يفكرون بالاتجاه نفسه الذى كنت أفكر به، فقد قدم الأميرال ريدر، رئيس أركان البحرية الألمانية، اقتراحاً إلى هتلر باسم «كسب قواعد جديدة فى النرويج» وقد وضح فى اقتراحه مقدار الضرر الذى سيلحق بألمانيا بحال تم احتلال البريطانيين للنرويج وتحكمهم فى

مداخل البلطيق. وقد أصدر هتلر بناء على اقتراحات ريدر أوامره إلى القيادة العليا بإعداد الخطة لعملية غزو النرويج.

وفى هذه الأثناء تحولت شبه جزيرة اسكندافيا إلى ميدان للصراع أثار ضجة كبيرة فى بريطانيا وفرنسا، وأثر على محادثاتنا مع النرويج بشدة. فقد أدت مواثيق المساعدات المتبادلة المعقودة بين روسيا واستونيا ولاتفيا وليتوانيا إلى احتلال هذه الدول وتدميرها . وبذلك أصبح الجيش الآخر يقطع الطريق للدخول إلى روسيا من ناحية الغرب. وبقيت الطريق عبر فنلندا.

ومن ناحية فنلندا فقد وقع أحد الساسة الفنلنديين مع روسيا معاهدة صلح فى عام ١٩٢١، كان من أهم مطالب الروس العديدة رد الحدود الفنلندية عند برزخ كاريليا إلى الوراء مسافة كافية لتصبح مدينة لينغراد فى مأمن من خط المدفعية المعادية، كما تسلمت روسيا عدداً من الجزر الفنلندية، أما الاختلاف الذى أدى إلى محاولة غزو فنلندا فكان حين طلبت روسيا استئجار الموانئ الوحيدة التى لا تتجمد فى فصل الشتاء لكى تجعل منها قواعد بحرية وجوية. وكان الرضوخ لهذا الطلب يعنى تهديد سلامة فنلندا بصورة أكيدة. وقد رفضت الحكومة الفنلندية هذا الطلب وانقطعت المفاوضات، وأعلن مولوتوف بناء على ذلك إلغاء ميثاق عدم الاعتداء المعقود مع فنلنده. وبعد يومين بدأ الهجوم الروسى على فنلندا على ثمانية جبهات وقام الطيران السوفييتى بضرب العاصمة هلسنكى من الجو.

وقد استبسل الفنلنديون فى الدفاع عن بلادهم، فقد مضت الأسابيع الأولى للهجوم السوفييتى دون أن يتمكنوا من تحقيق أى نصر. وبرهن الجيش الفنلندى عن بطولة نادرة فى صد الهجوم الكبير. وقوبلت الدبابات السوفييتية الضخمة بسلاح جديد من القنابل اليدوية التى سميت بكوكتيل مولوتوف. وقد استمرت الحملة حوالى الشهر إلا أنها باءت بالفشل الذريع، وتأكد للحكومة السوفييتية بأنها تقابل عدواً يختلف بقوته عما كانت تتوقعه

أن يكون، لذلك قررت القيام بهجوم كاسح كبير مما يحتاج إلى إعادة تنظيم، فخففت من حدة القتال على طول الجبهة الفنلندية بعد أن تمكن الفنلنديون من صد عدوهم القوى.

وساد شعور من السخط لدى الجميع ضد الحكومة السوفييتية، بالإضافة إلى الشعور بالاحتقار لعجز القوات الروسية عن غزو فنلندا الباسلة، وبالعطف والحماس على فنلندا بالذات. وبالرغم من أننا نخوض حرباً كبرى فقد كانت لدينا رغبة شديدة فى مد يد العون إلى الفنلنديين وذلك بتزويدهم بالطائرات والآليات الحربية وإرسال المتطوعين من بريطانيا والولايات المتحدة وحتى فرنسا. ولم يكن هناك إلا ممر واحد لإرسال المتطوعين والمعدات الحربية. وهو عبر ميناء نارفيك النرويجى الذى اكتسب أهمية استراتيجية كبرى. وكان استعمال هذا الميناء كقاعدة للتموين يؤثر على حياد النروج والسويد. وكان هم هاتين الدولتين البقاء خارج نطاق الحرب. فقد كانتا تخشيان كلاً من ألمانيا وروسيا. وطلبت الحكومة البريطانية من النرويج والسويد السماح لها بنقل الجنود والمؤن إلى فنلنده.

كانت إحدى القطع البحرية الألمانية المسماة "التمارك" تشغل تفكيرى، وهى القطعة البحرية التى كانت تساعد غراف شبى بالإضافة إلى كونها سجناً عائماً لبحارة البواخر التى كانت غراف شبى تغرقها. وقد وصلتنا - الأخبار أن هناك ثلاثمائة بحار بريطانى على ظهر (التلمارك) التى تمكنت من الاختفاء لمدة شهرين فى جنوب الأطلنطى وعندما اطمئن ربانها إلى أنه أصبح فى مأمن من مطاردتنا، حاول العودة بباخرته إلى ألمانيا. وفى الرابع عشر من شهر شباط شاهدت إحدى طائراتنا الباخرة المذكورة فى المياه الإقليمية للنرويج.

وفى الحال تحركت المدمرات البريطانية بقيادة القبطان فيليب فيان على متن مدمرته «قوزاق» وقطعت طريق الباخرة الألمانية، إلا أنها لم تباشر

بضربهما فالتجأت الباخرة إلى خليج جوسينغ، وأعطيت الأوامر بتفتيش الباخرة، وشوهد فى الوقت نفسه زورقين نرويجيين مسلحين أبلغاهما أن الباخرة الألمانية غير مسلحة، وقد سمحا لها بالمرور عبر المياه الإقليمية. فاضطرت المدمرتان البريطانيتان إلى الانسحاب على الفور.

وما إن وصلت هذه الأخبار إلى الأميرالية، حتى عادت وأصدرت إلى مدمراتنا الأوامر بدخول الخليج. فدخل القبطان «فيان» بمدمرته الخليج وصعد إلى أحد الزورقين النرويجيين وطلب من قائده أن تساق «التمارك» إلى ميناء بيرغن للكشف عليها حسب القانون الدولى. فكرر القائد النرويجى أن الباخرة غير مسلحة وقد فتشوها مرتين ولم يجدوا على متنها أى أسير بريطانى. عند ذلك طلب القبطان «فيان» من القائد النرويجى مرافقته إلى ظهر الباخرة الألمانية فرفض هذا طلبه.

واغتنمت الباخرة الألمانية هذه الفرصة لتتحرك وتحاول الاصطدام بالمدمرة «قوزاق» إلا أنها فشلت، وفى الحال صعد إليها فريق من البحارة ونشب قتال عنيف بالسلاح الأبيض بين رجال الباخرتين أدى إلى مقتل أربعة من الألمان وجرح خمسة واستسلم الباقون. وبدأ البحث فى الحال عن الأسرى البريطانيين، وبعد تفتيش دقيق عثر عليهم فى المستودعات وفى خزان بترول فارغ وقد كممت أفواههم كى لا يتمكنوا من الاستغاثة وطلب النجدة من رفاقهم. كما عثر على مدفعين وأربعة مدافع رشاشة. وعلمنا فيما بعد أن النرويجيين لم يقوموا بتفتيشها بالرغم من صعودهم على متنها.

وكان هذا الحادث قد ساعد الألمان على اتخاذ قرارهم بوجوب غزو النرويج الذى أعد هتلر خطة غزوها فى الرابع عشر من كانون الأول. وبعد أن اجتمع الفوهرر مع الجنرال فون فولكنهورست تقرر بدء العملية فى التاسع من شهر نيسان.

وفى هذه الأثناء كان الروس قد ضاعفوا من مجهودهم الحربى، وقاموا

بهجومهم الكبير على فنلندا فى اليوم الأول من شهر شباط، والذى استمر حوالى اثنين وأربعين يوماً، يصحبه قصف جوى عنيف. وتمكن الجنود الروس من اختراق خط الدفاع الفنلندى وتحطم خط مانرهايم وتركز الهجوم الروسى على خليج فيبورى.

وفى أول شهر آذار أرسلت الحكومة الفرنسية خمسين ألف متطوع ومائة قاذفة قنابل إلى فنلندا، كما قامت الحكومة البريطانية - أيضاً - بإرسال خمسين قاذفة قنابل. إلا أن الفنلنديين قد وصلوا إلى حد من الإعياء والجهد وكادت معداتهم الحربية أن تنفد فسافر المستر باسيكيفى مرة ثانية إلى موسكو لإجراء المباحثات فى شروط الهدنة، ووافقت الحكومة الفنلندية على شروط الروس فى الحال.



الفصل الرابع عشر

النــرويــج

فى ليلة الجمعة الخامس من شهر نيسان دعا وزير ألمانيا المفوض فى أوسلو عدداً من الوجهاء والوزراء إلى حفلة عرض فيها شريطاً سينمائياً عن عملية احتلال بولندا التى وضح فيها المناظر المرعبة التى صورت أثناء قصف مدينة وارسو. وقد علق الوزير على الصور بقوله: «إن البولنديين يجب أن يشكروا أصدقاءهم الإنكليز والفرنسيين على ما حل بهم من كوارث»!!

وتفرق الضيوف وعلى وجوههم أمارات الرعب والقلق،خاصة مما يقوم به الإنكليز من نشاط كبير فى النرويج ومن زرع للألغام فى مداخل الخليج الغربى المؤدى إلى ميناء نارفيك، واحتجت الحكومة النرويجية على هذه الإجراءات الخطيرة، إلا أن الأميرالية البريطانية أعلمت المفوضية النرويجية فى لندن أن البوارج الألمانية بدأت تتحرك متجهة نحو الساحل النرويج، بينما كانت الجحافل الألمانية تجتاح الدانمارك، لكن الأخبار لم تصل إلى النرويج إلا بعد أن تعرضت هى للهجوم الألمانى.

كان الهجوم الألمانى الصاعق يتميز بالمفاجأة والشدة والدقة، فى مداهمة بلد أعزل وشعباً بريئا كشعب النرويج. فقد استخدمت ألمانيا سبع فرق عسكرية، وثمانمائة طائرة وثلاثمائة طائرة نقل، بالإضافة إلى الهجوم البحرى الكبير. ولم تمض ثمان وأربعين ساعة حتى سقطت جميع الموانئ النرويجية فى أيدى الألمان. وتغلغلت الدعايات الألمانية بسرعة البرق بين صفوف الشعب، ووقف الماجور كويزلنغ ليعلن نفسه حاكماً على المناطق التى

سقطت فى أيدى الألمان.

وبدأت فى الحال تعبئة الجيش الذى راح يقاتل بضراوة الجيوش الغازية الزاحفة شمالاً من أوسلو. والتجأ الوطنيون إلى الجبال والغابات. وانسحب الملك وحكومته إلى هامار التى تبعد مئة كيلو متر عن أوسلو، وطاردتهم المدرعات الألمانية وقصفتهم الطائرات من الجو إلا أنهم تمكنوا من الوصول، وأذاعوا بيانات تدعو إلى المقاومة والثورة. ولا شك أن السرعة التى تمكن بها هتلر، بعد ذلك من السيطرة على البلاد تعتبر عملاً وحشياً من أعمال الحرب والسياسة ومثلاً حياً يدل على مدى إتقان ألمانيا لفظاعة الحرب ووحشيتها.

وبهجوم هتلر على النرويج انتهى وميض الحرب، وتلاه أعظم انفجار عسكرى عرفته البشرية. فمنذ أن تحالف ستالين مع هتلر، تلقى الشيوعيون الفرنسيون الإشارات من موسكو بوجوب إعلان استنكارهم للحرب ونعتها بجريمة استعمارية رأسمالية ضد الديمقراطية! وحاول الشيوعيون وسعهم فى تحطيم معنويات الجيش، وعرقلة أعمال المصانع. وتمكن الدعايات الهدامة من تحطيم الروح المعنوية لدى الجيش والشعب.

ولم يحدث شىء من هذا فى بريطانيا، فقد كانت توجيهات موسكو للشيوعية المحلية فى بريطانيا ضعيفة كل الضعف. وقد أدت الحملة على النرويج إلى اضطرابات عنيفة نشبت فى بريطانيا، واتقدت العواطف الثائرة، وطالبت المعارضة بإجراء مناقشة فى المجلس عن الوضع الحربى. فتقرر إجراء هذه المناقشة فى السابع من شهر آيار. وحاول المستر تشمبرلين تهدئة العواطف المعادية، لكنه قوطع بالاستهزاء. ورد المستر تشمبرلين على المستر هربرت موريسون بقوله إنى لم أكن أتمتع بصلاحيات كبيرة أثناء حملة النرويج. وراح الخطباء يهاجمون الحكومة بعنف مشوب بالمرارة. وقام المستر إيمرى الذى قوبل بالهتافات العالية ليقول ما سبق وقاله كروmويل: «لقد أمضيتم وقتاً كثيراً هنا لا ينسجم مع النفع الذى كنتم تفعلونه. وإنى أقول لكم

الآن، اخرجوا وخلصونا منكم، بحق الله، اذهبوا...».

وفى اليوم التالى أعلن المستر هربرت موريسون، باسم المعارضة عن عزمه طلب الإسراع على الثقة، وقام رئيس الوزراء ليعلن قبوله التحدى. وقام المستر لويد جورج ليلقى خطاباً قصيراً وجه فيه ضربة قاضية على رأس الحكومة، إلا أنه أبرأ ذمتى بقوله: «لا أظن أن وزير البحرية يعتبر مسؤولاً عما حدث فى النرويج» وقد قاطعته على الفور بقولى: «إنى أتحمل كل المسؤولية عن كل ما قامت به الأميرالية متحملاً العبء كله» فحذرنى المستر لويد من مغبة جعل نفسى ملجأ يقى الحكومة من الشظايا. ثم التفت إلى المستر تشمبرلين وقال: «إن القضية أضخم بكثير مما نتصور. لقد طلبت منا فى السابق أن نضحى، وأنا أقول إن الشعب بأسره على أتم الاستعداد للتضحية إذا رأى على رأسه القيادة الصالحة. وإذا رأى هذا الشعب أن الذين يتولون زمام الأمور يقومون بدورهم بأقصى ما يمكن من جهد. وأنا أقول بكل احترام: إن من واجب رئيس الحكومة أن يقوم بتضحية كبيرة مقدماً بذلك مثلاً أعلى للشعب، إذ ليس ثمة من شئ يكون أكثر إسهاماً من النصر فى هذه الحرب من تضحيته بمركزه...».

وعندما طرحت الحكومة الثقة فازت بها بأغلبية واحد وثمانين صوتاً، بالرغم من امتناع ثلاثين نائباً محافظاً عن التصويت. إلا أن النتيجة لم تقنع المستر تشمبرلين ولم تطب نفسه بعد الألم الذى أصابه.

فى اليوم العاشر من شهر آيار وردت الأخبار الهائلة بأن جحافل هتلر قد اجتاحت هولندا وبلجيكا، واجتازت حدودهما فى عدة مواقع، واتجهت حركة الجيش نحو الأراضى المنخفضة وفرنسا...

وفى مكتبى بالأميرالية وجدت بعض الوزراء الهولنديين الذين وصلوا من أمستردام، بعد أن هوجمت بلادهم دون أى سبب. وطلبوا منا أن نفعل شيئاً ولحسن الحظ أن عمارة بحرية كانت قريبة فأصدرنا إليها الأمر بالتوجه

فوراً وضرب العدو وإنزال أكبر عدد ممكن من الخسائر بقواته مع علمنا أن الأمر قد انتهى وأصبحت البلاد فى أيدى الألمان. وكانت الملكة لا تزال فى البلاد، إلا أنها لن تتمكن من البقاء طويلاً.

وفى أثناء هذه المعركة الجديدة وصلتنى رسالة تستدعينى للمثول أمام الملك فى تمام الساعة السادسة. وما إن وصلت إلى القصر حتى سمح لى بالدخول على الفور، واستقبلنى جلالته ببشاشة ولطف كثيرين وأمرنى بالجلوس، ونظر إلى وقال: «أعتقد أنك تعلم لماذا استدعيتك؟» وأردت أن أجاريه فى طريقته فأجبت «لا أعتقد أنى أعلم يا سيدى» فضحك جلالته وقال: «أريد أن أطلب منك تأليف الوزارة». وأجبته بأنى سأمتثل لأمره فى الحال.

ولم يشترط جلالته على نوع الحكومة وقوميتها. وشعرت أن تكليفى ليس مشروطاً بتأليف حكومة قومية، إلا أنى كنت أفضل فى هذه الظروف بالذات قيام حكومة قومية. ولكن إذا تعذر علىَّ التفاهم مع المعارضة، فإنى عند ذلك لن أكون ممنوعاً من الناحية الدستورية من تأليف حكومة قوية تضم جميع القادرين على الوقوف إلى جانب بلادهم فى هذه الظروف العصيبة شرط أن تكسب تأييد الأغلبية فى المجلس. وأخبرت جلالته أنى عازم على تقديم أسماء خمسة أو ستة وزراء ممن ستتألف منهم الوزارة، قبل منتصف الليل.

ودعوت المستر تشمبرلين هاتفياً وطلبت منه تولى رئاسة المجلس، فوافق وجرى الاتفاق على إذاعة بيان استقالته فى الساعة التاسعة. وقد قام بهذه المهمة بطريقة رائعة كريمة ودعا إلى تأييد خلفه والالتفاف حوله. وبعد ذلك تمكنت من تأليف الوزارة وأرسلت لجلالته قائمة بخمسة أسماء، كما وعدته أن أفعل. وقررت أن أتولى بنفسى مهام وزارة الدفاع. وهكذا تم لى تسلم القيادة فى الدولة، وبقيت محتفظاً بها طيلة خمس سنوات وثلاثة أشهر، بكل إخلاص وقوة، إلى أن انتهت الحرب واستسلم أعداؤنا دون قيد أو شرط.



الجزء الثانى

سقوط فرنسا

الفصل الأول

معركــة فرنســا

منذ نشوب الحرب فى أيلول عام ١٩٣٩، خصص الألمان قوتهم الرئيسية لغزو بولندا. وكانت تقف على الحدود الغربية الممتدة من أكس ـ ليشابل إلى حدود سويسرا، اثنتان وأربعون فرقة ألمانية، وكانت هذه الحشود خالية من أية فرقة مدرعة. وكان بوسع فرنسا أن تواجه هذه القوة بنحو من سبعين فرقة. إلا أنهم لم يفعلوا ذلك وقرروا أنه من المتعذر الهجوم على ألمانيا آنذاك. أما الآن فقد تغير الوضع تماماً، فقد اغتنم العدو الفرصة التى منحت له خلال ثمانية أشهر، وبعد أن تمكن من احتلال بولندا عبأ ما يقارب المائة والخمسة والخمسين فرقة من بينها عشر فرق مدرعة. وقد ساعده فى ذلك الاتفاق المعقود بين هتلر وستالين، والذى مكن هتلر من سحب وتخفيض قواته على الجبهة الشرقية إلى أقل عدد ممكن. وقد وصف الجنرال هولدر تلك القوات البسيطة المتبقية أمام روسيا بأنها قوة صغيرة تصلح لجمع الضرائب فقط. وهكذا استطاع هتلر أن يخصص لهجومه الكاسح على فرنسا مائة وست وعشرين فرقة مجهزة بأقوى الأسلحة، تدعمها ثلاثة آلاف سيارة مصفحة وألف دبابة ثقيلة.

أما فرنسا فقد حشدت مائة وثلاث فرق، بينها الفرق البريطانية الموجودة فى فرنسا، وإذا تقرر إشراك الجيوش البلجيكية والهولندية فسيزداد العدد بمقدار اثنتين وعشرين فرقة إضافية، ولما كان الهجوم الألمانى الذى بدأ فى العاشر من آيار عام ١٩٤٠ قد استهدف الجبهات الثلاث مجتمعة، فقد بلغ مجموع القوات الحليفة مائة وخمس وثلاثون فرقة، أى ما يوازى

عدد الفرق الألمانية تقريباً. ولو كانت هذه القوة الكبيرة منظمة تنظيماً حسناً ومدربة تدريباً تاماً لكان فى إمكانها وقف الهجوم الألمانى. إلا أن الجيش الألمانى آنذاك أصبح فى وضع يمكنه من اختيار الوقت والاتجاه والقوة اللازمة لبدء هجومه. وكان أكثر من نصف الجيش الفرنسى متمركز فى القطاعات الجنوبية والشرقية من البلاد، بينما بقيت إحدى وخمسون فرقة فرنسية بريطانية لتواجه الهجوم الكاسح فى الشمال الذى تقوم به نحو من سبعين فرقة ألمانية. وقد بدأ الألمان هجومهم بزحف الدبابات الحديثة التى لا تخترقها قذائف المدافع والطائرات، وقد صدرت الأوامر إلى خمس فرق مدرعة وثلاث فرق آلية بعبور الأردين إلى سيدان ومونترمى.

أما الفرنسيون فقد واجهوا هذه الدبابات بدبابات من النوع الخفيف وقد بلغ عددها ألفين وثلاثمائة دبابة، وقد تضمنت فرقهم الآلية المدرعة بعض الأنواع القوية، إلا أن معظم قوتهم المدرعة تلك كانت مجزأة ومتفرقة على عدة جبهات. أما بريطانيا التى كانت أول من اخترع الدبابة فقد أكملت تدريب أول فرقة مدرعة لها قبل أيام من بدء الهجوم، ولم تتمكن من إرسالها إلى فرنسا.

أما الطائرات الألمانية، فكانت تفوق الطائرات الفرنسية بالعدد والقوة. أما القوة الجوية البريطانية العاملة فى فرنسا فكانت تضم عشرة أسراب من طائرات «الهاريكين»، التى تمكنا من الاستغناء عنها، بالإضافة إلى تسعة عشر سرياً من أنواع مختلفة أخرى. أما طائرات الانقضاض، هذا النوع الجديد من الطائرات الذى بدأ فى الظهور منذ غزو بولندا، فلم تكن فرنسا أو بريطانيا قد أنتجته بعد. وقد أثرت هذه الأنواع من الطائرات على كتائب المشاة الفرنسيين وحطمت من معنوياتهم بشكل كبير.

بدأ الهجوم الألمانى ليلة التاسع ـ العاشر من شهر آيار عام ١٩٤٠، وقد سبق هذا الهجوم، غارات جوية على المطارات وطرق المواصلات والمنشآت

العسكرية، وبدأ الهجوم عبر حدود بلجيكا وهولندا واللوكسمبورغ. وتمكن الألمان من مباغتتهم فى كل مكان، وكان جنود العاصفة وهم يحملون المدافع الخفيفة، ينطلقون من جميع الجهات ليشعلوا الجبهة بالنيران.. وعندما بدأ الزحف الكبير على هولندا وبلجيكا صرختا تطلبان النجدة. أما الهولنديون فقد أركنوا إلى خطهم المائى وفتحوا جميع الثغرات التى لم يتمكن الألمان من الاستيلاء عليها، كما راح حرس الحدود يقاومون الغزاة. إلا أن الألمان كانوا قد اخترقوا الجبهة على عدة مواضع وأقاموا الجسور واستولوا على فتحاتها والمفاتيح التى تضبطها. بينما راحت الطائرات المغيرة تضرب بقوة، وأصبحت مدينة روتردام بعد ليلة واحدة كتلة من الأنقاض، كذلك لاهاى وأوترخت وأمستردام...

وفى الرابع عشر من آيار، بدأت الأخبار السيئة تصلنا عن اختراق الألمان للجبهة فى سيدان، ولم يتمكن الفرنسيون من الوقوف فى وجه الجيش الألمانى، ومقاومة الدبابات وطائرات الانقضاض الهائلة. وقد وصلتنا إلى مجلس الوزراء رسالة من المسيو رينو، يطلب فيها إرسال عشرة أسراب من الطائرات لمساعدته فى إعادة تنظيم الخطوط، كما وصلت رسائل أخرى إلى رؤساء الأركان تشرح الموقف وتقول إن الجنرالين غاملان وجورج يعتبران الوضع خطيراً جداً، وقد ذهل الجنرال غاملان من سرعة الزحف الألمانى. وفى جميع الأماكن التى اشتبكت فيها الجيوش كانت قوة الهجوم الألمانى تسيطر على الموقف فى الحال. أما الطائرات البريطانية فقد قاتلت ببسالة وقوة وحطمت الجسور الرئيسية فى سيدان، إلا أن الخسائر التى تعرضت لها الطائرات البريطانية كانت كثيرة إلى حد مخيف. فمثلاً خسرنا فى يوم واحد حوالى سبعة وستين طائرة أنزلتها المدفعية الألمانية المضادة للطائرات، كما أننا أسقطنا حوالى ثلاثة وخمسين طائرة ألمانية. ولم يبق لدينا فى ذلك اليوم سوى ٢٠٦ طائرات من أصل ٤٧٤ طائرة فى فرنسا... واتضح لنا أن

الاستمرار على هذه الحال سيؤدى إلى نهاية القوة الجوية البريطانية. وكان السؤال الآن، ماذا فى وسعنا أن نرسل من طائرات إلى فرنسا دون أن نترك بلادنا بلا دفاع. وكانت نداءات فرنسا الملحة، ورغبتنا فى القيام بالتزاماتنا تدفعنا إلى إرسال المزيد، إلا أننا سنصل إلى حد لا يمكننا تجاوزه لأنه سيكلفنا بذلك حياتنا.

وبحثت وزارة الحرب، التى كانت تجتمع كل يوم، هذا الوضع المخيف. وكان ماريشال الجو داودينغ قد أعلمنى أن باستطاعتنا الدفاع عن وطننا بخمسة وعشرين سرباً مقاتلاً من الطائرات، حتى لو هاجمنا السلاح الجوى الألمانى كله. أما إذا انخفض هذا العدد، فلا يمكننا الدفاع بعد ذلك. وكانت الهزيمة لا تعنى فقط تدمير مطاراتنا وقوتنا الجوية، بل تعنى تدمير مصانع إنتاج الطائرات الذى يتوقف عليها مستقبل بلادنا كله...

وفى الساعة السابعة والنصف صباحاً من يوم الخميس فى الخامس عشر من شهر آيار وصلتنى مخابرة هاتفية إلى المنزل وأنا فى فراشى من المسيو رينو. وكان يتكلم بالإنكليزية، والاضطراب بادياً على صوته وهو يقول: «لقد هزمنا. لقد خسرنا المعركة» فقلت له: «لا يمكن أن تهزموا بهذه السرعة!!» فأجاب «لقد تحطمت الجبهة عند سيدان، وهم الآن يتقدمون بالدبابات والآليات المدرعة» وأجبته على الفور بأنى سآتى إلى فرنسا للتحدث معه.

لقد استطاع الألمان أن يقتحموا الجبهة، واندفعت قوات كبيرة بعد أن اضمحل الجيش الفرنسى التاسع. وفى السادس عشر منه توغلت القوات الألمانية ستين ميلاً وراء الجبهة، كما انتهى القتال فى ذلك اليوم أيضاً، فى هولندا بعد أن استسلمت القيادة العليا...

فى الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم نفسه، توجهت إلى فرنسا ومعى الجنرال ديل، نائب رئيس أركان حرب الإمبراطورية والجنرال إيسماى. ووصلنا بعد ساعة إلى مطار «لابورجيه». وظهر لى أن الوضع أسوأ بكثير مما

كنت أعتقده. وقد قال الضباط الذين كانوا فى استقبالنا إن الألمان سيصلوا باريس خلال أيام معدودة، وهذا على أكثر تقدير. وتوجهت إلى سفارتنا وبعد أن استمعت إلى الأخبار، توجهت إلى الكى دورسيه، ودخلت إلى الغرفة حيث كان بانتظارنا رينو ووزير الدفاع ديلادييه والجنرال غاملان. وكان الجميع وقوفاً، ولاحظت على وجوههم دلائل التعب والاضطراب. ورأيت أمامهم خريطة قد رسم عليها بخط أسود جبهة الحلفاء، وقد أحدثت فيها ثغرة صغيرة مشؤومة عند سيدان.

وأوضح القائد باختصار تفاصيل ما حدث. فقد اخترق الألمان الجبهة إلى الشمال والجنوب من سيدان على بعد ستين ميلاً، وقد تمزق الجيش أمامهم وتحطم شر تحطيم. وبدأت السيارات تتجه بسرعة هائلة نحو أميان وأراس، معتزمة الوصول إلى البحر عند أبيغيل أو قربها، وربما غيرت هذه القوات وجهة سيرها، وتحولت نحو باريس. وقال إن القوات المدرعة البالغة ثمانى فرق تزحف وراء السيارات وتوسع فى أجنحتها أثناء تقدمها بعد أن شطرت الجيش الفرنسى وفصلت بينه تماماً. وقد استمر الجنرال يحدثنا عن الوضع حوالى خمس دقائق. وبعد أن أنهى حديثه ساد الوجوم والصمت لفترة طويلة، ثم سألته «أين القوة الاحتياطية وأين قوات المناورات؟» وأجابنى غاملان وهو يهز برأسه: «لا يوجد عندنا قوات احتياط أو قوات مناورة....».

وساد الصمت فترة أخرى. وارتفع الدخان فى الحدائق من المشاعل ورأيت الموظفين يحملون الوثائق والمستندات المهمة ويضرمون فيها النيران. استعداداً للجلاء عن باريس.

وعلى الرغم من أن للتجارب الماضية ميزات عديدة، إلا أنها تنقص نقصاً مهماً هو فى كون الأمور لا تتكرر على الصورة نفسها مرتين. ولولا ذلك لكانت الحياة تسير بسهولة كبيرة. وفى السابق تحطمت جبهاتنا وتمكن العدو من اختراقها، لكننا كنا دائماً نتمكن من وصل الأشياء ببعضها ونخفف من

حدة الهجوم. أما الآن فالتجرية كانت مختلفة، فقد انقطعت طرق المواصلات، وتم الاستيلاء على الريف القائم وراء الجبهة باندفاع هائل من السيارات المدرعة، ولم يكن باستطاعتنا المقاومة لعدم وجود احتياطى استراتيجى لدى الفرنسيين... لقد أجابونى بأنه ليس لديهم احتياطى، وقد أذهلنى جوابهم هذا، إذ كيف يمكننا اعتبار هذا الجيش الفرنسى الكبير بعد الآن؟ ولم أستطع أن أتصور أن قائداً يعهد إليه مهمة الدفاع عن جبهة تقدر مساحتها بخمسمئة ميل، ويبقى عاجزاً عن المناورة. إذ لا يمكن لأى قائد أن يدافع عن جبهة واسعة كالجبهة الفرنسية، خاصة بعد أن يندفع العدو بهذه القوة الهائلة ويخترق الجبهة. لذلك يتوجب على القائد أن يطلق فرقه الاحتياطية لمهاجمة العدو فى اللحظة نفسها التى تكون حدة هجوم العدو قد خفتت.

إذن لماذا أقامت فرنسا خط ماجينو هذا؟ فهو بلا شك قد وفر استخدام قوات كبيرة من الجيش، وبالوقت نفسه خلق مراكز دفاعية، باستطاعة الجيش أن يستخدمها أثناء هجومه المعاكس بالإضافة إلى استخدامه لتلك المراكز لحشد قوات إضافية تساعد الجيش عند الضرورة. وهذه هى الطريقة الوحيدة لمواجهة مثل هذا الموقف. ولكنهم يقولون إنه ليس عندهم احتياطى. وهنا لابد أن أعترف أن قولهم هذا كان أكبر مفاجأة تلقيتها فى حياتى. فلماذا لم يعرفونى بهذا الأمر من قبل، حتى ولو كنت منهمكاً فى أعمالى فى الأميرالية؟ بل لماذا لم تعرف الحكومة البريطانية بهذا الأمر من قبل، وخاصة وزارة الحربية؟ ولا أعتقد أن القيادة الفرنسية ما كانت لتكشف لنا عن هذا الضعف أو عن طريقة توزيع قواتها، فهذا العذر هو أقبح من الذنب، إذ إنه من حقنا أن نعرف، فالجيشان يخوضان معركة حياة أو موت فى الجبهة... وعدت إلى النافذة لأراقب ألسنة اللهب تلتهم الوثائق والمستندات الخاصة بالجمهورية الفرنسية. وكانوا لا يزالون يقذفون بمزيد من المستندات إلى النيران المتأججة...

وعاد الجنرال غاملان إلى الحديث مرة أخرى. ويقول: إذا لم يكن من الضرورى إعادة جمع القوات المشتتة لتضرب القوات الغازية. فإن هناك ثمانى فرق أو تسعا يمكننا سحبها من المراكز الهادئة فى الجبهة عند خط ماجينو، كما أن هناك ثلاث فرق مدرعة لم تشترك بعد فى المعركة. بالإضافة إلى ثمانى أو تسع فرق ستصل فى طريقها من إفريقيا خلال أسبوعين. وفى هذه الحالة سيجتاز الألمان طريقهم عبر ممر بين جبهتين فيمكن شن الغارات المعاكسة عليهم، ولن يتمكن الألمان من الصمود نتيجة ضغط الجبهتين عليهم...

ومع أن أقوال الجنرال غاملان كانت منطقية ومعقولة، إلا أننى شعرت بأن بقية الرجال لا يصدقون ما يقوله. وسألت الجنرال غاملان عن الموعد الذى سيحدده للهجوم، وعن الطريقة التى سيتبعها فى هجومه، وكان رده: «إننا أقل منهم عدداً وعدة، وأضعف منهم فى أساليب الحرب..» وبعد ذلك اكتفى بأن هز كتفيه، ولم نتكلم بعد ذلك، إذ لم يكن من ضرورة لذلك... ثم أين تقف بريطانيا إزاء هذا الوضع، بإسهامها الضعيف الذى لا يتعدى العشر فرق والتى لا يوجد بينها فرقة واحدة من الدبابات الحديثة، وذلك بعد مضى ثمانية أشهر من إعلان الحرب؟؟

وفى الصباح، قبل أن أغادر المكان، وصلنى التفويض من مجلس الوزراء فى لندن لنقل أربعة أسراب من الطائرات المقاتلة إلى فرنسا. ورجعت إلى السفارة لأطلب إرسال ستة أسراب أخرى، تاركاً خمسة وعشرين سرباً فقط للدفاع عن الجزر البريطانية كلها، وهذا هو الحد النهائى. وجاءتنى الموافقة فى المساء. فتوجهت لتوى إلى منزل المسيو رينو وأبلغته النبأ، كما طلبت منه استدعاء المسيو ديلادييه ليسمع النبأ المفرح، الذى بدا لى أنه سيرفع من معنويات أصدقائنا الفرنسيين. وعندما سمع المسيو ديلادييه بالخبر لم ينبس بكلمة واحدة، واكتفى بأن قفز من مكانه وأمسك بيدى وعصرها وأمارات

الفرح ترتسم على وجهه... وفى صباح اليوم التالى عدت إلى لندن. وقد أخبرت أصدقاءنا الفرنسيين، قبل أن أغادر باريس، أنهم ما لم يبذلوا جهداً فائقاً فإن مغامرتنا الكبرى فى إرسال تلك الأسراب من الطائرات تصبح دون فائدة. وقد قيل لى إن خسائر العدو كانت أكبر من خسائرنا بخمسة أضعاف، كما قيل لى إن فرنسا فقدت معظم طائراتها... وخيل للجنرال غاملان أن الوضع قد أصبح منتهياً، وقد أخبرونى بعد ذلك أنه أعلن بأنه لن يتمكن من الصمود أكثر من يوم واحد فقط، وأن باريس ستسقط بين ليلة وضحاها!! وفى اليوم نفسه الذى وصلت فيه لندن، وصلتنى الأخبار أن الألمان دخلوا بروكسل وفى اليوم التالى دخلوا كامبريه ثم اجتازوا سان كانتان، بينما كانت القوات الحليفة تتراجع منسحبة...

وفى منتصف ليل الثامن عشر ـ التاسع عشر، قام الجنرال بيلوتى بزيارة اللورد غوت فى القيادة العليا. ولم تكن شخصية هذا القائد تبعث على الارتياح والثقة. ومنذ تلك اللحظة بدأت فكرة الانسحاب إلى الشاطئ تراود مخيلة القائد العام البريطانى، وقد أبرق إلينا يقول إن الوضع فى فرنسا قد تغير ولم تعد المسألة مسألة خرق لخط الدفاع، بل أصبح الوضع يشكل صورة القلعة المحاصرة والمهددة بالسقوط.

وبدأ المسيو رينو بتغيير أعضاء وزارته وقيادته العليا. وعين الماريشال بيتان نائباً لرئيس الوزراء، ونقل المسيو ديلادييه إلى وزراء الخارجية وأخذ عنه مهام وزارة الدفاع والحربية واحتفظ بها لنفسه، كما عين الجنرال ريغان قائداً أعلى بدلاً من الجنرال غاملان.

كان آخر أمر أصدره الجنرال غاملان هو أن تشق الجيوش الشمالية طريقها إلى الجنوب إلى نهر السوم مهما كلفها الأمر، وأن تهاجم مدرعات العدو التى قطعت طرق مواصلاتنا. وفى الوقت نفسه يترتب على الجيش الثانى والجيش السادس أن يخترقا الصفوف باتجاه الشمال نحو ميزيير.

وقد أعجبت بهذه القرارات المتخذة، فقد كانت قرارات صائبة جداً.

وقد أثار اضطراب القيادة الشمالية، وهزيمة الجيش الفرنسى الأول وغموض الموقف العام، أثار القلق فى نفوسنا، وبقيت فى الوقت نفسه جميع الإجراءات التى اتخذناها هادئة مرنة وجاءتنا رسالة منا للورد غورت تقول إنه يدرس إمكانية انسحاب جيوشنا إلى دنكرك، بحال اضطر إلى ذلك... ولم يكن باستطاعة رئيس الأركان الموافقة على مثل هذا الاقتراح الذى لم نكن نحن أيضاً نوافق عليه، فبعثنا برسالة إلى اللورد غورت، نعلمه بها بوجوب الاتجاه بالقوات البريطانية نحو الجنوب الغربى لتنضم إلى القوات الفرنسية فى الجنوب، وفى الوقت نفسه يحث البلجيكيين على العمل بالخطة نفسها. وإذا لم يوافقوا عليه أن يخبرهم عن استعدادنا لإجلاء أكبر عدد ممكن من القوات من موانئ المانش. وقررنا فى الجلسة نفسها أن نرسل الجنرال ديل إلى مقر قيادة الجنرال جورج، الذى كنا على اتصال تليفونى دائم معه، بينما كانت اتصالاتنا مع اللورد غورت متقطعة وصعبة، وقد وصلتنا الأخبار بأن الذخيرة والمؤن لم تعد تكفى إلا لمدة أربعة أيام فقط.

وفى العشرين من آيار، بعد أن درسنا وضع جيشنا من جديد، قررنا بالجلسة الخاصة ما يلى: «يتوجب على الأميرالية أن تقوم بحشد أكبر عدد ممكن من السفن الصغيرة، وذلك كإجراء احتياطى، لنكون على استعداد للإبحار إلى الموانئ القائمة على طول الساحل الفرنسى». وفى اليوم نفسه انعقد المؤتمر الأول لجميع من يعنيهم الأمر لدرس قضية الجلاء الطارئ عبر القناة لقوات كبيرة جداً. كما وضعت الخطة لإجلاء عشرة آلاف رجل عن موانئ كاليه وبولون ودنكرك، كل أربعة وعشرين ساعة. وقد أسميت هذه الخطة «عملية دينامو» التى برهنت على أنها الطريقة الوحيدة التى أنقذت الجيش بعد عشرة أيام.

وفى ليلة العشرين من الشهر نفسه دخل الألمان مدينة أبيفيل، بعد أن

قطعت طرق مواصلات الجيوش الشمالية، وأصبح اتجاه قواتهم واضحاً الآن وكانت الفرق الآلية والمدرعات تتدفق كالسيل الجارف دون أن تلقى أية مقاومة من الفرنسيين، وكانت تتقدم مجتازة المدن والقرى بمعدل ثلاثين أو أربعين ميلاً فى اليوم الواحد. وكان الضباط الألمان ينظرون إلى السكان ويبتسمون بسخرية وهم يلوحون لهم بأيديهم. وتتحدث الأخبار أن جماعات من الأسرى الفرنسيين كانت تسير معهم والبنادق لا تزال فى أيديهم، وكان الألمان يجمعونها بين الفترة والأخرى ويحطمونها تحت الدبابات... وقد أذهلنى هذا الفشل فى الوقوف أمام هجمات المدرعات الألمانية التى تمكنت من تحطيم جيوش قوية بكاملها، كما أذهلنى الانهيار السريع فى المقاومة الفرنسية بعد أن تمكن الألمان من اختراق الجبهة. فقد كانت القوات الألمانية تسير على الطرقات الفرنسية الرئيسية بحرية تامة. ولم يبد أن أى طريق قد أغلق فى وجه الأعداء ولو فى نقطة واحدة تدل على شىء من المقاومة....



الفصل الثانى

المسير نحو البحر

لقد كان هتلر الرجل الوحيد الذى يستطيع اختراق حياد بلجيكا وهولندا، وبلجيكا لن تطلب العون من الحلفاء إلا إذا هوجمت. لذلك بقى زمام المبادرة العسكرية فى يد هتلر الذى وجه بضربته فى اليوم العاشر من شهر آيار. وانتقلت الجيوش الفرنسية والبريطانية من وراء خطوطها إلى بلجيكا لمحاولة إنقاذها، بدلا من البقاء عند خطوط الدفاع المحصنة. وقد كانت هذه المحاولة حسب خطة رسمها الجنرال غاملان والملقبة بالخطة «د». وكان الفرنسيون قد تركوا نقطة الدفاع المقابلة للاردين، دون دفاع قوى، فتمكنت الجيوش الألمانية من الاندفاع بشكل لم يسبق له مثيل فى التاريخ وقسمت خط الجيوش الفرنسية. وبعد ثمانى وأربعين ساعة أصبحت الجيوش الألمانية تهدد بقية الجيوش المتمركزة بالشمال قاطعة خط مواصلاتها الجنوبية وعن البحر أيضاً. وكان على القيادة العليا الفرنسية، أن تأمر جيوشها بالانسحاب فوراً وبأقصى سرعة ممكنة متحملة الخسائر البالغة فى المعدات. إلا أن الجنرال غاملان لم يواجه هذه الحقيقة المخيفة، بينما كان قائد الجيوش الشمالية، بيلوتى، عاجزاً عن اتخاذ القرارات المهمة بنفسه. لذلك عمت الفوضى جميع الجيوش فى الجبهة الشمالية المهددة.

وعندما شعرت هذه الجيوش بالخطر المحدق بها، تراجعت إلا أن العدو كان قد طوقها من الأيمن، فقامت بإنشاء خط دفاعى. لكنها لو بدأت هذه الجيوش بالتراجع قبل هذا الوقت الذى تراجعت فيه، لكان باستطاعتها أن تصل إلى خطها القديم فتتمكن من النجاة. لكن هذه الجيوش تأخرت وفقدت ثلاثة أيام بين أخذ ورد فاستكمل العدو حركة التطويق! ورأت وزارة الحرب فى بريطانيا أن القتال الفورى فى الجنوب هو الطريقة الوحيدة لإنقاذ

الجيش البريطانى. لكن اللورد غورت، لم يوافق على هذه الفكرة وبإمكانية نجاحها فالخطة المقترحة من وزير الحرب تقضى بإشغال العدو على عدة جبهات لتتمكن من خرق جبهة واحدة لتنفيذ خطة التراجع. وفى هذا الوقت تغيرت القيادة العليا فى فرنسا وصرف الجنرال غاملان وخلفه فى القيادة الجنرال ويغان. وأدى هذا التغيير فى القيادة إلى التأخير ثلاثة أيام أخرى. واقترح الجنرال خطة مشابهة لخطة سلفه واضطررنا إلى قبولها مرغمين، وحاولنا بكل جهد أن ننفذها مخلصين إلى أن انقطعت طرق المواصلات أمامنا، بعد أن صد الألمان هجماتنا الضعيفة واحتلوا اراس، وانهارت الجبهة البلجيكية وأوشك الملك ليوبولد على الاستسلام. وفقدنا كل أمل فى الانسحاب إلى الجنوب. ولم يبق أمامنا إلا البحر.. وفى الحال، أقام اللورد غورت رأس جسر حول دنكرك محاولا شق طريقه بكل قوته. وكنا فى هذه الأيام بحاجة إلى كل ما عرف عنا من نظام وطاعة ودقة فى القيادة...

وهنا سنعرض قصة كثر الجدل حولها. فقد ذكر الجنرال هولدر رئيس أركان الجيش الألمانى، أن هتلر قد تدخل فى هذا الوقت شخصياً ولأول مرة لأنه شعر بالخوف على آلياته المدرعة لأنها أصبحت فى وضع خطر للغاية، فهى الآن فى أرض وعرة محاطة بالأقنية ولا يمكنها التقدم بشكل سريع. وبالوقت نفسه لا يمكنه احتمال أية خسارة فى معداته. فهو بحاجة إليها فى المرحلة الثانية من حملته. واعتقد أن سلاح الطيران سيتمكن من السيطرة ومنع التراجع والانسحاب عن طريق البحر. لذلك أرسل أوامره بوقف آلياته المدرعة وتراجعها فى بعض الأماكن. وهكذا أصبح فى مقدور البريطانيين الانسحاب والوصول إلى دنكرك. هذا حسب قول هولدر نفسه وعلى كل حال فقد تمكنا من النقاط رسالة ألمانية فى صباح الرابع والعشرين من آيار تأمر بوقف الهجوم على دنكرك ويقول هولدر - أيضاً - إنه رفض التدخل فى تحركات الجيوش التى كانت تحت إمرة رونشتادت والتى كانت تحمل الأوامر الصريحة بمنع العدو من التقدم والوصول إلى البحر. وقال إنه كلما أسرع فى تحقيق النصر كان أسهل فيما بعد التعويض عن الدبابات والمدرعات المفقودة.

ولم يلبث هتلر أن أصدر أمراً بإيفاد ضابط ارتباط شخصى إلى الجبهة. ومضى الجنرال هولدر يقول:

«لم أعرف كيف أقتنع هتلر بضرورة عدم تعريض قواته المدرعة إلى الخطر ومن المرجح أن يكون كايتل قد أوحى له بهذه الأفكار عن طريق القصص التى كان يقصها عليه».

وقد صرح قادة آخرون بقصة مشابهة وأشاروا إلى أن هتلر قد أصدر أوامره هذه لأسباب سياسية منها فسح المجال أمام إنكلترا لطلب السلام بعد الهزيمة التى لحقت بفرنسا. وقد ظهرت بعد انتهاء الحرب بعض الوثائق التى صدرت عن مقر قيادة رونشتادت على شكل يوميات دونت فى ذلك الوقت، أما هذه الوثائق فتروى القصة بشكل مختلف تماماً! فالأوامر صدرت عند منتصف ليل الثالث والعشرين من آيار من مقر القيادة العامة، تحمل توقيع براوخيتش تذكر فيها أن الجيش الرابع سيبقى تحت قيادة رونشتادت ليقوم بالمرحلة الأخيرة من معركة التطويق. وفى صباح اليوم التالى، عندما وصل هتلر لزيارة رونشتادت، أخبره أن الآليات المدرعة، التى توغلت بعيداً قد ضعفت قوتها، وهى بحاجة إلى فترة من التوقف لاستعادة نشاطها كى تتمكن من توجيه الضربة القابضة للعدو الذى يقاتل بضراوة. وكان رونشتادت ينتظر هجمات شديدة من الحلفاء فى الشمال والجنوب، وهى الخطة التى اقترحها ويغان. وقد وافق هتلر على وجوب توقف السلاح المدرع لتجهيزه للمعركة الحاسمة المقبلة. ومع ذلك، فقد وصل فى صباح اليوم الثانى الأمر من براوخيتش، القائد العام، باستمرار تقدم المدرعات. وهنا رفض رونشتادت الأمر الموجه إليه، بعد أن اطمأن إلى موافقة هتلر الشخصية، ولم ينقل هذا الأمر إلى قائد الجيش الرابع «كلوغة» بل طلب منه أن يستمر فى تجميع القوات المدرعة. وقد احتج «كلوغة» على هذا التأخير، ولكن رونشتادت لم يصدر أوامر القيادة العليا إلا فى صباح يوم السادس والعشرين، وأضاف أنه

يجب أن لا يهاجموا دنكرك بالذات.. وقد ذكرت هذه اليوميات عن احتجاج قادة الجيش الرابع على هذا التخصيص وكتب رئيس أركان حربه يقول:

«إن الوضع فى الموانئ كان على الشكل التالى: فالبواخر الكبيرة كانت تقترب من الأرصفة، وتمد الألواح الخشبية إلى الشاطئ وبسرعة عجيبة كانت أسطحة البواخر تكتظ بالرجال. أما أسلحتهم وعتادهم الحربى فيتركونه وراءهم. لكننا لم نكن نريد أن نرى هؤلاء الرجال أنفسهم يعودون مرة أخرى وقد تسلحوا بسلاح جديد ليقوموا بجولات جديدة ضدنا».

ومن هذه اليوميات يتبين أن المدرعات قد توقفت بناء للأوامر التى صدرت عن رونشتادت لا عن هتلر. ولابد أن تكون هناك وجهة نظر خاصة، إلا أن القادة الألمان أجمعوا على أن هذه الأوامر قد أضاعت فرصة عظيمة عليهم.

لم تكن القوات الألمانية تضغط بشدة على خط الدفاع البلجيكى، ولكنها ما أن بدأت ضغطها المتزايد حتى انهار الخط، وتمكن الألمان من تحطيمه على جانبى كورثانى، التى لا تبعد عن اوستند ودنكرك أكثر من ثلاثين ميلا، وما لبث ملك بلجيكا أن يأس من الوضع الحاضر فقرر الاستسلام.

واتخذ اللورد غورت قراره الحاسم بالتخلى عن خطة الجنرال ويغان القاضية بالزحف نحو الجنوب ونحو السوم. وقرر بدلا عنها بعد اقتناعه التام بأن إشراف الحكومتين البريطانية والفرنسية قد انتهى على ميدان المعركة، وكل سيطرة للقيادة الفرنسية العليا قد زالت. لذلك قرر أن يستبدل فكرة الهجوم نحو الجنوب، بسد الثغرة التى ستحدثها استسلام بلجيكا فى الشمال، وأن يزحف باتجاه البحر. وهكذا أصدر أوامره إلى الفرقتين الخامسة والخمسين بوجوب الانضمام إلى اللواء البريطانى الثانى لسد الثغرة فى الجبهة البلجيكية، كما نقل إلى الجنرال بلانشار الفرنسى عزمه على تغيير الخطة الأولى ووافق الجنرال وقرر الانسحاب إلى الخط الواقع وراء قناة ليز غربى ليل، وقرر إقامة رأس جسر حول دنكرك.

وفى الصباح الباكر من اليوم السادس والعشرين من شهر آيار، قام غورت وبلانشار برسم خطة الانسحاب نحو البحر. ولما كان على الجيش الفرنسى أن يقطع مسافة أطول، لذلك مهدت قوات الحملة البريطانية الطريق بينما بقيت القوات الأخرى فى خطوط الدفاع فى الجبهة حتى ليلة الثامن والعشرين من آيار. وكان اللورد غورت يتصرف حسبما يراه مناسباً وعلى مسؤوليته الخاصة، إلا أننا فى الوزارة كنا قد توصلنا إلى النتيجة نفسها حسب المعلومات التى حصلنا عليها. لذلك أصدرنا له برقية تأييد للإجراءات التى قام بها طالبين منه التوجه إلى البحر بالاشتراك مع القوات الفرنسية والبلجيكية. ثم بدأ حشد أكبر عدد ممكن من المراكب والسفن.

وفى هذه الأثناء، استمرت عملية إقامة رؤوس الجسور حول دنكرك، كما تقرر أن يحتفظ الفرنسيون بالأماكن الواقعة بين «غريفلاين» و«بيرغ» بينما يحافظ البريطانيون على القناة عبر فيرنز إلى نيوبورت والشاطئ وتلقى اللورد غورت من الوزارة تأكيدا للأمر الذى صدر إليه فى إجلاء أكبر عدد ممكن من الرجال. وكنت قد أخبرت المسيو رينو أن هدفنا هو سحب القوات البريطانية، كما طلبت منه أن يصدر أوامر مماثلة، وكانت حركة المواصلات قد أصبحت ضخمة حتى أن قائد الجيش الفرنسى الأول أصدر أمره فى السابع والعشرين من آيار إلى جنوده يقول: «إن المعركة تدور الآن دون تراجع حتى خط ليز».

أصبح الخطر يهدد فرقاً بريطانية أربعة، بالإضافة إلى الجيش الفرنسى الأول كله، بالعزلة والانقطاع. وراحت (الكماشة) الألمانية تحاول الضغط بكل قوتها على جيوشنا. وكانت هذه اللحظة من اللحظات الحاسمة التى تلعب فيها وسائل النقل الميكانيكية دورها البارز. فما إن أصدر اللورد غورث أمره بالتراجع حتى كانت الفرق الأربع تتراجع بسرعة مذهلة فى ليلة واحدة. وتمكنت بقية الفرق البريطانية من الاحتفاظ بالممر المؤدى إلى البحر بكثير

من الجهد، وبعد معارك دامية تمكن العدو من إغلاق (الكماشة) بعد أن تم تأخيرها ثلاثة أيام بفضل الفرق البريطانية الثانية، وتم إغلاق ذراعى الكماشة بصورة تشبه تلك العملية الروسية العظيمة حول ستالينغراد سنة ١٩٤٢. وقد تم انسحاب الجيوش البريطانية والفرنسية، خلال هذه الفترة، وتمكنت من النجاة عدا اللواء الخامس من الجيش الفرنسى الذى فقد...

قبل عشرة أيام طلبت من المستر تشمبرلين درس إمكانية استمرارنا فى الحرب وحدنا، والآن ما لبثت أن عرضت الأمر بصفة رسمية على مستشارينا العسكريين. وقد وضعت الأسئلة بطريقة تترك المجال أمام رؤساء الأركان لإبداء آرائهم بحرية تامة، مهما كانت تلك الآراء. وبالرغم من ثقتى التامة بأنهم سيطلبون الاستمرار فى الحرب، إلا أنى وجدت من الحكمة أن أحتفظ بسجلات خطية عن مثل هذه الآراء. كما أردت أن أؤكد للبرلمان أن آراءنا بالاستمرار فى الحرب تدعمها آراء الخبراء العسكريون المحترفون. وهنا أسرد نص السؤال بحرفيته مع رد رؤساء الأركان عليه:

١ ـ لقد اطلعنا على التقرير عن «استراتيجية بريطانيا فى حال حدوث تطور معين» على ضوء المهمة التى كلفنا بها رئيس الوزراء فى رسالته التالية:

«فى حال عجزت فرنسا عن الاستمرار فى الحرب، وفى حال اتخذت موقف الحياد، وفى حال احتفاظ الألمان بوضعهم الحالى واستسلام الجيش البلجيكى بعد مساعدة الحملة البريطانية على الوصول إلى البحر، وفى حال التقدم بعروض من شأنها أن تضع بريطانيا تحت رحمة ألمانيا بسبب اقتراحات نزع السلاح ووقف القواعد البحرية عن العمل فى جزر اوركنى وغيرها، فما هو الأمل فى استمرار الحرب ضد ألمانيا، وربما ضد إيطاليا أيضا؟ وهل سيتمكن الأسطول والسلاح الجوى، من حمايتنا ضد غزو ألمانى خطير؟ وهل ستتمكن قواتنا التى سنحشدها فى هذه الجزر من مقاومة الغارات الجوية عليها، مع العلم أن هذه القوات تضم وحدات لا يبلغ عدد

أفرادها العشرة آلاف! شرط أن تأخذ بعين الاعتبار أن إطالة مدة المقاومة ستشكل خطراً كبيراً على ألمانيا التى ستكون منصرفة إلى السيطرة على الأجزاء التى احتلتها فى أوروبا».

٢ ـ هذا وقد توصلنا إلى نتائج سنذكرها فى الفقرات التالية:

٣ ـ «يمكن لأسطولنا البحرى أن يتعاون مع سلاحنا الجوى فى الدفاع ومنع ألمانيا من القيام بهجوم كبير عن طريق البحر».

٤ ـ «إذا افترضنا أن ألمانيا استطاعت أن تتفوق على قواتنا الجوية، فنحن نعتقد أن الأسطول سيتمكن من المقاومة لفترة محدودة فقط».

٥ ـ «إذا لم يتمكن أسطولنا من المقاومة، وإذا ما تمكن العدو من التغلب على سلاحنا الجوى، وإذا حاولت ألمانيا أن تغزونا، فلن تتمكن قواتنا الساحلية من الدفاع ومنع إنزال قوات برية على الشواطئ. وفى هذه الحال ستكون قواتنا البرية غير قادرة على الصمود أمام غزو ألمانى كبير».

٦ ـ «فإذا ما تمكنت ألمانيا من إحراز تفوق جوى، فباستطاعتها غزو بلادنا وإخضاعها عن طريق الجو فقط».

٧ ـ «لن تتمكن ألمانيا من التفوق علينا فى الجو، إلا إذا تمكنت من القضاء على سلاحنا الجوى برمته، وإذا ما تمكنت من تحطيم جميع مصانع الطائرات فى كوفنترى وبرمنغهام».

٨ ـ «قد تقع الغارات الجوية على مصانع الطائرات فى الليل وفى النهار. ونحن نرى أنه بإمكاننا أن نلحق بالعدو خسائر فادحة أثناء قيامه بغارات فى النهار. ومهما حاولنا فلن نتمكن من حماية جميع مصانع طائراتنا خاصة أثناء غارات العدو الليلية، فعلينا أن نحول بينه وبين تنفيذ أهدافه قدر إمكاننا».

٩ ـ «إن نجاح العمليات الجوية فى القضاء على صناعة الطائرات لا تعتمد

على القنابل والتخريب الذى ينجم عنها، بل يعتمد أيضا على التأثير المعنوى على العمال الذين سيتوقف عليهم وحدهم الرغبة فى الاستمرار فى العمل بالرغم من الاضطرابات والمخاوف».

١٠ ـ «إذا استمر العدو فى غاراته الليلية على مصانع طائراتنا، فقد ينجح فى إلحاق الأضرار المادية والمعنوية بنا، وسيتوقف العمل فى مصانعنا على الفور».

١١ ـ «علينا أن نتأكد من أن الألمان متفوقون علينا فى عدد الطائرات بنسبة أربعة إلى واحد. بالإضافة إلى أن مصانع طائراتهم أكثر توزيعاً وقوة من مصانعنا».

١٢ ـ «ومن ناحية ثانية، فبإمكاننا نحن أيضا توجيه ضربات قوية على مصانع العدو، ما دامت لدينا قوة كبيرة من قاذفات القنابل، التى ستلحق بغاراتها على مصانعهم الكثير من الأضرار المادية والمعنوية وتوقف قسماً كبيراً منها عن العمل».

١٣ ـ «وبالإجمال، تبدو ألمانيا لأول وهلة أنها تملك زمام الأمور بيدها. ولكن النتيجة تتوقف على مقدرة جنودنا وسكاننا المدنيين على الصمود، بفضل ما نتمتع به من روح معنوية عالية تمكننا من موازاة ألمانيا التى تبدو أنها متفوقة علينا».

لقد كتب هذا التقرير فى أحلك الأوقات، وقبل عملية إنقاذ دنكرك وقد وقَّع على التقرير رؤساء أركان الحرب الثلاثة، وهم: «نيووال ـ باوند ـ وايرونسايد»، ونوابهم الثلاثة: «ديل ـ فيليبس – وبيرس». وعندما قرأت هذا التقرير بعد سنوات، أريد أن أقر على ما كان يحتويه من خطورة وغموض، إلا أننا كنا قد حزمنا أمرنا وقررنا المضى يداً واحدة وقلباً واحداً.

وقد أصدرنا التعليمات العامة التالية:-

سرى للغاية

«إن من دواعى امتنان رئيس الوزراء، فى هذه الأيام السوداء، أن يرى زملاءه الوزراء وهم محتفظون بروحهم المعنوية العالية، خلال الفترات الصعبة التى

يعيشونها، وعلينا ألا نقلل من أهمية هذه الأحداث وخطورتها وحراجتها، وعلينا أن نبرهن عن عزمنا وتصميمنا الأكيدين على المضى فى هذه الحرب، حتى نحطم إرادة العدو الراغب فى السيطرة على أوروبا وإخضاعها لنفوذه وسيطرته».

«وعلينا ألا نتسامح بالفكرة القائلة إن فرنسا ستقوم بعقد صلح منفرد مع ألمانيا. ولكن مهما حدث على هذه القارة الأوروبية فعلينا ألا نشك فى واجباتنا. وسنستخدم كل ما نملكه من قوة للدفاع عن بلادنا وإمبراطوريتنا وقضيتنا».

وفى صباح اليوم الثامن والعشرين استسلمت بلجيكا، وقد وصلت الأنباء إلى اللورد غورث قبيل الاستسلام بساعة واحدة، وكان هذا الانهيار متوقعاً قبل ثلاثة أيام، وقد استطاعت القوات البريطانية أن تسد هذه الثغرة التى كان متوقعاً حدوثها. واستطاعت قوات الحملة البريطانية الجلاء، كما تمكن نصف الجيش الفرنسى الأول من الوصول إلى دنكرك سالماً حيث تم نقل رجاله بسلام. لكن خمس فرق لم يكتب لها النجاة بعد أن أطبقت عليها الكماشة الألمانية، إلا أنهم صمدوا أمام الضغط الهائل واستبسلوا فى القتال حتى مساء الحادى والثلاثين من آيار، واضطروا إلى الاستسلام بعد أن نفد ما لديهم من غذاء وعتاد. وهكذا استسلم نحو من خمسين ألف جندى فرنسى للأعداء. وقد تمكن هؤلاء من الصمود بقيادة الجنرال مولنييه الباسل وأتاحوا بذلك الفرصة أمام رفاقهم للنجاة عن طريق دنكرك.

وقد مررت بمحنة قاسية خلال الأيام المخيفة، ولم أكن أجرؤ على التدخل، إذ إن التدخل سيؤدى إلى زيادة الخطر على الرجال بدلا من تخفيفه عنهم. ولا شك أن التزامنا المخلص لخطة الجنرال ويغان قد زادت من خطورة الموقف. إلا أن قرار اللورد غورث، الذى وافقنا عليه وأيدناه، والقاضى بالزحف نحو البحر قد نفذ بدقة متناهية بفضل عبقرية القائد ومساعديه، وسيبقى هذه الحادث كأسطورة رائعة من أساطير البطولة فى تاريخ بريطانيا العسكرى.

الفصل الثالث

إنقـاذ دنكـرك

منذ العشرين من آيار، بدأ حشد البواخر والقطع الصغيرة تحت قيادة الأميرال رامسى قائد موقع ووفر. وفى مساء السادس والعشرين من الشهر نفسه أعلنت الأميرالية ابتداء عملية «دينامو» ووصلت أول قوة جلت عن دنكرك إلى الوطن. وبعد أن فقدنا ميناء بولون وكاليه، لم يبق عندنا سوى السواحل الرملية القريبة من حدود بلجيكا وما تبقى من ميناء دنكرك. وقد خيل لنا أن أكبر عدد يمكننا إنقاذه فى ذلك الوقت لن يتعدى الـ ٤٥ ألف رجل خلال يومين. وقد اتخذت إجراءات الطوارئ للحصول على أكبر عدد ممكن من السفن الصغيرة للقيام «بمهمات خاصة» وهذا يعنى نقل نصف قوات الحملة البريطانية. وكان عمل السفن الصغيرة يقتصر على الشواطئ الرملية، بينما تعمل بقية السفن الكبيرة فى ميناء دنكرك نفسه. وقام ضباط الأميرالية بالبحث عن الزوارق الصغيرة فى جميع الأحواض القائمة بين تيدلنغتون وبراتيلينغسى، فتمكنوا من جمع أربعين زورقاً بخارياً ولنشاً، كما جمعت كافة القوارب واليخوت والزوارق وزوارق صيد السمك والمواعين وكل ما كان على شواطئ البحر من وسائل النقل. وفى ليل السابع والعشرين من آيار اندفع سيل هائل من هذه القطع الصغيرة نحو شواطئ دنكرك لإنقاذ جيشنا الحبيب.

وبعد أن تأكد للأميرالية أن الأمر لم يعد سرياً أطلقت العنان لكل حركة من حركات الإنقاذ وسمحت لكل من يملك قارباً أو زورقاً مهما كان نوعه أن يبحر إلى دنكرك. وعمل الجميع فى هذا الجو الرائع من الحماس الوطنى

على إنقاذ ما لا يقل عن مئة ألف جندى من جنود الوطن من الشواطئ إلى السفن الراسية فى عرض البحر. تحت وابل من الغارات الجوية العنيفة، والقصف الذى لم ينقطع من طائرات العدو.

فى هذه الأثناء، كانت القوات الإضافية تعزز المواقع الأمامية حول دنكرك وبدأت النجدات تصل إلى خطوط الدفاع الأمامية. وكان من المقرر أن تشترك ثلاثة ألوية فى عملية الدفاع، لكن الفرنسيين حملوا عنا القسم الأكبر من مهمة الدفاع عن الجبهة، فقررنا الاكتفاء بلواءين فقط. وكان الألمان يطاردون جنودنا أثناء انسحابهم فينشب القتال المرير بين جنودنا ومطارديهم خاصة حول الجناحين فى نيوبورت وبيرغر. ومع استمرار الجلاء كان العدد ينخفض وتتقلص الخطوط الدفاعية. ووقفت الألوف من الجنود موقف الأبطال أمام القصف الجوى المستمر مدة أربعة أو خمسة أيام مريرة. وثبت أن مزاعم هتلر حول منع عملية الانسحاب بواسطة سلاحه الجوى لم تكن صحيحة بالإضافة إلى أنها كانت غير معقولة وفاشلة. فقد تبين أن القصف الجوى المستمر على حشودنا الكبيرة على الشواطئ لم يلحق بهم أضرارا كبيرة. وفى البداية عندما بدأت أولى الغارات الصاعقة، ذهل جنودنا من أن تلك الغارة لم تقتل أيا منهم تقريباً، فقد كانت الانفجارات تقع حولهم فى كل مكان، إلا أنها لم تصبهم بأذى. فلو كانت تلك الشواطئ صخرية لتغير الوضع وأضحت النتائج مهلكة، ألا أن الشواطئ الرملية بطبيعتها جعلت من نفسها مكاناً أميناً يقيهم شر الغارات الوحشية.

وقد أذهل سلاح طيراننا العدو لشدة بأسه ونشاطه. فقد كانت المعارك الجوية التى دارت فى سماء دنكرك تجربة للكفاءات الجوية البريطانية والألمانية. واحتفظت قيادتنا الجوية بطائرات مقاتلة ملأت سماء المعركة بصورة مستديمة، باذلة جهداً عظيماً فى مجابهة العدو الذى يفوقها فى العدد. وكانت طائراتنا تتغلب على الطائرات العدوة بسرعة مذهلة وتنزل بها

خسائر فادحة وتطردها خارج سماء المعركة. وقد استمرت هذه المعارك الهائلة يوماً بعد يوم إلى أن حقق سلاحنا الجوى النصر الكبير. وما إن تشاهد الطائرات العدوة حتى تهاجمها أسرابنا وتلتحم معها فى معارك ضارية وتسقط منها العشرات. وهكذا استخدمنا فى هذه المعركة العنيفة كل ما نملكه من طائرات احتياطية فى الوطن. وكان الطيار البريطانى يقوم بأكثر من أربع غارات يومياً، ولذلك حصلنا على نتائج واضحة ومرضية. فقد كان العدو المتفوق علينا ينهزم أمامنا أو يقتل ويتخاذل ويضعف. لقد كانت المعركة فاصلة. ولم يكن جنودنا على السواحل يشاهدون هذا الصراع الهائل فى الجو، فالمعارك كانت مشتعلة بعيداً عن أنظارهم. وكانوا يجهلون ما يفعله نسورنا فى الجو، وكل ما يشعرون به هو هذه القنابل المنهمرة على الشواطئ التى يرسلها العدو الذى يتمكن من الإفلات والوصول إلى الشواطئ. ولسوء الحظ، سيطر شعور من الغضب والنقمة على سلاحنا الجوى البطل لأن الجنود لم يشاهدوه فى سماء المعركة، ولم يعلموا شيئاً عن الخسائر الهائلة التى كان يلحقها بالعدو. وقد وصل بعض الجنود إلى دوفر وموانئ التيمز وهم يشتمون زملاءهم الطيارين، جهلا منهم لتلك الحقيقة المشرقة والبطولة النادرة. لذلك قررت أن أذيع تلك الحقائق فى البرلمان.

أما فى البحر فقد ساد النظام الكامل على ظهر السفن والبواخر، وكان البحر هائجاً مما ساعد على استمرار الهدوء والنظام. وراحت الزوارق تعمل بهمة لتنقل الرجال من الشواطئ إلى البواخر غير عابئة بالغارات الرهيبة التى كانت تمطرهم بوابل من قنابلها المميتة. وكان عدد هذه الزوارق الكبير هو وحده الذى تحدى الغارات الجوية. وثبت أن «أسطول البعوض» الجبار لا يغرق.

وفى الحادى والثلاثين من شهر آيار بلغ القتال فى دنكرك ذروته، وقد نقل خلال يومين فقط ما يزيد عن ١٢٢ ألف رجل، انتقل معظمهم من الشاطئ فى زوارق صغيرة تحت وابل من القنابل بل والمدافع. وقد بذلت

القاذفات المعادية أكبر مجهود لها فى اليوم الأول من حزيران. وكانت تركز غاراتها أثناء عودة مقاتلاتنا للتزود بالوقود. وقد خسرنا عدداً ضخماً من بواخرنا نتيجة لتلك الغارات، وبلغ مجموع ما غرق فى الأسبوع الماضى بكامله. وبلغت خسائرنا فى ذلك اليوم إحدى وثلاثين سفينة بالإضافة إلى إحدى عشر سفينة أخرى أصيبت إصابات طفيفة. وزاد العدو من ضغطه وهو يأمل فى اختراق خطوط دفاعنا إلا أنه لم يتمكن بفضل مقاومة قواتنا الحليفة الخلفية الرائعة.

ومضت المرحلة النهائية لعملية الجلاء بكثير من الدقة والمهارة، وأصبح بإمكاننا رسم الخطط سلفاً، بدلاً من اضطرارنا إلى الاعتماد على الظروف والأحداث التى كانت تتغير فى كل لحظة. وعندما حل فجر اليوم الثانى من حزيران لم يبق فى دنكرك سوى أربعة آلاف بريطانى ومعهم سبعة مدافع مضادة للطائرات و١٢ مدفعاً مضاداً للدبابات، ظلوا بالاشتراك مع القوات الفرنسية التى كانت لا تزال تحافظ على خط الدفاع الرئيسى، وقرر الأميرال رامسى النزول دفعة واحدة إلى الميناء فى تلك الليلة، إذ لم يعد ممكناً الانسحاب إلا أثناء الليل. وأبحرت من إنكلترا فى هذه الليلة أربع وأربعون باخرة بالإضافة إلى الزوارق الصغيرة المحتشدة. كما اشترك فى هذه العملية أربعون سفينة أخرى فرنسية بلجيكية. وتم نقل قوة المؤخرة البريطانية كلها قبل حلول منتصف الليل.

لكن هذه لم تكن النهاية فى دنكرك. فقد كنا على أتم الاستعداد لنقل المزيد من القوات الفرنسية الموجودة فى الميناء. لكن عندما اضطرت بواخرنا إلى الانسحاب فى تلك الليلة، كان على الشواطئ عدد كبير من الجنود الفرنسيين لا يزالون مشتبكين مع العدو فى قتال عنيف، وكان علينا أن نحاول مرة أخرى بالرغم من الإعياء المسيطر على بحارتنا من جراء الجهد الهائل الذى بذلوه دون توقف خلال الأيام الماضية دون أن يذوقوا طعماً

للراحة والنوم. وفى اليوم الرابع من حزيران أنزلنا فى إنكلترا ٢٦١٧٥ فرنسياً كان بينهم واحد وعشرون ألفاً فى سفن بريطانية. أما الباقون والبالغ عددهم بضعة ألوف، فقد واصلو القتال عندما وصل العدو إلى ضواحى البلدة بعد أن بلغ بالجنود الإعياء واحتملوا أقسى ما يمكن للطاقة البشرية أن تحتمله بحيث تمكنوا من تغطية انسحاب زملائهم، فسقطوا أسرى فى أيدى الأعداء.

وأعلنت الأميرالية أخيراً فى تمام الساعة الثانية والدقيقة الثالثة والعشرين من بعد ظهر يوم الرابع من شهر حزيران انتهاء عملية «دينامو». وقد تم نقل (٣٣٨٠٠٠) جندى بريطانى وحليف إلى الجزر البريطانية.



الفصل الرابع

التسابق نحو المغانم

كانت علاقاتى الشخصية مع موسولينى فى المرتين اللتين اجتمعت فيهما معه عام ١٩٢٧، وثيقة، ولم أكن لأحرض حكومتى على مقاطعته حول موضوع الحبشة، أو لأثير نقمة عصبة الأمم عليه، إلا إذا كنا على استعداد لخوض معركة ضده حتى النهاية.

وفى هذه الأثناء، وبعد الكارثة التى ألمت بنا فى فرنسا، وجدت أنه يترتب علىَّ بصفتى رئيساً للوزارة أن أبذل ما فى وسعى لإبقاء إيطاليا خارج الحرب. وبالرغم من ثقتى بعدم جدوى هذه المحاولة إلا أننى لم أتردد فى استخدام كل ما لدى من نفوذ وطاقات. فبعد ستة أيام من تسلمى للحكم فى بريطانيا بعثت بنداء إلى موسولينى، وقد سمحنا بنشر النداء والرد عليه بعد عامين فى ظروف مغايرة عن تلك الظروف. وكان تاريخ ندائى هذا هو السادس عشر من آيار عام ١٩٤٠ وهذا نصه:

من رئيس الوزراء إلى السنيور موسولينى

«الآن بعد أن أصبحت رئيساً للوزارة ووزيرا للدفاع، فقد رجعت بذاكرتى إلى اجتماعاتنا الماضية فى روما، فإنى أشعر بالرغبة فى نقل عبارات حسن النية بوصفك رئيساً للشعب الإيطالى، عبر ما يبدو أنها ثغرة تتسع بسرعة. هل فات الوقت لصد نهر الدماء من الاندفاع بين الشعبين البريطانى والإيطالى؟ إن فى إمكاننا أن نلحق ببعضنا إصابات قوية مؤلمة، وأن يضرب بعضنا البعض دون رأفة، وأن نحيل البحر الأبيض المتوسط إلى ظلام بنزاعنا وخصامنا. فإذا كانت هذه رغبتك، فلتكن كذلك، ولكنى أعلن بأنى لم أكن

يوماً من الأيام عدواً لعظمة إيطاليا أو عدواً للمشرع الإيطالى الذى منحنا القوانين والشرائع أن من العبث معرفة وجهة هذه المعارك الدائرة الآن فى أوروبا، ولكنى متأكد من شىء واحد هو أنه مهما حصل فى القارة الأوروبية. فإن بريطانيا ستمضى بثبات إلى نهاية الطريق، حتى لو اضطرت إلى البقاء لوحدها كما جرى فى السابق. كما أنى متيقن من أن المساعدات الأمريكية لنا ستزداد، بل إننا سنتلقى العون من الأميركيين أنفسهم».

«وإنى أرجو أن تصدق، أن الدافع الذى دفعنى إلى توجيه هذا النداء أليك، لم يكن الخوف أو الضعف، فهذا النداء سيسجل على صفحات التاريخ. فعبر الأجيال المقبلة وفوق الهتافات، سيبقى الهتاف الوحيد قائماً بأن لا يشترك الوارثان للحضارتين اللاتينية والمسيحية فى صراع دموى ضد بعضهما البعض. وأنى أناشدك أن تصغى إلى هذا النداء بكل إجلال واحترام قبل أن تصدر إشارتك المخيفة وعلى كل حال إن هذه الإشارة المخيفة لن تصدر عنا أبداً....».

وكان جواب موسولينى على هذا النداء قاسياً جدّاً، ولكنه لم يخلو من الصراحة، وهذا نص الجواب.

من السنيور موسولينى إلى رئيس الوزراء

«أجيب على الرسالة التى بعثت بها إلى، أنك بلا شك مطلع على الأسباب الخطيرة التى حدت ببلدينا إلى الوقوف فى معسكرين متعاكسين ولا أرى سبباً للرجوع إلى الماضى، ولكنى أذكرك بالدور الذى قامت به حكومتك عام ١٩٣٥ فى فرض العقوبات على إيطاليا التى أرادت أن تحتفظ لنفسها بقطعة صغيرة من أرض إفريقيا دونَ أن تلحق الأضرار بممتلكاتكم أو مصالحكم أو ممتلكات أو مصالح غيركم. كما أريد أن ألفت نظرك إلى الحالة الراهنة من العبودية الحقيقية التى تجد إيطاليا نفسها فيها وفى بحرها الخاص بها. وإذا كانت حكومتك تريد المحافظة على كلمتها وتوقيعها،

لذلك أعلنت الحرب على ألمانيا، فيمكنك إذن فهم حقيقة هذا الشعور بالنسبة لإيطاليا أيضاً التى هى الأخرى تريد المحافظة على كلمتها ومعاهدتها مع ألمانيا، مهما كانت الظروف والاعتبارات».

وبعد وصول هذا الرد من موسولينى لم نعد نشك فى أنه لا يريد الحرب، فهو سينتظر الفرصة المناسبة، وقد وجد فى هزيمة فرنسا الفرصة الذهبية لإعلان الحرب على بريطانيا وفرنسا معاً. وقد ذكر تشيانو أن موسولينى سيعلن الحرب خلال شهر واحد وفى أى وقت يراه مناسباً بعد الخامس من حزيران، إلا أن الموعد تأجل إلى العاشر منه بناء لطلب خاص من هتلر نفسه.

وقد حاولت الولايات المتحدة التدخل لمنع إعلان الحرب من جهة إيطاليا، وبذلت جهوداً هائلة فى هذا السبيل، إلا أن الدكتاتور الإيطالى رفض كل عرض تقدمت به الولايات المتحدة. وفى الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين من بعد ظهر اليوم العاشر من حزيران، أبلغ وزير الخارجية الإيطالية سفير بريطانيا أن إيطاليا ستعتبر نفسها فى حالة حرب مع المملكة المتحدة منذ منتصف تلك الليلة. كما وجهت مثل هذا الإشعار إلى حكومة فرنسا أيضاً، وعندما نقل تشيانو هذا الخبر إلى السفير الفرنسى قال هذا وهو يتجه إلى الباب: «وأنتم أيضاً ستجدون أن الألمان هم سادة قساة». وأعلن السنيور موسولينى من شرفة قصره إلى الحشود المتجمهرة أن إيطاليا قد أعلنت الحرب على بريطانيا وفرنسا.

وبدأ الإيطاليون معركتهم بأن راحوا يهاجمون القوات الفرنسية فى جبال الألب، وأعلنت بريطانيا الحرب على إيطاليا فى الحال. وصدرت الأوامر بتوقيف خمس بواخر إيطالية كانت فى جبل طارق كما أخطر الأسطول بوجوب توقيف كل باخرة إيطالية يجدها. وقامت أسراب طائراتنا بالإغارة على تورين وميلانو.

أما فرنسا فلم تتمكن من حشد أكثر من ثلاث فرق بالإضافة إلى عدد مماثل من الحاميات الجبلية، وذلك لصد أية محاولة للغزو من قبل الإيطاليين عبر الألب وساحل ريفييرا. وكانت الجيوش الإيطالية تقدر باثنتين وثلاثين فرقة تحت قيادة الأمير أومبرتو. وفى الوقت نفسه شرع الألمان بتطويق الفرنسيين عبر نهر الرون. وصمدت الفرق الفرنسية المقاتلة أمام الإيطاليين، حتى بعد أن سقطت باريس وليون فى أيدى الغزاة الألمان. وعندما اجتمع موسولينى وهتلر بعد ذلك لم يجد الدوتشى ما يفخر به أمام صديقه. إذ لم يتمكن الإيطاليون من تحقيق أى نصر فى فرنسا رغم محاولاتهم المتكررة.

وكان مقرراً أن يلقى الرئيس الأميركى خطاباً يوم العاشر من حزيران. واستمعت إلى خطابه العظيم حوالى منتصف الليل وأنا لا أزال فى غرفة العمليات الحربية فى الأميرالية. وعندما توجه الرئيس روزلفت بهذه العبارة الجارحة لإيطاليا: «فى هذا اليوم العاشر من حزيران عام ١٩٤٠، ارتفعت اليد الممسكة بالخنجر وطعنت ظهر جارتها» شعرنا جميعاً بالرضى والارتياح. فقد كان خطابه رائعاً يحمل فى طياته بريق الأمل نحونا. وبعثت على الفور برسالة أشكر له فيها عواطفه.

وبعد سقوط فرنسا بدأ التكالب على المغانم، ولم يكن موسولينى الوحش الوحيد الجائع، فقد لحقه الدب الذى جاء يركض مع ابن آوى.

لقد كان سير العلاقات الإنكليزية ـ الروسية يسير إلى حد قطع العلاقات مع بريطانيا وفرنسا، خاصة بعد أن غزا الروس فنلندا. وكانت ألمانيا وروسيا تعملان معاً إلى الحد الذى تسمح به خلافاتهما العميقة القديمة، وراح ستالين وهتلر يعملان بالأسلوب نفسه من الدكتاتورية المتشابهة إلى حد كبير. وكان مولوتوف يثنى بشدة على إجراءات هتلر وسياسة ألمانيا العسكرية. وعندما قام الألمان بهجومهم على النرويج صرح مولوتوف أن الحكومة السوفييتية تقدر كل التقدير جميع الإجراءات التى أرغمت ألمانيا

على هجومها هذا. وقال إن الإنكليز قد تجاهلوا تماماً حقوق الدول المحايدة. ثم أضاف متمنياً النجاح والتوفيق لألمانيا فى إجراءاتها الدفاعية. وفى يوم العاشر من حزيران أبلغ هتلر زميله ستالين عن ابتداء الهجوم الألمانى الكاسح على فرنسا وعلى البلاد المنخفضة المحايدة. وكتب شولنبرغ يقول: «وقد استحسن مولوتوف هذا الإجراء، عندما قمت بإبلاغه النبأ، وقال إنه من الواجب على ألمانيا حماية نفسها ضد أى هجوم إنكليزى ـ فرنسى مشترك تقوم به هاتان الدولتان. وأضاف أنه لا شك مطلقاً فى انتصارنا».

وفى الرابع عشر من حزيران، أى يوم سقطت باريس، أرسلت موسكو إنذارها الأخير إلى ليتوانيا تتهمها والدول البلطيكية الأخرى بالتآمر على روسيا، وتطالبها بإجراء تغييرات شاملة فى الحكومة، وببعض التنازلات العسكرية. وفى اليوم التالى قام الجيش الأحمر بغزو تلك البلاد التى لم تتمكن من المقاومة. ثم تعرضت لاتفيا واستونيا للطريقة نفسها وفرضت عليها حكومات جديدة موالية لروسيا، كما فرضت عليها حاميات سوفييتية فى أراضيها. ولم تلبث جميع تلك الدول أن انضمت إلى الاتحاد السوفييتى فى الثالث من شهر آب (أغسطس).

ووجه الروس إنذاراً إلى رومانيا طلبوا فيه منها التخلى عن بساربيا والجزء الشمالى من بوكوفينا لمصلحة الاتحاد السوفييتى، وطلبوا أن يصلهم الرد فى اليوم التالى. وقد انزعجت ألمانيا أشد الانزعاج لهذا التصرف من قبل روسيا، لما يترتب على هذا العمل من أضرار بمصالح ألمانيا فى رومانيا، إلا أنها اضطرت للموافقة طبقاً لارتباطها بمعاهدة ريبنتروب ـ مولوتوف عام ١٩٣٩ الذى اعترفت فيه ألمانيا بحق روسيا بتطبيق سياستها فى جنوب شرق أوروبا. وبناء على ذلك أوعزت ألمانيا إلى رومانيا بالموافقة فوراً على المطالب الروسية. وهكذا انسحبت القوات الرومانية من المقاطعتين المذكورتين وانتقلت إليها القوات الروسية، وبذلك أصبحت القوات السوفييتية متمركزة على طول سواحل البلطيق وعلى مصب نهر الدانوب.

الفصل الخامس

مأساة فرنسا

عندما أذعنا عدد الذين تم إنقاذهم من دنكرك، ساد البلاد شعور من الراحة والاطمئنان. لقد ساد شعور من الارتياح بعد فترة طويلة من القلق الذى سرعان ما تحول إلى نوع من الإحساس بالنصر. فإن إنقاذ ربع مليون جندى شاب من خيرة جنودنا يعتبر نصراً عظيماً بعد سنوات طويلة من الهزيمة. وقد عاد هؤلاء إلى الوطن وهم لا يحملون شيئاً سوى بنادقهم والحراب وبضع مئات من المدافع الرشاشة. وقد كان الجميع يتمتعون بمعنويات عالية، وكانوا على ثقة تامة من أنهم سيتغلبون على عدوهم إذا ما أتيحت لهم فرصة ثانية للاشتباك معه.

لكن معركة دنكرك كانت قد خسَّرتنا كل ما نملكه من معدات، لا سيما تلك التى أنتجتها معاملنا مؤخراً وأرسلت بها إلى ميدان المعركة فى فرنسا، وستمضى عدة أشهر قبل أن نتمكن من إنتاج وتعويض تلك الخسارة الفادحة.

لكن العواطف الجياشة فى الولايات المتحدة، وخاصة تلك التى كانت تتأجج فى صدور القادة البارزين هناك، حتمت عليهم التفكير بالموضوع جدياً، وسرعان ما أصدر الرئيس الأميركى أوامره إلى وزارتى الحربية والبحرية، كما طلب الجنرال مارشال من نائبه إعداد قوائم بموجودات الجيش الأميركى من سلاح احتياطى. وفى خلال ثمان وأربعين ساعة كانت القوائم الكاملة جاهزة، وفى الحال وافق الجنرال مارشال عليها، وطلب إرسالها إلى بريطانيا وفرنسا. وتضمنت القائمة الأولى نصف مليون بندقية من مجموع مليونى بندقية يعود

تاريخ صنعها إلى عامى ١٩١٧ و١٩١٨ وبقيت مختزنة حوالى عشرين عاماً. وقد أرسل مع كل بندقية ٢٥٠ طلقة. كما أرسل معها أيضاً تسعمائة مدفع من عيار (٧٥) ومليون قذيفة وثمانون ألف رشاش وأنواعاً أخرى من الأسلحة. وشرعت جميع مخازن الجيش الأميركى بحزم الأسلحة وتوضيبها وشحنها. وقد وصل إلى الميناء فى الحادى عشر من حزيران اثنتا عشر باخرة بريطانية لتبدأ بنقل شحنات الأسلحة إلى بريطانيا وفرنسا.

لقد كان هذا العمل الذى قامت به أميركا عملاً رائعاً من أعمال الإيمان والقيادة، فقد حرمت نفسها من تلك الأعداد الهائلة من الأسلحة لترسلها إلى بلاد يعتبرها الكثيرون من أبناء البلاد أنها قد منيت بالهزيمة.

كانت لا تزال لدينا فى فرنسا فرقة جبلية خاصة بقيت وراء السوم وكانت لا تزال فى حالة ممتازة. كما كانت هناك فرقتا المدرعة الأولى والوحيدة وكتيبة الدبابات اللتان أرسلتا على كاليه للمشاركة فى عملية الإنقاذ. ولم يحل شهر حزيران حتى كانت الفرقة هذه قد خسرت أكثر من ثلثى رجالها، فصدرت الأوامر إليها بوجوب انسحابها إلى ما وراء نهر السين لإعادة تنظيمها. وفى الوقت نفسه جمعنا تسعة أنواع من فرق المشاة التى لم تكن تملك سوى البنادق، أى أنها كانت شبه عزلاء.

وفى هذا الوقت بدأت المرحلة الأخيرة من معركة فرنسا، وبدأ هجوم ألمانى جديد اتسم بالعنف والقوة خاصة المدرعات التى وفروها لهذه المعركة الفاصلة والتى تدفقت بمجموعها على الجبهة الفرنسية التى كانت تترنح من شدة الضعف. وحاول الجيش الفرنسى المقاومة للحفاظ على حدود نهر السوم، لكن فرقتين ألمانيتين تمكنتا من اختراق صفوفه واندفعت نحو روان فعزلت جناح الجيش الفرنسى الأيسر والذى يضم فرقتنا الجبلية، عن بقية أجزاء الجيش. وصدرت الأوامر إلى الجنرال فورشون بوجوب الانسحاب باتجاه روان. لكن هذه الأوامر لم تنفذ بسبب بدء انحلال القيادة الفرنسية، فقدمنا عدة احتجاجات

وبيانات إلى القيادة الفرنسية بهذا الشأن لكن دون جدوى...

وتمكنت فرقتنا من التراجع بعد قتال مرير ضار باتجاه سان فاليرى وهى تأمل بالجلاء عن طريق البحر. لكن الضباب الكثيف حال دون جلائها، ووصل الألمان إلى الشواطئ الصخرية وسدت سبل النجاة أمام فرقنا الباسلة بعد أن أصبح الشاطئ تحت سيطرة رشاشاتهم. واستسلم اللواء الفرنسى وارتفعت الرايات البيضاء فوق البلدة، فاضطرت فرقتنا الجبلية الباسلة إلى الاستسلام ووقع ثمانية آلاف بريطانى وأربعة آلاف فرنسى فى الأسر وكان قائد الفرقة الألمانية المدرعة التى أسرتهم، هو الجنرال رومل بالذات.

تلقيت فى الساعة الحادية عشرة من قبل ظهر الحادى عشر من حزيران رسالة من المسيو رينو يطلب فيها مقابلتى فى «بريار» على مقربة من أورليان بعد أن انتقلت العاصمة من باريس. فاستقليت طائرتى بعد الظهر وسافرت يصحبنى المستر إيدن وزير الحربية فى ذاك الوقت والجنرال ديل رئيس الأركان والجنرال إيسماى. وكانت رحلتى هذه هى الرحلة الرابعة إلى فرنسا.

وبدأنا الاجتماع فى تمام الساعة السابعة، فطلبت من الحكومة الفرنسية الاستمرار فى الدفاع عن باريس وقلت لهم مؤكداً ضرورة بدء حرب الشوارع والقتال من بيت إلى بيت لاستنزاف قوة الجيش الغازى. وقد ذكرت المارشال بيتان بتلك الليالى التى قضيناها سوية فى قطاره فى مدينة «بوفيه» بعد الكارثة التى حلت بالجيش البريطانى فى عام ١٩١٨، وذكرته كيف تمكن من إنقاذ الوضع فى عملية مشابهة. وقد ذكرت المارشال بأقوال كليمنصو حين صرح بقوله: «سأقاتل أمام باريس. وفى داخلها، وورائها». وقد أجابنى المارشال بيتان بكل اعتزاز وهدوء أنه كان تحت تصرفه فى تلك الأيام قوات تبلغ بعددها ستين فرقة، أما الآن فليس لديه أى منها. كما ذكرنى أن الفرق البريطانية كانت تبلغ بعددها الستين فرقة فى تلك الأيام أيضاً، كما أضاف أن تهديم مدينة باريس لن يغير شيئاً من النتيجة المرتقبة....

وعـرض علينا الجنرال ويغـان الوضع العـسكرى بالنسـبـة إلى المعـركـة «المائعـة» الدائرة على مـقـربة منا، وأثنـى ثناء كـبيـراً علـى الجـيش الفـرنسى وبسالته، وطالبنـا بإرسال نجدات عسكرية عاجلة وفى طليعة مطالبه إرسال جـمـيع مـا لـدينا من أسـراب المقـاتلات، واسـتطرد قـائلاً: «إن هذه اللحظة حـاسـمـة، لذلك لا يجـوز الإبقـاء على أى سـرب من الطائرات المقـاتلة فى إنكلتـرا» وقـد أجـبـتـه على الفـور بقـولى: «إن هذه اللحظة ليـست باللحظة الحاسـمة وستـأتى تلك اللحظة حين يقـوم هتلر بهجومه الجوى على بـريطانيا العظمى، وإذا تمكنـا من الاحـتـفـاظ بسـيطرتنا على الجـو ومن إبقـائنـا على البحـار مفتوحة، وهذا مـا سنقدر عليه حتمـاً، فعندئذ سنعود لاستعـادة كل ما فقـدتموه» لقد كـان لـدينا خمسـة وعشـرون سـرباً من الطائرات، وقـد قـررنا الاحتـفاظ بها ولن نفرط بسـرب واحد منها مهما كلف الأمر، فنحن قد قـررنا الاستمـرار فى الحـرب إلى أجل غير مـحدود، وأما التـخلى عن هذه الأسـراب فمعناه القضـاء على أملنا الوحيد فى الحياة..

وبعد قليل وصل الجنرال جورج الذى أطلع على خـلاصة حديثـا السابق، وبعد أن عرض ملخصاً للوضع القـائم فى الجبهة، أكد ضرورة ما سبق وطلبته أى البـدء فى حـرب الشـوارع وحـرب العـصـابات. فـالجيش الألمـانى ليس بالقـوة التى يبدو عليها حين مـجابهتـه بجيوش مماثلة، فلو حـاول كل لواء من الجيش الفــرنسـى الاصطدام مع لواء مـمـاثل من الجــيش الألمـانى، واســتــعــمـل فى اصطدامه كل ما يملكه الجيش الفرنسى من حيوية ونشـاط لتمكن من التغلب على عـدوه أو عـرقلة تقـدمـه السـريع على الأقل. وكـان ردهـم المتـخـاذل أن الأوضـاع أصـبـحت مـخيـفـة على الطرق التى امتـلأت بأفواج الـلاجئين الذين تطاردهم نيران رشـاشـات الطائرات العدوة، وألحـقوا هذا ببـيـانات عن حـالة السكان وعن انهـيـار الجهـاز الحكومى والسـيطرة العـسكرية. وقـال الجنرال ويغـان بـأنهم قد يضطـروا إلى طلب الهـدنة. وقد أجبـتـه بقـولى: «إذا وجدت

فرنسا، فى هذه المحنة، أنه من الخير لها استسلام جيشها فعليها أن تبادر إلى إعلان ذلك ولا تتردد بسببنا، فنحن قد صممنا على المضى فى حربنا وعلى القتال إلى الأبد، إلى الأبد والأبد». وعندما أعدت لهم قولى على الجيش الفرنسى أن يستمر فى القتال أينما كان وحيثما استطاع لإنهاك قوة مائة فرقة ألمانية، أجابنى الجنرال ويغان على الفور: «حتى لو قاتلنا، فسيبقى لديهم مائة فرقة أخرى تقوم بمهاجمتكم واحتلال بلادكم، وماذا تستطيعون أن تعملوه بعد ذلك؟» وأجبته: «إن مستشارى العسكريين يرون أن طريقة صد أى هجوم ألمانى على بريطانيا هى فى محاولة إغراق أكبر عدد ممكن منهم فى البحر، أما الباقى فيمكننا تحطيمهم على الشاطئ».



الفصل السادس

مشاكل الدفاع

فى هذا الوقت من صيف عام ١٩٤٠، أصبحنا منفردين تماماً بعد هزيمة فرنسا، ولم يكن فى إمكان دول «الدمنيونات» أو الهند أو المستعمرات أن تمدنا بالمساعدات اللازمة التى كنا فى أشد الحاجة لها، وكانت الجيوش الألمانية الضخمة المنتصرة المدربة والتى توفر لديها السلاح الاحتياطى الضخم، والمستودعات والمصانع التى غنمتها بكل بساطة، أخذت هذه الجيوش تستعد للمعركة الفاصلة.

أما إيطاليا فوقفت بقواتها الكثيفة الجرارة، بعد أن أعلنت علينا الحرب، تبحث فى شوق عن طريقة لتدميرنا فى البحر المتوسط ومصر.

كذلك وقفت اليابان فى الشرق الأقصى تنظر إلينا نظرة غريبة يتعذر علينا تفسيرها وتطالبنا فى إلحاح وتهديد إغلاق طريق بورما فى وجه المساعدات إلى الصين، كما كانت روسيا تقدم إلى هتلر مساعدات مهمة من المواد الأولية...

أما إسبانيا التى احتلت منطقة طنجة الدولية، فقد تغدر بنا بين آونة وأخرى وتطالبنا بجبل طارق وربما استنجدت بألمانيا لمساعدتها فى احتلاله أو فى إقامة بطاريات المدفعية الهائلة لتطويق أسطولنا عبر المضيق، وفى هذا الوقت كانت الحكومة الفرنسية التى أصبح بيتان رئيساً لها، قد انتقلت إلى فيشى، وأصبح من المنتظر بين لحظة وأخرى أن تعلن الحرب علينا بعد أن أصبحت ميالة إلى فكرة أوروبا النازية، كذلك أصبح الأسطول الفرنسى فى قبضة الألمان فى طولون.

وهكذا وجدنا أننا لسنا فى حاجة إلى المزيد من الأعداء.

ومع أن معنوياتنا لم تضعف، إلا أن السؤال الذى ظل يراودنا هو: كيف يمكن لنا أن نجتاز هذه الصعوبات القائمة؟ لقد كان من المعروف أن جيشنا فى الوطن لا يحمل سلاحاً أكثر من البنادق، وستمضى فترة من الزمن قبل أن تتمكن مصانعنا من التعويض على ما خسرناه من عتاد فى دنكرك... أليس من العجيب بعد كل هذا ألا يكون العالم كله متراجع على يقين من أن ساعتنا الأخيرة قد دنت؟؟

وانتشر الرعب فى الولايات المتحدة وسائر الدول الأخرى الحرة، وأخذ الأميركيون يتساءلون فى اهتمام: هل من واجبهم أن يجازفوا بمواردهم المحدودة الضئيلة إرضاء للمشاعر الطيبة وحدها وإن كانت المخاطرة ميئوساً منها؟

أليس من الأجدى أن يبذلوا أى جهد وأن يوفروا كل سلاح لملاقاة ضعف استعدادهم. وكان التغلب على هذه الأسانيد، يتطلب منطقاً مستقيماً وعلى جانب من الثقة، ولا ريب فى أن الشعب البريطانى مدين لرئيس الولايات المتحدة وكبار القادة والمستشارين، لأنهم على الرغم من اقتراب موعد انتخابات المرة الثالثة للرئاسة لم يتخلوا عن ثقتهم القوية فى تصميم بريطانيا وقدرتها على النضال. وليس من شك فى أن تصميم بريطانيا القوى الذى لم ينله أى ضعف أو وهن كان عاملاً من عوامل رجحان كفتنا فى القتال.

إن هذا الشعب الذى ظل فى سنوات ما قبل الحرب يسير فى طريق المسالمة وعدم التفهم، ويخوض غمار المهازل الحزبية، ويغرق إلى أبعد الحدود فى لجة السياسات الأوروبية بلا خوف... ها هو الآن يلاقى مصير تقصيره فى التأهب والاستعداد، وثمرة اتكاله على النوايا الحسنة والحوافز الكريمة، ولكن العالم يراه فى الوقت نفسه مصمماً على أن تصبح بلاده قطعة من الخراب قبل أن تبدو جزيرته خانعة ذليلة...

وهذه بلا جدال إحدى صفحات التاريخ الرائعة، ولكنها ليست الصفحة الوحيدة به، فعندما استولى الاسبرطيون على أثينا، أصرت قرطاجة على الصمود والاستبسال حتى الموت أمام روما، والتاريخ حافل بصفحات كثيرة عن شعوب استماتت فى النضال، ودول شجاعة تفيض بالكبرياء... آثرت أن تفنى وتموت وألا يبقى لها أثر.

ولم يكن هناك فى ذلك الحين سوى أقلية معدودة من البريطانيين والأجانب تقف على الأهمية الاستراتيجية لموقعنا الجغرافى المنعزل، ولم يكن كثيرون قد عرفوا فى مدى سنوات ما قبل الحرب أننا كنا نحافظ على مقومات دفاعنا البحرى والجوى، وقد مضى على الجزر البريطانية ما يقرب من ألف عام لم تشهد أرضها نيران غزو من الجو، وظل كل بريطانى فى قمة الكفاح محتفظاً بهدوء أعصابه، راضياً كل الرضا بالتضحية بحياته فى سبيل بلاده. وسرعان ما أخذ الأعداء والأصدقاء فى سائر بلاد العالم يدركون أن هذه هى طبيعتنا الأصلية... وماذا يكمن خلفها؟ إنه الأمر الذى يمكن أن يظهر فى الشدائد..

وكانت هناك ناحية أخرى، فقد تعرضنا خلال شهر حزيران لخطر كبير... فقد رأينا آخر ما لدينا من قوات احتياطية تسحب ليقضى عليها فى محاولة يائسة فى فرنسا، وأن قواتنا الجوية تتضاءل شيئاً فشيئاً فى هذه الغارات التى نمضى بها إلى القارة أو فى نقرها إلى هناك، ولو كان هتلر موهوباً، أو متمتعاً بحكمة خارقة، لأبطأ فى هجومه على الجبهة الفرنسية مدة ثلاثة أسابيع أو أربعة بعد معركة دنكرك على خط نهر السين، ليتم استعداداته للهجوم على بريطانيا... ولو حدث هذا لأصبحنا فى وضع مخيف لا خير لنا فيه. فإما أن نتخلى عن فرنسا وفى هذا تعذيب لنا، وألم لفرنسا، وإما أن ننثر قواتنا وننشرها مع ما فى هذه القوات من ضرورة قصوى لمستقبلنا وحياتنا، إذ كلما حفزنا الفرنسيين على المضى فى القتال، تحتم

علينا نحن أن نزيد فى العون لهم، وهذا يؤدى على اشتداد الصعوبات فى طريق إعدادنا للدفاع عن بريطانيا نفسها، ولا سيما بالنسبة للأسراب الخمسة والعشرين من طائراتنا المقاتلة التى يتوقف مصير كل شىء عليها. وبالطبع كان مستحيلاً أن نتخلى عن هذه الأسراب، ولكن رفضنا سيؤدى بالتأكيد إلى إغضاب حليفتنا الباسلة مما يعكر صفو علاقاتنا، وعلى هذا فقد رأينا عدداً من كبار قادتنا، ينظرون إلى مشكلاتنا الهينة نوعاً ما، بعد أن أصبحنا لوحدنا، بشىء من الراحة، وكأن عبئاً ثقيلاً قد نزل عن كواهلهم، وأصبح وضعنا كوضع مدرب أحد النوادى العسكرية الذى أخذ يخاطب لاعباً قد تهاوت معنوياته بقوله: «أيّاً ما كان الأمر فقد بلغنا المعركة الفاصلة، وسيكون نادينا ميدانها».

لم تكن القيادة الألمانية العليا، حتى هذه الفترة قد استهانت بقيمة ما عليه مركزنا من قوة، وقد ذكر تشيانو أنه قابل هتلر فى برلين فى ١٧ تموز عام ١٩٤٠ وتحدث مع الجنرال فون كايتل طويلاً، كما تحدث هتلر نفسه عن غزو لبريطانيا، فأكد له أن الرأى لم يستقر نهائياً على أى شىء، وقد ذكر أن عملية النزول إلى البر فى إنكلترا غير مستعجلة إلا أنها صعبة جداً، ويجب أن تقوم بها ألمانيا وهى فى غاية الحذر، إذ إن أخبارنا عن الترتيبات العسكرية فى الجزيرة، وطرق الدفاع عن شواطئها قليلة وغامضة ومثبتة فى صحتها. وأضاف كايتل أن ما يبدو سهلاً وجوهرياً هو شن هجوم جوى مركز على المطارات والمصانع ومراكز المواصلات الرئيسية فى بريطانيا العظمى، ومن المحتم أن يعرف كل إنسان أن السلاح الجوى البريطانى فى منتهى القوة، وذكر كايتل أن هذا السلاح الجوى يتألف من حوالى ألف وخمسمائة طائرة مستعدة للدفاع والهجوم المضاد، كما اعترف أن الغارات التى يقوم بها السلاح الجوى البريطانى قد تزايدت كثيراً، وأن من ناحية إصابة الأهداف من الجو فهم فى غاية المهارة. وكان عدد الطائرات المغيرة فى كل مرة يصل إلى

الثمانين لكن بريطانيا تعانى نقصاً كبيراً فى الطيارين، وليس فى وسعها أن تستعيض عن هؤلاء الذين يهاجمون المدن الألمانية الآن، بالطيارين الجدد الذين ينقصهم التدريب إلى حد كبير.

وأصر كايتل على ضرورة توجيه ضربة إلى جبل طارق لقطع شرايين المواصلات البريطانية وشل حركتها، ولم يشر كايتل أو هتلر إلى مدة الحرب أو أجلها، وكان هتلر وحده الذى ذكر عرضاً أن الحرب يجب أن تنتهى قبل ابتداء شهر تشرين الأول.

هذا هو التقرير الذى وضعه تشيانو فى مذكراته، وقد عرض على هتلر استجابة لطلب الدوتشى العاجل إمداده بحوالى عشر فرق من قواته ووحدة جوية تتكون من ثلاثين سرباً للمساهمة فى الغزو، وقد اعتذر هتلر عن قبول القوات البرية فى لباقة، ووصلت بعض الأسراب الجوية الإيطالية، لكنها لم تصب نجاحاً فى مهمتها كما سنرى.

وقد ألقى هتلر فى ١٩ تموز خطاب القائد المنتصر فى الرايشتساغ، وبعد أن تنبأ بأنى سألجأ إلى كندا، قدم ما يمكن أن يسمى عرضاً للصلح، وقد أرفق عرضه هذا بمذكرات دبلوماسية أرسلت عن طريق السويد والولايات المتحدة والفاتيكان - وبدا من الطبيعى بعد أن خضعت أوروبا كلها لإرادته، سيكون فى غاية السرور إذا تمكن من الحصول على موافقة بريطانيا على كل ما فعله. ولم يكن العرض فى الحقيقة يتناول السلام، وإنما يتناول الاستعداد لتقبل إذعان بريطانيا للتخلى عن كل ما خاضت الحرب من أجله.

وفكرت فى أول الأمر فى إثارة الموضوع بصفة رسمية فى البرلمان، ولكن زملائى الوزراء رأوا أن مثل هذا العمل يؤدى إلى التشويش حول موضوع كنا جميعاً متفقين حوله، وتقرر عوضاً عن ذلك أن يكلف وزير خارجيته بالرد على عرض هتلر فى إذاعة موجهة فى يوم ٢٢ تموز يرفض فيها دعوة هتلر... وأذيع الحديث الذى «قذف جانباً» بدعوة هتلر «للاستسلام لإرادته». ثم قارن بين

أوروبا الهتلرية، وأوروبا التى نقاتل فى سبيل حمايتها، وأعلن أننا لن نتوقف عن القتال حتى نضمن وجود الحرية.. وفى خلال ذلك كانت الصحف البريطانية والإذاعة قد رفضت أى حديث عن الصلح، دون تدخل من حكومة جلالته، وإنما بدافع من نفسها بعد الاستماع إلى خطاب هتلر من الإذاعة.

ويذكر تشيانو فى مذكراته أنه «عندما أذيع أول رد بريطانى، الذى كان متسماً بالبرودة، على الخطاب فى الساعات الأخيرة من ليلة ١٩ تموز.. ساد بين الألمان شعور بخيبة الأمل. بيد أن هتلر كان يتطلع إلى التفاهم مع بريطانيا العظمى، فقد كان يدرك أن الحرب مع البريطانيين ستكون قاسية تفيض بالدماء - وهو يدرك تماماً أن الناس فى كل مكان يكرهون سفك الدماء - أما موسولينى فيخشى من ناحية أخرى أن يجد الإنكليز فى خطاب هتلر الماكر للغاية مبرراً للبدء فى المفاوضات، وهذا مما يحز فى نفس موسولينى لأنه يرغب فى الحرب الآن أكثر من أى وقت مضى، وأياً كان الأمر فلم يكن موسولينى فى حاجة إلى الغضب أو الثورة، فسيتاح له أن يخوض كل أهوال الحرب التى يتمناها».

وقد قدم رؤساء أركان الحرب بواسطة الجنرال إيسماى اقتراحاً فى أواخر شهر حزيران لأزور المناطق المهددة فى السواحل الجنوبية والشرقية. وتلبية لهذا الاقتراح خصصت يوماً أو يومين من كل أسبوع للقيام بهذه الزيارة المحبوبة، كنت أنام عندما تفرض الظروف فى قطارى الخاص الذى تهيأت لى فيه كل أسباب الراحة ليتاح لى أداء أعمالى العادية بكل انتظام.. مع العلم أنى كنت أتصل دائماً (بهوايتهول). وقد قمت بزيارة «التاين» و«الهامير» وغيرهما من الأماكن المهددة بإنزال محتمل، وشاهدت مناورة للفرقة الكندية فى كنت، وقمت بالكشف عن الخطوط الدفاعية الداخلية فى هارويتسن ودوفر، وكانت إحدى زياراتى الأولى للفرقة الثالثة التى يقودها الجنرال مونتغومرى وهو ضابط لم أكن قد التقيت به. وقد صحبتنى زوجتى

فى هذه الزيارة للفرقة المذكورة المرابطة على مقربة من برايتون. وكانت هذه الفرقة قد أعطيت أهمية خاصة من ناحية الإعداد، وكانت على وشك الإبحار إلى فرنسا عندما انهارت المقاومة الفرنسية.

وقد أقام الجنرال مونتغومرى مركز قيادته فى ستيتنج، وأرانى مناورة صغيرة كانت الحركة الرئيسية فيها مناورة قامت أساساً على تحركات حاملات مدافع برن الرشاشة التى لم يكن فى استطاعته أن يستخدم منها حينذاك سوى سبع أو ثمانى حاملات. ومضت بنا السيارة بعد ذلك على الساحل عبر «شورهام» و«هوف» إلى أن وصلنا إلى جبهة برايتون المعروفة التى لى فيها الكثير من الذكريات القديمة. وقد تناولنا عشاءنا فى فندق «البيون» الملكى الذى يقع على الناحية المواجهة لرصيف الميناء الداخلى. وكاد الفندق أن يكون مقفراً من الناس بسبب عمليات الانسحاب الأخيرة، ومع ذلك فكان هناك من يستنشق الهواء الطلق ويتنزه على الشاطئ، وفى الميادين وقد سرنى أن أرى طائفة من «حرس قاذفى القنابل» يمهدون مركزاً لمدفعهم الرشاش فى أحد أكشاك الرصيف. فذكرنى ذلك بما كنا نفعله فى طفولتنا ونحن نعبث بالمخلفات القديمة. وكان الجو رائعاً جميلاً، وتحدثت إلى القائد أحاديث مثمرة... والحق أنى كنت شديد السرور بهذه الزيارة.

وفى منتصف شهر تموز اقترح على وزير الحربية إحلال الجنرال بروك محل الجنرال ايرونسايد فى قيادة الجيوش، وفى ١٩ تموز حينما كنت أطوف لاستطلاع القطاعات المعرضة للهجوم زرت القيادة الجنوبية ورأيت التجربة الواقعية التى أسهمت فيه اثنتا عشرة دبابة تقريباً، وبقيت فى السيارة طيلة بعد الظهر مع الجنرال بروك الذى كان يتولى قيادة تلك الجبهة، ولا شك أن سجل ماضيه كان رائعاً، فقد قاد المعركة الفاصلة عند «أبيرس» أثناء عملية الانسحاب إلى دنكرك، ثم تمكن بما أوتى من حذق وصلابة، وفى وسط عوامل فى منتهى الصعوبة والقوة، عندما كان يقود القوات الجديدة التى

أرسلناها إلى فرنسا خلال الأسابيع الأولى من شهر حزيران، تمكن من إنقاذ حملته، وكانت تربطنى به صلة أيضاً عن طريق أخويه البطلين اللذين كانا لى صديقين فى بداية حياتى العسكرية.

على أن هذه العلاقات والذكريات لم يكن لها أى تأثير على وجهة نظرى فى موضوع حيوى كهذا الذى يتصل باختيار القائد العام، ولكنها وثقت الصلات بينى وبين ألان بروك فى غضون الحرب. وقطعنا ما يقارب الأربع ساعات معاً فى السيارة فى ذلك اليوم من تموز عام ١٩٤٠، وكنا على اتفاق تام بشأن كافة وسائل الدفاع فى داخل الوطن. وبعد المشاورات الضرورية مع الآخرين وافقت على اقتراح وزير الحربية بتولى بروك القيادة العامة خلفاً للجنرال ايرونسايد الذى واجه إحالته إلى التقاعد بما اشتهر عنه من اعتزاز فى جميع الظروف التى تمت بها أعماله العسكرية.

وظل بروك فى القيادة سنة ونصفا تعرضنا فيها لخطر الغزو، فنظم القوات تنظيماً حسناً، وعندما صار فيما بعد رئيساً لأركان حرب القوات الإمبراطورية استمر التفاهم بيننا رائعاً حتى انتهينا إلى النصر... وسأورد بعد قليل المكاسب التى حققتها من استشارته فى إجراء تغييرات حاسمة فى القيادات فى مصر بالشرق الأوسط فى شهر آب عام ١٩٤٢، وما كان لها من خيبة أمل فى موضوع قيادة عملية الغزو عبر القنال (المانش) فى عملية السيد الأكبر (أوفر لورد) عام ١٩٤٤. وقد أدى خدمات جليلة فى المدة الطويلة التى عمل فيها رئيساً للجنة رؤساء أركان الحرب، فى معظم سنى الحرب ورئيساً لأركان حرب القوات الإمبراطورية، لا للإمبراطورية البريطانية فحسب بل للحلفاء جميعاً، وسأحكى فى هذه القصة بعض الاختلافات فى وجهات النظر التى حدثت فيما بيننا أحياناً، وأقص كذلك كثيراً من المسائل التى اتفقنا فيها وهى تؤكد مدى صداقتنا كل التأكيدات.

وفى هذا الشهر وصلت إلينا كميات وافرة من السلاح الأميركى عبر

الأطلنطى من غير أن تمس بسوء، وبينما كانت البواخر تقترب من سواحلنا بما تحمله من عتاد لا يقدر بثمن، كانت هناك قطارات خاصة أعدت لتحملها من الموانئ. وقد مكث الحرس الوطنى فى كل مقاطعة وكل بلدة وكل قرية متلهفاً على تسلم هذه الأسلحة، واكبّ الرجال والنساء على العمل بكل قواهم لتجهيز هذه الأسلحة وجعلها صالحة للاستعمال. وهكذا أصبحنا فى نهاية شهر تموز شعباً مسلحاً على أهبة الاستعداد لمواجهة أى غزو يقوم به المظليون. نعم لقد أصبحت بريطانيا أشبه ما يكون «بخلية نحل» وإذا قدر لمقاومتنا أن تنهار، وهو احتمال بعيد، فإن حشداً من الرجال والنساء، سيظل شاكى السلاح، وقد استطعنا بوصول الدفعة الأولى من البنادق الأميركية إلى حرسنا الوطنى بصرف النظر عن ضآلة كمية الطلقات التى لم تزد عن خمسين طلقة لكل قطعة، استطعنا أن نزود جيشنا العامل بثلاثمائة ألف بندقية بريطانية.

وبدأ كثير من الخبراء يجهزون بكل سرعة مدافع الخمسة والسبعين ملليمتراً التى وصلت إلينا، ومع كل مدفع منها ألف قذيفة، ولم يكن بحوزتنا معدات لإيصال المدافع بعرباتها كما أنه لم توجد لدينا الوسائل العاجلة لإنتاج عدد أكبر من القذائف على الرغم من أن المدافع المختلفة الأحجام تعقد العمليات الحربية، إلا أننى صممت منذ البداية على استخدامها. وأصبحت هذه المدافع منذ وصولها إلينا وطيلة عامى ١٩٤٠ و١٩٤١ جزءاً مهماً فى قوتنا العسكرية المدافعة عن الوطن. كما قمنا بعمل ترتيبات خاصة تعد مبتكرة دربنا عليها عدداً من الرجال لإدارة هذه المدافع وربطها فى سيارات الشحن لنقلها من مكان إلى آخر، وعندما تقاتل دفاعاً عن كيانك فإن وجود مدفع خير من عدمه. وقد مكث المدفع الفرنسى من طراز ٧٥ ملليمتراً سلاحاً فعالاً بالرغم من قدمه بالنسبة للمدافع البريطانية الحديثة من طراز ٢٥ رطلاً والمدافع الألمانية (هاوتزر).

وعندما مضت أشهر تموز وآب دون أن تنزل بنا الكارثة الساحقة، هدأنا بعض الشىء وازدادت ثقتنا فى مقدرتنا على خوض غمار حرب طويلة قاسية. وكنا نشعر بقوتنا تزيد يوماً عن يوم. فكل فرد فى المجموع يعمل بكل طاقته ليل نهار، ويمضى إلى نومه بعد ذلك شاعراً بثمار أعماله، واثقاً بأن الوقت أصبح فى صالحنا، وأننا سننتصر فى الحرب دون شك.

وازدحمت الشواطئ الآن بمختلف أنواع الوسائل الدفاعية وتم تنظيم البلاد كلها فى مجموعات ووحدات دفاعية، وغدا السلاح يتدفق من المصانع، ولم يكتمل شهر آب حتى أصبح فى حوزتنا مائتان وخمسون دبابة جديدة. وبدأنا نجنى ثمار المساعدة الأميركية، وأخذ رجال الجيش البريطانى العامل وزملاؤهم من رجال الجيش الإقليمى يقومون بتدريباتهم فى ساعات الصباح الباكر حتى المساء، وبهم لهفة إلى لقاء العدو، وازداد عدد جنود الحرس الوطنى إلى ما فوق المليون، وعندما كان ينقصهم السلاح كانوا يعمدون إلى استخدام أسلحة الصيد والرياضة والمسدسات الخاصة وأحياناً الفؤوس والمجارف. ولم يتكون فى بريطانيا طابور خامس، وإن صادفت قوات الأمن بعض الجواسيس، أما القلة الشيوعية الموجودة فى بلادنا فقد تلاشت أصواتهم على حين أقدم الشعب كله على بذل كل ما يستطيع من تضحيات غالية.

وعندما زار فون ريبنتروب روما فى أيلول قال لتشيانو: «إن الدفاع الإقليمى عن إنكلترا لا وجود له بلا شك، وأن فرقة ألمانية واحدة يمكنها أن تؤدى إلى انهيار كامل فيها» إن قوله هذا يكشف عن جهله الفاضح بنا، وعلى كل فقد تساءلت فى قرارة نفسى: ماذا يكون لو تمكن مائتا ألف ألمانى من جنود العاصفة التجمع على شواطئنا؟ لا شك بأن المذبحة ستكون رهيبة مروعة لدى الفريقين - إذ لم يكن هناك مجال للرحمة أو الشفقة، فقد كان الألمان على استعداد لاستخدام الإرهاب، وكنا من ناحيتنا على استعداد للمضى فى المقاومة إلى أقصى حد ممكن. وقد قررت تطبيق المثل السائر:

«بوسعك دائماً أن تمضى بشخص آخر معك بعيداً عن هذه الدنيا» وقد قدرت أن أهوال هذا المنظر ستقضى بالنهاية إلى ترجيح كفة الولايات المتحدة، لكن كل هذه العواطف لم توضع موضع التجربة والاختبار، وفوق مياه المانش ومياه بحر الشمال الزرقاء ربضت عشرات العمارات البحرية المتلهفة على القتال ساهرة الليل بطوله، بينما كان طيارو المقاتلات يحلقون فى السماء أو يقفون إلى جانب طائراتهم استعداداً لتلقى أية إشارة تصدر إليهم.

حقاً لقد كانت تلك الفترات جديرة بالحياة أو الموت. إذا وقفت على حقيقة القوات البحرية فقد وقفت على معرفة لها شأنها وروعتها. فاقتحام جيش لمياه المحيطات والبحار، بالرغم من وجود أساطيل قوية وعمارات بحرية هائلة أمامه، عمل حربى معجز، وقد أضاف البخار كثيراً من القدرات إلى إمكانيات الأسطول فى الدفاع عن بريطانيا العظمى. ففى عصر نابليون كانت الرياح تستطيع الدفع بقواربه المسطحة القعر إلى الخلف، لكن ما حصل بعد ذلك قد ضاعف من تفوق الأساطيل القوية ومقدرتها على تحطيم الغزاة وهم فى الطريق. وأدى كل تعقيد فى الأجهزة الحديثة بالنسبة إلى الجيوش إلى أن أصبحت مهمتها أكثر صعوبة ومشقة، وإلى أن صارت المتاعب التى تواجه قيادتها فى تزويدها بالعتاد والذخائر بعد إنزالها أمراً فوق الطاقة، وفى أزمة الحرب السابقة التى اهتز فيها مصيرنا كانت لنا قوة بحرية متفوقة ولم يستطع العدو كسب معركة بحرية واحدة مهمة ضدنا، لقد عجز عن مجابهة قوة طراداتنا وبالطبع كانت ثمة فرص أكثر من أن تعد تتصل برداءة الطقس وخاصة فى حال تكاثف الضباب، على أنه على فرض قيام هذه الفرص المعادية لنا واستطاع العدو النزول إلى شواطئنا فى مكان أو أكثر، فإن مشكلة تزويد هذه القوات بما يلزمها وتغذيتها بأية تجمعات أخرى، هذه المشكلة تظل مستعصية الحل. هكذا كان الوضع فى الحرب العالمية الأولى. أما الآن فقد دخل عنصر الطيران، فما هو تأثير هذا التغيير

الرئيسى على الغزو؟ من الظاهر أن العدو إذا تمكن من السيطرة على مضايق دوفر بقوته الجوية المتفوقة، فإن خسائرنا فى المدمرات ستكون كبيرة للغاية، وقد تكون - أيضاً - قاضية علينا، ولن يوجد إنسان لديه الرغبة فى الإتيان ببوارج ضخمة أو طرادات كبيرة إلى مياه تسيطر عليها القاذفات الألمانية، وبالفعل لم نضع أية بواخر ضخمة إلى الجنوب من «فيرث أوف فورت» أو على الشرق من «بلايموث» ولكننا جهزنا فى هارويش ونور ودوفر وبورتسماوث وبورتلاند دوريات دائمة اليقظة تتألف من سفن حربية خفيفة، وقد أخذ عددها يتكاثر باستمرار، ولم يأت شهر أيلول حتى صار العدد أكثر من ثمانمائة، ولم يكن فى الإمكان بعد ذلك تدميرها إلا بواسطة قوة جوية متفوقة معادية تحاول العمل على عدة مراحل.

وهنا يرد السؤال: لمن كان التفوق فى الجو؟ لقد كنا نقاتل الألمان فى معركة فرنسا وهم متفوقون علينا فى العدد بضعفين أو بثلاثة أضعاف، وبالرغم من ذلك فقد ألحقنا بهم خسائر تعادل النسبة السابقة، وفى سماء دنكرك وقد فرض علينا الاحتفاظ بدوريات مستمرة لتغطية إنقاذ جيشنا، كنا نحاربهم بكسب وغنم على الرغم من تفوق عددهم بنسبة أربعة أضعاف أو خمسة، وتوقع مارشال الجو الأعلى داودنج، قدرتنا على قتالهم وصد هجماتهم بنجاح، فوق مياهنا وشواطئنا ومقاطعاتنا المكشوفة، حتى لو تفوقوا علينا بنسبة سبعة أو ثمانية أضعاف.

وقد كانت قوة السلاح الجوى الألمانى فى ذلك الحين حسب معلوماتنا الصحيحة تعادل ثلاثة أضعاف ما نملكه، وبالرغم من أن هذا التفاوت كبير بالنظر إلى القتال مع أعداء شجعان أقوياء كالألمان. فقد توصلت إلى النتيجة التى سبق التوصل إليها، وهى أن فى سمائنا وفوق بلادنا ومياهنا نستطيع الانتصار على السلاح الجوى الألمانى، وإذا صح هذا فإن بحريتنا هى الأخرى ستبقى محتفظة بسيطرتها على البحار والمحيطات وستقوى على إحباط

محاولات الأعداء الذين يحاولون شق طريقهم إلينا.

وبقى عامل ثالث فى الإمكانيات والاحتمالات، فلو تمكن الألمان بما عرف عنهم من مقدرة وبعد فى النظر من تجهيز حملة كبيرة بطريقة سرية تحوى قطعاً خاصة للإنزال لا تحتاج إلى موانئ أو أرصفة، وإنما تقوم بعملية الإنزال للدبابات والمدافع والسيارات المدرعة فى أية نقطة مناسبة على الشاطئ، فهل يقدرون بعد ذلك على تزويد هذه القوات بالمؤن؟ ومع أنه لم يكن لدينا أى مبرر يحملنا على الاعتقاد بوجود مثل هذه المخترعات لدى العدو، إلا أن قواعد الحساب الصحيحة تقضى باحتمال الخسائر تماماً كالأرباح.

وتطلب منا إيجاد المعدات التى لزمتنا فى عملية غزو نورماندى، بذل جهد كبير متواصل بالإضافة إلى التجارب والعون المادى الضخم من جانب الولايات المتحدة الأميركية طوال أربع سنوات. وبالحقيقة لم يكن الألمان بحاجة إلى هذا العدد الكبير من المعدات فى مثل هذا الوقت، إلا أنهم كانوا يملكون معابر قليلة فى العدد.

وهكذا أوجبت علينا مشكلة غزو بريطانيا فى صيف عام ١٩٤٠ وفى الخريف من العام نفسه، تفوقاً جوياً ضخماً وإمكانية ضخمة فى السيطرة على المياه الإقليمية بالإضافة إلى كميات هائلة من معدات الإنزال. لكن السيطرة على البحار كانت إلى جانبنا، كما كان لنا التفوق الجوى، وكنا على ثقة - وقد ثبت لنا فيما بعد صحة هذا الاعتقاد بأن الألمان لم يقوموا ببناء قطع بحرية ضرورية للإنزال.

هذه هى أسس تفكيرى عام ١٩٤٠ وكان هناك الكثير من الحديث حول هذا الموضوع بالذات والكثير من القلق فى شهر تموز لدى الدوائر الحكومية وخارجها، وبالرغم من عمليات استطلاعها المستديمة عن سفن النقل الألمانية فى البلطيق أو فى مرافئ الراين والشلدات، وقد كنا على يقين كذلك من أن أية بواخر أو صنادل من ذوات المحرك الآلى لم تعبر المضائق إلى بحر

المانش، فبالرغم من كل هذا فقد كان شغلنا الشاغل هو التجهيز والاستعداد الكامل لمواجهة أى غزو وسحقه. وكنا نعتمد اعتماداً كلياً على تفكيرنا هذا فى وزارة الحربية وفى القيادة العسكرية.

وكانت خطة الألمان التى كشف عنها، تعتمد على وجوب الغزو عبر القنال بسفن متوسطة الحجم تتراوح حمولتها بين أربعة آلاف طن وخمسة آلاف، بالإضافة إلى قطع صغيرة أخرى، والآن نحن نعلم أنهم لم يكونوا يتطلعون إلى المضى بجيوشهم من مرافئ البلطيق أو بحر الشمال فى سفن كبيرة، كما أنهم يفكرون بالغزو فى موانئ بسكاى، وهذا لا يعنى أنهم كانوا منصفين حين اختاروا الساحل الجنوبى كهدف لغزوهم، وإن كان كل منا على خطأ، فعملية غزو الساحل الشرقى كانت ذات قيمة أكبر لو تمكن العدو من أن يؤمن السبل والوسائل لتلك المحاولة، وطبعاً لم يكن هناك من مجال لغزو الساحل الجنوبى إلا بعد أن تمر البواخر الضرورية جنوباً عبر مضيق دوفر، بعد أن تتجمع فى المرافئ الفرنسية القائمة على القنال، وطوال شهر تموز لم نر أثراً لشىء من هذه التحركات.

وبالرغم من كل هذا فقد ترتب علينا أن نستعد لكافة الظروف والاحتمالات، وألا نوزع قواتنا المتحركة فى الوقت ذاته، وأن نقوم بجمع قواتنا الاحتياطية وحشدها، وفى الإمكان حل هذه المشكلة المستعصية والشائعة فى الوقت نفسه، فالأحداث تتالى من أسبوع لآخر والساحل البريطانى المعروف بكثرة تعاريجه يبلغ طوله أكثر من ألفى ميل، باستثناء أيرلندا، والسبيل الوحيد للدفاع عن محيط متسع كهذا قد يتعرض أى جزء منه أو جزءان منه فى وقت واحد لهجوم مفاجئ ناجح يحتم علينا إنشاء مراكز للمراقبة والمقاومة حول الشاطئ أو الحدود غايتها عرقلة الزحف الأجنبى مع إيجاد أكبر قوة ممكنة من الاحتياطى فى الوقت نفسه تضم جنوداً مدربين وعاملين فى وحدات متحركة يمكنها الوصول إلى أى مكان يقع عليه هجوم مفاجئ فى

أقصر مدة ممكنة، ثم البدء في هجوم معاكس.

وعندما وجد هتلر نفسه محاطاً - فى مراحل الحرب الأخيرة - بالأعداء، وواجه المشكلة نفسها، وقع فى أخطاء كبيرة حين عالجها، فلقد أقام شبكة من المواصلات تشبه نسيج العنكبوت، لكنه نسى العنكبوت نفسه، ولما كانت قصة تشتيت القوات الفرنسية الخاطئة التى أدت إلى كارثة واقتضتنا ثمناً فادحاً لا تزال حاضرة فى ذهنى، فإننى قد صرفت جهدى كله منذ البداية إلى حشد قوات المناورة، وقد رسخت هذه السياسة فى نفسى إلى أقصى حد ممكن تسمح به مواردنا المتضاعفة.

وقد التقت آرائى بوجهات نظر البحرية، وأرسل إلى الأميرال باوند بياناً مفصلاً فى ١٢ تموز أعده بالاشتراك مع رؤساء أركان حربه، الذى كان قائماً على هذه الأسس النظرية... وقد فصل البيان بالطبع جميع الصعوبات التى علينا مواجهتها، وقال الأميرال باوند فى إجماله للخطة: «ربما يصل إلى شواطئنا ما يقارب المئة ألف جندى دون أن تكون لدينا القوات البحرية الكافية لقطع الطريق عليهم ووقفهم».

إلا أن الإبقاء على خط مواصلات لتموين هذه القوات أمر مستحيل عملياً إذا استطاع السلاح الجوى الألمانى أن يتغلب على سلاحنا الجوى وأسطولنا فى الوقت نفسه، وإذا ما قام العدو بعملية كهذه فربما كان التقدم نحو لندن بسرعة والاعتماد فى تموينه على البلاد التى يحتلها فى طريقه، على حين يرغم الحكومة على الخضوع والاستسلام. وقد اقتنعت بهذا الاحتمال اقتناعاً تاماً، وتغير الوضع تغيراً حاسماً فى شهر آب، فقد تأكد لمخابراتنا الماهرة أن هتلر قد أصدر تعليماته بالإعداد لعملية «أسد البحر» وأن هذه العملية فى دور الإعداد الفعلى فى هذا الوقت، وبدا لنا بشكل نهائى أن الرجل سيقدم المغامرة وكانت الجبهة التى سيهجم عليها تختلف تماماً، وقد تكون ثانوية بالنسبة للساحل الشرقى الذى كنت أنا قد وجهت إليه بالغ

العناية مع رؤساء أركان الحرب الأميرالية وسرعان ما بدأ عدد كبير من الصنادل ذوات المحرك الآلى، والزوارق البخارية يعبر مضايق دوفر أثناء الليل زاحفاً بالقرب من الشاطئ الفرنسى، ليتجمع شيئاً فشيئاً فى سائر الموانئ الفرنسية الممتدة من كاليه إلى بريست. وكانت الصور الفوتوغرافية التى ترد إلينا كل يوم تظهر لنا هذه التنقلات بدقة وعناية، ورأينا أنه من العسير علينا أن نزرع ألغامنا على مقربة من الساحل الفرنسى، ومضينا فوراً إلى مهاجمة هذه المراكب المتحركة بوحداتنا الصغيرة، وركزت قيادة قاذفات القنابل هجومها على موانئ الغزو وسرعان ما انهالت علينا الأنباء عن احتشاد جيش أو جيوش ألمانية ضخمة استعداداً للقيام بهذا الغزو على قطاع الساحل المعادى، وعن تحركات واسعة النطاق على السكك الحديدية واحتشادات ضخمة فى خليج كاليه ونورماندى وظهرت إلى حيز الوجود أعداد وفيرة من بطاريات المدافع القوية البعيدة المدى، منتشرة على طول الساحل الفرنسى القائم على القنال، وكان يترتب علينا أن نجابه الخط الجديد وننقل اعتمادنا على هذه الخطوة إلى خطوة أخرى ونهيئ كافة السبل لتيسير نقل احتياطنا المتحرك الذى يتضاعف عدده إلى الجبهة الجنوبية ومضى الوقت وقواتنا المتزايدة عدداً والمتقدمة كفاءة وسرعة فى التحرك، تطمئننا إلى قدراتها وفعاليتها. ولم ينقض النصف الأخير من شهر أيلول، حتى كان فى استطاعتنا أن نحشد ستة عشر فرقة من أحسن الفرق نظاماً وإعداداً على الساحل الجنوبى بينها ثلاث فرق مدرعة عدا أجهزة الدفاع الساحلية المحلية، وقد أصبح فى مكنتها القيام على الفور بأى عمل عسكرى يوكل إليها ضد أية عملية للغزو أو الإنزال وأصبحت لنا قوة ضاربة أو مجموعة من القوى الضاربة التى كان الجنرال بروك وحده القادر على تحريكها عندما تحين الساعة فهو أكثر سيطرة عليها من كل من عداه.

جرى كل ذلك بالرغم من عدم ثقتنا بأن جميع المداخل ومصبات الأنهار

المنتشرة من كاليه إلى تيرشيلنج وهيلجولاند، وكل ما أمامه من جزر تقع بالقرب من الساحلين الهولندى والدنماركى، لا تخفى قوات معادية هائلة أخرى من نوع صغير أو متوسط. وقد خطر فى بالنا أن الهجوم سيبدأ من هارويش حول بورتماوث وبورتلاند إلى بليموث مع تركيز خاص على مقاطعة «كنت» أيضاً، ولم توجد لدينا أية براهين أخرى إيجابية على أن موجة ثالثة من الغزو قد لا تتسق وتتوافق فى الزمن مع الموجتين الأوليين، وتشن من موانئ البلطيق خلال مضائق سكاجراك فى سفن كبيرة، ولا شك فى أن مثل هذا الغزو جوهرى بالنسبة لخطط الألمان لتحقيق النجاح، إذ تعتبر الوسيلة الوحيدة لوصول الأسلحة الثقيلة التى تم إنزالها، أو لإقامة مستودعات تموين كبيرة.

ودخلنا فى ذلك الحين فترة من التوتر الشديد، واليقظة الدائمة وكان علينا طيلة الوقت أن نحرص على وجود قوات كبيرة فى الشمال من «دوش» حتى «كروماريتى» كما قمنا بعمل الترتيبات اللازمة لسحب جزء منها فى حالة وقوع الغزو فى الجنوب، وكان فى مقدرتنا بفضل الشبكة الرائعة الداخلية من سكك حديدنا، وبفضل استمرار سيطرتنا على الجو فى سماء وطننا، أن نسحب أربع فرق أو خمسة من الشمال لتعزيز الدفاع عن الجنوب فى حالات الضرورة القصوى خلال أيام الرابع والخامس والسادس من بدء تحرك العدو.

وأجرينا دراسة دقيقة لأوضاع القمر والمد والجزر وتيقنا من أن العدو سيؤثر عبور البحر فى الليل والنزول إلى الأرض عند الفجر، وها نحن أولاً نعرف أن ما تيقنا به كان على صواب أيضاً، ولم نجد لدينا ذرة من الشك فى مقدرتنا على تحطيم كل ما ييسر للعدو النزول فى أكمة دوفر البحرية أو فى القطاع الساحلى الممتد من دوفر إلى بورتسماوث وإلى بورتلاند، وكانت أفكارنا جميعاً - نحن الذين نتولى القيادة - تسير فى اتجاه وتوافق تامين مما

يثير الإعجاب لتوجيه ضربة إلى عدونا تخلف دوياً فى كافة أنحاء العالم، ولم يكن فى استطاعة أى إنسان إلا أن يحس بالحماسة ويشعر بالتأثر من هذا الجو الذى يولى بعزم هتلر وعتاده.

وكان من بيننا من يتحرق شوقاً إلى قيام هتلر بمحاولته، يحدوهم إلى ذلك العوامل المجردة التى تؤكد لهم مدى تغير مجرى الحرب لو منى هتلر بتدمير محاولته وتحطيم أمانيه. وكنا قد انتهينا خلال شهرى تموز وآب من السيطرة الجوية على بريطانيا، وكانت قواتنا متفوقة تماماً وبصورة خاصة فى سماء القطاعات الواقعة فى الجنوب الشرقى لبلادنا، وأخذت المعدات الدفاعية الدقيقة، والمراكز المنيعة والحصون الشماء وحواجز مكافحة الدبابات، وحواجز الطرق إلى غير ذلك تملأ كل مكان. وتوهجت سواحلنا بالإجراءات الدفاعية والبطاريات كما توفر لدينا عدد من المدمرات العاملة فى الأطلنطى مع ما فى هذا الإجراء من ثمن باهظ تكبدته قوافلنا التجارية فى الأطلنطى كما شيدنا عدداً آخر منها ليزيد استحكام الدفاع عن السواحل، وقد أحضرنا بارجة التدريب (سنتوريون) وإحدى الطرادات إلى بلايموث وظل أسطولنا فى ذروة قوته، وفى قدرته أن يعمل مع تجنب كثير من الأخطار.

وبهذا كنا على أتم الاستعداد لمواجهة أى شىء... وأخيراً اقترب موسم الزوابع الاستوائية المعروفة فى شهر تشرين الأول، وكان شهر أيلول هو الشهر الذى يتحتم على هتلر أن يوجه فيه ضربته إذا واتته الجرأة الكافية، حيث يكون فى صالحه ظواهر المد والجزر والقمر فى أواسط الشهر المذكور.

وأرى أن الوقت قد حان لأنتقل بالقارئ إلى معسكر الأعداء، حتى أطلعه على مدى استعداداته وخططه، كما وقفنا عليها فى هذه الآونة.



الفصل السابع

عملية أسد البحر

لم تكد تنشب الحرب فى ٣ أيلول عام ١٩٣٩، حتى بدأت البحرية الألمانية كما تشير الوثائق المصادرة بعد الحرب، عدا الدراسات اللازمة لغزو بريطانيا. وقد رأت عكس ما ارتأيناه، أن السبيل الوحيد هو إتمام الغزو عبر المياه الضيقة لبحر المانش، ولم يقدر الألمان أى احتمال آخر، ولو كنا قد علمنا بالحقيقة هذه آنذاك لاسترحنا كثيراً، حيث يواجه الغزو عبر المانش أكثر سواحلنا تحصيناً، وهى الجهة البحرية القديمة المواجهة لفرنسا، حيث الموانئ المحصنة، وحيث قواعد المدمرات الرئيسية، وأغلب المطارات ومحطات الإشراف الجوى للدفاع عن لندن، ولم نكن نعتمد فى أى جزء من أجزاء الجزيرة اعتماداً على هذا الجزء فى المسارعة إلى العمل بقوة ضخمة وبجميع قواتنا المسلحة الثلاث... وكان الأميرال رايدر موجهاً كل اهتمامه للإعداد فى حال قيام الأسطول الألمانى بغزو بريطانيا، وفى الوقت نفسه طلب تركيز الكثير من الأوضاع، وفى مقدمتها الإشراف الكامل على سواحل فرنسا وبلجيكا وهولندا وموانيها ومصبات أنهارها وهذا هو سبب نوم المشروع طيلة فترة ما قبل الحرب...

وفجأة برزت الافتراضات بصورة تثير الاستغراب، وتمكن رايدر بالرغم من بعض وساوسه من التقدم إلى الفوهرر مساء معركة دنكرك واستسلام فرنسا بمشروع نال إعجابه، كما تحدث فى الحادى والعشرين من آيار مع هتلر فى الموضوع ذاته وفى العشرين من حزيران تحدث إليه لا عن اقتراح الغزو بل عن نسبة التأكد من أنه فى حال صدور الأمر بالغزو فإن إعداد

التفاصيل المتعلقة بالمشروع لن يتم بطابع العجلة. وكان هتلر بدوره تساوره الظنون فى النجاح فعقب قائلاً: إن يقدر تماماً الصعوبات المحتومة التى سيواجهها مشروع كهذا، وكان هتلر يتعلق بالأمل الواهى من أن إنجلترا قد تطلب الصلح وتنشده، ولم تتنبه القيادة الألمانية إلى فكرة الغزو إلا فى آخر أسبوع من حزيران. وفى الأسبوع الثانى من تموز صدرت الأوامر الأولى بتجهيز خطة للغزو كأنه أمر محتمل الوقوع، وتقضى هذه الأوامر بأن الفوهرر قد علق غزو إنكلترا على توفر بعض الشروط الخاصة وفى طليعتها السيطرة الجوية.

وأصدر هتلر فى ١٦ تموز توجيهاً منه يقول إنه بالرغم من المأزق العسكرى الحرج لإنكلترا فإنها لم تظهر أية رغبة فى التفاهم، ومن أجل هذا عزمت على إعداد عملية النزول فى إنكلترا لتنفذ فى الوقت المناسب. وينبغى أن تتم الترتيبات اللازمة للخطة كلها قبل منتصف شهر آب، وكانت الإجراءات العملية لتنفيذ هذه الإشارة قد بدأت فى كل مكان. فقد كانت خطة الأسطول الألمانى تتسم بالميكانيكية بوجه عام، فتحت ستار نيران المدفعية الساحلية من كاليه فى اتجاه دوفر، وتحت حماية مدفعية قوية على طول الساحل الفرنسى المقابل للمضيق، كانت خطة البحرية تقضى بإقامة نطاق ضيق عبر المانش فى أقصر مسافة ممكنة وأحاطته من الجانبين بسياج من الألغام مع قيام الغواصات بحماية خارجية. وكان من المتفاهم عليه أن ينقل الجيش فى مراكب عبر القنال على أن تمونه سلسلة طويلة من الإمدادات. وإلى هنا ينتهى دور الأسطول الألمانى. وعلى قيادة الجيش معالجة بقية المشكلة.

فإذا قدرنا أنه كان فى استطاعتنا بفضل تفوقنا البحرى الهائل أن نقضى على حقول الألغام المذكورة بالقطع البحرية الصغيرة تحت ستار قوة جوية ماهرة وضرب الغواصات المحتشدة من الجانبين لحماية الحقول لاتضح

لنا أن هذه الخطة كانت خطة متداعية منذ بدايتها. وكان فى استطاعة أى إنسان يعرف أنه بعد انهيار فرنسا لم يكن هناك مفر من امتداد أجل الحرب وتزايد الأخطار إلا إذا اضطرت بريطانيا إلى التسليم. وكان الأسطول الألمانى قد تأثر بمعركة النرويج ولم يعد فى إمكانه - بوضعه الحالى - أن يقدم إلى الجيش إلا بمساعدة جزئية ضئيلة، ومع ذلك فقد جهز الأسطول خطة ولم يكن فى إمكان أحد أن يقول إن حسن الحظ قد هبط عليه فجأة. وكانت القيادة العليا الألمانية قد اعتبرت غزو إنكلترا فى بادئ الأمر شيئاً يثير القرف فى النفوس، ولم تكن قد دبرت أية خطط أو استعدادات لتنفيذه، كما لم يتلق جنودنا تدريباً على العمليات الخاصة به. لكنه بعد أن توالت أسابيع من نشوة الانتصارات الرائعة وجدت القيادة فى نفسها الجرأة والشجاعة للقيام بأية مهمة. ولم يكن اقتحام البحر بأمان مسؤولية تتعلق برجال القيادة من الإدارية، ولكنهم كانوا على ثقة من أن الجيش إذا بلغت قواته الضخمة شاطئ بريطانيا فى سلام وأمان فإن مهمة إحراز النصر على بريطانيا تصبح أمراً يسيراً.

وقد شعر الأميرال رايدر فى شهر آب بوجوب الانتباه إلى أن عبور القنال يتضمن مخاطر كبيرة، وإلى إمكانية فقدان الجيش كله فى هذه المحاولة.

وعندما تولى الأسطول مهمة نقل الجيش العابر، أصبحت البحرية الألمانية تدور فى حلقة مفرغة من القلق المستمر، وقابل قادة الأسلحة الثلاثة الفوهرر فى ٢١ تموز، فأبلغهم أن الحرب قد شارفت على المرحلة الفاصلة إلا أن إنكلترا لا ترغب فى الاعتراف بذلك، وما زالت تأمل أن تدور عجلة القدر.. ثم تحدث عن الإمدادات التى تصل إلى إنكلترا من الولايات المتحدة، كما أشار إلى احتمال تبدل فى العلاقات السياسية فى ألمانيا وروسيا. واستطرد قائلاً: إن تنفيذ عملية «أسد البحر» الخطة الأكثر جدوى فى التعجيل بنهاية الحرب. وبعد حديث طويل مع الأميرال، بدأ هتلر يكشف

خطورة ما تخفيه عمليات عبور المانش بما فيه من تيارات ومد وجزر، وبما فى البحر من غموض. ثم وصف عملية «أسد البحر» بأنها عملية فى منتهى الجرأة والمغامرة واستطرد يقول: «وبالرغم من قصر المسافة فإن العملية ليست مسألة اجتياز نهر، لكنها اقتحام بحر كبير يسيطر العدو عليه. وليست العملية إجراء فردياً فى العبور، كما حدث فى النرويج، إذا لم تكن هناك عناصر المفاجأة، ولكننا هنا سنواجه عدواً مستعداً للدفاع، وقد صمم على القتال وفرض سيطرته على المنطقة البحرية التى يجب علينا استخدامها، وستقتضينا عملية الجيش نحواً من أربعين فرقة وربما يكون نقل الإمدادات أصعب شىء فى هذه العملية، إذ ليس فى مقدورنا أن نعتمد على أى نوع من المؤن يتيسر لنا الحصول عليه داخل إنكلترا، وكان الأساس الأول فى نجاح الغزو هو السيطرة الكاملة فى الجو واستخدام مدفعية قوية فى مضيق دوفر والحماية عن طريق الألغام...» ثم تابع هتلر حديثه بقوله «والطقس عامل حيوى أيضاً، فهو فى بحر الشمال وفى المانش يشتد فى النصف الثانى من شهر أيلول، كما يتكاثف الضباب فى منتصف شهر تشرين الأول، لذلك يتحتم علينا إنهاء عملية الغزو قبل الخامس من أيلول، فبعد هذا التاريخ يصعب علينا أن نضمن قيام تعاون بين الطيران والأسلحة الثقيلة. فهذا التعاون من الطيران يعتبر عملاً مهماً وحاسماً فى تحديد الموعد».

وقد نشب نقاش حاد تخلله شىء من العنف بين أركان الحرب الألمان حول عرض الجبهة وعدد المراكز التى يجب أن تهاجم، وقد طلب الجيش أن تتم سلسلة من عمليات الإنزال على طول الساحل الجنوبى لإنكلترا الذى يمتد من دوفر إلى «لايم ريجيز» إلى القرب من بورتلاند. وطالب بإنزال قوات مساعدة فى رامسجيت إلى الشمال من دوفر. وأعلن أركان البحرية آلان أن أصلح مكان للعبور هو المكان الواقع ما بين فورلاند الشمالية وجزيرة وايت. وعلى هذا الأساس جرى تجهيز مائة ألف جندى لإنزالهم فى هذه

المنطقة على أن يلى ذلك مائة وستين ألف جندى آخرين فى أماكن أخرى تمتد من دوفر غرباً إلى خليج لايم. وأعلن الجنرال هود رئيس الأركان أنه من المحتم إنزال أربع فرق على الأقل فى منطقة برايتون، كما طالب بإنزال قوات إضافية بين ريل ورامسجيت على أن يجرى توزيع ثلاثة عشر فرقة إن أمكن وفى وقت واحد فى أماكن متعددة على طول الجبهة، كما طلب سلاح الطيران سفناً كافية لتنقل اثنين وخمسين مدفعاً من المدافع المضادة للطائرات مع حملة الإنزال الأولى.

لكن رئيس أركان البحرية بيّن استحالة القيام بعمليات واسعة وسريعة كهذه العمليات، قرر أنه لا يستطيع عملياً حراسة أسطول الإنزال فى هذه المسافة الممتدة من البحر، وأن على الجيش اختيار أفضل مكان ضمن هذه الحدود المذكورة. إذ ليس لدى الأسطول قوة لحماية أكثر من عملية عبور واحدة فى وقت واحد، حتى لو كانت لنا السيادة على الجو، وهو يرى أن أضيق مكان فى مضايق دوفر هو أكثرها سهولة من ناحية الحماية بطلب نقل المائة والستين ألف جندى فى المرحلة الثانية فى عملية واحدة وهذا يحتاج إلى ألف سفينة تبلغ حمولتها مليون طن. ثم أضاف رئيس أركان البحرية أنه حتى فى حالة توفر هذا العدد الخيالى فإن موانئ الإبحار لا تستطيع استيعاب مثل هذا العدد الضخم، أما ما يمكن عمله فهو القيام بنقل الفصائل الأولى من الفرق الأربع لتشييد رؤوس جسور ضيقة على أن تقوم بنقل الفصائل الباقية فى اليومين التاليين، وذلك دون ذكر أية معلومات عن الفرق الست الباقية المتوجب إنزالها لنجاح العملية. وأشار - أيضاً - إلى أن الإنزال على جبهة واسعة يعنى إيجاد فرق فى أوقات المد العالى بين مختلف الأماكن المختارة يتراوح بين الثلاث ساعات والخمس ساعات ونصف. وعلى هذا يتوجب أن نختار بين أمرين: إما أوضاع المد غير المناسبة فى بعض الأماكن، وإما الرجوع عن فكرة إنزال القوات فى مناطق مختلفة فى وقت

واحد. وكان الرد على هذا الاعتراض من أشد الصعوبات. ومر وقت طويل ضاع خلال تبادل المذكرات... وأخيراً التقى الجنرال هولدر ورئيس أركان البحرية فى اجتماع بينهما لأول مرة عقد فى ١٧ آب، وقال هولدر فى هذا الاجتماع: «إنى أرفض اقتراحات الأسطول رفضاً قاطعاً، فمن وجهة نظر الجيش تعتبر العملية بهذا الوضع انتحارية. إذ إن إرسال القوات بالشكل الذى اقترحتموه معناه إلقاؤها فى مفرمة للحم، تماماً كما نلقى اللحم فى المفرمة». وأجابه رئيس أركان البحرية بقوله إنه هو أيضاً لا يمكنه قبول فكرة النزول على جبهة واسعة، إذ إن ذلك لا يعنى إلا شيئاً واحداً، هو التضحية بالجنود أثناء عبورهم، وتم الوصول، أخيراً، إلى حل وسط قام به هتلر نفسه ولم يقتنع الجيش أو البحرية. فقد صدر الأمر من القيادة العليا فى السابع والعشرين من شهر آب يقضى بأن على عملية الجيش أن تتسق والحقائق التى توجبها شروط الحمولة المحدودة فى البواخر وسلامة العبور والإنزال. وقد تم نبذ فكرة النزول فى منطقة ريل رامسجيت، ولكن تقرر أن تمتد الجبهة من فولكستون إلى بوجور. وهكذا لم يتم الاتفاق النهائى قبل نهاية شهر آب، فكل شىء بالطبع متوقف على النصر والتفوق فى المعركة الجوية الناشبة منذ ستة أشهر...

وتم تجهيز الخطة النهائية على ضوء طول الجبهة التى جددت فى النهاية كما عهد بالقيادة العسكرية إلى رونشتادت، لكن النقص فى عدد السفن قلل من عدد القوات فأضحت ثلاث عشرة فرقة أساسية واثنتى عشرة فرقة أخرى احتياطية، وتم القرار على إبحار الجيش السادس عشر من المرافئ الواقعة بين بولون وروتردام، وأن تنزل بالقرب من هايث وهيسنجر وايستبورن، على أن يبحر الجيش التاسع من المرافئ الواقعة بين بولون والهافر، وأن يهاجم المناطق بين برايتون دورتيج. وقد جهزت الخطة على أساس الاستيلاء على دوفر من ناحية البر وأن يزحف الجيشان بعد

ذلك على الخط الممتد من كانتربورى إلى أشفورد فيفيلد وأروندايل، كما تنزل إحدى عشرة فرقة فى المراحل الأولى فقط. وتمنت القيادة العليا الألمانية أن تتمكن القوات المهاجمة فى الأسبوع الأول من التقدم إلى جرينسن وريفيت وبورفيلد وبورتسمارت وأن يقف الجيش السادس الاحتياطى على أهبة الاستعداد لتعزيز القوات المهاجمة أو لتوسيع رقعة الهجوم إذا قضت الظروف إلى ديماوث. ولا ريب أن القيادة الألمانية لم تفتقر إلى الجنود الشجعان المسلحين أحسن تسليح افتقارها إلى سفن للنقل ولسلامة العبور.

ووقع عبء المرحلة الثقيل فى الهجوم على أركان البحرية، ولم يكن فى حوزة ألمانيا ما يزيد على حمولة مليون ومائتى ألف طن من السفن المجهزة تجهيزاً كاملاً ونقل القوات الغازية يحتاج إلى أكثر من نصف هذه الحمولة، كما يؤدى إلى الكثير من المشكلات الاقتصادية. وعندما حل شهر أيلول تمكنت القيادة البحرية من أن تعلم أنها استطاعت أن تضع يدها على ١٦٨ باخرة مجموع حمولتها سبعمائة ألف طن و٤١٩ قاطرة وسفن لصيد الأسماك و١٦٠٠ زورقاً بحرياً. وكان بالإمكان نقل هذا الأسطول العتيد بعد تجهيزه فى اليوم الأول من أيلول عملية اندفاع الملاحة الضرورية للغزو جنوباً كانت قواتنا الجوية تراقبها وترصد تحركاتها وتقصفها بعنف على طول الجبهة من أنتوبرب إلى الهافر. وسجلت أركان البحرية الألمانية أن دفاعنا المستمر من الساحل وتركيز غارات طائراتنا على مرافئ إبحار سفن عملية «أسد البحر» ومواصلة أعمال الاستكشاف توحى جميعها بأننا على علم بالغزو القريب.

وذكرت تقارير أركان البحرية الألمانية أيضاً، أنه ما زالت الطائرات البريطانية من قاذفات للقنابل وطائرات لبث الألغام تواصل أعمالها بصفة دائمة، وعلينا أن نقر أن غارات الطائرات البريطانية كانت موفقة وإن لم تكن فاصلة فى عرقلة نقل السفن الألمانية إلى المرافئ.

وبالرغم مما حدث من تدمير وتعويق فقد استطاعت البحرية الألمانية

إتمام الجزء الأول من مهمتها الخطيرة، ولم تتجاوز خسائرها العشرة فى المئة من مجموع قوة الغزو الكاملة، وهى نسبة أقل بكثير مما قدرته القيادة الألمانية، أما ما تبقى على أهبة الاستعداد فلم يكن بأقل من الحد الأدنى الذى قدرت القيادة حتمية وجوده للقيام بالمرحلة الأولى من العملية. وقد ألقى الجيش والأسطول الألمانى العبء كله على عاتق السلاح الجوى، وكانت حماية الممر بما يلازمها من بث الألغام التى بمثابة الأسوار موكلة إلى السلاح الجوى الألمانى ضد التفوق الظاهر لعمليات المدمرات البريطانية والسفن الصغيرة. أى أن الخطة كانت قائمة على إلحاق الهزيمة بالطيران الإنكليزى والسيطرة المطلقة لألمانيا على الجو، لا فوق المانش وجنوب شرقى آسيا فقط بل فوق مناطق العبور والإنزال كذلك. وهكذا أوكل السلاحان الألمانيان القديمان مهمة الخطة إلى ماريشال الرايخ غورنغ.

وقد رحب غورنغ بقبول هذه المهمة، لثقته المطلقة بالتفوق العددى للطيران الألمانى، وأنه لن تمضى أسابيع معدودة من القتال الشديد حتى تنزل الهزيمة المنكرة بالدفاع البريطانى ويتم تدمير مطاراته فى كنت وسكس ومن ثم تسيطر ألمانيا على المانش... وقد ظن غورنغ أيضاً أن قصف إنكلترا من الجو وخاصة العاصمة لندن سيدفع بالشعب البريطانى المنحل الذى يفضل العافية إلى الرضوخ وطلب الصلح، هذا بالإضافة إلى أن نذر الغزو وكانت قد بدت فى الأفق القريب لكن البحرية الألمانية لم تجاره فى تفاؤله هذا وكانت شكوكها عميقة الجذور. لأن عملية «أسد البحر» لا يمكن إلا أن تكون إجراء أخيراً، فأوصت فى شهر تموز بتأجيلها حتى ربيع عام ١٩٤١، إلا إذا أجبرت الغارات الجوية وحرب الغواصات الرهيبة الإنكليز على مفاوضة الفوهرر بالشروط التى يفرضها، أما الفيلد مارشال كايتل والجنرال يودل فقد كانا مغتبطين من تفاؤل قائد الجو الأعلى غورنغ.

لقد عاشت ألمانيا أياماً مجيدة رائعة انتشى فيها هتلر بخمرة النصر قبل

أن تذل له فرنسا فى هدنة كومبين، وسار الجيش الألمانى الظافر تحت أقواس النصر وعبر الكاب اليسيه، فهل بقى هناك شىء يعجزون عن تنفيذه؟ فلم التردد إذن فى الإقدام على مجازفة مضمونة؟ وهكذا فإن الأسلحة الثلاثة التى تشترك فى إنقاذ عملية «أسد البحر» ولفتت نظر كل منهم إلى الجانب المضىء فى الدور الذى سيقوم به وترك الجانب المظلم إلى السلاحين الآخرين.

وبمرور الأيام تضاعفت الشكوك وقامت العراقيل، وكان قرار هتلر الصادر فى ١٦ تموز قد حدد إنهاءِ جميع الاستعدادات قبل منتصف شهر آب لكن كافة الأسلحة وجدت أن تنفيذ هذه الخطة فى الوقت المحدد غير ممكن. وقبل هتلر فى نهاية شهر تموز تحديد موعد ١٥ أيلول كموعد مبكر للغزو، بينما أجل قراره الأخير القاضى بتحديد موعد البدء فى العمل حتى تتضح نتائج معركة الجو التى حمى وطيسها..

وأبلغت البحرية فى ٣٠ آب القيادة العليا، أن استعدادات أسطول الغزو يستحيل أن تتم فى ١٥ أيلول بالنسبة للإجراءات المضادة التى أقدمت عليها بريطانيا وعلى هذا تأجل البدء فى الغزو حتى ٢١ أيلول مع اشتراط عشرة أيام كإنذار مسبق، وهذا يعنى ضرورة إصدار الأمر الأول فى ١١ أيلول. وأبلغت البحرية مرة أخرى فى العاشر من أيلول القيادة العليا مدى الصعوبات الكثيرة التى تجابهها نتيجة لرداءة الطقس وأعمال بريطانيا المضادة، وبالرغم من أن التجهيزات البحرية المطلوبة قد تتم فعلاً قبل ١١ أيلول، إلا أن الشرط الأساسى الذى يحتم السيطرة المطلقة على جو القنال لم يتحقق بعد. وقد أدى ذلك إلى أن أصدر هتلر قراره فى ١١ أيلول بتأجيل صدور الأمر التمهيدى لثلاثة أيام أخرى. وبذلك يكون الغزو قد تأجل إلى الرابع والعشرين، كما تأجل مرة ثانية فى الرابع عشر ثلاثة أيام أخرى وفى السابع عشر من أيلول تأجل إصدار هذا الأمر إلى أجل غير مسمى لأسباب مهمة فى نظرهم ونظرنا أيضاً.

وقـد علمنا من الأخبـار الواردة إلينا فى ٧ أيلول أن تحـركـات السـفن الصغيرة ما زالت مستمرة فى الغرب وفى الجنوب فى اتجاه المرافئ الواقعة بين هومستند والهافر، ولما كانت هذه المرافئ تحت وطأة الغارات البريطانية القاسية فقد كان من المعقول ألا تنتقل إليها السفن الكبيرة إلا قبيل الغزو، وتضاعفت القوة الضاربة للسلاح الجوى الألمانى بين أمستردام وبريست حتى بلغت مائة وستين قاذفة قنابل وصلت من النرويج إلى هذه المنطقة، كما رأينا مجموعات من طائرات الانقضاض ذات المدى القصير فى المطارات الأمامية الواقعة فى خليج كاليه وقد اعترف أربعة من الجواسيس الألمان الذين تم اعتقالهم قبل مضى بضعة أيام من نزولهم من أحد زوارق التجديف على الساحل الجنوبى والشرقى من إنكلترا أنهم جاءوا ليكونوا على استعداد فى أية لحظة أثناء الأسبوعين القادمين، وليرسلوا بتقارير خاصة عن تحركات الوحدات البريطانية الاحتياطية فى ايبويس ولندن وريدنج وأوكسفورد. وكانت أوضاع القمر والمد بين الثامن والعاشر من شهر أيلول مناسبة للغزو من الساحل الجنوبى الشرقى. لذلك قرر رؤساء أركان الحرب عندنا أنهم يتوقعون الهجوم فى أية لحظة، وأن على قواتنا الدفاعية أن تقف على أهبة الاستعداد لمواجهة أى طارئ عاجل.

ولم يكن فى القيادة العامة حينذاك جهاز يستطيع إعلان حالة الطوارئ المحددة له ثمانى ساعات إلى عمل فورى، ومع ذلك فقد صدرت كلمة السر «كرومويل» التى يقصد بها أن عملية الغزو محتملة فى أية لحظة، صدرت الكلمة إلى القوات فى الساعة الثامنة من مساء السابع من شهر أيلول، وإلى القيادتين الجنوبية والشرقية، للعمل الفورى السريع للفرق الساحلية الأمامية، وجميع الوحدات فى منطقة لندن، وإلى الفيلقين الرابع والسابع من قوات الاحتياط التابعة للقيادة.

وتكررت الكلمة إلى جميع القيادات الأخرى، للعلم بها فقط، فى جميع

أنحاء المملكة المتحدة، وعندما وصلت هذه الكلمة إلى قادة الحرس الوطنى فى بعض أنحاء البلاد، قاموا بدافع من أنفسهم باستدعاء قوات الحرس لدق أجراس الكنائس. ولم أكن أنا ورؤساء أركان الحرب قد علمنا بأن كلمة «كرومويل» قد استخدمت فعلاً، ولذا فقد صدرت أوامرنا فى الصباح التالى بضرورة إيجاد مراحل انتقالية يتضاعف فيها الحذر فى المناسبات المقبلة دون إعلان أن الغزو قد حصل، وفى استطاعة كل إنسان أن يتخيل ما أثاره هذا الحادث من هرج ومرج وفوضى، وإن لم يشر إليه سواء فى الصحف أو فى البرلمان... وعلى كل فقد كان هذا الحادث إشارة تدريب لكل من يعنيهم الأمر.

والآن وبعد أن تتبعنا مراحل إعداد القيادة الألمانية العليا حتى وصلت إلى القمة، فقد أصبح فى مقدورنا أن نعرف كيف تغير الموقف من الزهو بالانتصار المبكر إلى قيام حالة من الشك، ثم إلى فقدان كل ثقة فى النتيجة، وقد شاهدها القائد البحرى وايدر فى شهرى تموز وآب، وحاول ما استطاع تثقيف زملائه من قادة البحر والجو وتبصيرهم بمتاعب الحرب البرمائية الواسعة النطاق ومشقاتها، فقد أحس الأميرال بضعفه واحتياجه إلى عامل الوقت لاستكمال المعدات، وأن كان تنفيذ الخطة الواسعة النطاق التى وضعها هولدر هى إنزال قوات ضخمة فى وقت واحد فى منطقة مترامية الأطراف، وكان غورنغ بخياله الجامح مصراً فى الوقت نفسه على إحراز النصر الساحق بقواته الجوية وحدها وأبى أن يسهم بدور متواضع فى الإعداد لخطة مشتركة تهدف إلى تخفيض قوات المقاومة بحرية وجوية فى جبهة الغزو.

ويتضح من الوثائق والسجلات أن القيادة الألمانية العليا لم تعمل بانسجام وتعاون فى سبيل الهدف المشترك ولم تواجه مشاكل الأسلحة المختلفة الوعى الناجح السليم. فقد كان الاحتكاك فيما بينهما واضحاً منذ البداية، وطالما كان فى مقدور هولدر أن يلقى بالمسئولية على كاهل رايدر، فإنه لم يحاول أن يوجد الانسجام بين خططه الشخصية وبين الإمكانيات العملية، وكان من المحتم أن

يتدخل هتلر، وقد تدخل بالفعل لكن تدخله لم يعمل على تحسين العلاقات بين القوات المسلحة، وكانت سمعة الجيش فى ألمانيا قد ارتفعت إلى ما فوق السحب، وكان القادة العسكريون ينظرون بتعال إلى زملائهم من قادة البحرية.

وقد يكون من الصعب على أى إنسان أن يقاوم الأدلة التى تنهض على تأكيد أن الجيش الألمانى لم يكن راضياً عن وضعه تحت إشراف البحرية فى عملية رئيسية كهذه، وعندما سئل الجنرال يودل بعد انتهاء الحرب عن هذه الخطط أجاب وهو نافذ الصبر «كانت خططنا تشبه تماماً الخطط التى وضعها يوليوس قيصر».

وربما يكون فى هذا القول الصادر عن جندى ألمانى موثوق به بالنسبة لعمليات البحار، ما يلقى الضوء على أن الجندى الألمانى لم تتضح فى ذهنه المشكلات الخاصة بعمليات الإنزال والأخطار الناجمة عن نقل قوات بحرية كبيرة وتوزيعها على ساحل قد أجيد الدفاع عنه.

أما نحن فى بريطانيا فضلاً عما كنا نعانيه من نقص، فقد خبرنا البحر ووقفنا على مشكلاته، فالبحر منذ قرون عديدة جزء من كياننا، وتقاليده لا تستثير بحارتنا فحسب بل الشعب البريطانى بأسره. ولعل هذا التفهم هو الذى مكننا أكثر من أى عامل آخر من النظر إلى خطر الغزو بكل ثقة وهدوء. وقد خضع التخطيط الذى وضعناه لإشراف رؤساء أركان الحرب الثلاثة برئاسة وزير الدفاع مما أدى إلى إيجاد نظام متناسق ككتلة واحدة وإلى التعاون التام الذى لم نر له مثيلاً فى الماضى وإلى التعرف المتبادل إلى كافة المصاعب. وعندما آن الأوان لنبدأ نحن فى عمليات غزو عظيمة واسعة النطاق من البحر، كان عملنا آنذاك مرتكزاً على أساس وطيد من الاستعداد الشامل لأداء العمل ومن الإحاطة الكاملة بكل الاحتياجات التكميلية للإقدام على مشروعات واسعة لها هذه الدرجة الكبرى من الخطورة.

ولو كان للألمان فى عام ١٩٤٠ قوات برمائية جيدة التدريب مستكملة

مختلف المعدات الحربية البرمائية الحديثة لما قدر لمهمتها النجاح أمام قواتنا البحرية والجوية، فكم بالأحرى والألمان لم يكن لديهم شىء من ذلك لا من ناحية المعدات ولا من ناحية التدريب، وهما عاملان ضرويان فى مثل هذه الحرب. وكلما زادت رغبة الفوهرر والقيادة العليا فى المغامرة ضعفت آمالهم فيها، ولم يكن فى استطاعتنا أن نصل إلى معرفة أوضاع بعضنا البعض وتقديرات كل منا، ولكن كلما مر أسبوع ابتداء من أواسط تموز وانتهاء منتصف أيلول كان الغموض الذى يكتنف الموقف بالنسبة للبحرية البريطانية والألمانية وللقيادة العليا الألمانية ورؤساء أركان الحرب البريطانية وبالنسبة للفوهرر ولمؤلف هذا الكتاب ينجلى رويداً رويداً. ولو قدر لنا الاتفاق على المستوى نفسه فى القضايا الأخرى لما وجدت ضرورة لقيام حرب، فقد اتفقنا بادئ ذى بدء على أن المصير سيتقرر فى الجو، كان السؤال الذى يعرض لنا ولهم فى وقت واحد هو كيف ستنتهى هذه المعركة الدائرة فى الجو؟ وكان الألمان يتساءلون هل يصمد الشعب البريطانى لنيران الغارات الجوية التى كان تأثيرها قد بولغ فى تقديره فى تلك الأيام؟ أو أنه سينهار تحت وطأتها ويفرض على حكومته الاستسلام. وكان ماريشال الرايخ ذا أمل كبير وثقة بالنتيجة بينما كنا لا نهابها.



الفصل الثامن

معركة بريطانيا

ذكرنا سابقاً أن مصيرنا أصبح مرتبطاً بإحرازنا النصر الجوى، وأن القادة الألمان قد أدركوا أن نجاح عملية غزوهم لبريطانيا يتوقف على السيطرة الجوية فى سماء القنال، وفى بعض الأماكن على الساحل الجنوبى لبلادنا، على أنه لم يكن فى مقدور الألمان القيام باستكمال استعداداتهم فى مرافئ الإبحار، وحشد سفن النقل، وتطهير المعابر من الألغام، ثم القيام ببث ألغام أخرى دون أن تكون لديهم الوقاية من غارات السلاح الجوى البريطانى. أى أن الأمر الفصل كان للسيادة الجوية فى سماء مناطق العبور والإنزال ومن أجل هذا كان لابد من تدمير السلاح الجوى الملكى وسائر المطارات الممتدة على طول الطريق بين لندن والبحر، ونحن نعلم الآن من الوثائق التى حصلنا عليها أن هتلر أبلغ الأميرال رايدر فى ٣١ تموز: «أنه إذا لم يتمكن سلاحنا الجوى من القيام بعملية تدمير المطارات العدوة بالإضافة إلى موانئه وقواته البحرية خلال مدة ثمانية أيام، فإن عملية الغزو ستتأجل بالضرورة حتى أيار من العام المقبل». وهذه المعركة التى كان علينا أن نخوض غمارها، على أنى لم أحس بخوف لحظة واحدة - ولو عن طريق التصور - من التجربة العظمى التى كنا نواجهها، وكنت فى الرابع من حزيران قد أدليت للبرلمان ببيان هذا نصه:

«إن الجيش الفرنسى العظيم قد اضطر إلى التراجع، واضطرب حول أموره نتيجة الهجوم الذى قامت به بضعة ألوف من السيارات المدرعة، فهلا يدافع عن قضية الحضارة بضعة ألوف من الطيارين بمهارتهم وإخلاصهم!! وأرسلت إلى سمطس فى ٩ حزيران الثانى أقول وإنى أرى الآن بوضوح أن

هتلر بشكل قاطع سيشن هجوماً على هذه البلاد، فيدمر سلاحه الجوى فى هذا الهجوم».

والآن جاءت الظروف مواتية...

ولا شك أن كتباً كثيرة قد صدرت لتوضح مدى الصراع الجوى بين السلاحين البريطانى والألمانى، وهو الصراع الذى يكون معركة بريطانيا، وقد استطعنا الآن التعرف إلى آراء القيادة الألمانية العليا، وإلى ردود الفعل لديها فى المراحل المتباينة، ويظهر أن خسائر الألمان فى بعض المعارك الرئيسية، كانت أقل بكثير مما خيل إلينا، وأن تقارير الجانبين فى وقتها كانت تتسم بكثير من المغالاة، ولكن لم يكن هناك خلاف على الخطوط الرئيسية لذلك الصراع المعروف الذى كانت تتوقف عليه حياة بريطانيا وحرية العالم قاطبة.

كان السلاح الجوى الألمانى قد التحم فى معركة فرنسا بكل ما لديه من قوة وأضحى فى حاجة إلى الراحة بعد هذا القتال، تماماً كما حدث للأسطول الألمانى بعد معركة النرويج، كذلك كان الأمر بالنسبة لنا إذ إن ثلاثة أسراب من مجموع كل أربعة من أسراب طائراتنا المحاربة كانت قد أسهمت فى وقت أو آخر فى معارك القارة، ولم يكن فى مقدور هتلر إلا أن يعتقد أن بريطانيا سترحب بعرض للصلح، بعد انهيار فرنسا.

وكان هتلر يشبه فى ذلك المارشال بيتان وفيجان وغيرهما من القادة الفرنسيين العسكريين والسياسيين، الذين لم يدركوا ما لدى دولة تقوم فى جزيرة من موارد مستقلة وما حبتها الطبيعة به من شمم. لقد كان من شأنه شأن هؤلاء الفرنسيين الذين استهانوا بعزيمتنا وإرادتنا، وقضى هتلر شهر حزيران فى تحوير الأوضاع لتتمشى مع الأحوال التى وجد نفسه فيها تدريجياً، وفى خلال ذلك كان الطيران الألمانى يقضى فترة من النقاهة وإعادة التنظيم استعداداً للمهمة الجديدة، ولم يكن ثمة شك فى خطر هذه المهمة، إذ كان على هتلر أن يختار واحدة من اثنتين، إما أن يغزو إنكلترا

ويحتلها أو يخوض غمار حرب طويلة الأمد، تنطوى على كثير من الأخطار والمشكلات على أن احتمال نصر جوى يقضى على المقاومة البريطانية كان ماثلاً فى أذهانهم مما يجعل الغزو الفعلى أمراً غير محتم إلا باحتلال بلاد مغلوبة على أمرها. واستطاعت القوة الألمانية الجوية خلال شهر حزيران ومطلع شهر تموز أن تنظم نفسها وتبث النشاط والحيوية فى صفوفها، وأن تنتشر فى جميع المطارات الفرنسية والبلجيكية التى يحتمل بدء الهجوم منها، واستطاعت الغارات الاستطلاعية والتجريبية الوقوف على حقيقة المقاومة التى ستجابهها ومدى طاقتها.

وشرعت فى ١٠ تموز بشن أولى هجماتها الضخمة الكبيرة التى تعد بحق بدء معركة بريطانيا، وهناك تاريخان مهمان يرتفعان أيضاً فى هذه المعركة هما ١٥ آب و١٥ أيلول، وكانت ثمة مراحل ثلاث متتابعة ومتداخلة فى الوقت ذاته حين الغزو الألمانى، وقد اتسمت المرحلة الأولى بين ١٠ تموز و١٨ آب بالتركيز على القوافل البريطانية فى المانش وعلى الموانئ الجنوبية الواقعة بين دوفر وبلايموث حيث تقرر حصر سلاح الطيران البريطانى وإيقاعه فى معركة حاسمة والقضاء عليه، وكذلك تدمير الموانئ التى تقرر النزول فيها. وفى المرحلة الثانية الواقعة بين ٢٤ آب و٢٧ أيلول كان من المحتم تمهيد الطريق إلى لندن وذلك بتحطيم السلاح الجوى البريطانى ومنشآته لتأمين الهجمات المتواصلة العنيفة على العاصمة وقطع طرق المواصلات من الشواطئ المهددة بالغزو. أما غورنغ فلا شك أنه كان يرى فى هذه الغارات غرضاً أكبر وهدفاً أبعد وهو إحداث الاضطراب الكامل فى أكبر مدن العالم وشل حركتها، وإيقاع الفزع الأكبر فى بريطانيا حكومة وشعباً، واضطرارهما أخيراً إلى الخضوع لإرادة ألمانيا، واتجه أمل الجيش الألمانى والأسطول إلى الرغبة فى أن يكون غورنغ مصيباً فيما رآه، ولكن مع مرور الوقت، وتغير الأحوال رأى قادة السلاحين أن السلاح الجوى البريطانى لم يقض عليه، وأن

أملهم فى عملية «أسد البحر» قد تبدو فى سبيل تحقيق ما أراده غورنغ من تدمير لندن، وأخيراً عندما انتابتهم خيبة أمل فى كل شىء، وعندما تأجل الغزو إلى أجل غير معلوم لأن الشرط الحيوى الأساسى وهو السيطرة على الجو لم يتحقق، بدأت المرحلة الثالثة والأخيرة. فقد تبدد حلمهم فى النصر الذى بدا كسراب خادع، وسلاح الطيران البريطانى ما زال حياً، مما حدا بغورنغ فى شهر تشرين الأول أن يقوم بشن غارات عمياء رعناء على لندن وغيرها من مراكز الإنتاج الصناعى.

ليس هناك وجه للمقارنة بين طائراتنا المقاتلة وطائراتهم، فالطائرات الألمانية أسرع وأقدر على الارتفاع، أما طائراتنا فأقدر على المناورات وأفضل تسليحاً، وكان طيارو ألمانيا على ثقة من تفوقهم العددى، كما كانت الانتصارات التى أحرزوها فى بولندا والنرويج والأراضى المنخفضة وفرنسا تشعرهم بالعزة والكبرياء. أما طيارونا فكانوا واثقين بتفوقهم الشخصى، وكانوا يتحلون بتلك العزيمة التى تعتبر من صفات الشعب البريطانى وتبدو فى وقت الأزمات والعواصف. وقد كان الألمان متمتعين بميزة استراتيجية مهمة، أحسنوا استغلالها. فقد توزعت قواتهم وانتشرت فى جبهة واسعة للغاية، وكان فى وسعها أن تشن هجمات علينا بأعداد كبيرة مع اتخاذ كافة الوسائل لتشتيت أفكارنا حتى لا يتسنى لنا أن نعرف مواقعهم الحقيقية، وكان الطيران الألمانى قد جمع فى شهر آب ٢٦٦٩ طائرة بينها ١٠١٥ قاذفة قنابل، و٣٤٦ طائرة من طائرات الانقضاض. وأصدر الفوهرر فى ٥ آب أمراً يحمل الرقم ١٧ يقضى بتوسيع جبهة الحرب الجوية ضد بريطانيا، ولم يكن غورنغ واثقاً من عملية «أسد البحر»، بل ركز اهتمامه على الحرب الجوية «المطلقة». ولم تكن هذه القيادة تعتبر تحطيم سلاحنا الجوى الهدف الأساسى بل تعتبر تحول الحرب الجوية بعد بلوغها الذروة إلى شن الهجوم الشامل على بوارجنا وسفننا. وقد عبرت هذه القيادة عما تشعر به من أسف لأن غورنغ لا يهتم

كثيراً بتركيز غاراته على الأهداف البحرية، كما أحنقها التأجيل المتكرر للغارات الجوية. وفى ٦ آب أبلغت القيادة البحرية القيادة العامة بأن بث الألغام فى بحر المانش أصبح من المتعذر القيام به نتيجة لضغط التهديد البريطانى المتواصل فى الجو. وقد تركز القتال الجوى المتواصل طيلة شهر تموز ومطلع شهر آب على قاعدة «كنت» البحرية وساحل القنال، وقد تأكد غورنغ ومستشاروه أن غاراتهم قد شغلت كل أسرابنا المقاتلة فى ميدان المعركة فى الجنوب، فقرروا القيام بغارة فى وضح النهار على مدننا الصناعية الواقعة فى الشمال، وكانت المسافة تعد طويلة على مقاتلاتهم من الطراز الأول وهى (المسرز شميت ١٠٩) فاضطروا إلى المغامرة بطائراتهم القاذفة على أن تصحبها طائرات (المسرز شميت ١١٠) وهذه بصرف النظر عن مقدرتها على الطيران إلى مسافات أبعد، فهى غير مجهزة بأسلحة القتال، وهو أمر له أهميته فى هذا الوقت، ومع ذلك فقد نجحت المغامرة.

وهكذا قامت فى الخامس عشر من آب نحو مائة قاذفة قنابل، وأربعون طائرة مسرز شميت ١١٠، بشن هجوم على مدينة تاينيسان، وفى الوقت نفسه كانت أكثر من ثمانمائة طائرة تشن هجوماً على قواتنا الجنوبية لحصرها فى منطقتها، إذ خيل لهم أنها متجمعة فى هذه المنطقة. لكن التوزيع الذى وضعه داودنج لطائرتنا المقاتلة بدأ يظهر أثره، فقد كان داودنج يفكر فى مثل هذا الخطر فسحب سبعة أسراب من طائرات "الهاريكين" و«السبتفاير» من معركة الجنوب المحتدمة للاستجمام قليلاً ولحماية الشمال فى الوقت نفسه، وقد أحس رجال هذه الأسراب ببالغ الأسى لابتعادهم عن ميدان المعركة مضطرين، إذ أكدوا لقيادتهم أن القتال لم يجهدهم ولم ينل من نشاطهم. وها هم أولاً يفاجئون بما لا يخطر على بالهم، فقد أصبح فى مقدورهم أن يلتقوا بالمهاجمين بعد اجتيازهم الساحل واستطاعوا إسقاط أربعين طائرة ألمانية أغلبها من قاذفات القنابل الثقيلة من طراز (هينكل ١١١)

التى تنقل الواحدة منها أربعين رجلاً مدرباً. ولم يصب طيارونا بأى جراح سوى اثنين. وليس هناك مجال للشك فى سعة أفق المارشال داودنج وتفكيره السديد فى توجيه الطائرات المحاربة مما يستحق عليه كل ثناء وتقدير، ولكن عظمة هذا الرجل تتجلى فى احتفاظه بهذه القوة من طائراتنا المحاربة فى الشمال أثناء الأسابيع الطويلة من اشتعال الحرب فى الجنوب. وهذا النوع من القيادة يعد مثلاً على العبقرية فى فن الحرب.

وأعقب هذا اليوم الفاصل أن أضحت مدن الشمال فى مأمن من الغارات الجوية وبعد يوم ١٥ آب اليوم الذى بلغ فيه الصراع الجوى أشده، فقد حدثت خمس معارك رئيسية على جبهة مساحتها خمسمائة ميل، كان حقاً يوماً رائعاً، فقد التحمت جميع أسرابنا الاثنان والعشرون فى موقعة فى الجنوب. وبعضها عاود المعركة مرتين أو ثلاثاً، وكانت خسائر الألمان فى الجنوب والشمال قد بلغت ستاً وسبعين طائرة، مقابل أربع وثلاثين من جانبنا. ولا شك فى أن هذا الرقم يعد كارثة بالنسبة للسلاح الجوى الألمانى.

وليس هنا مجال للشك فى أن قادة الجو الألمان قد هالتهم هذه الهزيمة الساحقة التى انطوت على أسوأ النذر بالنسبة للمستقبل، وكان السلاح الألمانى قد ركز اهتمامه فى الإغارة على ميناء لندن، ذى الأرصفة الطويلة التى تقف عليها مختلف أنواع البواخر، وإذلال كبرياء المدينة باعتبارها من أكبر مدن العالم وأوسعها، على أن تحديد الهدف لا يهم الطيار مما يجعل مهمته أسهل وأيسر.

قام اللورد بيفربروك خلال تلك الأسابيع الطويلة من القتال المتواصل والقلق الذى لا نهاية له، بمساعدات واضحة، فمن الضرورى إدخال تجديد على أسرابنا المقاتلة وتزويدها بطائرات مضمونة، وقد حال ضيق الوقت دون الأخذ والرد والإطالة فى البحث والشرح بالرغم من ضرورة ذلك فى كل نظام هادئ رتيب. وكانت طباع اللورد بيفربروك مناسبة كل المناسبة للضرورة

الملحة، فلقد كانت حيويته ونشاطه من بواعث الإقبال على العمل، وقد اغتبطت لذلك كثيراً، فقد اعتمدت عليه ووثقت فى مساعدته فلم تخب هذه الثقة مرة واحدة، وها قد دنت الساعة لإظهار عبقريته واستعداده الشخصى مع ما يصحبها من قدرة على الإقناع تمكنه من تذليل شتى الصعاب. وكنا نلقى فى جحيم المعركة بكل مواردنا، فقد تدفقت علينا الطائرات الجديدة أو ما تم إصلاحه من أسرابنا التى اغتبطت حينما طالعتها هذه الأعداد الكبيرة غير المتوقعة، وأخذت ورش الصيانة والإصلاح تضاعف من جهدها وقوة طاقتها. حينئذ تجلت لى قيمة الرجل وأهميته فدعوته فى الثانى من شهر آب بعد موافقة الملك إلى الاشتراك فى عضوية وزارة الحرب، وفى الوقت نفسه كان ولده الأكبر ماكس اتيكن قد تصدر قيادة الطائرات المقاتلة وأحرز انتصاره السادس.

وكان أرنست بيفن وزير العمل والخدمة الوطنية من الوزراء الذين حرصت على الإكثار من لقائهم فى تلك الفترة الحرجة نظراً للمهمة الحيوية التى كان يقوم بها من إدارة اليد العاملة فى البلاد، وبعث الحيوية والنشاط فيها. وكان جميع العمال فى مصانع الذخيرة مستعدين لتلقى توجيهاته، وانضم هو الآخر إلى عضوية وزارة الحرب فى شهر آب. وضحى المال النقابيون بأرباحهم وحقوقهم التى أحرزوها بعد جهد طويل والتى كانوا يولونها أعظم الرعاية، ضحوا بها من أجل المصلحة الوطنية وهم يرون بقية الثروات والامتيازات والممتلكات التى يملكها الغير قد ضحوا بها هم الآخرون. وكنت أنا على وفاق تام مع بيفر بروك وبيفن فى أسابيع الأزمة التى خضناها، وقد وقع خلاف بين الرجلين فيما بعد، وهذا مما يؤسف له، فقد نتج عن اختلافهما كثير من الصدام، أما فى تلك المرحلة من الكفاح الذى بلغ ذروته، فقد كنا جميعاً يداً واحدة، وليس فى مقدورى إلا أن أثنى كل الثناء على ولاء المستر تشمبرلين وثبات جميع الزملاء وكفايتهم، فإلى الجميع تحياتى.

ولم يدرك غورنغ حتى نهاية شهر آب أى أثر سيئ للصراع الدائر فى الجو، فقد كان على ثقة هو ورجاله من المطارات البريطانية وصناعة الطائرات، وقوة سلاح الطيران البريطانى المحاربة قد منيت بكوارث ساحقة، وكانت هناك فترة خلال شهر أيلول تحسن فيها الطقس فازداد أمل السلاح الألمانى فى إحراز نتائج فاصلة، وامتحنت المطارات حول لندن بغارة جوية عاتية، وقامت ثمان وستون طائرة ليلة ٦ أيلول بالإغارة على لندن تبعها فى الليلة التالية هجوم آخر قامت به ثلاثمائة طائرة فى وقت واحد، وفى ذلك اليوم كما حدث فيما تلا ذلك من أيام حيث أتممنا تعزيز المدفعية المضادة للطائرات. فى ذلك اليوم دارت معارك شديدة ومتواصلة فى سماء العاصمة، وكانت القوة الجوية الألمانية توقن بالنتيجة بسبب مغالاتها فى تقدير خسائرنا.

وكان ميزان القتال الذى وقع بين ٢٤ آب و٦ أيلول قد رجح ضد طائراتنا المحاربة، فقد اتخذ الألمان فى تلك الأيام الفاصلة بصورة مستمرة قوات ضخمة لتشن غارات على مطاراتنا فى جنوب إنكلترا والجنوب الشرقى، وكانوا يهدفون إلى تدمير الجهاز الدفاعى عن العاصمة فى أثناء النهار التى استبدت بهم اللهفة لمهاجمتها، وكان العمل المتواصل فى هذه المطارات ودوام تحركات أسرابنا منها، أكثر أهمية لنا من حماية العاصمة التى منيت بحملات من القصف الجوى، غرضها الأول نشر الرعب وإثارة الفزع. وكانت هذه المرحلة فاصلة فى الصراع بين الحياة والموت بالنسبة لكلا الفريقين المتنازعين، ولم نكن نفكر حينذاك بالدفاع عن لندن أو غيرها من المدن بقدر ما كنا نتساءل لمن سيكون النصر؟ وقد ساد قيادة الطائرات المحاربة فى (ستاجور) إحساس بالقلق وخاصة فى مقر قيادة المجموعة الحادية عشرة فى أوكسبريدج، إذ منيت خمسة من مطارات المجموعة الأمامية وستة من مراكز الجبهة بأضرار جسيمة، وكذلك محطة قطاع بجين هيل إلى الجنوب من لندن، حتى أن سرباً واحداً هو الذى استطاع العمل وحده مدة أسبوع كامل،

ولو استمر العدو فى هجماته الثقيلة على الأماكن القريبة وهدم غرف العمليات فيها، وقطع اتصالاتها الهاتفية لأضحت جميع تنظيماتنا الدقيقة فى القيادة الجوية معرضة لأشد الأخطار، ولم يكن دليلاً على مجرد توجيه الإساءة إلى لندن بل على وهن إشرافنا على سمائنا فى هذا المكان الحيوى الحساس. وقد فرضت زيادة عدد من هذه المحطات فى الثامن والعشرين من آب وخصوصاً مانستون وبجين هيل القريبة من منزلى، كانت المحطتان متداعيتين وطرقهما مملوءة بالحفر، وعندما غير العدو هجومه فى السابع من أيلول إلى لندن، أدركت قيادة الطائرات المحاربة هذا التغيير واستشعرت قيادتنا الكثير من الراحة لذلك، وكان على غورنغ أن يستمر فى هجماته على مطاراتنا التى تعتمد عليها قوتنا الجوية المحاربة فى ذلك الوقت، لكن بتخليه عن قواعد الحرب المألوفة، وما تمليه الروح الإنسانية من قواعد مقررة، ارتكب أجسم الأخطاء وأبشعها. وكانت هذه الفترة الواقعة ما بين ٢٤ آب و٦ أيلول من الأيام التى شقت على قيادة طائراتنا المقاتلة إلى أقصى حد، وكانت القيادة قد منيت بخسارة ما يقرب من مائة وثلاثة من الطيارين خلال أسبوعين بالإضافة إلى مائة وثمانية وعشرين أصيبوا بجراح خطيرة، كما تحطمت حوالى ٤٦٦ طائرة من طراز الهاريكين والسبيتفاير أو أصيبت بأضرار جسيمة، وإذا اعتبرنا أن عدد الطيارين فى قواتنا المحاربة كان فى هذه الآونة ألف طيار، بدا لنا أن سلاحنا الجوى قد فقد ربع رجاله تقريباً.

ولم يكن فى وسعنا ملء هذا الفراغ الذى نشأ عن فقدانهم، إلا باستحضار مائتين وستين طياراً جديداً ينقصهم التدريب وإن لم تنقصهم الحماسة، نقلوا من وحدات التدريب قبل أن يستكملوا مدتهم الدراسية فى كثير من الأحيان، وتسببت الهجمات الليلية على لندن خلال عشرة أيام بعد السابع من أيلول والتى استهدفت الأرصفة ومراكز السكك الحديدية فى قتل عدد كبير من المدنيين وإصابة الكثير بجراح، لكنها برغم ذلك اعتبرت بمثابة

نعمة هبطت علينا من السماء، أرسلت إلينا على حين كنا فى أشد الحاجة إليها لنأخذ أنفاسنا.

وعلينا أن نعتبر الحرب الجوية قد بلغت ذروتها فى الخامس عشر من أيلول، فقد شن سلاح الطيران الألمانى - بعد غارتين متواليتين فى ١٤ من الشهر نفسه - أكبر هجوم جوى مركز فى رائعة النهار على مدينة لندن. لقد صارت إحدى المعارك الفاصلة فى الحرب، وقد حدثت فى يوم من أيام الأحد كمعركة «واترلو» تماماً، وكنت فى ذلك اليوم فى تشيكرز، وطالما قمت - قبل هذا اليوم - بزيارة لمقر المجموعة الحادية عشرة من الطائرات المقاتلة لأرى بنفسى سير إحدى المعارك الجوية التى لا يحدث فيها الكثير، وأحسست فى ذلك النهار أن الطقس مناسب لعدونا، ولذلك فقد ركبت سيارتى إلى أوكسبردج حيث زرت مقر الجمعية التى تتكون من حوالى خمسة وعشرين سرباً تختص بالدفاع عن إيسكس وكنت وساكس وهامشاير وجميع المداخل المؤدية إلى لندن، وكان نائب مارشال الجو بارك يقوم بقيادة هذه المجموعة منذ حوالى ستة أشهر، وكان عليها يتوقف مصيرنا إلى درجة عظيمة، ومنذ أن ابتدأت معركة دنكرك أسند إلى بارك إدارة كافة أعمال الطيران فى النهار فى جنوب إنكلترا، وقد بلغت استعداداته حد الكمال، وتسللت مع زوجتى إلى غرفة العمليات الحربية المحصنة ضد القنابل والواقعة على بعد خمسين قدماً تحت الأرض، ومن المعلوم أن تفوق طائرات السبيتفاير والهاريكين إنما يرجع إلى وجود هذا الجهاز الدقيق من الإشراف، وامتداد شبكة أسلاك التليفون تحت الأرض قبل الحرب بفضل توجيه وزارة الطيران ونصيحة المارشال داودنج. وكانت القيادة العامة توجه التعليمات والأوامر من مقر القيادة العليا للطائرات المحاربة فى ستاجور، لكن القيادة الفعلية لأسراب الطائرات قد عهد بها إلى المجموعة الحادية عشرة التى كانت تتولى الإشراف على سائر الوحدات الموزعة فى شتى محطات الطائرات قد عهد

بها إلى المجموعة الحادية عشرة التى كانت تتولى الإشراف على سائر الوحدات الموزعة فى شتى محطات الطائرات المحاربة فى مختلف أنحاء البلاد. وكانت غرفة عمليات المجموعة تشبه المسرح الصغير، وطولها يبلغ ستين قدماً، وتتكون من طابقين، وقد اخترنا مقاعدنا فى الحلقة الوسطى وأمامنا على المائدة أفردت الخريطة الضخمة وقد التف حولنا حوالى عشرين شاباً وفتاة تم تدريبهم ومعهم مساعدوهم من موظفى التليفونات وأمامنا يقع لوح أسود كبير بطول الجدار كله، وقد قسمته المصابيح الكهربائية إلى ستة أعمدة يمثل كل منها محطة من المحطات الست، ولكل منها أيضاً عمود إضافى مقسم بخطوط أفقية. وهكذا كانت المصابيح المنخفضة تكشف عن الأسراب الواقعة على أهبة الاستعداد والمستعدة للطيران خلال دقيقتين، ثم تعلوها المصابيح التى توضح الأسراب المتأهبة للعمل خلال خمس دقائق، ثم تعلوها تلك التى يتم استعدادها فى عشرين دقيقة، وهكذا بالنسبة إلى تلك التى تقوم بالطيران أو التى شاهدت العدو أو المشتبكة معه فى هذه اللحظة أو تلك التى فى طريقها إلى قاعدتها، وهناك غرفة صغيرة على الجانب الأيسر تشبه المقصورة فى المسرح يجلس فيها أربعة أو خمسة ضباط من فرقة المراقبة التى كان عددها قد بلغ حينذاك حوالى خمسين ألف رجل وامرأة وشاب، وقد كان الرادار آنذاك فى بدايته، ومع ذلك فقد كان كافياً لتوجيه الإنذار بالغارات حين تقترب من السواحل، وكان المراقبون من خلال مناظيرهم وتليفوناتهم المتنقلة، مصدر كل المعلومات عن الطائرات المغيرة، وهكذا كانت القيادة تنهال عليه ألوف الرسائل والإشارات فى أثناء وقوع الغارة. وكان يجلس عدد كبير من الرجال المدربين فى غرف تمتلئ بهم فى مقر القيادة الكائن تحت الأرض، يحلون رموز تلك الرسائل ويلخصونها بأقصى سرعة، وينقلون من دقيقة إلى أخرى النتائج التى يصلون إليها إلى الذين يضعون ويخططون للمعركة وهم جالسون حول المائدة الرئيسية، وإلى الضباط المشرفين على سير العملية من مقصورتهم

التى أشرنا إليها.

وفى الناحية المقابلة (مقصورة) ثانية يحتلها عدد من ضباط الجيش الذين يقومون بنقل أعمال المدفعية المضادة للطائرات، وقد كان لدينا منها تحت إشراف هذه القيادة مائتا مدفعاً، وكان من الضرورى جداً أن تتوقف هذه المدفعية عن العمل لبضع ساعات أثناء الليل فى بعض المناطق، إذ إن طائراتنا المقاتلة تكون فى ذلك الوقت قد اشتبكت فى القتال مع العدو، وكنت على علم بهذا النظام، فقد أطلعنى داودنج على عمل الجهاز كله قبل أن تبدأ الحرب بعام عندما زرته فى ستاغور، ولقد مر النظام بمراحل من التحسين والإصلاح منذ تلك الزيارة وصار الآن أداة حيوية من أدوات الحرب لا نظير لها فى بلد من بلاد العالم. وقال لى بارك عندما نزلنا إلى المقر فى الطابق الأسفل: «لا أستطيع التخمين عما يحدث اليوم، كل شىء هادئ».

ولم يكد يمضى ربع ساعة على هذا الكلام، حتى كان منظمو الخطة قد بدأ تحركهم، إذ أبلغوا أنه حوالى أربعين طائرة تحركت للإغارة من المحطات الألمانية فى منطقة دييب، وأخذت المصابيح تضىء فى الصف الأدنى مشيرة إلى الأسراب التى وقفت على أهبة الاستعداد، ثم وصل خبر آخر يقول إن عشرين طائرة مغيرة أخرى تستعد، ولم تمض عشر دقائق أخرى حتى صار من البين أن معركة قاسية فى طريق الوقوع، وبدأ الجو يحتشد بطائرات من الجانبين. وتتابعت الإشارات، أربعون طائرة، ستون طائرة، وكان اتجاه سير الطائرات المغيرة يبدو أمامنا على الخريطة من وقت إلى آخر فى علامات توضح اتجاهاتها، بينما كانت على اللوحة المواجهة تضىء المصابيح، مشيرة إلى طيران أسرابنا بصورة متتابعة حتى لم يبق منها على الأرض على أهبة الاستعداد أكثر من عدد قليل، وقد ظلت هذه المعارك الجوية التى يعلق عليها الكثير ـ أكثر من ساعة بعد وقوعها ـ وقد كان عدونا لا تزال لديه القوة التى مكنته من إرسال هذه الدفعات المتوالية من الطائرات إلى قلب الهجوم، وكان

على أسرابنا التى تم طيرانها كلها لتكون لها السيادة على الجو أن تعود إلى قواعدها بعد سبعين أو ثمانين دقيقة من طيرانها للتزود بالوقود أو الذخائر، ولو تمكن العدو فى أثناء ذلك من حشد طائرات جديدة فى حومة القتال لاستطاع تدمير العديد من طائراتنا وهى على الأرض، ولذا فقد كان هدفنا الرئيسى دائماً أن نوجه أسرابنا بحيث لا يتجمع عدد كبير منها على الأرض فى وقت واحد.

وسرعان ما أوضحت الأضواء الحمراء أن معظم أسرابنا ملتحمة مع العدو، وكنت أسمع همساً متصلاً بين القائمين بالتخطيط، وهم ينقلون الإشارات من مكان لآخر ليوضحوا تطور المعركة وتغير الأوضاع. وكان نائب مارشال الجو يصدر التعليمات العامة موجهاً طائرته المقاتلة التى تترجم فوراً إلى تعليمات تفصيلية يوجهها ضابط شاب يجلس فى وسط الغرفة إلى كل محطة من المحطات.

وكنت أجلس بجواره، وسألت عن اسمه بعد سنوات، فقيل لى إنه اللورد ويلوبى دى بروك. وقد التقيت به لثانى مرة فى عام ١٩٤٧ عندما استجبت لدعوة من نادى الفرسان، وكان عضواً فى مجلس إدارته لمشاهدة حفلة سباق الدربى. وقد استغرب كثيراً لأننى لم أنس لقائى الأول به. وكان فى ذلك الحين يصدر التعليمات والأوامر للأسراب الفردية بالتحليق فى الجو والقيام بأعمال دورية على هدى من النتائج الظاهرة على الخريطة.

وكان مارشال الجو آنذاك يسير فى الغرفة جيئة وذهاباً وهو يلحظ بعين حذرة متنبهة كل حركة وخطوة فى اللعبة، مراقباً بنفسه رجال جهازه التنفيذى ومتدخلاً إذا اقتضى الأمر بكلمة حاسمة لتعزيز نقطة مهددة. ولم تمر لحظات حتى صارت جميع أسرابنا ملتحمة فى المعركة، ولم يبق سرب واحد فى الاحتياطى، وتحدث بارك فى تلك الأثناء تليفونيّاً إلى داودنج فى ستاغور، فطلب منه أن يضع ثلاثة أسراب من المجموعة الثانية عشرة تحت

تصرفه احتياطاً للطوارئ، وفيما إذا وقع هجوم رئيسى آخر، خلال قيام أسرابه بالتزود بالسلاح والذخائر، وقد تم فعلاً هذا، وكانت الأسراب ألزم ما تكون لحماية لندن ومطارات الطائرات المحاربة، حيث إن المجموعة الحادية عشرة كانت قد استنفدت كل قواها.

واستمر الضابط الشاب الذى اتخذ من هذه الأمور مسألة روتين فى إعداد أوامره المنسقة مع تعليمات قائده العام، بلهجة هادئة، وسرعان ما انطلقت الأسراب الإضافية الثلاثة إلى ميدان المعركة مرة أخرى، وشعرت بقلق القائد الذى كان يصطنع الهدوء فى وقفته وراء مقعد مساعده، وكنت حتى هذه الأثناء أشهد التطورات صامتاً، فسألته: «هل تملك قوات أخرى احتياطية؟» فأجابنى نائب المارشال: «كلا... لم يبق لدينا فى الاحتياطى أى شىء». وقد كتب فى تقريره فيما بعد أننى ظهرت حينذاك بمظهر المتجهم العبوس، وربما أكون حقاً قد قطبت جبينى، وعبس وجهى، إذ ماذا يكون الأمر لو فاجأت أربعون طائرة جديدة أو خمسون أسرابنا وهى على الأرض تتزود بالوقود لتعود إلى التحليق من جديد. إن الميزان حينذاك كان فى كفة القدر، وكانت قدراتنا محدودة، والأخطار التى تتعرض لها جد كبيرة... ومرت خمس دقائق أخرى، وأغلب طائراتنا المحاربة تعود إلى الأرض لتتزود بالوقود، ولم يكن فى وسع مواردنا الحالية أن تضمن لها الحماية الجوية الكافية، وعرفنا أن طائرات العدو قد أخذت تعود من حيث أتت، وبدأت العلامات على الخريطة تظهر اتجاه الطائرات الألمانية نحو الشرق ولم يبد أثر لأى هجوم جديد، وبعد عشر دقائق من انتهاء المعركة بدأنا نرتقى السلم نحو سطح الأرض، وحينما وصلنا كانت صفارات الأمان تدوى فى الأسماع منبئة بانتهاء الغارة.

وقال بارك: «أسعدنا يا سيدى، أنك رأيت المعركة، للحقيقة لقد كنا فى الدقائق العشرين الأخيرة نكاد نختنق من المعلومات التى عجزنا أمامها،

ولعلك يا سيدى شهدت القيود المفروضة على مواردنا الحالية، وقد تحملت الموارد اليوم أكثر مما نستطيع».

وسألته عما إذا كان شىء من نتائج المعركة قد وصل إليه، وذكرت أن الهجوم قد رد بصورة رائعة وفعالة، فأجاب بارك بأنه غير راض وأن طائراته لم تستطع أن تسقط العدد الذى كان يتوقعه، وكان من المستبعد أن يكون العدو قد اجتاح خطوطنا الدفاعية فى كل مكان تقريباً، وقد سرت الأنباء بأن عشرات من القذائف الألمانية قد استطاعت تحت حراسة المحاربات من التسلل إلى لندن، ولكن الصورة الصادقة عن النتائج لم تتضح تماماً، كما لم تصل إلينا أية أرقام نهائية عن الخسائر أو الأضرار.

وكانت الساعة قد شارفت على الرابعة والنصف من بعد الظهر، عندما رجعت إلى تشيكرز، فمضيت بعد ذلك إلى فيلولنى، ويبدو أن المسرحية التى عاينتها فى مقر قيادة المجموعة الحادية عشرة قد أنهكت قواى حتى أننى لم أصح من نومى إلا فى الثامنة مساء، وحينما دققت الجرس حضر لى جون مارتن رئيس أمناء سرى ومعه موجز أخبار المساء من جميع أنحاء العالم... كانت أخباره تدعو إلى القلق، فقد سار هذا الأمر سيراً خاطئاً هنا، وتأخر ذاك هناك، والرد غير مقنع عن آخره، أو أن الأطلنطى قد ابتلع قطعة من قطعنا البحرية، ومضى جون مارتن يقول: «إننا قد حققنا فى الجو ما نهدف إليه، فقد أسقطنا مائة وثلاثاً وثمانين طائرة عدوة مقابل خسارتنا التى لم تبلغ الأربعين».

وبالرغم من أن المعلومات التى بلغتنا من العدو بعد الحرب تشير إلى خسائره فى هذه المعركة لم تزد عن ست وخمسين طائرة، إلا أن الخامس عشر من أيلول كان قمة معركة بريطانيا حقاً، وبدأت قيادة طائراتنا القاذفة فى تلك الليلة القيام بهجمات مركزة على كافة موانئ العدو من دولون إلى أنتوبرب، وقد أنزلت بالميناء الأخير خسائر بالغة، وها نحن نعلم الآن أن

الفوهرر قد قرر فى السابع عشر من أيلول تأجيل عملية «أسد البحر» إلى أجل غير مسمى، وتم أخيراً فى الثانى عشر من تشرين الأول تأجيل هذا الغزو نهائياً إلى الربيع التالى.

وقرر هتلر فى تموز عام ١٩٤١ تأجيل الغزو مرة أخرى حتى ربيع عام ١٩٤٢ عندما تكون الإغارة على روسيا قد انتهت... وكان هذا الحلم ضرورياً مع كل ما فيه من عبث واستحالة. وفى الثالث عشر من شباط عام ١٩٤٢ اجتمع الأميرال رادير بهتلر للمرة الأخيرة للبحث فى عملية «أسد البحر» واضطره أن يقرر العدول عنها نهائياً، ومن ذلك يتضح أن الخامس عشر من أيلول عام ١٩٤٠ كان نقطة تطور مهمة. ولا شك أننا كنا متهاونين فى تقدير خسائر العدو، وفى الحقيقة كنا نسقط طائرتين أو ثلاثاً للعدو مقابل طائرة واحدة تهوى من طائراتنا، وفى هذا ما يكفينا. وقد استطاعت قواتنا الجوية أن تحقق النصر، بدلاً من أن يحيق بها الدمار على يد العدو. وكان هناك عدد من الطيارين الجدد لا ينقطع، وبالرغم من الإصابات التى لحقت بمصانع طائراتنا ـ وهى العامل الفعال فى قدرتنا على شن حرب طويلة الأجل، إلا مجرد إمدادنا بحاجاتنا العاجلة فحسب، بالرغم من ذلك فلم تشل حركتها نهائياً، وبقى عمالها من فنيين وغير فنيين وراء مخارطهم تزدحم بهم المصانع غير مبالين بالنيران التى تتوهج من حولهم، فكانوا أشبه ما يكونون بالمدافع التى تواصل عملها دون انقطاع. وكان هوبرت موريسون فى وزارة التموين يشجع الجميع على مواصلة الجهد، كل فى حدود عمله، وكان يحفزهم بكلمة: «هيا إلى العمل» فلا يمتنع أحد عن الإسراع بتلبية ندائه، وقامت قيادة مقاومة الطائرات المغيرة برئاسة الجنرال بايل، ببذل كل عون مستطاع إلى معركة الدفاع الجوى، لكن اشتراكها الرئيسى كان متأخراً، أما فرقة المراقبة فكانت تواصل عملها ليل نهار لا تعرف التعب وبدون أن يتأثر إخلاصها. أما قيادة الطائرات المقاتلة التى تعتمد عليها المقاومة كل الاعتماد،

وقد أقنعتنا بقدرتها على الصمود المتواصل أشهراً عديدة أمام الإجهاد المستمر، حقاً لقد أدى كل فريق واجبه أحسن الأداء.

واستمرت أرواح طيارينا وشجاعتهم، وهم يخوضون غمار المعركة فى منتهى القوة والروعة، وهكذا أنقذت بريطانيا، وأصبح على أن أقف فى مجلس العموم وأقول: «لم يسبق قط فى تاريخ الصراع الإنسانى أن أحس مثل هذا العدد الضخم من الناس ما فى أعناقهم من دين جسيم نحو عدد قليل من الناس مثلما نحس به جميعاً اليوم نحو طيارينا».



الفصل التاسع

الحرب الخاطفة

لا شك فى أن الآراء التى تروى عن الهجوم الجوى الألمانى على بريطانيا هى آراء متناقضة ذات أهداف متباينة، وخطط مبتورة، ففى خلال هذه الأشهر كلها، كان يقلق راحتنا، ليتخذ أسلوباً جديداً، ولكن هذه المراحل جميعها متداخلة وليس فى المستطاع الفصل بينها بتواريخ دقيقة محددة. فالمرحلة الواحدة منها تسلم إلى المرحلة الثانية وتتداخل فيها، وكانت العمليات الأولى تهدف إلى الالتحام مع قواتنا الجوية فى معارك فوق المانش والساحل الجنوبى ثم تحول القتال إلى سماء المقاطعات الجنوبية وخصوصاً فى كنت وساسكس، حيث أراد العدوان أن يحطم جهاز قوتنا الجوية، ثم أخذ يتجه نحو لندن قليلاً قليلاً حتى أصبح أخيراً يحلق فى قلب سمائها، حيث أضحت المدينة هدفه الرئيسى، وأخيراً عندما أحرزت لندن النصر، انتقل القتال إلى سماء المدن فى الأقاليم وإلى شريان الحياة البريطانى خلال الأطلنطى عن طريق ميرس وكلايد.

وقد شهدنا الهجمات الألمانية العنيفة على مطارات الساحل الجنوبى فى الأسبوع الأخير من شهر آب. والأسبوع الأول من شهر أيلول، وفى السابع منه تسلم غورنغ قيادة المعركة الجوية وجعل الغارات ليلية، ونقل مكان المعركة من مطارات «كنت وساسكس» إلى عمارات لندن وأبنيتها، أما الغارات النهارية فلم تنقطع وإن كانت ثانوية، حدث هذا باستثناء غارة نهارية ضخمة أخرى، لكن الطابع العام للهجوم الألمانى قد تغير تماماً، وقصفت لندن بصفة متواصلة لمدة سبع وخمسين ليلة دون انقطاع مما جعل أكبر مدن العالم

تواجه تجربة خطيرة بل محنة قاسية، ولم يكن فى مقدور أى إنسان أن يتنبأ بالنتائج، ولم يسبق قط أن تعرضت هذه البلدان لمثل هذا القصف الجوى الراعد، كما لم يسبق أبداً أن واجه العدد الضخم من الأسراب والمشكلات والمصاعب التى أحدثها هذا القصف الرهيب ونكباته.

وقد قمنا بغارة على برلين ردّاً على هذه الغارات المتواصلة على لندن فى نهاية شهر آب، بالرغم من المسافات الشاسعة التى كان على طائراتنا أن تجتازها، ولم تكن مثل هذه الغارة شيئاً مذكوراً بالنسبة للغارات الألمانية المركزة على لندن والمطارات القريبة الفرنسية والبلجيكية. ولكن وزارة الحرب رأت نفسها فى وضع يحتم عليها الثأر رفعاً للروح المعنوية، وتأكيداً لتحدينا للعدو، وكنت على ثقة من صحة هذا الرأى وجدواه، إذ إنى أعلم أن هتلر يثير اضطرابه صمود بريطانيا وإظهار قوتها، وإن كان هتلر فى أعماق نفسه يعجب بشعبنا، وبالطبع واتته الفرصة حين قمنا بغارتنا الثأرية على برلين فأعلن ما انطوت عليه نفسه من رغبة فى تحويل لندن وغيرها من المدن البريطانية إلى أطلال ورسوم حين صرح فى الرابع من أيلول قائلاً: «إن هجومهم على مدننا سيدفعنا إلى إزالة مدنهم من الوجود».

وقد بذل هتلر أقصى ما يستطيع من جهد.

وأسهم فى الغارات الليلية المتواصلة على لندن بين ٧ أيلول و٣ تشرين الأول أكثر من مائتى طائرة فى كل غارة، وكانت الهجمات التمهيدية العديدة التى نزلت بمدننا الإقليمية فى الأسابيع الثلاثة الماضية قد فرضت علينا أن نوزع مدفعيتنا المضادة للطائرات بصور فعلية، وعندما أصبحت لندن الهدف الرئيسى للمرة الأولى لم تكن تحتوى على أكثر من اثنين وتسعين مدفعاً، ورأينا أن الأجدى ترك الجو حراً لطائراتنا الليلية المقاتلة تحت قيادة المجموعة الحادية عشرة، وكان من بين تلك الطائرات ستة أسراب من طراز «بلنهايم» وطراز «دينايانت» وكان الاشتباك الليلى لا يزال فى بدايته ولذلك

فإن خسائر العدو كانت طفيفة ومحدودة....

وهكذا استمرت مدافعنا المضادة متوقفة عن العمل فى الليالى الثلاث الأولى، وبالرغم من عدم دقة الوسائل التى تستخدمها المدافع المضادة، فقد اضطرنا ضعف طائراتنا الليلية المحاربة ومدى ما نواجهه من مشاكل فى حاجة إلى الحل، اضطرنا كل أولئك إلى أن نعطى لرجال هذه المدفعية الحرية التامة فى إطلاق نيرانهم على أهداف غير واضحة متخذين أى أسلوب يختارونه لتحديد الهدف ودقته... وبعد ثمان وأربعين ساعة، تمكن الجنرال بايل، المشرف على قيادة المدافع المضادة من زيادة عددها فى العاصمة بجلب عدد من مدن الأقاليم، هكذا أخليت السماء من طائراتنا المقاتلة، وقامت المدافع المضادة بمهمة الدفاع. ومكث أهل لندن، ثلاث ليال متعاقبة، ملازمين مساكنهم أو معسكراتهم غير المعدة، محتملين أعنف الغارات حتى كانت ليلة العاشر من أيلول حين انطلقت مدافعنا المضادة فجأة تضىء لها السبيل المصابيح الكاشفة المتوهجة، وبالرغم من دويها العظيم فلم تنزل بالعدو أضراراً جسيمة لا أنها أعلت الروح المعنوية بين أبناء العاصمة، وتمشت الحماسة فى صدر كل إنسان لمجرد الإحساس بأننا نرد الصاع صاعين، واستمرت المدافع المضادة منذ ذلك الوقت تتابع إطلاق نيرانها بصفة منتظمة ومتواصلة، ومهد التمرين والاختراع وإلحاح الحاجة إلى زيادة التصويب دقة، وأخذ عدد الطائرات المصابة من سلاح العدو يتكاثر ليلة بعد أخرى، وكانت المدفعية تلوذ بالصمت أحياناً حين تنطلق الطائرات الليلية المقاتلة لتخوض غمار المعركة، بعد أن تحسنت أساليبها، وظلت الغارات الليلية بل النهارية متواصلة إلى الحد الذى كانت تشن فيه هذه الغارات مجموعات صغيرة من الطائرات بل طائرة واحدة أحياناً، وطالما أطلقت صفارات الإنذار، ودوى صوتها فترات متلاحقة طيلة ساعات اليوم بأكمله، ولكن أهل لندن الذين يبلغون فى ذلك الوقت سبعة ملايين قد رتبوا حياتهم على وضع يلائم

تلك الأحوال الشاذة.

ولتنوير القراء ورغبة منى فى الترفيه قليلاً عنهم، والتخفيف من وقع هذه التجربة القاسية على مشاعرهم، أورد هنا بعض ملاحظاتى الشخصية عن غارات لندن، متيقناً أن لدى الآلاف من أبناء العاصمة كثيراً من الحكايات التى تفوق فى إثارتها هذه الملاحظات.

فعندما أخذت طائرات العدو فى قصف جو العاصمة كنا نرى أن نواجه هذه الغارات بالتهوين وعدم الاكتراث، فاستمر كل إنسان فى حى «الوست اند» يعمل ويلهو، ينام ويأكل كما تعود، دون أن يغير شيئاً من مجرى حياته العادية، فالمسرح مزدحم بالمشاهدين والشوارع المظلمة تموج بالمارة، ولعل هذا الموقف كان رد فعل صائب للرعب الذى بدأ فى العناصر الانهزامية فى باريس، عندما تعرضت المدينة لأول هجوم جوى فى شهر آيار. وأذكر أنى كنت على مائدة العشاء ذات ليلة مع صحبة خيرة، عندما حدثت غارات مستمرة قوية، وكانت نوافذ قصر «ستورانواى» - حيث كنا نجلس - تطل على - جرين بارك - الذى أنارته أضواء المدافع المضادة وانفجار القذائف المضادة، وهىء لى أننا كنا نغامر بأرواحنا، دون ما ضرورة أو مبرر. وبعد أن تناولنا العشاء انتقلنا إلى عمارة شركة الصناعات الكيمائية الإمبراطورية وهى تطل على الجسر، وكان منظر النهر يأخذ بنفوسنا ونحن نطل عليه من الشرفات العالية، ورأينا على الأقل عشر حرائق تشتعل فى الجانب الجنوبى، وبينما كنا نقف تساقط عدد من القنابل الثقيلة، انفجرت إحداها بالقرب منى فدفعنى صديق إلى وراء عمود حجرى راسخ القواعد، وأكدت لى هذه الحادثة الفكرة التى خطرت ببالى وهى أن نكيف حياتنا مع الوضع الجديد، وأن نفرض على متع حياتنا كثيراً من القيود.

وسقطت القنابل مرات عديدة على مجموعة من الأبنية الحكومية المحيطة بالبيت الأبيض، على أن دور الحكومة فى «داوننج ستريت» قام

بنائها قبل مائتين وخمسين عاماً المتعهد الاستغلالى الذى ما زال اسمه محفوراً على أسس ضعيفة واهنة، وخلال أزمة ميونيخ أقيمت المخابئ لسكان رقمى (١٠ و١١) من هذا الشارع، كما دعمت الأسقف بأعمدة جديدة قوية، وأنشئت سقوف أخرى داخلية، وكان الظن أن هذه الأسقف الجديدة تستطيع أن تصمد فيما إذا نسفت الأبنية أو انهارت، لكنها لا تحتمل على أية حال الإصابة المباشرة، وقد تم فى الأسبوعين الأخيرين من أيلول نقل مقر رئاسة الوزارة إلى مكاتب جديدة أكثر تحملاً وصلابة، مطلة على ميدان «سانت جيمس» وكنا ندعو هذه الأبنية باسم (الملحق) وقد ظللت مع زوجتى خلال الأيام الباقية من الحرب فى هذا البناء، ننعم بالهدوء والراحة، وكنا نوقن أن هذه الأبنية القوية المشيدة من الأسمنت فى وسعها أن تصد الحديد والفولاذ وعلقت زوجتى عدداً من صورنا فى غرفة الاستقبال التى كنت أقترح عليها أن تظل بلا صور، ولكنها نفذت فكرتها، وتغلبت على بالطبع، وساعدتها الأحداث، وكان منظر لندن رائع الجمال حين نراها من سطح (الملحق) على مقربة من القبة فى الليالى الساجية، وقد هيأوا لى مكاناً على السطح، فوقه سقف متين، كى أتمكن فى ضوء القمر من مراقبة الغارات الجوية، وتحت هذا المكان أقيمت غرفة الحرب حيث زودت ببعض الأثاث الصالح للنوم، وحيث لا تجد القنابل إليها منفذاً. وكانت القنابل فى تلك الأيام أصغر بالطبع من القنابل التى طالعتنا فى المراحل الأخرى من الحرب، وبالرغم من ذلك كانت حياتنا فى داونج ستريت فى الفترة التى سبقت بناء هذا المسكن الجديد مثيرة للغاية، إذ كان كل منا يحس وكأنه قد دفع به إلى مركز قيادة إحدى الفرق فى ميدان القتال.

ولست أنسى مساء يوم السابع عشر من تشرين الأول، حيث كنا نتناول عشاءنا فى غرفة الحديقة فى داونج ستريت رقم ١٠ عندما انطلقت الغارة الليلية المألوفة، وكان يشاركنى العشاء ارشى سنكلير وأوليفر ليتلتون. وكانت

النوافذ الفولاذية مغلقة، وحدثت بعض الانفجارات المدوية بالقرب منا، وسقطت قنبلة على مكان استعراض حرس الفرسان، وهو لا يبعد عنا بأكثر من مائة ياردة، وكان دويها هائلاً، وعلى حين غرة شعرت بهاتف سماوى... ينبهنى إلى الخطر الماثل. فالمطبخ عال ومكشوف وبه نافذة زجاجية يبلغ طولها خمسة وعشرين متراً، والساقى والفتاة يقدمان لنا العشاء دون تأثر بدوى الانفجارات، وخلف النافذة توجد السيدة لانذمير الطباخة وسائر الخدم أن يسرعوا إلى المخبأ، ثم عدت إلى مكانى بالمائدة، وأمرت الساقى أن يحمل العشاء إلى غرفة المائدة مباشرة، وطلبت إلى الطباخة وسائر الخدم أن يسرعوا إلى المخبأ، ثم عدت إلى مكانى بالمائدة، فلم تمر ثلاث دقائق حتى فوجئنا بدوى هائل وأصوات دمار جد قريبة وشعرنا بهزة عنيفة مما يؤكد أن البيت نفسه قد أصيب وجاء مفتش المباحث الملحق بخدمتى ليخبرنى بفداحة الخسائر، فقد أصيب المطبخ، ومخزن التموين ومكاتب القسم المالى...

وذهبنا إلى المطبخ لنشاهد ما جرى، فلم نر إلا أنقاضاً! فقد سقطت القنبلة على بعد خمسين ياردة على القسم المالى، فدمرت كل ما فى المطبخ، وتحول إلى أنقاض، وتهشمت النافذة الزجاجية الكبيرة وتطايرت شظاياها فى كل جوانب المطبخ، ولو ظل به أحد إلى أن حدث الانفجار لغدا أشلاء مبعثرة، ولا شك فى أن الهاتف السعيد الذى خطر لى جاء فى وقته المناسب. أما مخبأ القسم المالى فى الساحة فقد أصابته قذيفة مباشرة فتناثرت أجزاؤه، واستشهد تحت أنقاضه أربعة حراس كانوا يقومون ليلاً بأعمال الحراسة، وعلى أية حال فلم يكن فى مقدورنا أن نحدد عدد المفقودين، فقد دفن الجميع تحت ركام الأنقاض.. ولما كانت الغارة متواصلة، فقد لبسنا خوذنا وارتقينا الدرج إلى سطح الملحق لنشاهد المنظر كاملاً، وقبل ذهابى لم أستطع مقاومة الرغبة فى أن أغرى الطباخة والخدم بالتوجه إلى المطبخ، وبالطبع أصيبوا بالهلع من رؤية مكانهم وقد استحال إلى ركام. وصحبت

أرشى إلى سطح الملحق، وكان المساء ساكناً والجو صافياً، وكانت لندن بكاملها تجاهنا، ورأيت معظم حى (بال مال) تأتى عليه النيران، وعلى أية حال كانت ثمة خمس حرائق مضطرمة فى الجانب المقابل من المدينة على طول النهر، لكن (بال مال) كان طعمة للنيران... ثم أخذت الغارة تتزاح غمتها شيئاً فشيئاً على أن دويت صفارة الأمان، وإن ظلت الحرائق مشبوبة فى المدينة.. ونزلت إلى مسكنى الجديد فى الطابق الأول من الملحق فوجدت الضابط دايفيد فارجسون، رئيس مراقبى مجلس العموم، والذى يقطن فى نادى كارلتون، وقد أخبرنا أن دار النادى قد تهدمت، وكنا قد تخيلنا ذلك بأنفسنا بمجرد أن شاهدنا اندلاع النيران، وكان فارجسون فى النادى عندما دوى الانفجار، وحوالى مائتين وخمسين من الأعضاء والموظفين، وقد أحدث الانفجار قذيفة ضخمة مباشرة، أطاحت بواجهة المدخل من جهة شارع (بال مال). وكان الأعضاء يزدحمون فى قاعة التدخين، فتهاوى السقف عليهم، وعندما شاهدت الأنقاض فى اليوم التالى أخذتنى الدهشة، لأن أحداً من كانوا فى القاعة لم يقتل، وإنما نجا الجميع رغم الأنقاض والدخان وكأنما حدثت معجزة، ولئن أصيب بعضهم بجروح إلا أنهم نجوا من الموت جميعاً. وعندما سعيت بالحقائق مفصلة إلى مجلس العموم، قال زملاؤنا الوزراء ممن حزب العمال مازحين: «إن الشيطان لا يمس أنصاره بسوء». وقد انتشل المستر كانتان هوغ والده، وهو وزير مالية سابق، انتشله من بين الركام، كما حمل إينياس والده أنخيرزاس فى حرب طروادة. ولم يجد فارجسون مسكناً يأوى إليه فى تلك الليلة، فأعددنا له سريراً فى الطابق الأرضى من الملحق، لقد كانت هذه الليلة بصورة عامة مثيرة للفزع، وكان من الغريب حقاً بالنظر إلى إصابات المبانى ألا يزيد عدد القتلى على خمسمائة شخص وعدد الجرحى على ألفين أو ثلاثة آلاف.

ومضيت للمرة الثانية إلى زيارة رامسغيت، وشن علينا الهجوم فمضوا بى

إلى النفق الكبير الذى يقيم فيه عدد كبير من الناس بصفة مستمرة، وعندما غادرنا النفق بعد ربع ساعة تقريباً، بدأنا نتأمل الخرائب التى ما زال يتصاعد الدخان من جوانبها، وقد تهدم فندق صغير دون أن يصاب أحد من نزلائه بأذى على الرغم من تحوله إلى تل من الركام والحجارة تتناثر خلالها قطع الأثاث المحطم، وأدوات المطبخ، وراعنا صاحب الفندق وزوجته والطباخون والخدم، وهم يولولون حول فجيعتهم فى مصدر رزقهم ومأوى حياتهم... وعندئذ قررت بكل مالى من نفوذ وإمكانيات أن أصدر أمراً بالتعويض الفورى الكامل، وعندما عدت بالقطار أمليت على وزير المالية كنغزلى وود الرسالة التى توضح هذا المبدأ المهم وهو أن كافة الخسائر التى تحدثها الغارات يجب أن تكون على مسؤولية الدولة، وأن الحكومة تلتزم بتعويضها حتى لا يقع عبؤها على كاهل الذى يصابون فى بيوتهم أو أعمالهم، بل على كاهل الشعب كله تحقيقاً للعدالة فقد أثار هذا القرار فزع كنغزلى وود بما ينطوى عليه من التزام لا نهائى. ولكنى أكدت له ضرورة القيام بهذا الإجراء، ولم يمض أسبوعان على ذلك حتى كانت وزارة المالية قد جهزت مشروع التأمين الذى قدر له أن يقوم بدور فعال فى حياتنا.. وقد واجهت وزارة الخزينة مشاعر مضطربة ومقاومة إزاء هذا المشروع، فقد ظنت فى بادئ الأمر أنه سيستنزف الخزينة حتى الإفلاس، ولكن بعد آيار عام ١٩٤١، حيث توقفت الغارات الجوية أكثر من ثلاث سنين، أخذت المكاسب تنهال على خزينة الوزارة بفضل هذا المشروع الذى اعتبرته أنا فى حينه عملاً من أعمال التوفير والبراعة السياسية، وفى أواخر مراحل الحرب عندما أخذنا بغارات الصواريخ والقذائف الموجهة صعدت الأرقام ثانية إلى جانب الخسارة وتكبدنا ما لا يقل عن ثمانمائة وتسعين مليوناً من الجنيهات فى شؤون التعويض وبالرغم من كل ذلك فقد كنت غير مستاء لما يحدث.

وأصبح من المحتم فى هذه الفترة الجديدة من الحرب، أن نستفيد بغاية

ما نستطيع من العمل، ليس فى المصانع فقط بل فى الدوائر الحكومية بلندن كذلك، بالنسبة لتعرضها لهجوم جوى مستمر ليل نهار، فكان الموظفون فى البداية عندما تدوى صفارات الإنذار يسرعون إلى الطوابق الأرضية حيث تستخدم كملاجئ للوقاية، وكان يثير زهونا أن تتم هذه العملية فى هدوء ونجاح، وفى أحوال كثيرة لم تكن الغارة تعنى أكثر من هجوم من بضع طائرات أو حتى طائرة واحدة، وطالما عوقت هذه الطائرات فلم تصل إلى العاصمة، وهكذا يتوقف العمل فى جميع المصالح الحكومية الإدارية والتنفيذية بسبب غارة صغيرة تافهة. لذلك فقد فكرت فى أن يستخدم الإنذار على مرحلتين. مرحلة التنبيه المبدئى ومرحلة الخطر الفعلى الذى لا تنطلق صفاراته إلا حين يحل الخطر ويصبح فى حالة مداهمة فعلية، فقبل اقتراحى ونسقت الخطة على أساسه.

وكان البرلمان - أيضاً - فى أشد الحاجة إلى الإرشاد بالنظر إلى مواصلة عمله فى تلك الأيام المليئة بالخطر، وكان أعضاء المجلس يوقنون بأن واجبهم يحتم عليهم أن يكونوا مثلاً للشعب. ولا شك فى أن الحق كان بجانبهم فى هذا اليقين، ولكن كان علىَّ أن أوجه انتباههم على ضرورة اتخاذ الحيطة والحذر نظراً إلى الأخطار المحدقة، واستطعت إقناعهم فى جلسة سرية بوجوب اتخاذ الإجراءات الوقائية الضرورية، فاتفقوا على كتمان مواعيد الجلسات وإيقاف النقاش حين تدوى صفارات الإنذار، وصاروا يخفون بنظام إلى المخابئ المفعمة والتى لم تكن معدة كما يجب.

ولا شك فى أن مواصلة البرلمان البريطانى أداء مهمته وتصريف الشؤون فى تلك الآونة يعتبر صفحة مشرقة فى تاريخه وذيوع شهرته، والنواب عادة أكثر الناس حساسية بالنسبة لمهامهم فى هذه الظروف. كان من اليسير على أى إنسان ألا يحسن الحكم على حقيقة تصرفاتهم، فعندما تنزل الأضرار بإحدى القاعات كانوا ينتقلون إلى قاعة أخرى، وكنت أواجه صعوبات جمة فى

إقناعهم بضرورة الأخذ بوسائل الحكمة والموعظة الحسنة لكن جميع النواب فى هذه الفترة قد نهجوا نهجاً ينم عن التعقل ووزن الأمور والحرص على الكرامة. ومن حسن الطالع أن الانفجار الذى حدث بعد عدة شهور وأطاح بقاعة مجلس الشيوخ، حدث ليلاً حينما كانت القاعة خالية من أى إنسان.

ولقد أعطانا تفوقنا على الغارات النهارية إحساساً بالراحة والهدوء النفسى، أما فى خلال الشهور الأولى فقد سيطر علىَّ الشعور بالقلق الذى يتمتع بحقوق السيادة، والذى انتخب بطريقة عادلة ونزيهة وهى الاقتراع العام، وفى يده دائماً القدرة على إسقاط الحكومة، ولكنه الآن فى أقسى الظروف كان يدعمها ويسند مركزها... وهكذا كتب النصر لبرلماننا.

وإنى لا أعتقد أن أى دكتاتور قد حاز من السلطات الفعلية فى بلاده مثل تلك التى خولت لوزارة الحربية البريطانية، وكنا عندما نعبر عما نريده يعطينا نواب الشعب تأييدهم فيطيع الناس رغباتنا بسعة أفق وحرية، وعلى الرغم من ذلك لم نحاول مرة مصادرة الحريات وإن ظل الناقدون بأنفسهم يرجحون المصلحة القومية على أى شىء آخر. وإذا تحدانا النقاد رأينا المجلسين يصوتان ضدهم بأغلبية ساحقة، وإذا ما قورن هذا بأساليب الدول الجماعية، بدا لنا أن برلماننا كان يخولنا هذه السلطة ضد الناقدين بلا أدنى اضطهاد أو كبت أو إيحاء أو استعمال للشرطة وأجهزة الأمن السرية، ولا شك فى أن هذا كان يثير زهونا واعتزازنا، ويؤكد لنا أن الديمقراطية البرلمانية أو على الأصح ما يحق أن نسميه السلوك البريطانى فى الحياة العامة قد استطاع الصعود والانتصار والبقاء بالرغم من كل المحن القاسية، ولم يستطع التهديد بالإبادة وإفناء أعضاء برلماننا أن يرهب أحداً، وكان من حسن الحظ أن هذا التهديد لم ينفذ ولم تحدث الإبادة.

وحل منتصف شهر أيلول، ففاجأنا العدو باستعمال نوع جديد ومدمر من وسائل الحرب علينا، فقد بدأت الطائرات تلقى بقذائف تنفجر بعد مرور بعض

الوقت مما وضعنا أمام مشكلة حساسة وغريبة، وكثيراً ما سارت فى وجوهنا مسافات شاسعة من السكك الحديدية، فنخترق الطرقات المهمة، والسبل الموصلة للمصانع الحيوية والمطارات والمؤسسات، وحظر علينا دخولها فى أوقات احتياجنا إليها، إذ فرض علينا أولاً أن نتعقب هذه القنابل لنفجرها أو نتلفها، وكانت هذه عملية خطيرة وخاصة فى بداية الأمر، عندما اضطررنا إلى أن نتعلم الوسائل والأساليب بواسطة عمليات من التجارب الموضحة.

وقد تكلمت سابقاً عن حكاية الألغام المغنطة، أما هذه القذائف المتفجرة من تلقائها، فقد أصبحت منتشرة، وصارت مشكلة تحتاج إلى التفكير، وقد وجهت اهتمامى إلى القنابل المؤقتة منذ عام ١٩١٨ عندما استعملها الألمان لأول مرة ضدنا بصورة شاملة ليرغمونا على عدم استخدام القطارات فى زحفنا على ألمانيا، وكنت قد اقترحت أن نستخدمها فى النرويج وقناة كييل ومنطقة الراين، ولا شك فى أن هذا السلاح من أكثر أسلحة الحرب فعالية بالنسبة إلى ما يشيعه من التوجس والقلق والارتياب. وهكذا دار الزمن لنذوق نحن طعم هذا السلاح، فأنشأنا هيئة خاصة للتصرف فى شأنه، وعهدنا إلى مجموعات خاصة شكلت فى كل مدينة وبلدة ومقاطعة لتتبعه، وسارع المتطوعون يبذلون جهودهم لمكافحة هذه القنابل، وتكونت فرق كان بعض منها حسن الحظ وكان للأخرى سوء المصير. وقد استطاع رجال من هذه الفرق النجاة من العاقبة الوبيلة لهذا السلاح، والعيش إلى نهاية الحرب، بينما نجا البعض الآخر من التجربة العاشرة أو العشرين أو الثلاثين أو الأربعين قبل أن يلقوا حتفهم، وكنت حين أشاهد أعضاء هذه الفرق أينما ذهبت فى رحلاتى وتجولاتى، أرى وجوههم مغايرة تماماً لكل الوجوه التى أعرفها أو رأيتها، بالرغم مما يتحلون به من شجاعة وتفان وصبر، فعلى هذه الوجوه تبدو واضحة ظلال الشحوب، ومعالم الإجهاد، وسماته الضخمة والجهد، فضلاً عن بريق العيون وزرقة الوجوه وجفاف الشفاه، فإذا ما تذكرنا الأيام المضنية

التى عشناها، فيجب ألا نستعمل كثيراً كلمة (أوقات كئيبة) إذ تكاد الكآبة كلها تخص أفراد هذه الفرق وحدهم.

وواجب علىَّ أن أسرد هنا ما حدث لإحدى هذه المجموعات كمثال لما كانت تواجهه سائر المجموعات، كانت هذه المجموعة تضم اللورد سافولك وسكرتيرته وسائقه العجوز، وكانوا يسمون أنفسهم «الثالوث المقدس» وقد شاعت أخبار جرأتهم وذاع الكثير عن شجاعتهم، وقد استطاعوا أن يتخلصوا من أربع وثلاثين قنبلة لم تنفجر، وبروح طيبة مرحة، لكن القنبلة الخامسة والعشرين قد ثأرت لزملائها، فانفجر معها اللورد وثالوثه المقدس، ولكن الإيمان يملأ نفوسنا بأن أرواحهم عرفت مستودعها الأمين فى دار الخلد!!

وقد توصلنا بفضل كل فرد فى هذه المجموعات، وبالتضحيات النبيلة التى بذلوها إلى أن نتحكم فى هذا الخطر الجديد.

من الشاق علينا أن نعقد مقارنة بين الاختبار القاسى الذى مر به سكان لندن فى شتاء عام ١٩٤٠ ـ ١٩٤١، وبين الاختبارات التى عاناها الألمان فى سنوات الحرب الثلاث الأخيرة، فقد غدت القنابل أشد هولاً والغارات أكثر قسوة، ولكن من ناحية ثانية ـ كان الإعداد الطويل، وما اشتهر عن الألمان من دقة قد ساعدهم على إنشاء وحدات كاملة من الملاجئ المحصنة ضد القنابل، وكان يفرض على كل ألمانى الالتجاء عند قيام الغارات كعمل عادى رتيب، وعندما اجتزنا ألمانيا فى النهاية شاهدنا أنها قد أصبحت بكاملها خرائب وأطلالاً، ولكننا شاهدنا – أيضاً – عمارات مشيدة لا تزال صامدة على الأرض وملاجئ حصينة كان السكان ينامون فيها كل ليلة بالرغم من تساقط دورهم وخراب كل ما يملكونه على سطح الأرض، أما فى لندن، فعلى الرغم من أن لغارات كانت أقل قسوة، إلا أن وسائل التأمين والوقاية كانت أبطأ تطوراً فإذا استثنينا الأقبية لم نجد عندنا أماكن للوقاية والتأمين. حقاً لقد كان ثمة طوائف أرضية، وطوابق تحت الأرض تستطيع أن تجابه الضربات المباشرة،

ولكن عددها كان قليلاً لدرجة ملحوظة وكانت الغالبية من سكان لندن يمضون الليل فى الخنادق الخاصة ببيوتهم تحت سيل من قذائف العدو، مستمتعين بما اشتهر عن الإنكليز من حبهم للاسترخاء بعد يوم من العمل المثمر الجاد، ولم تكن ثمة أية وسائل للوقاية إلا من شظايا القذائف ولكن الانهيار النفسى لم يكن شيئاً بجانب الاحتمال البدنى، وحقيقة لو كانت قذائف عام ١٩٤٣ قد أسقطت على لندن فى عام ١٩٤٠ لانتهينا إلى وضع قد دمر فيه كل تنظيم بشرى، ولكن لكل شىء وقته المعين، ونسبه المحدودة، ولا يملك إنسان القول بأن لندن التى لم تجرب الخضوع قط، كانت محصنة ضد الاستسلام.

ولم تكن الحكومة قد شيدت قبل الحرب أو فى الفترة السلبية الأولى التى مرت فى مطلعها، أية أماكن محصنة ضد القنابل، تستطيع هيئتها المركزية أن تلجأ إليها لمواصلة الأعمال، فقد درست خطط لتحويل العاصمة عن مدينة لندن، وفعلا انتقلت فروع بأكملها من جميع الوزارات والدوائر إلى هاروغيت وشبلتيفهام وغيرهما، واستولت السلطات على المساكن الكافية فى مناطق شاسعة لسكنى جميع الوزراء وكبار الموظفين حين الانسحاب من لندن، أما فى هذه الآونة وطائرات العدو تواصل عدوانها فقد انعقد عزم الحكومة والبرلمان ورغبتهما الأكيدة على البقاء فى لندن دون مناقشة، وكنت أشاركهما هذه المشاعر نفسها، وكنت مثل غيرى يخيل لى أن الدمار سيكون عاماً، بحيث يصير الانتقال وتوزيع الأعمال أمراً محتماً، ولكن بالنسبة إلى ما حدث بالفعل. فقد امتلأ بعكس هذا الإحساس، وظللنا فى تلك الأشهر نعقد اجتماعاتنا الوزارية ليلاً فى غرفة الحرب فى الطابق الأسفل. ولم أكن أتخيل مدى ما يتحمله المستر تشمبرلين من عناء هذا السير بالنظر إلى العملية الجراحية التى أجريت له، ولكن لم يستطع أى شىء أن يقعد به عن هذه الاجتماعات التى كان يتسم فيها بكثير من الهدوء البارد والتصميم الأكيد، والتى كانت آخر ما شهده من اجتماعات.

ونظرت ذات مساء فى أواخر شهر أيلول عام ١٩٤٠ من باب داوننغ ستريت الذى يطل على الطريق، فشاهدت العمال يقومون بوضع أكياس من الرمال تجاه النوافذ المنخفضة من بناء وزارة الخارجية المواجهة لنا، وسألتهم عما يقومون به، فقيل لى إن المستر نفيل تشمبرلين فى أمس الحاجة إلى العلاج من حين لآخر بعد العملية التى أجريت له، وكان من غير الميسور أن يقوم بهذا العلاج فى ملجأ داوننغ ستريت رقم ١١ لأن عشرين شخصاً على الأقل يتجمعون فيه أثناء قيام الغارات، ولذلك فقد رؤى تهيئة ملجأ صغير خاص به وظل حريصاً على عاداته اليومية، لابساً خير ثيابه، بادياً غاية فى الأناقة وانسجام الهندام. وكان هذا كله أكثر مما فى طوقه، ولذلك قررت أن استخدام سلطاتى فذهبت إلى الطريق الممتد بين رقمى ١٠ و١١ وحين رأيت السيدة تشمبرلين قلت لها: «ينبغى ألا يوجد هنا فى هذه الظروف، ويجب أن تبتعدى به حتى تعاوده الصحة وسأرسل إليه يومياً بالأنباء». وذهبت السيدة للقاء زوجها، وبعد ساعة أرسلت لى تقول: «لقد أبدى استعداده لتنفيذ مشيئتك.. سنرحل الليلة». ولم ألتق به ثانية، ولكنى على يقين أنه كان يرغب فى الموت أثناء قيامه بواجبه ولكن القدر شاء غير ذلك.

ونتيجة لوفاة المستر تشمبرلين حدثت بعض التغيرات الوزارية المهمة، فقد أظهر المستر هربرت موريسون نشاطاً ملموساً كوزير للتموين، كما قابل السير جون أندرسن الهجمات على لندن بإدارة فى منتهى الصمود والكفاية، وتبين لى فى مطلع تشرين الأول أن الهجوم المتواصل على أعظم مدن العالم كان من القسوة والعنف بحيث خلف الكثير من المشاكل السياسية والاجتماعية لدى أهل المدينة الذين واجهوا أقسى الظروف، مما يفرض علينا أن نعهد إلى برلمانى حازم صاحب خبرة وتجربة فى شؤون وزارة الداخلية التى أصبحت فى تلك الآونة وزارة الأمن الداخلى كذلك، فلندن هى التى تعانى قسوة الغارات، وهربرت موريسون واحد من أهلها، وهو ملم بكل جانب من جوانب

إدارتها، وكانت له خبرة لا تبارى فى حكم مدينة لندن. إذ كان رئيساً فيما سبق لمجلس مقاطعتها، وكان الشخصية البارزة فى كافة أمورها، وكنت فى الوقت ذاته فى احتياج للسير جون أندرسن ليمثل الحكومة فى مجلس الملك الخاص، ليقوم كما يملى عليه منصبه الجديد بالإشراف على الكثير من الأمور الداخلية فى مجال أوسع، باعتباره رئيساً للجنة الشؤون الداخلية التى يعهد إليها بالكثير من المشاكل تخفيفاً لأعباء مجلس الوزراء. وأتاحت لى هذه التغيرات التى خففت العبء عن كاهلى أن أحشد اهتمامى لتصريف شؤون الحرب، التى تبين لى أن زملائى يميلون إلى توسيع مسؤولياتى بشأنها وزيادة اختصاصاتى، ولذلك فقد رغبت إلى هذين الوزيرين اللامعين أن يحل كل منهما محل الآخر، ولم يكن ما قدمته لهربرت موريسون طريقاً مفروشاً بالورود وليس فى مقدور هذه الصفحات بحال ما أن توضح المصاعب الجمة فى إدارة لندن وحكومتها فى ذلك الوقت الذى كان يضحى فيه عشرة آلاف مواطن أو عشرون ألفاً كل ليلة بدون مأوى نتيجة للهجوم الجوى المستمر، عندما كان حذر السكان وحرصهم وحده بمثابة حرس أولى يقاوم حدوث الحرائق على أسطح المنازل التى قد يتعذر القضاء عليها، وعندما اكتظت المستشفيات بمشوهى القنابل من الرجال والنساء، وعندما طل مئات الآلاف من البشر المنهكين يكدسون كل ليلة فى هذه الخنادق التى تحتاج إلى الأمان والوسائل الصحية، وعندما كانت طرق المواصلات بالقاطرات وغيرها تغلق باستمرار، وعندما كانت المجارى والقوة الكهربائية والغاز تدمر تدميراً، وعندما يجب أن تظل ـ بصرف النظر عن ذلك ـ روح لندن المناضلة صامدة عالية، وأن يتيسر نقل حوالى مليون مواطن فى كل يوم ليلاً ونهاراً من مساكنهم إلى المصانع وبالعكس، كان يجب علينا كل هذا، ولم يكن فى مقدورنا أن نعرف مدى هذه المحنة ومتى تنتهى، ولم يكن لدينا ما يشير إلى أنها لن تستمر أو لن تزداد سوءاً. وعندما حدثت المستر موريسون عن رغبتى بالنسبة للمهمة الجديدة كان يدرك جيداً ما ينطوى عليه هذا العرض من

خطورة ومشاكل، فاستمهلنى بضع ساعات ليفكر، ولم يلبث أن جاءنى قائلاً إنه سيكون فخوراً بالقيام بكل هذه المهمات، وهزنى إعجاباً به هذا القرار الذى يدل على كل صفات الرجولة.

وبعد أن تمت هذه التعديلات الوزارية أدى تغيير العدو لوسائله إلى أن تتأثر سياستنا العامة، فقد كانت الغارات حتى الآن تستخدم القنابل الشديدة الانفجار، لكن فى ليلة ١٥ تشرين الأول وكان القمر بدراً، نزلت بنا أقسى غارات جوية فى ذلك الشهر، وأسقطت الطائرات الألمانية فضلاً عن حمولتها المعروفة من القذائف المتفجرة حوالى سبعين ألف قذيفة حارقة وكنا حتى هذه الأثناء نبث الشجاعة فى سكان العاصمة ونحثهم على اللجوء للخنادق وقت حدوث الهجوم، وكنا نفتش عن كل وسيلة ممكنة لتأمين وقايتهم. ولكن بعد هذه الليلة اضطررنا أن نطلب إليهم الصعود إلى سطوح المساكن بدلاً من اللجوء إلى الخنادق أثناء الهجوم. وكان على وزير الداخلية الجديد أن ينفذ هذه السياسة، فأعد على الفور تشكيلاً هائلاً لمراقبى الحرائق، ومقاومتها على مدى واسع يكفى مدينة لندن بكاملها، فضلاً عن إجراءات أخرى اتخذت من المدن الإقليمية فى أقصر مدة ممكنة. وكانت مراقبة الحرائق عملاً اختيارياً فى أول الأمر، ولكن اشتداد الحاجة لمزيد من الأفراد والإحساس بحتمية قيام كل إنسان بواجبه فى مثل هذه المحنة القاسية ليشارك فى آلامها، فرض علينا أن نلزم المواطنين بالمشاركة فى أعمال المكافحة، وقد أدى ذلك إلى مزيد من نشاط كافة المواطنين على جميع ألوانهم ومستوياتهم. وصممت النساء على المساهمة بقدر حيوى فى هذه الخدمة واتخذت التدبيرات على نطاق واسع للقيام بتدريبات عامة، ولتعويد مراقبى لحرائق مكافحة كل أنواع القذائف المحرقة التى يسقطها الأعداء وقد تفوق الكثيرون فى أداء هذه الخدمة حتى استطاعوا أن يخمدوا ألوف الحرائق قبل شبوبها، وسرعان ما صارت تجربة الصعود إلى أسطح المنازل ليلة إثر أخرى تحت

وطأة النيران المشتعلة ودون أدنى إجراء وقائى آخر سوى الخوذة النحاسية أمراً مألوفاً.

ورأى المستر موريسون أن يجمع الفرق المحلية للإطفاء التى يبلغ عددها حوالى ألف وأربعمائة فرقة فى تشكيل قومى موحد لمقاومة الحرائق، وأن يزود هذا التنظيم بحرس شعبى كبير للحرائق من المدنيين المدربين المتطوعين للعمل فى أوقات فراغهم، وكان حرس الحرائق أول الأمر يتألف من المتطوعين أيضاً. ولكنما لبث أن تقرر بالإجماع تحويله إلى خدمة إلزامية، وقد استطعنا بواسطة الجهاز القومى لمكافحة الحرائق من استخدام النقل الآلى، وأحدث الأجهزة وأدق التدريبات فى أعمال رسمية تشرف عليها مجموعة من العسكريين. أما أسلحة الدفاع المدنى الأخرى فقد كانت تضمن وجود مجموعات على استعداد للتوجيه إلى أى مكان فى خلال دقيقة واحدة، وقد اكتفى باسم سلاح الدفاع المدنى عن الاسم القديم الذى عرف قبل الحرب بقوات الاحتياط من الغارات الجوية وزود رجال السلاح الجديد بملابس عسكرية خاصة تبث الشعور فى نفوسهم بأنهم يؤلفون السلاح الرابع من قوات التاج المسلحة.

وقد اغتبطت لأن لندن قد صمدت أيام الموجات المتتالية من الغارات الجوية على مدننا. إن لندن تشبه فيما أرى حيواناً هائلاً من حيوانات ما قبل التاريخ فى وسعها أن تتحمل الأذى المخيف، ثم تظل رغم جراحها النازفة عتبة الصمود تموج بالحياة والحركة. وقد كثرت خنادق أندرسن فى إحياء الطبقات العاملة المكونة من بيوت ذات طابقين. وقد بذلنا كل ما فى وسعنا لتكون هذه الخنادق صالحة للإقامة والحياة، مع الحرص على تخفيفها من الرطوبة أثناء الأمطار.

وللمرة الأولى منذ حوالى شهرين لم تدو فى الجو صفارة الإنذار ليلة الثالث من تشرين الثانى فى لندن، فاستغرب الكثيرون جو الهدوء السائد

وبدأوا يتساءلون ما الخبر؟ وفى الليلة التالية شنت الغارات على نطاق واسع حتى عمت أكثر الجزر البريطانية، وظل هذا بصفة مستمرة إلى بعض الوقت واتضح أن الألمان قد جددوا وسائلهم الهجومية، وبالرغم من أن لندن استمرت كهدف أساسى إلا أن جهوداً ملحوظة كانت تبذل لتشل العمل فى المراكز الصناعية البريطانية. وقد أرسل العدو أسراباً جديدة مدربة على ابتكارات جديدة فى الملاحة الجوية لتهاجم مراكز حساسة فى الجزيرة، فمثلاً تمرنت فرقة خاصة من الطائرات الألمانية على تحطيم مصانع آلات الطائرات «رولز رويس» فى «هلينجتون» قرب غلاسكو، ولا شك فى أن هذه الخطة الجديدة لم تكن تعنى مجرد التغيير، فقد قرر العدو تأجيل غزو بريطانيا إلى حين، ولم يكن قد انتهى من تدبير هجومه على روسيا بعد، كما لم يفكر فيه أحد غير هتلر والمقربين إليه. وهكذا كانت أشهر الشتاء الباقية مجرد فترة تمرينات بالنسبة لسلاح الجو الألمانى على التكتيكات الجديدة فى الهجوم الليلى والإغارة على التجارة البحرية فى بريطانيا. أما الغاية من ذلك فهى تدمير إنتاجنا العسكرى. وكان أجدى للألمان لو ظلوا على هجومهم فى ناحية واحدة حتى آخر الشوط فربما وصلوا إلى نتيجة حاسمة، ولكن الحيرة والتردد كانا طابعهم فى ذلك الوقت لأن ثقتهم بأنفسهم كانت غير كاملة.

وبدأت هذه الوسائل الجديدة فى الهجوم بغارة جوية عارمة على كوفنترى ليلة الرابع عشر من تشرين الثانى، وقد اتضح لغورنغ أن مدينة لندن شاسعة الأبعاد إلى الدرجة التى لا تتيح له نتائج فاصلة، بينما كان فى مقدوره أن يزيل من الوجود مدن الأقاليم ومراكز إنتاج الذخيرة، وقد بدأ الهجوم فى الساعات الأولى من الليل وتواصل حتى الفجر واشترك فيه حوالى خمسمائة طائرة ألمانية أسقطت حوالى ستمائة طن من القذائف الشديدة الانفجار عدا ألوف القنابل المحرقة. وكانت تلك الغارة أقسى ما دهمنا من غارات ثقيلة مدمرة بصورة عامة، فقد تحطم قلب كوفنترى،

وأصيبت الحياة بالشلل التام فى المدينة، وقد قتل حوالى أربعمائة شخص كما أصيب بجراح عدد أضخم من هذا بكثير. وأذاعت ألمانيا أن جميع مدننا ستلقى المصير نفسه، ومع هذا فلم يعطل العمل بمصانع الطائرات أو قطع الماكينات الأخرى، كما لم تمت حركة أهل المدينة بالرغم من عدم مجابهتهم قبل ذلك لمثل هذه الغارات. ولم يمر أسبوع حتى كانت لجنة تجديد الأبنية قد قامت بأعمال رائعة تيسر عودة الحياة إلى طبيعتها فى المدينة.

وشن العدو ليلة ١٥ تشرين الثانى هجوماً آخر على لندن استخدم فيه عدداً ضخماً من الطائرات فى ضوء القمر الساطع فأصيبت العاصمة بكثير من الخسائر وخاصة فى كنائسها ونصبها التذكارية، وكانت بيرمنجهام هدف العدو الثالث، فشن عليها هجومه لثلاث ليالى متتابعة بين ١٩ و٢٢ تشرين الثانى فأصيبت المدينة بخسائر فادحة فى الأرواح والممتلكات، ووصل عدد القتلى إلى حوالى ثمانمائة، والجرحى أكثر من ألفين، ولكن روح بيرمنجهام وحياتها قاومتا المحنة، وارتفع المليون من أهلها بتنظيمهم ووعيهم وفهمهم إلى أعلى مما نزل بهم من آلام. وتحولت وجهة الغارات فى آخر أسبوع من الشهر نفسه ومطلع شهر كانون الأول إلى الموانئ فتعرضت برستول وساوثها مبتون وليفربول لهجمات قاسية، ومرت بلايموت وشفيلد ومانشستر وليدز وجلاسكو بالمحنة ذاتها بشجاعة نادرة، ولم يعد يعنينا أن يوجه العدو ضربته فإن الشعب كله واجهها بإيمان وصبر وعزيمة.

وبلغت الغارات ذروتها مرة ثانية حين شن العدو هجومه على مدينة لندن يوم الأحد فى ٢٩ كانون الأول، فقد جمع الألمان فيها كل ما حصلوه من خبرات، فكان الهجوم مفعماً بالقذائف المحرقة التى ركزت قسوة نيرانها على حى «السيتى». وكانت هذه الغارة مدبرة لتقع حين ينحسر الماء عن النهر بسبب الجزر، فتهدمت سدود المياه فى بداية الأمر بسبب ألغام شديدة الانفجار أسقطتها المظلات، وكان الضرر الذى أصيبت به محطات السكك

الحديدية والأرصفة فادحاً، وهدمت ثمانى كنائس وشبت الحرائق فى «غيلدهول» وفى كاتدرائية القديس بولس، ولم تنج من الدمار إلا بجهود خارقة تفوق حد الوصف، وأخذنا نرى الخراب يجتاح العالم البريطانى، ولكن عندما زار الملك والملكة هذه الأماكن المصابة قوبلا بحماس بالغ أشد مما كانا يقابلان به فى أية زيارات أخرى.

وظل الملك صامداً فى غضون هذه الأشهر الطويلة من التجربة القاسية والتى لم تنته بعد فى قصر باكنجهام، وقد شيدنا خنادق ملائمة فى الطابق الأسفل من القصر، ولكن أعمال البناء استلزمت الكثير من الوقت، وكثيراً ما حضر الملك خلال اشتداد الغارة من قصر باكنغهام. وقد أنقذ جلالته والملكة بأعجوبة من الموت ذات مرة. ففى حديقة القصر أنشئ ميدان خاص للرماية، كان جلالته وغيره من أفراد الأسرة المالكة، وكبار رجال الحاشية يتدربون على الرماية فيه بالمسدسات ومدافع التومى، وقد قدمت للملك غدارة أمريكية قصيرة المدى، كانت واحدة من مجموعة وصلتنى وكان سلاحاً قيماً.

وبدل الملك فى تلك الأثناء موعد لقائى الرسمى بجلالته من الساعة الخامسة مساء كل يوم ثلاثاء كما جرت عادته فى خلال الشهرين الأولين منذ توليت الحكم، إلى أن أتناول الغداء معه فى اليوم نفسه من كل أسبوع. وكنت فى هذه الزيارات التى قد تحضرها الملكة، أعرض على جلالته شؤون الحكم، وكثيراً ما اضطررنا إلى حمل صحاف الطعام وأقداح الشراب إلى الخندق الذى كان لا يزال فى حالة الإعداد فنستكمل طعامنا فيه، وأصبحت هذه الزيارات الأسبوعية عادة رتيبة، وبعد مرور الأشهر الأولى، أمر جلالته أن يبعد الخدم جميعاً من هذه الاجتماعات وأن نمارس نحن خدمة أنفسنا بأنفسنا، وقد تكشف لى خلال السنوات الأربع والنصف التالية من الحرب أن جلالته كان يطلع بكثير من الاهتمام على جميع البرقيات والوثائق الرسمية التى أقدمها إليه، ويقرر العرف الدستورى البريطانى أن من حق الملك أن

يطلع على كل شىء يقع تحت اختصاصات وزرائه، وأن يقدم المشورة إلى حكومته بدون قيد ولا شرط، وكنت حريصاً جداً على أن أطلعه على كل شىء، وكثيراً ما بدا لى خلال اجتماعاتنا الرسمية الأسبوعية أنه قد قام بدراسة كافة الوثائق التى لم أكن قد درست بعضها بعد، وأننى لأقول إن من حسن الطالع لبريطانيا أنه كان على عرشها فى مثل هذه السنوات المصيرية ملكان خيران كملكنا ومليكتنا، وأنى كواحد من الذين يؤمنون بالملكية الدستورية، نظرت ببالغ التقدير إلى الشرف الذى أصبغه على صاحب الجلالة بهذه الصلات التى وثق عراها معى كوزيره الأول، وأننى لا أرى لذلك نظيراً فى تاريخنا إلا فى أيام الملكة آن ورئيس حكومتها مارلبورو.

وهكذا أبلغ بنا العام إلى نهايته...، وإن كنت قد استطردت - راغباً - بعيداً عن شؤون القتال الخاصة، وسيرى القارئ أن كل هذا الدوى وتلك الزعازع لم تكن إلا رفيقاً على الطريق يسير مع إجراءاتنا الهادئة التى حرصنا عليها فى إدارة جهودنا الحربية، وتوحيد سياستنا ودبلوماسيتنا، وعلى أن أقر هنا أن هذه الخسائر التى منينا بها والتى لم تكن مميتة، كانت فى اعتبارنا نحن المقيمين فى قمة الموقف دافعاً فعالاً للتعبير عن آرائها، وتوطيد زمالة بارة بيننا وتدعيم أسس أعمالنا الجوهرية الواعية، وربما يكون من غير الحكمة على كل حال أن أفترض بأن الغارات التى شنت علينا لو تزايدت إلى عشرة أو عشرين ضعفاً أو حتى بنسبة ضعفين أو ثلاثة فإن هذه الانطباعات السلمية التى فصلتها، كانت ستوجد بصورة مؤكدة، وعلى النحو الذى أوضحت.



الفصل العاشر

الإعـارة والتـأجير

أطل علينا فجر جديد، وصليل الأسلحة يملأ الجو، لكن مصدره هذه المرة كان مختلفاً عما سبق. فقد دارت الانتخابات الأميركية للرئاسة فى الخامس من تشرين الثانى، وبالرغم مما تتسم به من حيوية وصلابة تتميز بها هذه المصارعة الحادة التى تحدث مرة كل أربع سنوات، وعلى الرغم من الخلافات التى تثار حول الشؤون الداخلية بين الحزبين الرئيسيين، إلا أن كبار الزعماء فى كل من الحزبين الديمقراطى والجمهورى كانوا يجمعون على تقدير قضيتنا العظمى والاهتمام بها، فأعلن المستر روزفلت فى ٢ تشرين الثانى بمدينة كليفلاند أن سياسته تؤمن ببذل كل مساعدة فعالة للشعوب التى ما زالت تكافح العدوان عبر المحيطين الأطلنطى والهادى. كما صرح منافسه المستر ويندل ويلكى فى اليوم نفسه فى خطاب ألقاه بحديقة ماديسون بأنهم جميعاً جمهوريين وديمقراطيين ومستقلين مصممون على مؤازرة المقاومة البريطانية الباسلة وأنهم يتعهدون للشعب البريطانى بأن يستخدم متى شاء ثمار صناعتهم. ولا شك فى أن هذا الشعور الوطنى النبيل كان الطريق المخلص لحياة الولايات المتحدة وحياتنا نحن أيضاً.

ومع ذلك فقد كنت أحس بالقلق العظيم، وأنا أترقب النتيجة، فليس مقدور كل من يتولى الرئاسة، أن يكون مسلحاً بالخبرة والمعرفة كما يتمتع بها فرانكلين روزفلت، وليس فى مقدور أى شخص سواه أن يحوز المواهب والكفايات نفسها، وكنت قد وثقت علاقتى الشخصية به، وحافظت على تنميتها ورأيت أنها قد بلغت أسمى مراتب الثقة والصداقة إلى الدرجة التى

أصبحت بها ذات أهمية فى تفكيرى، وكنت لهذا أحس بالقلق إزاء كل ما يهدد هذه الزمالة، وقد تم توطيدها بعناية وعلى مهل، وأنفر من فكرة قطع هذا الاتصال فى أحاديثنا ومباحثاتنا لأبدأ من جديد مع شخص آخر صاحب عقلية وشخصية مختلفتين، ولم أحس منذ أيام بمثل ما أحس به الآن من قلق، ولذلك فقد كانت غبطتى عظيمة عندما علمت أن الرئيس روزفلت قد أعيد انتخابه.

وكنا حتى تلك الساعة نلجأ فيما نحتاجه من الذخيرة للمصانع الأميركية بحرية وحيوية، وإن كان ذلك يتم بعد التفاوض معها.

وأدت زيادة رغباتنا وتعدد مطالبنا إلى التناقض أحياناً، مزاحمة الرغبات الأميركية ذاتها، مما كان ينذر بحدوث اصطدام على المستويات الخفيضة بالرغم من توافر حسن النية لدى الطرفين. وكتب المستر ستيتينيوس يقول:

«إن فى إمكان سياسة موحدة من أجل تحقيق غايات المقاومة أن تؤدى أغراض هذه المهمة التى تواجهنا الآن». ومعنى هذا أن لحكومة أميركا أن توصى وحدها بصنع الأسلحة التى نحتاجها من أميركا. وخرج الرئيس روزفلت بعد توليه الرئاسة بثلاثة أيام بنظرية جديدة تقرر الأفضلية فى توزيع إنتاج الأسلحة الأميركية، على أن يكون خمسون فى المائة من إنتاج أميركا للأسلحة مخصصاً لاحتياجات أميركا الدفاعية، وخمسون فى المائة للقوات البريطانية والكندية. واصدر مجلس الأفضلية الأميركى فى اليوم نفسه موافقته على رغبة بريطانيا فى إعداد اثنى عشر ألف طائرة فى الولايات المتحدة فضلاً عن رغبتنا السابقة فى أحد عشر ألف طائرة أخرى، ولكن من أين نأتى بالأموال الضرورية لنغطى ثمن الأسلحة التى نحتاجها من المصانع الأميركية؟

وأمضى اللورد لوثيان فى أواسط تشرين الثانى يومين فى ديتشلى معى، وكان قد ركب الطائرة من مقر عمله فى واشنطن إلى الوطن، وكنت قد

استمعت إلى نصيحة بألا أمضى فى تشيكرز جميع نهايات الأسابيع، خصوصاً عندما يكون القمر بدراً، خشية أن يعطف على العدو بلطفه الخاص، وكان السيد رونالد ترى وزوجته قد استقبلانى أحسن استقبال، أنا وموظفى، فى بيتهما الكبير الجميل الذى يقع على مقربة من أوكسفورد ولا تزيد المسافة على أربعة أو خمسة أميال بين ديتشلى وبلنهايم، وهكذا التقيت بسفيرنا فى واشنطن فى هذا الجو الآمن، وكان يعرف شتى جوانب الموقف الأميركى، ولم يكن قد حصل على شىء سوى النية والثقة من واشنطن، وكان قد اتصل منذ قليل بالرئيس الذى توثقت بينهما أطيب العلاقات، وكان فكره مشغولاً بمسألة الدولار، وهى مسألة كئيبة بلا شك.

فعندما خاضت بريطانيا غمار الحرب، كان فى حوزتها حوالى ٤٥٠٠ مليون دولار، إما على صورة دولار بالفعل، أو ذهب أو استثمارات أميركية من المستطاع أن تتحول إلى دولارات، وكانت الوسيلة الوحيدة المستطاعة لتزيد هذه الموجودات، هى التوسع فى استخراج الذهب فى الإمبراطورية البريطانية وخاصة فى جنوب إفريقيا. وبذل كافة السبل لزيادة الصادرات إلى أميركا وخاصة الكماليات كالويسكى والمنسوجات الصوفية الرائعة والخزف. وقد استطعنا بهذه الوسيلة زيادة حصيلتنا بحوالى ألفى مليون دولار فى خلال ستة عشر شهراً منذ بداية الحرب، وكنا فى السابق تتجاذبنا الحيرة بين حاجة ملحة إلى العتاد من أميركا، وبين فزعنا من نقصان دولاراتنا الموجودة لدى أميركا، وكان السير جون سيمون وزير المالية فى حكومة المستر تشمبرلين يتحدث كثيراً عن المصير المؤسف لأرصدتنا الدولارية، ويوجه أنظارنا إلى ضرورة الحرص عليها، وكنا على أية حال متفقين على ضرورة الحد من مشترياتنا الأميركية بقدر المستطاع، وكنا نبدو كما قال مرة المستر بوفيز، رئيس لجنة المشتريات للمستر ستيتينوس «وكأننا نحيا فى جزيرة منقطعة بكمية محدودة من الطعام الذى نحاول الإبقاء عليه

أطول مدة ممكنة».

وكان يقصد بهذا إعداد ترتيبات واسعة المدى لزيادة أموالنا، وكنا قبل الحرب نمارس حريتنا فى الاستيراد، وندفع بالعملة التى نريد، وعندما قامت الحرب اضطررنا أن نوجد هيئة لتعبئة الرصيد الخاص من الذهب والدولار والنقد الأجنبى، وأن نقف دون تحقيق رغبات ذوى النوايا المنحرفة فى تحويل رأسمالهم إلى البلاد التى يحسون أنها أكثر أمناً من بلادهم، وأن نقلل من قيمة الواردات غير الضرورية وغير ذلك من وسائل الإنفاق الأخرى، وفضلاً عن عزمنا على الإبقاء على أموالنا، كان علينا أن نضمن استمرار الآخرين فى قبول عملتنا، وكانت بلاد الكتلة الاسترلينية معنا، فهى تحتم سياسة الإشراف ذاتها على النقد التى تحتمها، وهى تريد التعامل الدائم بالإسترلينى، وقمنا بإبرام عقود خاصة مع الآخرين تلزم بأن ندفع لهم بالإسترلينى الذى يقدرون على التعامل به فى أى مكان داخل حدود الكتلة الإسترلينية، كما ضمنوا الإبقاء على فائض الإسترلينى لديهم، وأن يحرصوا فى مبادلاتهم على هذه الشروط مع السويد والأرجنتين، ثم ما لبثت أن اتسع نطاقها فشملت بلاد أخرى فى القارة وفى جنوب أميركا. وقد تم تنسيق هذه الخطة بعد ربيع عام ١٩٤٠، ولا شك فى أن مما هو جدير بالثناء وبإطراء الإسترلينى نفسه أننا استطعنا الإبقاء عليه فى مثل هذه الظروف القاسية، وقد قدرنا بهذه الوسيلة على الاستمرار فى معاملاتنا التجارية مع غالبية البلاد فى العالم بالإسترلينى، وأن نبقى على ما لدينا من دولار وذهب ثمين لمعاملاتنا الحيوية مع أميركا.

وعندما أصبحت الحرب واقعاً مرعباً فى آيار ١٩٤٠، أدركنا على الفور أننا نشهد ميلاد حياة جديدة للعلاقات الإنكليزية الأميركية، فمنذ أن توليت تأليف الوزارة، وعهد إلى السير كنغزلى بوزارة المالية، بدأنا نسير فى طرق أكثر يسراً، وهى أن توصى باحتياجاتنا ورغباتنا بغض النظر عن المصاعب

المالية المقبلة، تاركين للآلهة الخالدة أن تتولاها بعنايتها، ولقد كان من الزيف فى شؤون الاقتصاد ومن الخداع بالنظر للروية والعقل أن نترك الفرصة للقلق ونحن نواجه معركة حياة أو موت، منفردين، لا نصير لنا ولا معين ونقع تحت وطأة هجوم جوى مستمر، نتعرض لأهوال غزو يذيقنا من ويلاته، أن نترك الفرصة للقلق يستولى علينا من جراء نفاذ أرصدتنا الدولارية لدى أميركا. وكنا قد شعرنا بالتحول الكبير فى الرأى العام الأميركى وشعرنا بالإدراك الجديد الذى سرى لا فى واشنطن وحدها بل فى جميع أرجاء الولايات المتحدة، بأن مصير أميركا وثيق الصلة بمصيرنا نحن، وفضلاً عن هذا فقد سرى تيار من العطف والإعجاب ببريطانيا بين صفوف الشعب الأميركى ووصلتنا برقيات مودة من واشنطن مباشرة، وعن طريق كندا، لمسنا فى غضونها التشجيع والمؤازرة، والإحساس بأن شيئاً ما فى الأفق سيتحقق عن قريب. ولقيت قضية الحلفاء فى المستر مورغنتا ووزير الخزانة الأميركية نصيرها وحاميها الذى لا يكل من الذود عنها، وبسبب ورود الطلبات الفرنسية إلينا فى شهر حزيران تضاعف معدل إنفاقنا فى النقد الأجنبى. زيادة على ذلك أننا رغبنا من جديد فى صنع طائرات ودبابات وسفن تجارية من مختلف الأنواع، وحثثنا على إنشاء مصانع ضخمة جديدة فى أميركا وكندا.

وإلى شهر تشرين الثانى قد قمنا بدفع الثمن لكل ما وصلنا من أميركا وكنا قد بعنا ما قيمته (٣٣٥) مليون دولار من السندات والأسهم الأميركية التى قمنا بمصادرتها من ذويها فى لندن مقابل الدفع بالاسترلينى، وكنا قد قمنا - أيضاً - بدفع ما يزيد على (٤٥٠٠) مليون دولار نقداً، وأصبح كل ما لدينا ألفى مليون معظمها فى صورة استثمارات غير قابلة للبيع الفورى فى الأسواق، وظهر أن ليس فى وسعنا أن نسير على هذا المنوال، لأننا أنفقنا كل ما فى حوزتنا من الذهب والنقد الأجنبى، فلن نستطيع أن ندفع الثمن لنصف احتياجاتنا من المصانع الأميركية، فكيف يكون الأمر والحقيقة أن امتداد زمن

الحرب وشمولها يضطرنا إلى أن نحتاج من المصانع الأميركية عشرة أضعاف ما احتجنا إليه الآن. وعلينا فضلاً عن كل هذا أن نبقى على شىء فى أيدينا لنواجه به مطالبنا اليومية المتجددة.

وكان لوثيان واثقاً من أن الرئيس ومستشاريه يفكرون جدياً فى خير الوسائل لمعاونتنا، أما وقد انتهت المعركة الانتخابية، فقد دقت ساعة العمل، وكانت المباحثات دائمة فى واشنطن بين ممثل لوزارة حربيتنا هناك ـ السير فريد ريك فيلبس ـ وبين المستر مورغنتاو، ورغب إلى سفيرنا فى أن أحرر رسالة مفصلة للرئيس توضح كل أوضاعنا، وهكذا كتبت بالمشاورة معه فى ذلك اليوم، الأحد فى ديتشلى، رسالة خاصة إلى الرئيس روزفلت، ولما كان ينبغى عرض هذه الرسالة على رؤساء أركان الحرب، ووزارة الخزانة لدراستها، ثم توافق عليها وزارة الحرب، فإنها لم تكن معدة للإرسال قبل رجوع لوثيان إلى واشنطن. وتمت الرسالة فى صورتها الأخيرة، ثم أرسلت بتاريخ ٨ كانون الأول إلى المستر روزفلت فوراً، فانتهت ـ وهى من أهم ما أحرزته فى حياتى ـ إلى صديقنا العظيم وهو يمخر عباب البحر الكاريبى على ظهر البارجة الأميركية «توسكالوزا» مع أصدقائه وخاصته، وأبلغنى هارى هوبكنز، بعد ذلك وكنت لم أتعرف به بعد أن الرئيس قرأ الرسالة مراراً على ظهر البارجة وهو جالس على مقعده، وأنه أمضى يومين فى دراستها، إلى أن وضحت أمامه مراميها. لقد ظل فى أحضان تفكير عميق، يتمتم لنفسه فى صمت.

ونتج عن كل هذا قرار عظيم، فالقضية لم تكن عدم معرفة من الرئيس لحقيقة ما نريد، وإنما كانت فى أى الوسائل يجب أن يسلكها لتؤمن بلاده بالمسير معنا، وليقتنع الكونجرس بضرورة ما يرى. ويقول ستيتينروس إن الرئيس كان فى أخريات الصيف الماضى قد رأى فى إحدى جلسات لجنة الدفاع الاستشارية فى موضوع الموارد الملاحية أن ليس من المحتم أن يبذل البريطانيون أموالهم. وليس من المحتم - أيضاً - أن يستدينوا منا لهذا

الغرض، ولكن ـ مع أنه لا يوجد ما يحول دون تنفيذ كل ذلك ـ فى مقدورنا أن نأخذ الباخرة التى تم صنعها، وأن نؤجرها لهم أثناء استخدامهم لها.

ويظهر أنه كان هناك قانون صدر فى عام ١٨٩٢، يدع لوزير الحربية حرية تأجير ممتلكات الجيش ما دام يرى فى ذلك مصلحة عامة بشرط ألا يكون الجيش فى احتياج إليها مدة خمس سنوات. وكانت هناك حالات طبق الجيش فيها هذا القانون، وأجر بعض ممتلكاته من حين لآخر.

وهكذا انبثقت فكرة «التأجير» فى ذهن الرئيس روزفلت لتلبية احتياجات بريطانيا. بدلاً من تقديم قروض غير محدودة، ربما قد يؤدى ذلك إلى درجة يصعب معها الدفع والتسديد، وسرعان ما انتقلنا من المجال النظرى إلى المجال العملى، وظهرت فى هذا الزمن الذى أعلن فوراً وهو الإعارة والتأجير.

وعاد الرئيس من رحلته فى البحر الكاريبى فى ١٦ كانون الأول بمشروعه العميق فى مؤتمر صحفى انعقد فى اليوم التالى، وقد أوضحه فى بساطة عندما قال: «لنفرض أن منزل جارى قد شب فيه حريق، وكنت أملك فى حديقتى خرطوماً طويلاً يبلغ أربعمائة قدم أو خمسمائة، وكان فى استطاعة جارى إذا منحته خرطومى أن يوصله بصنبور مياهه ويتغلب على النار المشبوبة، فماذا ترون واجبى فى ذلك الحين؟ إننى لن أخاطبه قائلاً فى مثل هذه الظروف: اسمع يا جارى، لقد كلفنى هذا الخرطوم خمسة عشر دولاراً وعليك أن تدفع ثمنه أولاً.. كلا.. إننى لن أفعل ذلك، وإنما سأقول له.. أنا لا أريد الخمسة عشر دولاراً ولكننى أريد خرطومى بعد أن تخمد الحريق.. واستطرد قائلاً: «لا ريب عند أى أميركى يرى أن أفضل سبل الدفاع العاجل عن أميركا، هى أن تنتصر بريطانيا فى الدفاع عن نفسها، ولذلك ـ فضلاً عن مصلحتنا التاريخية والحاضرة فى المحافظة على الديمقراطية كشىء جوهرى ـ فإن فى غاية الأهمية ـ من الناحية الذاتية أيضاً ـ وبالنسبة للدفاع الأميركى أن نبذل كل ما نستطيع لمعاونة بريطانيا فى الدفاع عن نفسها...» ثم ختم

كلمته قائلاً: «إننى أحاول أن أمحو حاجز الدولار».

وعلى هذه الأضواء، تم إعداد مشروع الإعارة والتأجير عاجلاً ليعرض على الكونغرس، وقد وصفت هذا الجهد فيما بعد أمام البرلمان فى أحد البيانات قائلاً: «أكرم عمل قام به أى شعب فى التاريخ» وفى الوقت الذى تمت فيه موافقة الكونغرس على هذا القانون، تغير الوضع كاملاً بصورة عاجلة، فقد أعطانا القانون الحرية فى أن نبرم الصفقات الضخمة بكافة احتياجاتنا تحت رعاية اتفاق الإعارة والتأجير. ولم ينص على إعادة الدفع، كما لم يكن ثمة حساب رسمى يسجل بالدولار أو الإسترلينى، فكل ما نحتاج إليه يأتينا بالإجارة أو الإعارة، لأن مقاومتنا المتصلة لجبروت هتلر، اعتبرت أعمالاً دفاعية عن مصالح الولايات المتحدة، فقد قال الرئيس روزفلت: إن الدفاع عن أميركا لا الدولار هو الذى سيعين منذ الآن المكان الذى ستتوجه إليه الأسلحة الأميركية.

وامتدت يد الموت فى تلك الساعة الحاسمة إلى اللورد فيليب لوتيان، فانتزعته من بين جماعتنا، بعد رجوعه إلى واشنطن، حيث تسلط عليه المرض بصورة غير متوقعة، ولكنه أدى واجبه حتى النهاية وبدون أدنى توقف، وتوفى فى ١٢ كانون الأول وهو كدبلوماسى مرموق فى قمة نجاحه. فكان موته خسارة لوطنه وللقضية كلها، ودمعت عليه عيون الأصدقاء فى جانبى المحيط. أما أنا وكنت قبل أسبوعين وثيق الصلة به، كما ذكرت قبل ذلك بقليل، فقد كانت وفاته صدمة شخصية لى، وقد ابنته بخطاب فى مجلس العموم أعظم تأبين ذاكراً له بثناء جم جهوده ومسيرته.

وكان علىَّ أن أوجه اهتمامى فوراً لمن يخلفه، وأدركت أن علاقاتنا بأميركا فى تلك الفترة فى حاجة إلى أن يكون سفيرنا إليها شخصية بارزة متمتعة بسمعة قوية خاصة، فضلاً عن الكفاءات التى ينبغى أن يكون حائزاً لها سياسى مطلع على كافة شئون العالم. وبعد أن ضمنت موافقة الرئيس

روزفلت على وجهة نظرى رغبت إلى المستر لويد جورج فى أن يقوم بمهام هذا المنصب، وكان المستر لويد جورج قد اعتذر عن تولى منصب فى وزارة الحرب فى تموز الماضى، كما كانت ظروف سيئة فى السياسة البريطانية الداخلية، وكانت آراؤه فى الحرب والأحداث التى أدت إليها تخالف ما أراه، وبالرغم من ذلك لم يكن هناك شك فى أنه ألمع رجل فى وطننا، وفى أن كفاياته وخبراته التى لا نظير لها ستساعده كلها على حمل أعبائه. وقد تحدثت إليه طويلاً فى غرفة الحرب فى اليوم التالى حول مائدة الغداء، واستخفه السرور بهذا التكليف فقال: «إننى سأخبر أصدقائى بأن رئيس الوزراء عرض علىَّ عروضاً مشرفة، ولكنه كان على ثقة من أن رجلاً فى السابعة والسبعين مثله، ليس فى وسعه القيام بالتبعات الجسام التى يعنيها هذا المنصب» وبعد محادثات متواصلة معه اتضح لى أن الرجل قد أوهنته الشيخوخة لاسيما فى الأشهر الأخيرة منذ دعوته للاشتراك فى وزارة الحرب، لذلك تنحيت عن اختيارى الأول، وتنبهت إلى اللورد هاليفاكس، صاحب المقام الرفيع فى حزب المحافظين والمكانة التى دعمتها أعماله فى وزارة الخارجية، ولا شك فى أن توجه وزير الخارجية إلى منصب سفارى يعنى أهمية خاصة لهذه البعثة الدبلوماسية التى تحظى برئاسته، وبالإضافة إلى هذا المغزى، فإن أعماله فى سنوات ما قبل الحرب، والأسلوب الذى سارت به الأحداث فى تلك الفترة قد وضعاه موضع عدم الاستلطاف بل العداء أحياناً من جانب العمال فى حكومتنا القومية، وكنت أعرف أن اللورد يدرك هذا جيداً. وعندما عرضت الأمر عليه، الذى لم يكن بالطبع يعنى أية ترقية ذاتية، اكتفى بكلمة بسيطة متعالية تعبر عن استعداده للخدمة، حيث تكون خدماته نافعة ومحتمة. وتأكيداً منى لأهمية بعثته وواجباته رتبت الأمور على أن يباشر عمله كعضو فى وزارة الحرب عندما يعود فى أى إجازة إلى الوطن. وقد نجحت فى هذا دون صعوبات بفضل ما تنطوى عليه نفوس الشخصيات التى تناولها هذا الترتيب من ذكاء وخبرة وكفاية.

ومكث اللورد هاليفاكس يعمل فى ظل الحكومة القومية الائتلافية وخليفتها الحكومة العمالية الاشتراكية كسفير فى واشنطن مدى ست سنوات فى نجح مستمر، لما يقوم به من أعمال ونفوذ تتضاعف يوماً بعد يوم. وقد اغتبط الرئيس روزفلت والمستر هل، وغيرهما من شخصيات واشنطن البارزة، بتعيين اللورد هاليفاكس، وسرعان ما عرفت أن الرئيس قد استحسنه عن اختيارى الأول، وبذلك صادف التعيين الجديد رضاً وترحيباً فى كل من أميركا وبريطانيا، واعتبر منسجماً مع روح الأحداث الجارية.

ولم أكن على حيرة من أمرى فى الشخص الذى سيخلف اللورد هاليفاكس فى وزارة الخارجية، فقد ظللت طيلة السنوات الأربع الماضية متفقاً اتفاقاً تاماً بالنسبة للقضايا الرئيسية مع أنتونى ايدن. وقد بينت مشاعر القلق فى نفسى عندما تنحى عن صحبة المستر تشمبرلين فى ربيع عام ١٩٣٨، وكنا قد امتنعنا معاً عن التصويت على اتفاق ميونخ، ووقفنا معاً نقاوم الضغط الحزبى الذى تعرض له كل منا فى دائرته الانتخابية فى شتاء تلك السنة المؤسفة، وقد التقينا معاً عقلاً ووجداناً عند إعلان الحرب وفى خلال مسيرها، كزميلين، وكان ايدن قد خصص الجزء الأكبر من حياته العامة لدراسة الشئون العالمية، وتولى منصب وزير الخارجية المرموق فملأه عن كفاية ومقدرة، واستقال منه وهو فى الثانية والأربعين من عمره لأسباب إذا نظرنا إليها الآن بمنظار الحقيقة فسوف تنال تأييد جميع الأحزاب. وقد قام بدور فعال كوزير للحربية فى تلك السنة الرهيبة، وكان تصريفه لشئون الجيش، قد قرب كلانا للآخر، فكنا نتشابه فى التفكير، حتى بدون استشارة أو عرض لوجهات النظر، فى كثير من المسائل العملية، التى تقابلها يومياً، وكنت بدورى أطمح فى زمالة فياضة بالانسجام والتوافق بين رئيس الوزراء ووزير الخارجية، وقد جنيت ثمار هذه الرغبة، فى خلال السنوات الأربع

والنصف التالية، المليئة بأعمال الحرب والسياسة، وقد أسف ايدن حينما ترك وزارة الحربية التى كان قد دار فى دوامة متاعبها واستثاراتها، ولكنه عاد إلى وزارة الخارجية، وكأنه رجل يعود إلى بيته.

■ ■ ■

الفصل الحادى عشر

الانتصار فى الصحراء

عقدت الهدنة مع فرنسا، وحدث ما حدث فى وهران وانتهت صلتنا الدبلوماسية بفيشى التى انتقلت إليها حكومة الماريشال بيتان، ولكن على الرغم من كل ذلك بقى لى الإيمان بوحدتنا مع فرنسا، وإنى لأهيب بالرجال الذين لم يواجهوا المحن الشخصية التى دهمت رجال فرنسا البارزين بالنظر إلى الدمار المخيف الذى حل ببلادهم، أن يترفقوا فى إصدار حكمهم على هؤلاء الرجال.

وليس من خطة هذا الكتاب أن يخوض مجاهيل السياسة الفرنسية، ولكننى أقرر أننى كنت مليئاً بالثقة من أن الشعب الفرنسى لن يتوانى عن التضحية بكل ما يستطيع فى سبيل هدفنا المشترك على ضوء الحقيقة التى تبين له، فعندما سمع هذا الشعب أن سبيل خلاصه الوحيد ينحصر فى الانقياد لمشورة الماريشال المشهور، وأن إنكلترا لم تبذل فى سبيله الكثير، ستحتل عاجلاً أو تستسلم لم ير أمامه مجالاً للاختيار، ومع ذلك فقد كنت على يقين من أن جموع الشعب الفرنسى ترجو لنا النصر، وأن أكثر سرورها أن ترى بريطانيا ماضية فى القتال دون هوادة. وكان أول واجب علينا أن نؤازر بما استطعنا كفاح الجنرال ديغول، ودفاعه الباسل. فأبرمت معه فى ٧ آب اتفاقية عسكرية، تضمنت شتى الاحتياجات العاجلة، وتوجهت الإذاعة البريطانية بنداءاته الثائرة إلى فرنسا وإلى العالم كله وكان إصدار حكومة بيتان حكم الإعدام عليه، بمثابة تمجيد لاسمه، ورفع لشأنه وقد قمنا بكل ما نملك لمساندته، وتوفير الأموال لحركته.

وكان الإبقاء على اتصالنا بفرنسا، بل بفيشى أيضاً، ذات أهمية خاصة فى تلك الظروف، لذلك بذلت محاولات متكررة للحصول من رجال فيشى على أكثر ما يمكن، وقد سرنى كثيراً إرسال أميركا فى نهاية ١٩٤٠ بسفير منها إلى فيشى من طراز الأميرال ليهى وطبقته، لصلته المعروفة بالرئيس روزفلت وقد أبديت تشجيعاً لرئيس وزارة كندا المستر مكنزى كينج، لكى يحرص على بقاء ممثله المسيو دى بوا المشهور بتفوقه الديبلوماسى فى فيشى، فبذلك توجد على الأقل نافذة لنا، نطل منها على عالم لا سبيل إلى رؤية ما فيه دون هذه النافذة. وأرسلت فى ١٥ تموز مذكرة لوزير الخارجية أخبرته فيها عن رغبتى فى تشجيع نوع من التآمر الخفى فى حكومة فيشى، بحيث يذهب بعض أعضائها إلى الشمال الإفريقى باتفاق مع الأعضاء الآخرين، للحصول على مساومة أفضل لفرنسا من الشاطئ الإفريقى، ومن وضع استقلالى أحسن وأفضل، وسأستخدم لهذا الهدف سلاح الغذاء وغيره من الأمور الحافزة بالإضافة إلى المبررات المعتادة. واعتمدت سياستنا دائماً على بث الشعور فى حكومة فيشى وأعضائها بأن أملنا كبير فى إحساسهم بالخطأ ومحاولة إصلاح أوضاعهم، ومهما يكن فى الماضى فستبقى فرنسا بالنسبة لنا زميلة السلاح وصديقة الأزمات، ولن يقف شىء - غير انحيازها فعلياً فى الحرب ضدنا دونها ودون المساهمة معنا فى ثمرات النصر. وكان علمنا هذا شاقاً على نفس ديغول، الذى جازف بكل شىء، لتبقى راية الكفاح خفاقة. ولكن لم يكن فى وسع القلة القليلة من أتباعه خارج فرنسا أن يزعموا بأنهم يمثلون حكومة فرنسية كافية وقوية، ومع ذلك فقد قمنا بكل ما فى وسعنا لتدعيم نفوذه، وتوطيد سلطانه.

وكان طبيعياً أن يعارض فى أية مداعبة منا لحكومة فيشى، ويرى بأن الواجب يلزمنا بالوفاء له وحده، وأدرك بأن وضعه تجاه الشعب الفرنسى يحتم عليه أن يتسم بالصرامة والكبرياء فى تصرفاته مع بريطانيا الغادرة بغض النظر عن لجوئه إليها كمنفى، واستناده إلى حمايتها وإقامته فى أرضها.

وكان من الضروري أن يتظاهر بخشونة التصرف مع البريطانيين، ليؤكد للفرنسيين أنه ليس لعبة فى يد بريطانيا، ولا شك فى أنه مثل خطته هذه بكل عناء وإصرار. وقد برر لى ذات يوم هذا النهج فتفهمت تمام التفهم صعوبة موقفه، وكنت دائم الإعجاب بقوته الخارقة، ومهما قامت به فيشى من خير أو شر، فمن المحال أن نتنحى عنه أو نثبط همته فى استعادة مستعمرات بلاده، وفضلاً عن هذا كله، صممنا على أن نحول بين أى من أجزاء الأسطول الفرنسى المجرد من سلاحه، والموجود حالياً فى موانئ المستعمرات الفرنسية، وبين العودة إلى فرنسا. ومضت لحظات كانت الخشية تستبد فيها بالأميرالية من أن تعلن فرنسا الحرب علينا، فتضاعف المصاعب التى نواجهها ولكننى كنت دائم الثقة بأن إصرارنا على النضال وقدرتنا الكافية على الصمود إلى آخر الشوط ستوقظ معنويات الشعب الفرنسى إلى الدرجة التى يحول فيها بين حكومة فيشى وبين القيام بمثل هذا العمل الشاق. وفعلاً سيطر على الشعب الفرنسى فى هذه الآونة، إعجاب ببريطانيا وشعور قوى بزمالتها، وظلت آمال الفرنسيين تنمو وتزداد على ممر الأيام، وقد اعترف المسيو لافال نفسه عندما أصبح وزيراً لخارجية بيتان بهذه الحقيقة.

وكان الوضع بالنسبة لإيطاليا مختلفاً عن ذلك، فبعد اختفاء فرنسا من ميدان المعركة، وبعد التحام بريطانيا فى هذه المعركة المصيرية ذيادا عن كيانها، كان من المحتمل أن يرى موسولينى أن حلم سيطرته على البحر الأبيض المتوسط، وإعادة تشييد الإمبراطورية الرومانية السابقة، قد اقترب من التحقق الفعلى، وصار فى مقدوره ـ بعد أن أمن ظهره من الفرنسيين فى تونس – أن يعزز قواته المحتشدة فى ليبيا لغزو مصر، ولكن وزارة الحرب عقدت عزمها على الدفاع عن مصر ضد كل القوى المعادية، وبشتى الموارد التى تبقى لديها بعد مستلزمات القتال العنيف الذى يدور فى أرض الوطن.

وقد غدت هذه المهمة فى غاية الصعوبة عندما أدت الأميرالية استحالة مرور القوافل العسكرية عبر البحر المتوسط بالنظر إلى الأخطار الجوية،

ومعنى ذلك أن تدور وسائل النقل حول رأس الرجاء الصالح، وهكذا ستنزع من معركة بريطانيا وسائل هى فى أمس الحاجة إليها. ومن الغريب أننا فى تلك الأيام وجميع القائمين بالأمر، نبدو مرحين هادئين، مع أن مجرد استعادة هذه الذكريات والكتابة عنها يصيب الإنسان بالرعدة، وعندما أعلنت إيطاليا دخولها الحرب فى ١٠ حزيران ١٩٤٠، رأت أجهزتنا الاستخبارية - وقد أيدت الحقائق بعد الحرب صحة ما رأت - أنه - فضلاً عن القوات الإيطالية المقيمة بالحبشة وإريتريا والصومال - يوجد فى المناطق الساحلية من شمال إفريقيا حوالى ٢١٥١ ألف جندى إيطالى بينما وحداتنا فى مصر، لا تزيد عن خمسين ألف جندى، قد فرض عليها أن تقوم بالدفاع عن الحدود الغربية لمصر، وأن تحافظ على الأمن فى داخل البلاد، ومن هذا يتضح أن ميزان القوى كان فى صالح الإيطاليين، بالإضافة إلى أن عدد طائراتهم يزيد كثيراً على كل ما لدينا.

ونشط الإيطاليون فى غضون شهرى تموز وآب فى أماكن عدة، وتوقعنا خطراً من ناحية كسلا غرباً فى اتجاه الخرطوم. وساد الرعب فى كينيا بسبب حملة إيطالية تزحف من الحبشة، وقد قطعت حوالى أربعمائة ميل نحو تانا ومدينة نيروبى. واخترقت قوات إيطالية ضخمة الصومال البريطانى ولكن هذا الرعب لم يكن شيئاً بجانب ما يترتب من أخطار على غزو الإيطاليين لمصر، وهو ما عرفنا أنه كان فى سبيل الإعداد على صورة شاملة. فقبل قيام الحرب تم تعبيد طريق رائع على طول الساحل من القاعدة الرئيسية فى طرابلس بين مقاطعتى طرابلس وبرقة حتى الحدود المصرية. وكنا نرقب على هذا الطريق خلال ما مضى من الأشهر تحركات عسكرية على مدى أوسع، وأنشئت فى هدوء مخازن ضخمة امتلأت بالمعدات والمؤن فى كل من بنغازى ودرنة وطبرق والبرديسة والسلوم. ويزيد طول هذا الطريق على ألف ميل، انتشرت على طوله الوحدات الإيطالية مع معداتها وكأنها

حبات مسبحة فى خيط طويل. وعلى مقربة من حدود مصر، احتشد جيش إيطالى منظم، يبلغ تعداده من سبعين ألف جندى إلى ثمانين ألفاً، وقد زودوا بالمعدات الحربية، وتجاه هذا الجيش تألقت جوهرة مصر، ووراؤه امتد الطريق الطويل إلى طرابلس ومنها طريق البحر إلى إيطاليا. فإذا استطاعت هذه القوة التى تم بناؤها شيئاً فشيئاً، ودُعمت أسبوعاً أثر إسبوع - التقدم شرقاً بصفة مستمرة، مستولية على كل ما يعترض طريقها، فإنها ستكون ميمونة الطالع، وإذا ما وسعها أن تحتل مناطق الدلتا الخصيبة فى مصر، فإن شتى متاعبها بالنظر إلى الطريق الطويل الممتد خلفها ستكون قد انتهت. أما وهذا هو التقدير الثانى إذا لحقها سوء الحظ، فلن يجد أحد من جنودها إلا القليلين طريق العودة إلى بلادهم، فثمة فى جيش الميدان وفى حلقات فى مراكز التموين الضخمة بطول الساحل كان يقف فى خريف ذلك العام حوالى ثلثمائة ألف جندى إيطالى، لن يستطيعوا التراجع غرباً حتى ولو هرباً من مضايقات جنودنا، إلا على مراحل وبصورة تدريجية، وهذا يستغرق عدة أشهر. وإذا ما فشلت معركتهم على الحدود المصرية، وإذا ما تصدعت وحدة القوات الإيطالية، ولم يجدوا فرصة كافية للتراجع، فإن مصيرها لن يكون سوى الموت أو الوقوع فى الأسر. ولكن حتى تموز سنة ١٩٤٠، لم يكن أحد يعرف من الذى سيخرج منتصراً.

وكان مركزنا الأمامى الحصين فى تلك الأثناء فى آخر الخط الحديدى بمرسى مطروح، وكانت ثمة طريق ممهدة تمتد غرباً إلى سيدى برانى، ولكن بينها وبين السلوم الواقعة على الحدود لا توجد طريق نستطيع أن نحشد فيها قرب الحدود جيشاً كبيراً لفترة طويلة. وكنا قد أعددنا وحدة آلية صغيرة للتغطية تتألف من أمهر الجنود، وقد صدرت الأوامر لهذه الوحدة بالهجوم على المراكز الإيطالية القريبة من الحدود بعد إعلان الحرب مباشرة وبمقتضى هذه الأوامر عبرت قواتنا الحدود فى خلال أربع وعشرين ساعة،

وفاجأت الإيطاليين بهجومها عليهم بينما هم لم يسمعوا بعد بنبأ إعلان الحرب. ومن ثَمَّ استولت على بعض الأسرى، وفى الليلة التالية أحرزت النجاح نفسه، ووضعت يدها فى ١٤ تموز على نقطتى الحدود فى كابوتزر ومادالينا، وأخذت حوالى ٢٢٠ جندياً أسيراً. وتوغلت فى السادس عشر منه إلى مسافة أبعد، فحطمت اثنتى عشر دبابة إيطالية وقطعت الطريق على قافلة فى طريق طبرق البردية وأوقعت جنرالاً إيطالياً فى الأسر.

ومن هذه العمليات الصغيرة المعبرة عن القوة والانتصار، أحس جنودنا بمدى تفوقهم على العدو وأدركوا على الفور أنهم بحق سادة الصحراء. وكان فى مقدورهم - ما لم تعترض طريقهم جيوش هائلة أو حصون منيعة - أن يصولوا ويجولوا حيثما أرادوا، محرزين الغنائم وأكاليل الغار من المعارك الصغيرة التى يشتبكون فيها. وعندما يقترب جيشان كل من الآخر، يصبح ذات أهمية بالغة إدراك أيهما يسيطر على الأرض التى يقف عليها الجيش أو ينام، ومن يسيطر على كل شىء آخر. وقد جربت بنفسى هذا فى قتال البوير، حيث لم نكن نملك شيئاً سوى نيران معسكراتنا، ووحداتنا الخلوية، بينما كان البوير يصولون ويجولون فى مختلف أنحاء البلاد. ووصلت خسائر الإيطاليين فى الأشهر الثلاثة الأولى إلى ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل بينهم سبعمائة أسير، بينما لم تزد خسائرنا عن مائة وخمسين جندياً. وهكذا كانت بداية المرحلة الأولى من الحرب التى شنتها إيطاليا علينا بداية مليئة بالتفاؤل.

وأحسست بالحاجة الماسة لمناقشة الأخطار الداهمة فى الصحراء الليبية مع الجنرال ويفل بالذات، ولم أكن قد التقيت بهذا القائد الماهر الذى يرتبط به مصير كثير من الأشياء. فرغبت إلى وزير الحربية القيام باستدعائه لمدة أسبوع كى أتباحث معه عندما تتيح الظروف الملائمة. وقد حضر ويفل فى ٨ آب فتباحث طويلاً مع أركان الحرب، ومعى، ومع المستر ايدن. وكانت قيادة الشرق الأوسط فى تلك الأثناء تواجه مجموعة غريبة من المشاكل السياسية

والعسكرية والديبلوماسية والإدارية بالغة التعقيد، وقد مر عام تقريباً من الانتصارات والانكسارات لتبدو لى أنا والزملاء الضرورة التى تحتم توزيع اختصاصات الشرق الأوسط بين القائد العام ووزير الدولة مع مسئول خاص يصرف شئون التموين، وبغض النظر عن عدم موافقتى التامة على وجهات النظر التى أبداها الجنرال ويفل فى توجيه الجيوش التى يتولى قيادتها، رأيت من الأفضل أن أعطيه الحرية فى تصرفاته، فقد أعجبت بصفاته الممتازة، كما كنت مأخوذاً بالثقة الكبيرة التى منحها الكثيرون لشخصه.

وعلى هدى مباحثات أركان الحرب أبلغنى الجنرال ديل بموافقة ايدن المتحمسة، ويقول إن وزارة الحرب بدأت تهيئ الوسائل لإرسال حوالى مائة وخمسين دبابة من المدافع عاجلاً إلى مصر. وكانت العقبة الوحيدة التى تعترضنا هى الطريق الذى تبحر فيه البواخر المحملة بتلك المعدات.. هل هو رأس الرجاء الصالح أم هو البحر المتوسط؟.. ودار جدل عريض حول هذه المشكلة، فرأت وزارة الحرب إبحار هذه الوحدة المدرعة، حتى تصل إلى جبل طارق ثم يعاد النظر فى قرار نهائى. وظل الاختيار متأرجحاً حتى ٢٦ آب، وبالطبع رأينا الفرصة متاحة لنجمع المعلومات الضرورية عما إذا كان الهجوم الإيطالى قد حان ميعاده أم لا، ولم نضع وقتنا فى إجراء عملية نقل الدم هذه فى ذلك الوقت الذى نستعد فيه لمواجهة شر مستطير، تحتاج إلى قرار صائب وإن كان رهيباً فى الوقت نفسه، ولم يتردد واحد منا فى اتخاذ هذا القرار.

كانت السيطرة على البحر الأبيض المتوسط قبل انهيار فرنسا موزعة بين الأسطولين البريطانى والفرنسى، ولكن بعد أن عزلت فرنسا عن الحرب واشتركت فيها إيطاليا، غدا أمامنا أسطول إيطالى ضخم فى عدده يؤازره سلاح جوى قوى، وقد ظهر لنا الموقف فى بداية الأمر مرعباً، حتى لقد فكرت الأميرالية فى الانسحاب من شرق البحر الأبيض والتجمع حول جبل طارق. وقد قاومت هذه الفكرة، لأنها بغض النظر عن وجود كل ما يؤيدها

نظرياً بسبب وجود الأسطول الإيطالى العارم، لا تلتقى مع إحساسى الخاص بالمثل الكفاحية والحربية. يضاف إلى ذلك أن هذه الفكرة تحكم على جزيرة مالطة بالموت. وتبعاً لآرائى تقرر أن نجابه القتال فى جانبى البحر المتوسط، وكانت التبعات المنوطة بالأميرالية فى ذلك الحين بالغة الأهمية، فخطر الغزو ما زال ماثلاً، مما يستلزم منها إعداد أكبر عدد مستطاع من المدمرات والقطع الصغيرة فى المانش وبحر الشمال.

وكانت الغواصات التى أخذت فى العمل منذ شهر آب من موانئ خليج بسكاى، تفرض ضريبة ضخمة على قوافلنا فى الأطلنطى دون أن تصاب بأية أضرار. وإلى تلك الساعة لم يكن الأسطول الإيطالى قد دخل أية معركة تضعه موضع الاختبار، ولم يكن فى مقدورنا أن نغفل عن احتمال دخول اليابان ميدان الحرب، وما يعنيه هذا الدخول من أخطار تهدد كيان إمبراطوريتنا فى الشرق، فلا غزو والحالة كما نرى أن يستولى القلق على الأميرالية من جراء فكرة المجازفة ببوارجنا فى البحر المتوسط، وأن تتشبث بأهداب الوسائل الدفاعية فى كل من جبل طارق والإسكندرية. أما أنا فقد كنت لا أجد سبباً كافياً لنحول بين هذا العدد الهائل من قواتنا البحرية التى خصصناها فى البحر المتوسط، وبينْ القيام بدور رئيسى منذ البداية. وعلينا أن نرسل الإمدادات الجوية والبحرية إلى مالطة، وبالرغم من أن قوافل نقلنا التجارى قد اتجهت إلى طريق رأس الرجاء الصالح، وبالرغم من أن البوارج الكبيرة التى تنقل جنودنا إلى مصر تتخذ الطريق نفسه، فإننى لم أكن مقتنعاً باستمرار هذا البحر مغلقاً فى وجوهنا. وقد طمعت فى أن يكون اختراق قوافلنا لهذا الطريق وسيلة لاستثارة الأسطول الإيطالى وجره إلى معركة نختبر فيها قوته. وكانت رغبتى تتلخص فى أن يجرى كل هذا ويتم إمداد مالطة بالحامية وبالمعدات والطائرات والمدافع المضادة قبل أن يقدم الألمان إلى هذا الميدان، وهو أمر كنت أعمل حسابه. وقد أمضيت أشهر الصيف فى مباحثات هادئة ولكنها جادة مع

الأميرالية حول هذا الاتجاه فى نشاطنا الحربى.

وبالرغم من ذلك فقد فشلت فى إقناع الأميرالية بأن تمخر الوحدة المدرعة أو سياراتها على الأقل عباب البحر المتوسط، فاستمرت كل قوافلنا تدور حول رأس الرجاء الصالح. وقد أسفت لهذا الموقف بل غضبت منه، ولم تحدث أية واقعة خطيرة فى مصر وبقينا ممسكين بالرغم من وجود سلاح الطيران الإيطالى بزمام المبادرة، كما ظلت مالطة فى مقدمة الحوادث كقاعدة أمامية لشن هجومنا على المواصلات الإيطالية مع القوات المرابطة فى إفريقيا.

ويظهر أن القلق الذى اعترانا من غزو إيطاليا لمصر كان ـ كما بدا لنا الآن ـ أقل من القلق الذى أحاط بنفس الماريشال غرازيانى قائد الغزو، فقبل بضعة أيام من الموعد المتفق عليه طلب الماريشال تأجيله شهراً كاملاً فرد عليه موسولينى مهدداً بالإقالة من منصبه إذا لم يبادر بالهجوم يوم الإثنين، فرد الماريشال عليه بأنه سيمتثل للأمر. وكتب تشيانو فى مذكراته «ولم يحدث أبداً أن وقعت عملية حربية مثل هذه رغماً عن مشيئة قائدها».

وبدأت القوات الإيطالية زحفها الرهيب على الحدود المصرية فى ١٣ آب مكونة من ست فرق مشاة، وثمانية أفواج من الدبابات. وكانت جيوشنا المواجهة تتألف من ثلاثة أفواج من المشاة وفوج من الدبابات وثلاث بطاريات وسريتين من السيارات المدرعة. وقد أصدرنا إليها أمراً بالاشتباك مع العدو فى قتال انسحابى، وهى طريقة تجيدها قواتنا لما تتسم به من شجاعة، ولما اكتسبته من خبرات فى حرب الصحراء. وبدأ الهجوم الإيطالى بفتح نيران المدفعية على مراكزنا قرب مدينة السلوم على الحدود، وعندما انكشف الغبار والدخان، تجلت القوات الإيطالية مصطفة فى نظام بديع. ففى المقدمة راكبو الدراجات النارية فى تنظيمات متقنة تمتد من الجناح إلى الجناح، ومن المقدمة إلى المؤخرة، وتليهم الدبابات الخفيفة ثم عدد من السيارات المصفحة فى صفوف منتظمة أيضاً. وعلق ضابط بريطانى على هذا المنظر فقال إنه

كان أشبه بحفلة عيد ميلاد فى الوادى الفسيح فى الدرشوت. وأسرع فوج حرس غولد ستريم الثالث الذى كان أمام الجيش المغير بالانسحاب بينما تقاضت مدفعيتنا ضريبتها من هذه المائدة المعروضة أمامها بسخاء.

وتحرك إلى الجنوب فوجان كبيران من أفواج العدو عبر الصحراء المكشوفة جنوبى الروابى الممتدة بمحاذاة البحر، والتى ليس فى المقدور اختراقها إلا عند «حلفايا» أو ما يعرف «بممر نيران جهنم»، وهو ممر أدى دوراً فعالاً فى معاركنا المقبلة كلها. وكان كل فوج منهما يتكون من عدة مئات من السيارات تساندها الدبابات والمدافع المضادة لها والمدفعية التى تظهر فى المقدمة، ثم المشاة فى الوسط، حيث تقلهم السيارات، وكنا نسمى هذا التنظيم الذى شاهدناه كثيراً باسم «القنفذ» وأمام هذا العدد الهائل تراجعت وحداتنا مستغلة كل فرصة لتغير على العدو الذى بدت الحيرة والاضطراب فى كل تصرفاته. وقد قال غرازيانى فيما بعد أنه غير خطته فى الآونة الأخيرة التى كانت تعتمد على القيام بتطويق صحراوى إلى «تركيز القوات جميعاً فى الجناح الأيسر، ثم شن هجوم صاعق كالبرق على طول الساحل فى اتجاه سيدى برانى». وعلى هذا الأساس زحفت الجموع الإيطالية الضخمة إلى الأمام ببطء فى خطين متوازيين على الطريق الساحلى، وكانوا يحشدون للهجوم مجموعات من المشاة تنقلهم السيارات، تتقدم نحو الأمام فى وحدات عدد كل منها حوالى خمسين جندياً، واستمر حرس غولد ستريم فى انسحابه وعلى مهل لمدة أربعة أيام من السلوم إلى مواقع متلاحقة، منزلاً بالعدو الأضرار الفادحة أثناء انسحابه.

وعسكرت القوات الإيطالية فى سيدى برانى يوم ١٧ أيلول، وبلغت خسائرنا أربعين رجلاً بين قتيل وجريح، بينما نزل بالعدو من الأضرار ما يقدر بعشرة أضعاف هذا العدد، فضلاً عن تدمير حوالى مائة وخمسين سيارة. ورأى الإيطاليون بعد أن امتدت بهم سبل المواصلات ستين ميلاً

أخرى، أن يجمعوا قواهم وأن يرابطوا فى مكانهم الأشهر الثلاثة القادمة، ولكنهم لم يعفوا من الهجمات المستمرة التى كانت تشنها جماعاتنا الصغيرة المتحفزة، وقد واجهوا أقصى المتاعب بشأن مستلزمات الصيانة، وكان موسولينى فى بداية الأمر قد «اهتز سروراً»، ولكن لما بلغت الأسابيع شهوراً بدا زهوه يخف فتأكدنا فى لندن أننا فى الشهرين أو الثلاثة القادمة سنواجه قوات إيطالية هائلة أضخم من كل ما نقدر على تجنيده لتواصل التقدم بغية احتلال الدلتا. وهناك - أيضاً - تهديد الخطر الألمانى فقد يدهمنا فى أية لحظة، ولم يكن بالطبع يدور بخلدنا أن فترة التوقف لزحف غرازيانى ستطول إلى هذه المدة كما دار بخاطرنا احتمال حدوث معركة حاسمة فى مرسى مطروح، وهو شىء معقول فى وسط هذه الظروف. وقد استطعنا أن نستغل هذه المدة، فوصلت دباباتنا الثمينة التى دارت حول رأس الرجاء الصالح، دون أن يسبب لنا طول مدة دورانها أية خسائر.

وعندما أرجع بذاكرتى إلى كافة هذه المشقات، أتذكر قصة الرجل العجوز الذى حانت منيته فباح على فراش الموت بأنه واجه فى حياته كثيراً من المتاعب، بينما لم تكن فى حياته أية متاعب.

وأرى أن هذه القصة تنطبق تماماً على الحالة التى مررت بها فى أيلول عام ١٩٤٠. فلقد انهزم الألمان فى غاراتهم الجوية على بريطانيا ولم تحدث أية محاولة لغزونا من البحر. ثم تحول هتلر بعد ذلك بنظراته النهمة إلى الشرق، وعوق الغزو الإيطالى لمصر، ووصلت وحدة الدبابات التى أرسلناها عن طريق رأس الرجاء الصالح فى موعدها المناسب، لا لتشترك فى معركة دفاعية عن مرسى مطروح، بل لتخوض عملية أخرى كانت أكثر نفعاً وأعظم فائدة.

وقد وفقنا إلى الوسائل المطلوبة لتعزيز الدفاع عن مالطة قبل أن يحاول الإغارة عليها أحد. وفى كل مراحل هذه الفترة جبنت كل القوى عن التعرض لهذا الحصن البحرى. وعلى هذا النحو مضى شهر أيلول.

وأخذ موسولينى - الآن - يقوم بحركة جديدة كانت فى مجال احتمالاتنا. وقد أثارت لنا، نظراً لمشاكلنا العديدة، كثيراً من الصعوبات المفاجئة، والنتائج البالغة الأثر بالنسبة لميدان الحرب فى البحر الأبيض المتوسط. فقد أصدر الدوتشى أوامره بشن هجوم على اليونان فى ١٥ تشرين الأول ١٩٤٠، وقبيل فجر ٢٨ وجه وزير إيطاليا المفوض إنذاراً حاسماً إلى الجنرال متيكاس رئيس الوزراء اليونانى، يطلب فيه موسولينى فتح الحدود أمام الجيوش الإيطالية، وفى الوقت ذاته زحف الجيش الإيطالى من ألبانيا على اليونان من عدة أماكن، فقابلت الحكومة اليونانية هذا الطلب بالرفض. وكانت جيوشها على أهبة الاستعداد فى الحدود، وطالبتنا بتنفيذ التعهدات التى سبق أن ضمنها لها المستر تشمبرلين فى ١٣ نيسان سنة ١٩٣٩، وكان من الطبيعى أن نحترم وعودنا، وقد رد جلالة الملك استجابة لمشورة حكومته، وبالأصالة عن رغبته العميقة على برقية ملك اليونان قائلاً: «إن قضيتنا واحدة وسنقاتل معاً ضد عدونا المشترك» وأرسلت إلى الجنرال متيكاس فى أثناء ردى على رسالته أقول: «سنبذل من أجلكم كل ما فى وسعنا، وسنحارب العدو المشترك كما سنحرز النصر متحدين». ولقد قمنا بهذه التعهدات بعد قصة طويلة من الكفاح.

ولم يكن فى مقدورنا أن نرسل إلى اليونان بأكثر من بضعة أسراب من الطائرات، وببعثة بريطانية، ومجموعة رمزية من القوات. وعلى الرغم من ضآلة هذه المعاونة فقد كنا نحس بالألم ونحن ننقصها من حساباتنا فى العمليات الحادة الرهيبة التى بدأت تواجهنا فى صحراء ليبيا. ووضحت لعيوننا نقطة استراتيجية بالغة الأهمية وهى كريت، التى يهيب بنا الواجب ألا ندع الإيطاليين يحاولون احتلالها، ولذلك فمن الضرورى أن نحتلها نحن أولاً. وعلى الفور وكان المستر ايدن لحسن حظنا موجوداً فى تلك الأثناء بالشرق الأوسط فتم لى بذلك وجود الوزير الزميل الذى يسعنى تصريف هذا الشأن معه. فأبرقت إليه. وعلى الفور قامت قواتنا بدعوة من الحكومة اليونانية باحتلال خليج سودا، وهو خير موانئ الجزيرة وأكثرها صلاحية.

ولا شك فى أن قصة خليج سودا تثير كثيراً من الأسى، لكن المأساة لم تحدث إلا عام ١٩٤١، ويقينى أنه توفر لى التصرف الكامل لشئون الحرب مثلما توفر لأى رجل مسئول فى أية بلاد غير بلادنا فى ذلك الحين، فقد أدت خبرتى لحقيقة الأشياء، وإيمان زملائى فى وزارة الحرب، وتآزرهم المخلص معى وتعاون جميع زملائى وصلاحية جهازنا الحربى المتطور على الدوام، أدى كل ذلك إلى تركيز جميع السلطات فى يدى. ومع كل هذا فقد كان العمل الذى قامت به قيادة الشرق الأوسط دون ما أمرت به ودون ما كنا نطمع إلى تحقيقه، ولكن لعلنا لم ننس بعد حدود الطاقة الإنسانية، فقد دارت عمليات فى أماكن كثيرة فى وقت واحد. وبالرغم من ذلك فإنه ما زال يحيرنى حتى الآن عجزنا عن أن يكون خليج سودا هو الحصن البرمائى لكل ما تمثله قلعة بحرية مثل جزيرة كريت.

كان هجوم إيطاليا على اليونان من ألبانيا، صفعة جديدة للدوتشى، فقد اندحر الهجوم الأول بعد أن تكبد أضراراً جسيمة، ومن ثَمَّ قام اليونانيون على الفور بهجوم مضاد، وأظهر الجيش اليونانى تحت قيادة الجنرال باباغوس ضروباً من المهارة الفائقة فى حرب الجبال فتفوق على عدوه فى مجال المناورة وحركات الالتفاف. ولم تأت نهاية العام حتى كانت بسالته قد حملت الإيطاليين على الانسحاب إلى مسافة ثلاثين ميلاً على طول الجبهة، خلف حدود ألبانيا. واستطاعت ست عشرة فرقة يونانية فرض عدم التحرك على سبع وعشرين فرقة إيطالية لأشهر عديدة خلف حدود ألبانيا.

وبانتشار أنباء هذه المقاومة الباسلة، دبت الحماسة والشجاعة فى نفوس الدول البلقانية الأخرى، كما انهارت على إثرها سمعة موسولينى. لكن القصة لم تقف عند هذا الحد. . فقد عاد إيدن إلى وطنه فى تشرين الثانى، وقدم فى الليلة نفسها ليرانى بعد بداية الغارات الجوية المعتادة. وكان يطوى سرّاً حرص ألا يبوح به لأحد، وكنت أود لو عرفته من قبل، وتحدث إيدن كثيراً لى

ولبعض صحبه المختارة ومنهم رئيس أركان حرب الإمبراطورية، والجنرال اسماى. وشرح بالتفصيل مشروع خطة هجومية وضعها الجنرال ويفل والجنرال ويلسون، تقضى بألا نظل فى أماكننا بمرسى مطروح ننتظر الهجوم الإيطالى المترقب - وقد أعددنا لصده كل الوسائل الدفاعية الممكنة - بل نبادر نحن فى خلال شهر أو نحوه بشن هجوم على العدو.

وانتشينا لهذا النبأ المثير، فقد وقعنا على عمل يستحق التنفيذ. وأخذنا القرار فوراً بعد أن صدق عليه رؤساء أركان الحرب، ووزراء الحرب - بالموافقة على الخطة وإعداد كل مستلزماتها. وكنت مستعداًّ عندما عرضت الخطة على وزارة الحرب لتوضيح الأمور، ولكن عندما بلغ الزملاء أن قادة الميدان العسكريين، ورؤساء أركان الحرب قد تم اتفاقهم معى، ومع المستر إيدن بهذا الصدد، آثر الزملاء عدم الاطلاع على تفاصيله، حيث رأوا خيراً له وأبقى أن تظل معرفته بين عدد محدود. وأعلنوا تأييدهم التام لفكرة الهجوم بصورة عامة، وكان هذا التصرف مثالاً لتصرفات عديدة قامت بها وزارة الحرب فى عديد من المناسبات. وإنى لأبادر بتسجيله هنا ليكون سابقة تحتذى فيما إذا تعرضنا فى المستقبل لظروف مماثلة.

وقد جد تحسن واضح فى موقف قواتنا فى البحر الأبيض المتوسط بالرغم مما يبدو من تفوق الأسطول الإيطالى على أسطولنا المرابط هناك فى عدد جنوده ومن الناحية النظرية. وقد استطاعت البارجة "فاليانت" وحاملة الطائرات المدرعة «ايلستريوس» وطرادان مضادان للطائرات اختراق البحر الأبيض المتوسط فى سلام، وتعضيد قوات الأميرال كينجهام فى الإسكندرية. وقد ظلت هذه القوات تحت مراقبة سلاح إيطاليا الجوى، ومعرضة لهجماته.. لكن.. «الايلستريوس» بطائراتها الحديثة المحاربة، وجهاز رادارها الجديد وبدورياتها المقاتلة وطائراتها المغيرة تمكنت من أن تضفى صفة السرية على تنقلاتنا، وكانت هذه الصفات الممتازة قد جاءت فى الوقت

الذى نريد.

وكان الأميرال تستبد به الرغبة منذ زمن بعيد إلى إنزال ضربة قوية بالأسطول الإيطالى المرابط فى قاعدته الرئيسية فى تورنتو. وقد وقع الهجوم فى ١١ تشرين الثانى كقمة لعمليات حربية متتابعة وشديدة الإحكام، وتقع تورنتو فى كعب إيطاليا فتبعد عن جزيرة مالطة حوالى ثلاثمائة وعشرين ميلاً، وميناؤها البديع محصن تماماً ضد كافة ألوان الهجوم الحديثة. وبوصول بعض طائراتنا الاستكشافية السريعة إلى مالطة استطعنا أن نحدد بالضبط مكان الفريسة، وبعد الغسق بقليل أطلقت طائرات «الايلستريوس» من مسافة يبلغ بعدها مائة وسبعين ميلاً عن تورنتو، واحتدم القتال زهاء ساعة بين الحرائق المشتعلة والدمار الذى نزل بقطع الأسطول الإيطالى، وبالرغم من قوة نيران المدافع المضادة فإن ما لحق بنا من أضرار لم يزد عن طائرتين سقطتا فى البحر، أما بقية الطائرات فقد عادت إلى قواعدها سالمة.

وبهذه الضربة القوية تبدل ميزان القوة البحرية فى البحر الأبيض بصورة نهائية. فقد أوضحت الصور الجوية أن بوارج ثلاثاً من بينها البارجة الحديثة «ليتوريو» قد أصيبت كما أصيب طراد آخر، حلت بظهره أضرار فادحة. وهكذا أصبح نصف الأسطول الإيطالى على الأقل عاجزاً عن الحركة لمدة ستة أشهر. وكان فى مقدور سلاح الأسطول الجوى أن يهتز طرباً لاستطاعته بهذه المجازفة الرائعة استغلال الفرصة النادرة التى سنحت له.

ولعل من سخرية المقادير، أن كان السلاح الإيطالى - انصياعاً لأوامر موسولينى - فى اليوم نفسه الذى شهد هذه الضربة القاصمة يجرب الهجوم الجوى على بريطانيا العظمى. فقد شاءت قوة من القاذفات الإيطالية تؤازرها حوالى ستين طائرة محاربة الهجوم على الحلفاء فى ميدواى، فاشتبكت معها مقاتلاتنا وقضت على ثمانى قاذفات وخمس مقاتلات، وكانت هذه هى التجربة الأولى والأخيرة من جانب إيطاليا بالنسبة للتدخل فى

شئوننا الخاصة. ولا شك فى أنهم عرفوا بعد ذلك أن الدفاع عن أسطولهم فى تورنتو كان خيراً لهم وأبقى.

وأمضت قواتنا التى بات عليها أن تقوم بعملية هجوم الصحراء مدة شهر تقريباً فى تدريبات خاصة، يتطلبها هذا الهجوم المعقد لدرجة كبيرة. ولم يكن أحد يعلم بتفاصيل الخطة سوى عدد قليل جداً من الضباط، كما لم يحرر شىء خاص بها على أية ورقة، وفى السادس من كانون أول زحف جيشنا المدرع بخمسة وعشرين ألف جندى.. كل منهم لوحت وجهة شمس الصحراء وتركت على عوده صلابة طبيعتها الصارمة، فاشتد عوده وانفتلت عضلاته، زحف الجيش بهم مسافة أربعين ميلاً ثم اختفى فى الصحراء عن عيون السلاح الجوى الإيطالى. وفى الثامن من الشهر نفسه استأنف زحفه الجرىء وفى تلك الليلة، قيل للجنود، للمرة الأولى، أنهم الآن لا يمارسون تدريباً صحراوياً، ولكنهم يقومون بعملية حية. وفى فجر ٩ كانون أول بدأت معركة سيدى برانى، ولا أجد داعياً للكتابة عن تفاصيل القتال الكثيرة والدقيقة معاً، الذى ظل يدور فى خلال الأيام الأربعة التالية على أرض واسعة تكاد تماثل مقاطعة يوركشارير بكل اتساعها. ومر كل شىء فى نظامه الذى قدرته الخطة الموضوعة. وتواصلت المعركة طيلة اليوم العاشر، وفى الساعة العاشرة أبرقت قيادة فوج حرس جولد ستريم تقول إنه تعذر عليها إحصاء عدد الأسرى لكثرتهم البالغة، ولكن ثمة «ما يملأ خمسة أفدنة من الضباط ومائتى فدان من الجنود» وكانت تصلنى فى داوننج ستريت أنباء القتال لحظة بعد أخرى. وكان من الصعب على أن أستوعب ما يحدث، ولكن الموقف كان يملأ شعورى بالرضا والارتياح. وقد لفتت نظرى إشارة من ضابط شاب كان يقود دبابة بالفرقة المدرعة السابعة قال فيها: «لقد وصلت إلى يقبق» وتم الاستيلاء على سيدى برانى فى اليوم العاشر بعد الظهر وفى ١٥ كانون أول كان جيشنا قد نفى عن أرض مصر تماماً جميع القوات المعادية وكانت

البردية غايتنا الثانية، وفى محيطها الذى يبلغ سبعة عشر ميلاً، الجزء الأكبر من أربع فرق إيطالية أخرى، وتتكون الخطوط الدفاعية عنها من خندق ممتد لمقاومة الدبابات وراءه أسلاك شائكة تستند إلى بيوت من الأسمنت المسلح قائمة هنا وهناك، يكمن وراء خط آخر من الحصون. وكان اجتياح هذا الحصن يستلزم عدداً كبيراً من المقاتلين. ولإتمام الحديث عن انتصارنا فى الصحراء، أرى أن أستمر فى سرد أحداث السنة الجديدة، ففى ٣ كانون ثانٍ استطاعت فرقة أسترالية تحت حماية المدفعية الشديدة انتزاع موقف لها فى القطاع الغربى، وبدأ مهندسونا محتمين بالأستراليين يغلقون الخندق المضاد للدبابات، واستمرت كتيبتان استراليتان فى الإغارة الناجحة فى اتجاه الشرق والجنوب الشرقى، وفى خلال زحفهم كانوا يتغنون بلحن من ألحان الأفلام الأميركية، نال شهرة فى تلك الآونة فى سائر البلاد حتى فى بريطانيا أيضاً، وهو يتعلق «بساحر أوز». وعندما أصغى إلى هذا اللحن اليوم تطوف بى ذكريات تلك الأيام المفعمة بالأحداث. واستطاعت الدبابات البريطانية بعد ظهر ٤ كانون ثانٍ اقتحام البردية تؤازرها قوة من المشاة، واستسلمت حاميتها فى ٥ من الشهر نفسه، وكان عددهم خمسة وأربعين ألفاً أسروا جميعاً، كما استولت قواتنا على ٤٢٦ مدفعاً.

وفى اليوم التالى أى ٦ كانون ثانٍ تم حصار مدينة طبرق، ولم يكن فى المستطاع مهاجمتها قبل ٢١ كانون ثانٍ، ولكنها استسلمت فى صباح اليوم التالى. وانتهت مقاومتها وغنمنا فيها ٢٣٦ مدفعاً عدا ثلاثين ألفاً فى الأسر. وهكذا استطاع جيش الصحراء فى ستة أسابيع أن يزحف مائتى ميل فى أرض جرداء خالية من الماء والزراعة، واستطاع الاستيلاء على ميناءين قد حصنا تحصيناً كاملاً ضد البر والبحر والجو، وأسر (١١٣) ألفاً، واستولى على أكثر من سبعمائة مدفع، وتهاوى الجيش الإيطالى الضخم الذى كان قد زحف على مصر، وداعبته الآمال فى الاستيلاء عليها، وسقط من الحساب

كقوة عسكرية. وكانت مصاعب التموين والامتداد الهائل للمسافات هى الأسباب الرئيسية لتأخير زحف قواتنا نحو الغرب.

وهكذا، كان العام يقترب من نهايته، والصورة أمامنا تتنازع جوانبها مختلف الأضواء والظلال فى وقت واحد. فنحن لم نزل أحياء، وقد استطعنا إنزال الهزيمة بالسلاح الجوى الألمانى، ورددنا الغزاة من بلادنا مدحورين. وأصبح جيشنا فى الوطن فى منتهى القوة والتفوق. ولم تستطع كل المحن أن توهن من عزيمة لندن الصامدة، وبدأنا نسيطر تماماً على سماء جزيرتنا بكافة الإمكانيات. لكن همسات الشيوعيين القذرة خضوعاً لأوامر موسكو ظلت تتردد على الأسماع، عن الحرب الاستعمارية الرأسمالية، ثم تموت على شفاههم، فالمصانع تفيض بالحيوية، والشعب بأكمله يعمل ليل نهار، وقد ارتفعت روحه المعنوية، وتدفق فى كيانه إحساس بالارتياح والاعتزاز، وبدأ نصرنا النهائى فى صحراء ليبيا قريباً، كما بدأت الولايات المتحدة تقترب شيئاً فشيئاً من واجبها الحقيقى وهو الاشتراك الفعال معنا.

وفى مقدورنا أن هذه السنة المجيدة نادرة بمكاسبها، كما كانت مروعة بأحداثها، ولعلها أروع وأرهب السنين فى تاريخ إنكلترا بأكمله.. فلقد حطمت بريطانيا العظمى بمهارتها الخاصة الأرمادا الإسبانية، وخاضت غمار الصراع الذى استمر زهاء خمسة وعشرين عاماً، والذى خاضه ويليام الثالث ووزيره مارلبورو ضد لويس الرابع عشر، فظلت طيلة هذه المدة تشتعل فى صدرها حمية العزيمة والإصرار، كما اقتحمنا حلبة الصراع ضد نابليون. وكنا ندين ببقائنا لسيطرة الأسطول البريطانى على البحار، بفضل القيادة الماهرة لنيلسون ورفاقه، كما قتل مليون بريطانى فى الحرب العالمية الأولى.. ولكن كل هذه المحن التى ذقنا أهوالها لم تكن شيئاً بجانب ما قاسينا فى عام ١٩٤٠.

وبرغم ذلك لم تأت نهاية العام حتى كانت الدنيا تشد هذه الجزيرة الصغيرة العريقة، بجميع شعوبها المؤمنة بها، وبممتلكاتها المستقلة، وعلاقاتها

الناجحة تحت كل سماء، وقد أكدت أنها قادرة على تحمل كل ما يأتى بمصير العالم من أعباء وتبعات. ولم يعرف الضعف والتحير سبيله إلينا. بل ظلت روح الشعب البريطانى، والعنصر البريطانى فى قوة لا تغلب، وبرهن حصن جامعة الشعوب البريطانية والإمبراطورية على أنه لا سبيل إلى اقتحامه. وقررنا وحدنا ـ بتأييد كل القلوب الكريمة الطيبة ـ أن نتحدى الطاغية وهو فى قمة غروره وانتصاراته.

واستيقظت الآن جميع طاقاتنا الفعالة، فقد تمت سيطرتنا على الإرهاب الجوى، وأصبحت الجزيرة حصناً لا يمس ولا يمكن تدنيسه، ومنذ الآن سيتوافر لنا السلاح. ومنذ الآن سنكون نحن جهازاً حربياً ماهراً، فقد عرف العالم كله أننا نعرف كيف نصمد، فثمة نظرتان لموضوع السيطرة الهتلرية على العالم، فبريطانيا التى كان لا يعبأ بها الكثيرون، ما زالت فى الميدان، أضخم مما كانت عليه فى أى زمن مضى، وهى يوماً بعد يوم تزداد قوة وصلابة، وها هو عامل الزمن يتحرك ثانية إلى صفنا ويدعم مصالحنا، لا أقصد مصالحنا القومية فحسب، فأميركا تدعم أسلحتها بصورة عاجلة، وتقترب شيئاً فشيئاً من حلبة الصراع وروسيا السوفييتية ـ التى أصدرت حكمها الخاطئ علينا بعدم الصلاحية، والتى تساومت مع ألمانيا لتكسب مناعة عابرة وتحصل على نصيب من الغنائم ـ أخذت الآن تستكمل وقوتها واستطاعت غرس أقدامها فى مواقع أمامية لتؤمن على نفسها. أما اليابان فربما تكون فى هذه الفترة فريسة شعور جارف بالخوف من استمرار الحرب. وهى تنظر بقلق إلى روسيا وإلى أميركا وتقوم بدراسات واسعة لما تعتقد أنه سيكون فى صالحها، ومتفقاً مع دواعى العقل والحكمة. وها هى بريطانيا بعلاقاتها الدولية الشاملة التى ظهرت وكأنها على حافة الدمار، والسيف المصلت يكاد أن يمزق أحشاءها تظل صامدة خمسة عشر شهراً. وقد وجهت كل جهودها للإعداد الحربى، تدرب الرجال وتحشد للمعركة كل

ما لديها من كفاءة وجهود، ونظرت الدول الصغيرة المحايدة والدول المستعمرة إلى السماء، فرأت فيها نجوماً لا تزال متألقة فهزتها الدهشة والسعادة معاً. واستيقظ الرجاء والعطف معاً فى قلوب مئات الملايين من البشر، فستنتصر قضية الخير، ولن يذهب الحق هباء تحت أقدام الطغاة، وستظل راية الحرية ـ التى يمثلها فى ذلك الحين علم بريطانيا ـ عالية خفاقة مهما عصفت الرياح واشتدت الأنواء.

أما من ناحيتى أنا وزملائى الأوفياء، الذى نحيا فى ذروة الصورة، تصلنا أدق المعلومات عن كل شىء، فقد نازعنا كثيراً القلق، وانتابتنا الهموم، فما زال خطر حصار الغواصات ماثلاً، وعلى القضاء على هذا الخطر تستند كل خططنا، وقد خسرنا معركة فرنسا، ولكنا ربحنا معركة بريطانيا، وكان علينا فى ذلك الحين أن نخوض غمار معركة الأطلنطى.



الفصل الثانى عشر

الحرب المتسعة

توثقت صلتى مع الرئيس روزفلت مع بداية السنة الجديد، وكنت قد أرسلت إليه تهنئتى بمطلع العام الجديد، وفى ١٠ كانون الثانى ١٩٤١ حضر إلى داوننج ستريت إنسان لطيف ومعه أوراق الاعتماد يرغب فى لقائى. وكانت البرقيات من واشنطن قد أخبرتنا أن هذا الرجل يعتبر ممثلاً خاصاً موثوقاً به للرئيس. ومن أجل هذا فقد رغبت أن يستقبله السيد براندن براكن فى المطار. وفى اليوم التالى دعوته لنتناول الغداء معاً، وكذا التقيت بالرجل القدير هوبكنز الذى أدى دوراً مهمّاً فى جميع شؤون الحرب. وكان روحاً نابضة بالحيوية فى جسد نحيل واهن، وكان منارة تكاد أن تهوى، ولكنها ترسل ضوءها الساطع الذى يهدى الأساطيل الضخام إلى مرساها الأمين. وكان يتسم بروح من الدعابة الساخرة، وكثيراً ما رغبت فى صحبته وخصوصاً عندما يسوء الموقف، ولقد كان فى مقدرته - أيضاً - أن يتخلى عن الرقة والدماثة وأن ينطلق فى كلمات قلبية جارحة، وكانت خبراتى قد هدتنى إلى أن أكون واحداً من هذا النوع عندما تحتم الظروف.

ودام اجتماعنا الأول ثلاث ساعات، وبسرعة توصلت إلى مميزات شخصيته الديناميكية. وما يتعلق بها من المهام. وكنا فى أقسى فترات الهجوم على لندن، بينما تنهال علينا المتاعب من الداخل كذلك ولكن تبين لى أن هذا الرسول الخاص من الرئيس، ذو أهمية عظيمة لحياتنا ومصيرنا، وقال لى وعيناه تتألقان والهدوء والتحفظ يغلف حديثه: إن الرئيس مصمم على أن نكسب الحرب معاً فأرجو أن لا تخطئ فى تفهم حديثى حين أقول:

«لقد أرسلنى هنا لأخبرك بأنه مهما تفاقم الثمن، وأياً كانت الوسيلة، فسيظل يؤازركم حتى النصر، وبالرغم من أى مصير شخصى يواجهه، فلن يتوانى عن تقديم كل عون فى وسع الطاقة البشرية أن تقدمه حتى تبلغوا غايتكم».

ولا شك فى أن كل من عرف هارى هوبكنز فى مدى سنى الحرب يرسم الصورة التى قدمتها عن شخصيته. ومنذ التقينا بدأت تنمو الصداقة بيننا، وتسمو على كل الانفجارات والزلازل، ولقد كان أضمن وأقرب وسيلة للاتصال بالرئيس، فلقد ظل هذا الرجل لسنوات عديدة موضع السر والثقة للرئيس روزفلت، وباعث الأمل الذى يحفزه ويشجعه. واستطاع هذان الرجلان - وأحدهما مساعد بدون منصب رسمى، والآخر يتولى مهام منصب الرئاسة - اتخاذ القرارات ذات النتائج الخطيرة بالنسبة لكافة البلاد التى تتحدث اللغة الإنجليزية. وكان هوبكنز بكل تأكيد يحتفظ بنفوذه الشخصى على الرئيس ولذلك لم يكن يتيح الفرصة لظهور أى منافس له فى صفوف الأميركيين. ولقد يصدق عليه قول الشاعر جراى: «إن المقرب لا صديق له»، ولكن هذا لا يهمنى، فها هو يبدو أمام عينى نحيلاً هزيلاً واهناً، ولكنه ينبض بالفهم العميق لمشاكلنا. ومحور هذه المشاكل كما يتفهمها يتلخص فى اندحار هتلر وتدميره وذبحه فضلاً عن عدد آخر من الأمانى والأهداف. ولا شك فى أن تاريخ أميركا لم يعرف الكثيرين من طراز هذا الرجل النادر الفياض بالإخلاص.

وكان هارى هوبكنز يستشف دائماً أعماق القضايا، ويصل إلى جذورها. وقد حضرت عدداً من المؤتمرات التى كان يشهدها حوالى عشرين أو أكثر من الشخصيات الكبيرة صاحبة السلطة. وعندما تمتد المحادثات وتتهادى، ويصل الكثيرون إلى طريق الصواب، كنت أجد هوبكنز يسأل الرئيس دائماً بصراحة وعناد: «حسناً يا سيدى الرئيس... هذه هى المسألة التى تحتاج إلى حلنا وإقرارنا، فهل نحن أولاً على أهبة الاستعداد لمواجهتها؟» والنتيجة الضرورية لذلك هى مواجهة المشكلة، ومعنى ذلك حلها والسيطرة عليها، لقد كان قائداً

عظيماً للرجال، ولم يكن أحد فى مقدوره التفوق على حماسته وحكمته حين الأزمات، وكان ولاؤه للضعفاء والفقراء يسير جنباً إلى جنب مع مقته الشديد للطغيان، ولا سيما عندما يبدو هذا الطغيان فى موقف المنتصر.

واستمر الهجوم الجوى المدمر علينا بكل مناورته، مع تغير يسير، فقد تأكد هتلر أنه عاجز عن سحق بريطانيا بغاراته الجوية المباشرة، وكان هذا الفشل هو الهزيمة الأولى التى ذاق مرارتها. ولم تنجح هجماته الوحشية فى تحويل الشعب وحكومته إلى موقف الخضوع. وأخذ الإعداد لغزو روسيا فى مطالع صيف سنة ١٩٤١ يستأثر بالكثير من قوة ألمانيا الجوية، ولم تكن الهجمات الكثيرة القاسية التى شنت علينا حتى أواخر شهر آيار تمثل كل ما لديه من قوات وبالرغم من أنها سببت لنا الكثير من المتاعب والمآسى، فإنها لم تكن على جانب كبير من اهتمام القيادة العليا الألمانية أو الفوهرر، بل كان استمرارها على بريطانيا العظمى فى تقدير الفوهرر تمويهاً ضرورياً ومناسباً ليخفى استعداده ضد روسيا.

وكانت آماله الواسعة تخيل إليه أن السوفييت كالفرنسيين سينهارون خلال ستة أسابيع. وأن كافة القوات الألمانية ستكون محتشدة لتوجيه ضربة قاضية لبريطانيا فى خريف ١٩٤١. وفى خلال ذلك سيسأم الشعب من عناده. وتستنفد قواه، بفضل حصار الغواصات والغارات الجوية البعيدة المدى أولاً، ثم من الهجمات الجوية على مدنه ومرافقه ثانياً. وقد استبدلت عملية «سبع البحر» بالنسبة لبريطانيا، عملية «باربا روسا» بالنسبة لروسيا، بالنظر إلى الجيش الألمانى. أما بالنظر إلى الأسطول فقد تلقى تعليمات بأن يركز اهتمامه على طرق مواصلاتنا عبر الأطلنطى، كما أمر السلاح الجوى بالتركيز على موانينا والمداخل الموصلة لها، وكانت هذه الخطة أبعد ضرراً من الهجمات المتفرقة العمياء على لندن وأهلها الآمنين. ومن يمن الطالع بالنسبة لنا أن الألمان لم يستمروا فى تنفيذها بكل ما تبقى لديهم من قوات، وبرغبات

حازمة، وأفسد سوء الأحوال الجوية فى شهرى كانون الثانى وشباط خطط العدو، وإذا استثنينا الغارات التى شنها على كارديف وبورتسماوث وسوانس، فإن قوات دفاعنا المدنى قد وجدت الفرصة للراحة المناسبة. ولكنها لم تضعها هباء بل استغلتها كاملة، وعندما تحسنت الأحوال الجوية، شن الهجوم القاسى ثانية، وأخذ السلاح الجوى الألمانى فى شهر آذار فى تنفيذ ما عرف حينئذ «بالتجول على الموانئ». وكانت غاراته فردية أو مزدوجة، ومع خطورتها الشديدة فقد فشلت فى إيقاف الحركة بموانئنا. وتعرضت بورتساموث فى ٨ آذار، مدى ثلاث ليال متوالية لهجوم شديد الوطأة أنزل بأرصفتها خسائر فادحة، وشن هجوم على مانشستر وسالفورم فى يوم ١١ وفيما تلا من الليالى وفى ١٣ و ١٤ قامت الطائرات الألمانية بغارة شديدة على «كلايد» للمرة الأولى، فقتلت وجرحت ما يزيد على ألفى شخص. وظلت أحواض السفن متعطلة عن العمل حتى شهر حزيران. ولم تنزل أقسى الضربات إلا فى شهر نيسان، حيث كانت كوفنترى، فى ٨ منه هدفاً لنيران حامية. أما فى سائر الأيام فقد نزلت أفدح الخسائر ببورتسماوث، وشنت على لندن هجمات قاسية فى ١٦ و١٧ فقتل أكثر من ألفين وثلثمائة إنسان، وأصيب ما يزيد على ثلاثة آلاف بجراحات بالغة، واستمر العدو فى محاولته التدميرية لموانئنا الهامة بغارات قد تستمر فى بعض الأحيان أسبوعاً بأكمله. وتهدمت مدينة بريستول، واستمرت الغارة على بلايموث بين ٢١، ٢٩ نيسان، وبالرغم من أن الحرائق الخادعة قد أسهمت فى إنقاذ الأرصفة والأحواض، إلا أن إنقاذ ذلك كان على حساب المدينة. وبلغ الهجوم غايته فى أول آيار عندما أغير على ليفربول وميرسى سايد سبع ليال متواصلة، فأصبح سبعة وستون ألف إنسان بلا مأوى، وقتل وجرح حوالى ثلاثة آلاف شخص، وتعطل عن العمل تسعة وستون ملاذاً من ملاذات البواخر التى يبلغ مجموعها مائة وأربعاً وأربعين، وأصبحت الحمولة التى يمكن تفريغها منخفضة إلى الربع. ولو استمر العدو فى هجماته علينا، لغدت معركة الأطلنطى بالنسبة لنا شاقة للغاية، ولكنه كان

قد عاد أدراجه، وقصف مدينة «هل» لمدة ليلتين متتاليتين بنيرانه الحامية وقد دمرت قنابله المتفجرة والحارقة مساكن أربعين ألف مواطن، ونسفت مخازن الأغذية، وأصابت الأعمال الهندسية البحرية بالشلل لمدة شهرين كاملين. وفى هذا الشهر أيضاً شن هجوماً على «بلفاست» التى سبق له الهجوم عليها مرتين قبل ذلك.

وكانت آخر الغارات أسوأ من سابقتها، ففى ١٠ آيار عاد العدو إلى لندن بقذائفه المحرقة التى أضرمت أكثر من ألفى حريق، ودمرت حوالى مائة وخمسين أنبوباً ضخماً للمياه، حدث ذلك أثناء المد الأدنى لنهر التايمز فصعب إصلاحها، وفى الساعة السادسة من صباح اليوم الثانى كانت نيران مئات الحرائق ما زالت متأججة، وقد عز القضاء عليها، وحتى ليلة ١٣ كانت لا تزال أربع منها مشبوبة النيران، وقد لحق الضرر بخمسة أرصفة، وحدثت إحدى وسبعون إصابة كان عدد المصانع من بينها يبلغ النصف على الأقل. وتعطلت لمدة أسابيع محطات السكك الحديدية سوى محطة واحدة رئيسية. وظلت الطرق فى حالة غير طبيعية حتى أوائل حزيران، وسقط أكثر من ثلاثة آلاف شخص بين قتيل وجريح، وتعتبر هذه الغارة من زاوية أخرى تاريخية، فقد نسفت مجلس العموم وأحدثت قنبلة واحدة أضراراً فادحة يحتاج إصلاحها إلى عدد من السنين. وحمدنا حسن الحظ لأن أحداً من أعضاء المجلس لم يكن بالقاعة، وأسقطت مدفعيتنا وطائراتنا المحاربة بدورها ست عشرة طائرة مغيرة، وهو أكبر عدد تكبده العدو أثناء غاراته الليلية.

وكانت هذه الغارة - دون أن ندرك ذلك فى حينه - آخر غارات العدو علينا، ففى ٢٢ آيار تحول كيسلرنغ بمقر قيادة أسطوله الجوى إلى بوزن، ولم تأت بداية شهر حزيران حتى كانت قوات العدو الجوية بأكملها قد تحولت إلى الشرق. فمرت ثلاث سنوات قبل أن يتحرك دفاعنا المدنى بتنظيماته ليعالج آثار «الهجوم الصغير» الذى شن فى شباط ١٩٤٤، وما تبعه من غارات شديدة

الوطأة بالصواريخ والقذائف الطائرة. وكاد عدد ضحايانا من المدنيين فى الاثنى عشرة شهراً المنصرمة بين حزيران سنة ١٩٤٠، وحزيران سنة ١٩٤١، يبلغ حوالى ٣٨١ و ٤٣ ألف إنسان قتلوا بينما أصيب بجراح خطرة حوالى ٨٥٦ و ٥٠ ألفا آخرين، مما يصل بالمجموع إلى ٢٣٧ و ٩٤ ألف شخص.

إن التفريق بين الأمور العسكرية والسياسة يصبح متعذراً فى الحروب الكبيرة، فكل المسائل فى القمة تصبح واحدة، وطبيعى أن يعتبر الجنود الشئون العسكرية فريدة فى نوعها ومتفوقة فى أهميتها، وأن ينظروا إلى الاعتبارات السياسية نظرة استهزاء وزراية، ولا ريب فى أن كلمة «سياسات» قد لاقت الكثير من الصعوبات، بل صادفت التشويه لاقترانها بالسياسات الحزبية، ولذلك فإن معظم ما كتب عن هذا القرن الفياض بالمآسى تؤثر عليه الفكرة القائلة إنه فى زمن الحرب تؤخذ بكل عناية الاعتبارات العسكرية وحدها، وإن الجنود كثيراً ما تصدم أفكارهم المستتيرة الحرفية تطاولات الساسة، الذين يلعبون بنيران المعارك الفاصلة انسياقاً لمصالحهم الشخصية والحزبية، ولكن العلاقات الدائمة التى شملتها الثقة بينى وبين وزارة الحرب ورؤساء الأركان، واختفاء كل أثر فى بريطانيا للحزبية فى تلك الأثناء، قد قربت وجهات النظر وقللت من سبل الخلاف إلى أدنى حدوده.

وبينما استمر القتال فى شمال إفريقيا الشرقى سائراً فى طريق النصر وبينما ظل اليونانيون يخترقون لهم طريقاً داخل ألبانيا بكل شجاعة، كانت الأخبار التى نستقيها عن تحركات الألمان ورغباتهم تؤكد يوماً بعد يوم أن هتلر يقترب من التدخل فى البلقان والبحر الأبيض على أوسع نطاق، وقد علمت فى بداية شهر كانون الثانى أن وحدة جوية ألمانية قد نزلت بصقلية، وأدركت ما تعنيه هذه التحركات من خطر على مالطة، ومن تهديد للآمال التى راودتنا بشأن إعادة الملاحة فى البحر الأبيض وأصبت بالذعر من جراء انتقال قوات ألمانية وغالباً ما تكون من المدرعات إلى طرابلس، ولم يكن

فى مقدورنا أن نرتاب فى أن خطط الألمان كانت تسعى إلى إيجاد ممر من الشمال إلى الجنوب عبر إيطاليا إلى إفريقيا كما تريد فى الوقت ذاته وبالأساليب نفسها مصادرة تحركاتنا عبر البحر المتوسط شرقاً وغرباً.

وكان الخطر الذى يجابه الدول البلقانية ومن بينها اليونان وتركيا يتجسم أمام عينى فى صورة إغراء أو إرهاب لتنضم إلى إمبراطورية هتلر، فإن لم ترضخ لهذه الرغبة اجتاح حدودها، وبذلك نشهد ثانية الحركة الخطيرة التى رأيناها فى النرويج والدانمارك وهولندة وبلجيكا وفرنسا، فعاد مرة ثانية فى جنوب شرقى أوروبا.

أحقاً... سيحكم على الدول البلقانية بالعبودية واحدة بعد أخرى، ومن بينها اليونان النافحة ثم تعزل تركيا حتى تضطر آخر الأمر إلى فتح أبوابها أمام الجيوش الألمانية الجرارة، فتزحف على فلسطين ومصر والعراق وفارس؟.. ألا يوجد أمل فى تكتيل وحدة بلقانية وجبهة بلقانية، تتقاضى حتى من العدو أفدح الأثمان عن هذا العدوان الجديد، أليس فى الاحتمال أن تكون للمقارنة البلقانية لألمانيا ردود فعل بالغة الأثر توقظ الأمل فى روسيا السوفييتية، لا شك أن فى هذا الميدان تتأثر مصالح الدول البلقانية نفسها، وقد تتأثر المشاعر أيضاً إذا سمح البلقانيون لمشاعرهم أن تتأثر على حسابهم، وهل نقدر بمواردنا المستنزفة والمتزايدة فى الوقت نفسه أن نعثر على المشاركة الخارجية الإضافية التى تسعى لتوحيد هذه الدول المتماثلة للعمل من أجل هدف واحد، أو أن الواجب علينا من ناحية أخرى أن نركز اهتمامنا على أمورنا، وأن نحرز نصراً من حملتنا فى شمال شرق إفريقيا، وأن ندع اليونان والبلقان وتركيا وغير ذلك من بلاد الشرق الأوسط تنزلق نحو هاويتها المنتظرة؟ لا شك فى أن هذا الرأى الأخير يعفى الكثيرين من المتاعب والتفكير، وقد لقى معضدين له فى رسائل كل الضباط الذين كانوا يحتلون مراكز ثانوية، والذين بعثوا بآرائهم، ولا شك فى أن هؤلاء الضباط

قد انتهزوا فرصة الحديث عما حل بنا من أضرار. ولكن معلوماتهم لم تكن كافية ليعرفوا المصير الذى كان ينتظرنا لو سرنا وفق وجهة النظر هذه، ولو استطاع هتلر دون قتال أن يجبر اليونان على الخضوع وأن يرغم جميع الدول البلقانية على طاعته، وأن يفرض على تركيا عبور قواته إلى الجنوب والشمال، ألا نتوقع حينئذ أن يتفاهم مع السوفييت على السيطرة على هذه المناطق الشاسعة وتقسيمها، ثم يقوم بتأجيل موقعته الفاصلة معهم إلى أجل آخر فى حسابه؟ ثم ألم يكن فى مقدوره إذا دانت له كل هذه الرغبات أن يشن هجومه على روسيا بجيوش أكبر وفى ميعاد أسبق؟ وفى الفصول التالية سأحاول التعمق فى بحث سؤال رئيسى وعرضه فى صورة سليمة، ويتلخص هذا السؤال فيما إذا كان ما نفذته الحكومة البريطانية بالغ الأثر بصورة واضحة على تصرفات هتلر فى جنوب شرق أوروبا، وأنه أدى إلى نتائج بعيدة المدى فى نظرة روسيا للأمور أولاً، وفى مصيرها ثانياً؟ وطوال شهرى شباط وأذار كانت تصلنا أخبار طيبة من ميدان الشرق الأوسط، فقد أعد الدفاع عن مالطة فاستطاعت الصمود فى آخر لحظة، لغارة مجتاحة قام بها السلاح الجوى الألمانى عليها من صقلية، واقتربت عملية احتلال الإمبراطورية الإيطالية فى الإريتريا والصومال والحبشة من نهايتها المنتصرة، وفى خلال شهرين استطاع جيش الصحراء أن يستمر فى زحفه إلى مسافة خمسمائة ميل وأن يقضى على جيش إيطالى يربو تعداده على تسع فرق، وسيطر جيش الصحراء على بنغازى ومنطقة برقة بأكملها...

وبالرغم من كل هذا فقد ظلت المسائل المحفوفة بالخطر من دبلوماسية وعسكرية بالغة الأهمية، وكان الجنرال ويفل تتراكم عليه التبعات مما حدا بلجنة الدفاع أن توفد فى ١١ شباط وزير الخارجية والجنرال ديل رئيس أركان حرب الإمبراطورية إلى القاهرة، وطار ايدن من القاهرة إلى أثينا يرافقه ويفل وغيره من الضباط الكبار لإجراء مشاورات مع ملك اليونان وحكومته.

وقرأ المسيو كوريسيس رئيس وزراء اليونان أثناء الاجتماع بياناً تضمن قرارات كان قد انتهى إليها مجلس وزراء اليونان فى اجتماع عقده فى اليومين السابقين، ولأن هذا البيان قد أصبح قاعدة لأعمالنا، فإنى أورد القسم الحيوى منه هنا تاماً! أود أن أؤكد ثانية أن اليونان كحليفة تضمن قرارات كان قد انتهى إليها مجلس وزراء اليونان فى اجتماع عقده فى اليومين السابقين، ولأن هذا البيان قد أصبح قاعدة لأعمالنا مخلصة ستظل ماضية فى القتال بإصرار حتى يتحقق النصر، ولا تقتصر عزيمتها على مناهضة إيطاليا وحدها بل يشمل ذلك أى عدوان ألمانى.. وأياً كان الأمر وسواء كان لليونان نصيب فى صد الهجوم عن مقدونيا أم لم يكن فإنها ستظل مدافعة عن أراضيها حتى ولو اضطرت إلى الاعتماد على قوتها وحدها دون عون آخر، وقد أبانت الحكومة اليونانية أنها صممت على هذا القرار قبل أن تتأكد من مقدرتنا على مساعدتها أم عدم استطاعتنا ذلك، فأكد المستر ايدن لهم أن عزم لندن قد انعقد مع كل قادتها فى الشرق الأوسط على بذل كل عون لمؤازرة اليونان، واستمرت المؤتمرات العسكرية ومحادثات الأركان طوال الليلة، وفى اليوم التالى أرسل إلينا ايدن فى ٢٤ شباط ببرقية بالغة الأهمية هذا نصها:

«لقد هزتنا صراحة المفاوضين اليونانيين ووضوح آرائهم فى سائر الشؤون التى أتممنا بحثها وإنى على يقين من إصرارهم على المقاومة لآخر جهد فى طاقتهم، وليس أمام حكومة صاحب الجلالة سوى أن تؤازرهم بصرف النظر عن كل النتائج، ونحن على يقين تام بأننا قد آثرنا السبيل السوى، ولما كانت الساعة قد أعلنت الحادية عشرة فإنى متأكد أنك لا ترغب فى الإطالة، مؤجلاً التفاصيل حتى ألتقى بكم، إن المغامرة ضخمة، ولكن الأمل فى النجاح كبير».

وعلى هدى من هذه المكاتبات التى حملت موافقة كل من ديل وويفل

أصدرت وزارة الحرب تأييدها للاقتراحات تأييداً كاملاً.

سافر المستر ايدن بعد ذلك إلى أنقرة، حيث قام بمشاورات طويلة مع الأتراك، ولم يصل إلى نتائج مشجعة، فالأتراك يدركون الصعوبات التى تواجههم كما ندركها نحن، ولكنهم يقررون أن ليس فى وسعنا تقديم قوات بالقدر الكافى لتغيير نتيجة أية معركة فاصلة، ولأنه لا توجد لديهم أية قوة هجومية فقد رأوا أن ما يستطيعون أن يقوموا به هو أن تلتزم بلادهم بموقف الحياد إلى آن يستكملوا جوانب النقص التى يحسون بها، وإلى أن تصير قواتهم على درجة كافية من التأثير والفعالية، أما إذا شن عليها هجوم فإنها ستخوض غمار الحرب بكل تأكيد، وقد أدركت كاملاً الموقف الذى تواجهه تركيا، وبدا من الصعب عليها أن تلتزم بالمعاهدة التى أبرمت معها قبل الحرب لتغير الظروف وعندما بدأت الحرب فى عام ١٩٣٩، واستعد جيش تركيا الباسل، ولكن هذا الجيش يعتمد على وسائل الحرب العالمية الأولى والمشاة الأتراك من أفضل الجنود ومدفعيته مقبولة ولا غبار عليها. ولكنهم يفتقرون إلى الأسلحة الحديثة التى أكدت منذ آيار ١٩٤٠ أنها فاصلة فى الحرب الدائرة، كما أن الطيران التركى كان فى صورة بدائية هزيلة إلى درجة تستدعى الرثاء وليس فى حوزتهم أيضاً دبابات أو سيارات مدرعة، كما لا توجد عندهم المصانع التى تنتجها أو تشرف على صيانتها وليس فى حوزتهم أية مدافع مضادة للطائرات أو الدبابات، أما سلاح الإشارة فساذج، والرادار شىء لا ندرى به، كما أن جنودها ليس لديهم التأهيل الكافى لإدراك هذه التطورات الحديثة.

أما بلغاريا فقد قامت ألمانيا بتسليحها بكميات ضخمة من العتاد من شتى الأنواع التى غنمتها من فرنسا والبلاد المنخفضة بعد معارك سنة ١٩٤٠ وبهذا أمكن لألمانيا أن تجد فائضاً من العتاد تسلح به حلفاءها، أما نحن فقد خسرنا كثيراً فى دنكرك وكان علينا أن ندعم قواتنا لنصد أى هجوم على الوطن ونجابه

أقسى الغارات على مدننا فى الوقت الذى نواصل فيه القتال فى الشرق الأوسط، ولهذا لم يكن فى مقدورنا أن نبذل الكثير ولا أن نضحى بما يلزمنا.

وهكذا نرى أن الجيش التركى فى تراقيا، سيكون بالنظر إلى هذه الظروف فى حالة سيئة وربما يائسة تجاه الجيش البلغارى، فإذا ضاعف الخطر أسراب من سلاح الجو الألمانى ووحدات من السلاح المدرع فإن مهام تركيا ستصبح فوق المستطاع.

وفى هذه المرحلة المهددة بخطر الحرب كان الأمل الوحيد هو خلق كتلة واحدة تضم جيوش يوغوسلافيا واليونان وتركيا، وكان هذا ما نسعى إلى تحقيقه وتمثل عوننا لليونان فى إرسال بعض الأسراب الجوية من مصر عندما بدأ موسولينى زحفه عليها، واقتصرت المرحلة التالية على تقديم عرض بإرسال وحدات فنية وقد رفضه اليونانيون، لأسباب أحسبها معقولة جداً، وها نحن نقدم على المرحلة الثانية، حيث رأينا أن فى وسعنا حشد جيش صحراوى قوى فى بنغازى وفيما وراءها، لنوفر الجزء الأعظم من قوات المناورة والاحتياط الاستراتيجى لمصر.

وكنا إلى ذلك الوقت لم نقدم على أية خطوة سوى تركيز معظم الاحتياطى الاستراتيجى من قواتنا فى الدلتا، ورسم الخطط والاستعداد الملاحى لإرسال قوات إلى اليونان، وإذا تغيرت الظروف بحدوث تغير فى وجهة النظر اليونانية أو لأى أسباب أخرى فسنقدر على مواجهة الوضع ومقابلة الطوارئ، وكان من المحتم علينا بعد كل الذى لقيناه من ضغط شديد أن نستطيع إنهاء القتال بنجاح فى الحبشة والصومال والإريتريا، وأن نضم عدداً من الفرق إلى قواتنا المرابطة فى مصر وفى الوقت الذى صعب فيه معرفة نوايا العدو أو مدى ردود الفعل ونزعها عند الأصدقاء والمحايدين، اتسع مجال الاختيار أمامنا وظل المستقبل بالنسبة إلينا فى غاية الغموض، ولكننا لم نبعث بقواتنا بعد ولم نضع أى يوم فى الإعداد.

الفصل الثالث عشر

معركة الأطلنطيك

الشىء الذى أثارنى حقاً فى غضون الحرب كان هو تهديد الغواصات فقد كنت متأكداً من فشل الغزو، وقد مهدت ليقينى هذا نتائج المعركة الجوية فقد أحرزنا النصر الجوى، وبذلك أصبح الغزو شيئاً طيباً بالنسبة لنا، حيث يخوض الإنسان معاركه برضى بغض النظر عن شناعة الحرب وقسوة ظروفها، ونحن الآن نواجه خطراً شديداً إذ إن شريان حياتنا حتى فى غمار المحيطات وخصوصاً فى مداخل جزرنا يهدد باستمرار، وكان القلق ينتابنى من جراء هذه المعركة الجوية المجيدة فى سماء بريطانيا.

واستولى هذا القلق - أيضاً - على الأميرالية الذين كنت دائماً معهم فى ود وتفاهم مستمرين، وكان يتحتم علينا حماية شواطئنا من أى غزو واستمرار خطوط مواصلاتنا مع العالم الخارجى حرة دائمة، وكان هذا العمل واجباً مقدساً يقتنع به أسطولنا ويحرص عليه، وهكذا كنا دائمى التفكير والبحث فى هذه الأزمة، وليست هذه المعركة قتالاً عنيفاً أو أعمالاً خلابة ولكنها عبارة عن أرقام ومخططات ورسوم بيانية لا يستطيع الشعب ولا الجماهير معرفتها ولا تفهمها.

فإلى أى مدى تستطيع أن تصيب به حرب الغواصات وارداتنا وملاحتنا وهل فى وسعها أن تصل إلى حد القضاء على مقومات حياتنا، وهنا لا يتسع المجال للحدس ولا للعواطف، ولكنه يقتضى التخطيط الهادئ الدقيق ورسم الخرائط التى توضح احتمالات خنق حياتنا، فإذا ما عقدنا مقارنة بين نتائج

هذه الحرب ونتائج الحروب الأخرى ظهر لنا أن لا قيمة للجيوش الباسلة المستعدة للوثب على الغزاة، ولا لما أعد من خطط جيدة لمعركة الصحراء، كما ألا جدوى من الروح المعنوية العالية التى يتحلى بها شعب فى مثل هذا الخضم المظلم، وليس لنا أن نختار، فإما أن نحصل على الغذاء والمؤن والسلاح من العالم الجديد ومن الإمبراطورية، وإما أن نحصل على شىء من ذلك، أما الألمان فبعد أن استطاعوا السيطرة على سواحل فرنسا من دنكرك إلى بوردو لم يضيعوا وقتهم عبثاً، بل سارعوا إلى إقامة قواعد لغواصاتهم ولطائراتهم المقاتلة على مدى الساحل المحتل، وبعد شهر تموز اضطررنا إلى تحويل ملاحتنا من مداخل أيرلندا الجنوبية، حيث لم نستطع حشد طائرات مقاتلة، وفرض علينا أن تدور كل سفننا حول أيرلندا الشمالية، وقد ظلت الستر هنا صامدة بعون الله، كحارس لا ينام، فميرس وكلايد هما رئتان بدونهما لا نستطيع استنشاق الهواء، واستمرت البواخر الصغيرة تمر قرب الشاطئ الشرقى وشواطئ القناة على الرغم من تهديد الغارات الجوية، وهجمات زوارق الطوربيد الألمانى، فضلاً عن الألغام المبثوثة فى كل مكان ولكن مرور كل قافلة بين فيرث اوف فورت ولندن وحده قد أصبح عملية يومية فى غاية الصعوبة.

وأصبحت الأضرار التى لحقت بملاحتنا التجارية فادحة، فى مدة الاثنى عشر شهراً من تموز ١٩٤٠ إلى تموز ١٩٤١، وهو التاريخ الذى كنا نستطيع أن نؤكد فيه أنباء انتصارنا فى معركة الأطلنطيك وكان أشد الأسابيع علينا منذ نشب التتال هو الأسبوع الذى ينتهى بيوم ٢٢ أيلول سنة ١٩٤٠ وفى خلاله منينا بغرق حمولة أكثر من أية حمولة خسرناها فى ظروف مشابهة من عام ١٩١٧ وتزايد الضغط علينا باستمرار، بينما الخسائر كانت تربو على أعداد البواخر الجديدة التى نسرع فى بنائها بصورة مذهلة، أما موارد الولايات المتحدة الهائلة فقد كانت تقترب من ميدان العمل ببطء وعلى هوادة،

ولم يكن احتمالنا أن نرث فجأة عدداً من السفن كتلك التى غنمناها بعد استسلام النرويج والدانمارك والبلاد المنخفضة فى ربيع سنة ١٩٤٠، فقد فقدنا سبعاً وعشرين باخرة أغلبها كان فى قافلة محروسة، ثم منينا بقافلة أخرى فى شهر تشرين الأول بالأطلنطيك، غرقت منها اثنتان وعشرون من بواخرنا التى يبلغ مجموعها أربعاً وثلاثين، ومع مرور أيام شهرى تشرين ثان وكانون أول بدأت مداخل ومصبات الأنهر كالميرس وزكلايد تمثل خطراً أشد من أية عوامل أخرى فى الحرب، وكنا نستطيع آنذاك أن ننزل على أيرلندا ديفاليرا وأن نعيد إلينا بالقوة السيطرة على الموانئ الجنوبية. ولكنى أعلنت سابقاً أننى لن أتخذ خطوة كهذه إلا دفاعاً عن النفس، وعلى أية حال لم تكن مثل هذه الخطوة الجريئة العنيفة لتخفف شيئاً من حدة الموقف وقسوته، وكان الإجراء الوحيد هو أن نضمن حرية الدخول والخروج من نهرى المرسى والكلايد وإليهما. وكانت القلة العارفة بحقيقة الموقف عندما تجتمع فى كل يوم ينظر كل منهم إلى الآخر، وفى استطاعة الإنسان أن يدرك حالة الغواص تحت سطح البحر وهو يعتمد من دقيقة إلى الأخرى على الأنبوبة الهوائية الممتدة للخارج، ومدى شعوره حين يرى مجموعة من كلاب البحر تحاول أن تمزق له هذه الأنبوبة، بالإضافة إلى أنه لا يجد فرصة للوصول إلى السطح لأن الواقع أن ليس هناك سطح بالنسبة إلينا، ولم يكن الغواص سوى ستة وأربعين مليوناً من البشر فى جزيرة غاصة بالسكان، يستمرون فى عمل كبير وشاق هو الحرب فى شتى أنحاء العالم، وقد استقر هذا الغواص بحكم الطبيعة والجاذبية فى قاع البحر، وماذا يمكن لكلاب البحر أن تصنعه بأنبوبة هوائية وكيف يستطيع إقصاءها عنه أو تحطيمها؟..

وثمة جانب آخر لحرب الغواصات، فقد كانت الأميرالية فى بداية الأمور تركز اهتمامها قبل كل شىء فى إيصال البواخر سليمة إلى الميناء ويحدد نجاحها قلة عدد البواخر الغارقة، ولكن هذه التجربة لم تعد الآن ملائمة،

فقد أصبحنا نعرف أن حياة هذه البلاد وجهودها الحربية يركزان بصورة ثنائية على حمولة الواردات التى يتم إنزالها على الميناء فى سلام، ففى الأسبوع الذى انتهى بيوم ٨ حزيران أى فى غمار معركة فرنسا وقصة إنقاذها، استطعنا أن نوصل للبلاد حمولة مليون وربع مليون طن فضلاً عما نستورده من الزيت، وقد تدرجت الأرقام فى الهبوط من هذه الذروة حتى نهاية تموز إلى أقل من ثلاثة أرباع المليون طن كل أسبوع وفضلاً عما أصبنا من تحسن فى شهر آب، فقد كان المعدل الأسبوعى لا يزال فى هبوطه ولم يتعد طيلة الشهور الثلاثة الأخيرة من العام ثمانمائة ألف طن فى الأسبوع، وأصابنى هذا الهبوط المشئوم فى الواردات بقلق شديد، وأرسلت إلى لورد البحر الأول فى منتصف شهر شباط سنة ١٩٤١. رسالة بخط يدى أقول فيها «إن الأرقام تشير إلى أن وصول البواخر المحملة فى شهر كانون ثانٍ كان أقل من نصف ما وصل إلينا فى مثل هذا الشهر من السنة الماضية».

ونظراً لوسائل التأمين الكثيرة وتقدمها، وتسيير السفن، وتحويل الطرق البحرية ومحاولات تطهير البحر من الألغام المبثوثة، وعدم إبحارنا فى المتوسط، وامتداد طرق مواصلاتنا فى الزمن والمسافة، والتخلف فى الموانئ نتيجة للغارات الجوية وعمليات التعتيم، كل ذلك أدى إلى هبوط إنتاج حركتنا الملاحية إلى حد مزعج تفوق خطورته كل ما أصبنا به من أضرار، وازدحمت موانينا يوماً بعد يوم بالبواخر التى يتأخر تفريغ شحناتها ولم يأت شهر آذار حتى غدت البواخر المصابة تبلغ حمولتها حوالى مليونين وستمائة ألف طن، لا يستطيع أكثر من نصفها مباشرة العمل لما يلزمها من استصلاحات.

وفوق خطر الغواصات دهمنا خطر آخر تمثل فى الطائرات التى تذهب إلى أعماق المحيط تبحث عما تفترسه من البواخر، وكانت الفوكا وولف ٢٠٠ «المعروفة باسم كوندور» هى أشد هذه الطائرات خطورة وإن كان عددها قليلا فى بداية الأمر لحسن حظنا، وفى مستطاع هذه الطائرات أن تقلع من

بريست أو بوردو لتقوم بجولة على شواطئ الجزر البريطانية ثم تتزود ثانية بالوقود من النرويج لتؤوب فى اليوم التالى إلى مقرها الأول، وفى وسع هذه الطائرات فى الذهاب والعودة أن تبصر قوافلنا الكبيرة تحتها المكونة من أربعين أو خمسين باخرة، أرغمنا على تسييرها فى قافلة واحدة بالنظر إلى قلة ما نجده من وحدات الحماية، وهى تقوم برحلاتها من الجزر البريطانية وإليها داخلة وخارجة، وفى مقدور هذه الطائرات أن تسقط على هذه القوافل أو البواخر المنفردة قذائف ماحقة وأن ترسل فى الوقت ذاته إشارات لاسلكية للغواصات المتحفزة لتوجهها إلى قطع الطريق عليها.

ودب النشاط فى الطرادات الألمانية العنيفة، فالأميرال شير تعمل الآن فى جنوب الأطلنطيك متوجهة إلى المحيط الهندى، وقد استطاعت خلال ثلاثة أشهر إغراق عشر بواخر تبلغ حمولتها ستين ألف طن، ثم تمكنت من الإفلات والرجوع إلى ألمانيا، وكانت «هيبر» لاجئة فى ميناء بريست، وفى نهاية شهر كانون ثانٍ تلقت البارجتان - الطرادتان شارنهورست وغنيزناد - بعد أن تم قبل قليل إصلاحهما مما لحق بهما من تعطيل فى معركة النرويج، تلقتا أمرا بالمسير إلى شمال الأطلنطى، بينما تقوم «هيبر» بالإغارة على الطريق البحرى الممتد إلى سيراليون، واستطاعت الطرادتان خلال شهرين إغراق أو أسر اثنتين وعشرين باخرة تبلغ حمولتها مائة وخمسة عشر ألف طن، أما «هيبر» فقد أغارت على قافلة فى طريقها إلى الوطن بالقرب من جزر الأزور، ولم تكن لحقت بها وحدات للحماية بعد، واستطاعت فى إغارتها الوحشية التى استمرت زهاء ساعة كاملة إغراق سبع بواخر من تسع عشرة باخرة تألفت منها القافلة دون أن تحاول قط إنقاذ الناجين من البحر، ثم أتت سالمة بعد يومين إلى بريست، وقد اضطرتنا هذه الطرادات المفزعة إلى أن نحشد كل ما لدينا من بوارج حربية ضخمة فى تأمين القوافل، وقد مضى وقت ولم يكن فى قاعدة القائد العام لأسطولنا غير بارجة وحيدة.

ولم تكن بسمارك قد انضمت إلى البواخر المستخدمة بعد، ولا شك فى أن الأميرالية الألمانية كانت ترقب إتمامها بصبر نافذ، وإكمال قرينتها تيربيتز، ولم يكن هناك سبيل يمكن لهتلر أن يستخدم فيه بارجتيه الهائلتين بطريقة أكثر فائدة وجدوى من وجودهما على أهبة الاستعداد دائماً فى الاطلنطيك، وإشاعة الامتناع عن خروجهما المحتمل من وقت لآخر، وكان مثل هذا العمل سيفرض علينا أن نركز قواتنا بقدر المستطاع فى سكابافلو أو ضواحيها، لنكون كفوءا لاستعداده، بينما يظل هو حراً تماماً فى اختيار وقت العمل، ولاضطرار البوارج لأن تذهب إلى قواعدها بين الحين والحين بسبب احتياجها إلى بعض الترميمات والإصلاحات، فقد كان يتعذر علينا دائماً الاحتفاظ بمستوى من التفوق والكفاءة، فأى خطر مفاجئ كان كافياً لتدمير هذه الكفاءة.

وظللت أفكر ليل نهار فى هذه المشكلة المرعبة، وتجمع أملى فى نصر مؤكد، فى قدرتنا على إثارة حرب طويلة الآن إلى أن يأتى اليوم الذى نملك فيه التفوق الجوى، وتقف دول كبيرة ـ كما هو المحتمل ـ إلى جانبنا، ولكن هذا الخطر الذى كان يقف بالمرصاد لأسباب حياتنا كان يفعمنى ألماً، وفى بداية شهر آذار نقل الأميرال باوند إلى وزارة الحرب أخباراً عن ابتلاع البحر لمجموعة أخرى من البواخر، واستمعت إلى الأرقام، ثم قلت لباوند بعد هذا الاجتماع الذى تم فى غرفتى بمجلس العموم: (علينا أن نضع هذه المشكلة فى اعتبارنا وأن نهتم قبل أى شىء آخر، وسأعلن بداية حرب الأطلنطيك) وأشبه هذا الإعلان إعلانى السابق عن معركة بريطانيا منذ تسعة أشهر، ويعنى ذلك الإيعاز إلى كافة الدوائر والوزارات المختصة بتركيز اهتمامها وجهودها على حرب الغواصات.

وأنشأت (لجنة معركة الأطلنطى) لرغبتى فى متابعة هذه المشكلة وإعطائها مزيداً من العناية والاهتمام، ولأستطيع باستخدامها توجيه

التعليمات الضرورية لإزالة المصاعب والعقبات وفرض العمل على معظم الدوائر والفروع المختصة، وبدأت هذه اللجنة فى اجتماعات أسبوعية يشترك فيها كل الوزراء والمنفذين المعنيين من عسكريين ومدنيين. ويمتد الاجتماع الأسبوعى إلى ساعتين ونصف تقريباً، نستعرض خلاله كل أمر، ونبحث فى كل موضوع، بل نقتل المشكلة بحثاً وتمحيصاً، لننتهى إلى قرارات واضحة، وهكذا وجدت هذه اللجنة الجديدة التى كوناها من الدوائر الواسعة لقيادتنا الحربية التى تضم الألوف من الرجال ذوى الخبرة والولاء، والتفتت حول هذه اللجنة مئات العيون الفاحصة القلقة.

وفى هذه الآونة أخذت الغواصات تستخدم طرقاً جديدة، أصبحت تعرف بأسلوب (جماعات الذئاب) ويعنى هذا الأسلوب أن تشترك مجموعة من الغواصات فى عمل واحد، وأن تنقض على الفريسة دفعة واحدة من جوانب مختلفة، وكانت هذه الهجمات آنذاك تشن ليلاً، وعلى سطح البحر، وفى غاية السرعة، وكان فى مقدرة المدمرات وحدها أن تلحق بهذه الغواصات بينما لم تكن أجهزة المكافحة ذات جدوى، وكان الحل يتمثل فى زيادة عدد الحارسات السريعة كالغواصات، وفى تحسين الرادار بصورة جوهرية، بحيث تقدر شاشته على إنذارنا باقتراب الغواصات قبل وصولها، وأخذ العلماء والبحارة والطيارون يبذلون كل ما فى استطاعتهم، وبرغم ذلك كانت النتائج تمشى على مهل، وكنا فى احتياج إلى سلاح جوى ينسف الغواصات العائمة، وإلى وقت ندرب خلاله قواتنا على ذلك، فإذا ما توصلنا إلى سد هذين الاحتياجين فإن الغواصات ستمضى إلى الأعماق كوضعها المعتاد، ويصبح فى مقدورنا معالجة ذلك بوسائلنا القديمة وخبراتنا التى مهدنا عليها، لكن هذا لم يتحقق إلا بعد مرور عامين.

وفى خلال ذلك كان برايان المعروف وسواه من قادة الغواصات الألمانية يستخدمون فى اندفاع أسلوب (جماعات الذئاب) الذى أنتجه الأميرال دونتس

قائد سلاح الغواصات، وقبطان الغواصات الذائع الصيت فى الحرب العالمية الأولى، ولكن عدالة القصاص لم تمهلهم فقد غرق بارايان مع جميع رجاله على ظهر غواصته (يد ٤٧) فى ٨ آذار بواسطة المدمرة وولفيرين، وما مرت تسعة أيام حتى نزل الغرق بالغواصتين (يوم ٩٩ ويوم ١٠٠) فى قتال اشتد أواره عقب مهاجمتهما لإحدى القوافل، وكان قائداهما من ألمع الضباط البحريين، فأدى فقدان هؤلاء الثلاثة الممتازين إلى ضعف هجوم الغواصات، وكان القادة الذين تبعوهم إلى العالم الثانى من طرازهم كفاءة وشجاعة، ففى شهر آذار غرقت خمس غواصات فى المداخل الغربية، ورغم أن هجوم الغواصات قد ألحق بنا أضراراً بالغة، تمثلت فى (٢٤٣) ألف طن، غير (١١٣) ألف طن تكبدناها على أيدى الطائرات، فإن الجولة من معركة الأطلنطى قد انتهت نتيجة متعادلة بيننا وبين العدو.

ولما رأت الغواصات خسائرها الفادحة فى المداخل الغربية، اتجهت إلى الغرب أى إلى المياه التى لا يمكن للمدمرات الكثيرة أن تصل إليها بالنظر إلى حرماننا من موانئ أيرلندا الجنوبية، والتى لا تقدر على حمايتها جوياً بالنظر إلى بعدها، ولم يكن فى مقدور مدمراتنا أن تحرس قوافلنا المقلعة من المملكة المتحدة فى طريقها إلى هاليفاكس غير مسافة ربع الطريق فقط، وفى بداية شهر نيسان أغارت أرتال من الغواصات بطريقة (جماعات الذئاب) على قافلة بريطانية عند خط طول ٢٨ درجة، غرباً، قبل أن تلحق بها الوحدات المدافعة عنها، وقد غرقت عشر بواخر من اثنتين وعشرين مقابل غواصة واحدة، واضطررنا إلى أن نبحث عن وسائل كافية لحمايتنا، وإلا فإن نهايتنا ستكون قريبة.

وتقع جزر نيوفوندلند وغرينلند وأيسلنده بين كندا وبريطانيا العظمى، وهذه الجزر جميعها تقع بالقرب من جناح الدائرة الكبرى بين هاليفاكس وسكوتلندا. وفى استطاعة قوات تكمن فى (نقطة الوثب) هذه أن تسيطر على الطريق كله بعد توزيعه إلى قطاعات، وكانت غرينلند لا يوجد بها أى مورد، أما

الجزيرتان الأخريان فالإفادة منهما مستطاعة، وكان من الأقوال الشائعة «إن من يسيطر على أيسنلده وبيده مسدس يمكنه أن يسدده فى ثقة إلى إنكلترا وأميركا وكندا» وكانت هذه الفكرة هى التى دفعتنا إلى احتلال الجزيرة بعد موافقة الأهالى عندما احتل الألمان الدانمارك فى عام ١٩٤٠ وأقمنا فيها قواعد فى نيسان عام ١٩٤١ لفرق حراستنا البحرية وطائراتنا وبهذه الطريقة امتد اتساع حراستنا السطحية إلى خط الطول (٣٥) درجة غرباً، وبالرغم من ذلك فقد بقيت هناك ثغرة مروعة فى الغرب، لم يكن فى مقدورنا آنذاك سدها، وفى شهر آيار أغير على قافلة آتية من هاليفاكس عند خط الطول (٤١ غرباً) وخسرنا تسع بواخر، قبل أن تلحق النجدة بالقافلة.

وبدا من المحتم علينا فرض الحماية من الطرف إلى الطرف أى من كندا إلى بريطانيا ولهذا طلبت الأميرالية فى ٢٣ آيار من حكومتى كندا ونيوفوندلاند إعداد ميناء سنت جون فى نيوفوندلاند كقاعدة أمامية لوحدات الحراسة المشتركة، وكان الاستجابة سريعة، فلم تأت نهاية الشهر حتى تحققت الحراسة الدائمة على طول الطريق، ومنذ ذلك الوقت تعهد الأسطول الملكى الكندى بأن يقوم بحماية القوافل فى القطاع الغربى من طريق المحيط، بإمكانياته وحدها، وكان فى استطاعتنا أن نضمن من أيسلنده ومن بريطانيا العظمى حماية كافية على باقى الطريق، ومع ذلك فقد ظلت القوات التى لدينا قليلة إلى درجة مزعجة واستمرت خسائرنا فى التزايد، وقد استطاعت الغواصات وحدها فى الأشهر الثلاثة المنتهية بآخر آيار إغراق ١٤٢ باخرة تبلغ حمولتها ٨١٨,٠٠٠ طن منها ٩٩ باخرة بريطانية.

وفى غمار هذا التوتر الشديد، قام الرئيس روزفلت، بمقتضى السلطات التى خولها له الدستور الأميركى، ولأنه القائد الأعلى للقوات المسلحة، بمد يد المعونة العسكرية لنا ـ فقد أصدر أمراً بعدم السماح للغواصات الألمانية والسفن الأخرى المهاجمة بأن تقترب من الساحل الأميركى، وأن يضمن له

وصول الذخائر التى كان يرسلها إلى بريطانيا سالمة حتى منتصف الطريق على الأقل، وتمخض عن الخطط التى كانت قد أعدت منذ زمن طويل مشروع يقتضى بأن تتضامن الدولتان الناطقتان بالإنكليزية فى حماية المحيط الأطلنطى، ولإقناعنا بوجوب إقامة قاعدة لنا فى أيسلنده، فقد بادر الرئيس روزفلت إلى اتخاذ الخطوات اللازمة لإقامة قاعدة جوية أميركية فى جرينلند، وكان المسلم به أن الألمان أنشأوا محطات لرصد الأحوال الجوية على الشاطئ الشرقى من الجزيرة فى مواجهة أيسلنده، ولهذا أتى عمل الرئيس فى وقته المناسب وأصدر الرئيس أوامره الأخرى التى تقضى بأن تتوجه السفن المصابة فى معارك البحر المتوسط أو غيره من البحار لإجراء عمليات إصلاحها فى الأحواض الأميركية، مما يسر الكثير من العبء الملقى على أحواضنا.

وفى مطلع شهر نيسان وصلتنا أنباء رائعة، فقد تلقيت برقية من الرئيس فى ١١ نيسان يخبرنى فيها أن أميركا قد قررت توسيع دائرة أمنها التى تجوب فيها دورياتها، وهو الإجراء الذى اتخذته منذ أن نشبت الحرب، إلى خط يمر بكل مناطق شمال الأطلنطى الواقعة إلى الغرب من خط الطول ٢٦ درجة غرباً، وتحقيقاً لهذه الغاية فهو يقترح، أن تستخدم الطائرات والقطع البحرية العاملة من غرينلند ونيوفوندلند ونوفاسكوتيا والولايات المتحدة وبرمودا وجزر الهند الغربية مع توقع امتداد ذلك إلى البرازيل، وحثنا على أن تصله تحركات قوافلنا فى طريقة غاية فى السرية (لنتمكن بمجموعات دورياتنا من التنقيب عن سفن الأعداء أو طائراتهم التى تعمل إلى الغرب من خط منطقة الأمن المذكورة) ومن جهة أخرى سيسرع الأميركيون فى الإعلام بالمناطق التى تحدد دورياتهم وجود السفن أو الطائرات المعادية فيها، وقد أرسلت هذه البرقية مباشرة إلى الأميرالية وأنا أشعر بارتياح بالغ.

وأعلنت حكومة أميركا فى ١٨ نيسان خط الحدود الجديد الذى يفصل بين

نصف الكرة الغربى ونصفها الشرقى وهو الذى أشار إليه الرئيس فى برقيته السابقة، ومنذ ذلك التاريخ أصبح هذا الخط هو الحدود البحرية لأميركا، وقد شملت الممتلكات البريطانية التى تقع فى القارة الأميركية أو بالقرب منها، وغرينلند وجزر الأزور، ثم شملت بعد قليل أيسنلده كذلك، وأكد هذا القرار - أيضاً - أن السفن الحربية الأميركية ستقوم بأعمال الدورية فى مياه نصف الكرة الغربى. وسترسل إلينا مباشرة عن أى تحركات معادية، لكن أميركا حرصت على موقف الحياد ولم يكن فى مقدورها آنذاك أن تضفى حمايتها على قوافلنا، فظلت بريطانيا وحدها تضطلع بعبء هذه المشكلة طيلة الطريق.

وكانت سياسة الرئيس الجديدة بعيدة النتائج، واستمر نضالنا، وقد خف عبء كبير من أعبائنا ليقوم بها الأسطولان الكندى والأمريكى، وبدأت أمريكا رويداً رويداً تقترب من حلبة الصراع، وقد قوى هذا التيار العالمى اختراق البارجة بسمارك الأطلنطى فى نهاية شهر آيار، فعلى إثر ذلك أعلن الرئيس فى ٢٧ آيار ـ وهو التاريخ الذى غرقت فيه بسمارك ـ أن انتظارنا حتى يدهمنا الخطر نوع من الانتحار، ولهذا فقد وسعنا أعمال دورياتنا شمالاً وجنوباً فى مياه الأطلنطى، وما كاد الرئيس ينهى خطابه حتى أعلن فى البلاد «حالة الطوارئ لأجل غير مسمى».

وليس هناك أى برهان على أن الألمان قد هزتهم هذه الخطوات من قبل أميركا فقد أراد الأميرالان ريدر ودونتس أن يصدر الفوهرر أمراً بتوسيع المجال للغواصات الألمانية، ويطلق لها حرية العمل فى اتجاه الساحل الأميركى وصد البواخر الأميركية إذا سارت فى قوافل أو بدون أضواء، ولكن هتلر ظل عنيداً فى موقفه، لأنه كان لا يأمن عاقبة الحرب مع أميركا، ويصمم على أن تتجنب القوات الألمانية أى استثارة من هذا النوع.

ونتيجة لاتساع نشاط العدو لحقت به خسائر فادحة، ففى شهر حزيران، كان للعدو فضلاً عن العدد الموجود تحت التدريب حوال خمس وثلاثين

غواصة فى قلب البحر، وكان ما يعده من غواصات جديدة يزيد بكثير عما لديه من بحارة مدربين ولا سيما القباطنة ذوى الخبرة والتجربة، وهكذا بدأ عدد بحارة غواصاته الجديدة يقل تدريجياً وأصبحت غالبيتهم من الشبان قليلى الخبرة، ولذلك فقد فاتتهم الدقة والمهارة الكافيتان، وأدى شمول المعركة للأطراف البعيدة من المحيط إلى عدم استمرار التعاون المخيف بين الغواصات والسلاح الجوى، ولم يكن من قديم إعداد الطائرات الألمانية الكافية أو تدرب طياريها على العمل فوق البحر، ومع ذلك فقد استطاعت فى خلال آذار ونيسان وآيار أن تغرق (١٧٩) باخرة حمولتها (٥٤٥) ألف طن، غرق معظمها فى المناطق الساحلية، ومن بين هذه السفن عدد تصل حمولته إلى أربعين ألف طن غرق بسبب غارتين جويتين فى غاية العنف على أرصفة ليفربول فى بداية شهر آيار، وقد حمدت الله لأن الألمان لم يستمروا فى شن هجماتهم على هذا الجانب الواهن، وفى الوقت نفسه استمر خطر الألغام المغنطة مسلطاً على سواحلنا غامضاً وخداعاً، ينزل بنا أفدح الخسائر وإن كانت قد بدأت تقل شيئاً فشيئاً، وقد نهضنا بقواعدنا فى أيسلنده وكندا ودعمناها فوراً، ووضعنا مخططات قوافلنا على هدى من هذا الإعداد، وضاعفنا الطاقة الوقودية لمدمراتنا القديمة، كما وسعنا مجال تحركاتها، وخاضت القيادة المشتركة التى كونت حديثاً فى ليفربول بكل إمكانياتها غمار المعركة، ومع تزايد المدمرات الحارسة بالإضافة إلى خبرة بحارتها استطاع الأميرال نوبل تقسيمها إلى وحدات دائمة، لكل وحدة منها، قائد معين، وتقوت روح العمل الجماعى وتعود الرجال الاتحاد والتفاهم على العمل مع إدراك عميق لوسائل قائدهم، وهكذا أصبحت وحدات المدمرات تخطو نحو القوة والمتعة بينما بدأت قوات الغواصات تنحدر إلى هاوية الضعف والوهن.

ولم يأت شهر حزيران حتى كنا قد صعدنا إلى درجة التفوق، وكنا نبذل كل جهد لتطوير أسلوب قوافلنا، وتدعيم الدفاع عنها، وتحسين الأسلحة

والاختراعات الحديثة، وكانت احياجاتنا الضرورية تتمثل فى حيازة عدد أكبر وأسرع من سفن الحراسة شرط قدرتها على تحمل لوازم الوقود لأطول زمن ممكن، وإنشاء أكبر عدد من الطائرات ذات المدى البعيد، ورادار على جانب كبير من الكفاية والصلاحية، ولم تكن الطائرات المقاتلة فى القواعد الساحلية تستوفى الشروط المطلوبة، بل ظلت القوافل فى احتياج لطائرات تحملها البواخر لتنقض على أية غواصة تبدو على مدى إطلاق النار فى وضح النهار، وتضطرها إلى أن تنسحب إلى أعماق المياه فيحال بينها وبين القتال، أو لتخبر عنها القطع البحرية الأخرى فتصل إلى المكان فى وقت مناسب، وقد استطاعت فى مدى قصير طائراتنا المقاتلة التى تطلقها أجهزة قاذفة أقيمت لهذا الغرض خاصة على ظهر البواخر التجارية العادية أو البواخر التى تحولت إلى بوارج وأمدها السلاح الملكى بالرجال، استطاعت أن تواجه خطر طائرات «القوكاولف» وكان الطيار المقاتل الذى ينطلق كصقر يطارد فريسة يعتمد فى بداية الأمر على إحدى سفن الحراسة لإنقاذ حياته، وبهذا أصبحت «الفوكاولف» فريسة مطاردة بعد أن كانت الطائر المنقض، وفرض غزو هتلر لروسيا على القيادة الألمانية توزيعاً جيداً لقواتها، وهكذا بعد أن ارتفعت خسائرنا فى شهر نيسان إلى القمة حتى بلغت ثلاثمائة ألف طن أسبوعياً أخذت تهبط إلى خمس هذا الرقم فى أشهر الصيف.

وقام الرئيس الان بخطوة جديدة مهمة، فقد رأى إنشاء قاعدة فى أيسنلدة، وأن ترابط بموافقتنا وحدات أميركية بها، بدلاً من القوات البريطانية، وفى ٧ تموز وصلت الحامية الأميركية إلى الجزيرة فأصبحت جزءاً من الدفاع عن النصف الغربى، وأخذت قوافل أميركا تحت حماية بوارجها تصل بصفة مستمرة إلى ريكجا فيك منذ هذا التاريخ، وبغض النظر عن أن أميركا لم تكن قد دخلت الحرب إلا أنها قد أصبحت تحمى البواخر الأجنبية مع قوافلها.

وفى قمة هذا الصراع، قمت بإصدار أمر تعيين، أحسبه أهم ما أصدرت من تعيينات وأحسنها حظاً، فى إدارتنا الحربية، ففى سنة ١٩٣٠، وقد كنت خارج الحكم، قبلت لأول مرة ولآخر مرة فى حياتى أن أكون عضواً لمجلس إدارة إحدى الشركات، وكانت مؤسسة فرعية لمنظمة اللورد انشاب الخاصة بخطوط الملاحة الشرقية والهندية، وظللت مداوماً ثمانى سنوات على حضور الاجتماع الشهرى الذى يعقده مجلس إدارة الشركة، وحريصاً على تأدية واجباتى نحوها حرصاً تاماً، وخلال الجلسات تعرفت شيئاً فشيئاً برجل من ألمع الشخصيات، كان يرأس حوالى ثلاثين أو أربعين شركة، كانت واحدة منها ولعلها أصغر الجميع الشركة التى كنت أحد أعضاء مجلس إدارتها، وقد عرفت على التو أن فردريك ليثرز هو الرأس المدبر والقوة الموجهة لهذه المنظمة بكاملها، وكان واسع المعرفة، ويمتلك الثقة به امتلاكاً، ومكثت ألاحظه عاماً بعد عام من منصبى المتواضع فى الشركة التى يرأسها، وكثيراً ما حدثت نفسى: «إذا نشبت حرب أخرى فهذا هو الرجل الذى فى وسعه أن يقوم بالدور العظيم الذى أداه كبار رجال الأعمال الذين كانوا رهن توجيهى فى وزارة الذخائر خلال عامى ١٩١٧، ١٩١٨».

وكان ليثرز قد أبدى استعداده لوزارة الملاحة لدى قيام الحرب فى سنة ١٩٣٩ فى المساهمة بخدماتها، ولم تقم بيننا صلة وثيقة حينما كنت فى الأميرالية؛ لأن المهام التى كان يقوم بعبئها فنية وليست توجيهية، أما الآن وفى سنة ١٩٤٠ عندما واجهت صعوبات معركة الأطلنطى، وكنا فى أمس الحاجة إلى تنسيق الأعمال بين إدارة شئون باخراتنا التجارية وبين تحركات تموينا بالسكك الحديدية والسيارات من موانينا المجهدة، فقد لمع اسمه فى ذاكرتى، وتنبهت إليه فى آيار، وبعد مشاورة طويلة نظمت من جديد وزارتى الملاحة والنقل فى جهاز واحد متكامل، وعهدت إلى ليترز رئاسته، ولأعطى له إمكانيات السيطرة اللازمة عليه أوجدت منصب وزارة النقل البحرى ووليته

عليها، وكنت أحس بحرج شديد أمام مجلس العموم حين أقفز بأشخاص إلى أعلى المناصب الوزارية دون أن يكونوا قد نموا داخل المجلس ومكثوا به بضع سنين، وتستبد الرغبة بالأعضاء المحنكين من غير أعضاء الوزارة، لأن يعملوا على مضايقة كل قادم جديد، فيجد نفسه بدون أية مناسبة متضايقاً من إعداد الخطب وإلقائها فى المجلس، لذلك رجوت العرش أن يتفضل بمنح الوزير الجديد لقب «لورد».

وأصبح اللورد ليثرز منذ ذلك التاريخ حتى انتهاء الحرب قائماً بالإشراف الكامل على وزارة النقل الحربى، وصار اسمه يصعد رويداً رويدا وقد استطاع أن يحرز ثقة رؤساء أركان الحرب وجميع أركان الحرب وجميع الوزارات فى الوطن، ووثق صلاته بالأميركيين اللامعين فى ذلك الميدان، وكان على صلة طيبة وفى غاية النجاح بالمستر لويس دوفلاس رئيس مجلس الملاحة الأميركى، الذى غدا بعد ذلك سفير بلاده فى لندن، وفى استطاعتى أن أقرر أن ليثرز كان مساعداً مهماً لى على تصريف شئون الحرب، وقل أن عجز هذا الرجل ذو الكفاءة الممتازة عن القيام بأعباء المهمات التى كنت ألقيها على عاتقه.

وحينما كانت تفشل الوسائل الوزارية أو الأركانية فى تصريفها لبعض الشئون كنقل فرقة إضافية أو تحويلها من البواخر البريطانية إلى الأميركية، أو إنجاز بعض المهمات العاجلة كنت ألتمس عوناً شخصياً، وعلى التو أجد هذه التعقيدات قد حلت وكأنما مستها يد ساحرة.

ورابطت البارجتان ـ الطرادتان الألمانيتان شار نهورست وغنيزناو فى بريست طيلة هذه الأشهر القاسية، وكان انطلاقها إلى الأطلنطى محتملاً فى أية لحظة، وبفضل السلاح الجوى الملكى شل نشاطهما، فقد استمرت طائراتنا تشن الهجوم عليهما وهما فى الميناء، منزلة بهما أفدح الأضرار، مما تركهما عاطلتين عن العمل طيلة العام، وقد توجه انتباه العدو إلى إعادتهما

لألمانيا ولكنهما عجزا عن تحقيق ذلك أيضا حتى عام ١٩٤٢، وسنعرف فى اللحظة المناسبة مقدار نجاح أسطولنا وقيادة سلاحنا الجوى الساحلى، وكيف أصبحنا مسيطرين على الموقف فى المداخل، وكيف باتت الغواصات تنهار فى البحار نفسها التى عملت على تدميرنا فيها إلى أن استطعنا ثانية بأسلحتنا تطهير مداخل الجزر البريطانية.



الفصل الرابع عشر

- يـوغوسلافيا -

فرض علينا أن نصل إلى قرار حاسم بشأن جيش النيل.. هل نرسله إلى اليونان أم لا، وكان اجتياز هذا التساؤل فى غاية الأهمية، لا لمعاونة اليونان ومؤازرتها فى محنتها وعذابها فحسب، بل أيضاً لتكوين خط دفاعى بلقانى يضم يوغوسلافيا واليونان وتركيا لعدم الهجوم الألمانى المحتمل مع ما يتضمنه ذلك من تأثير على روسيا السوفييتية، لا يمكن أن نعرف مداه الآن، وإن كنا لا نستطيع أن ننكر خطورته، هذا إذا كان الحكام الروس قد تفهموا المخاطر التى تهددهم، ولم يكن ما نقدر على إرساله هو الذى سيوجه المسألة البلقانية فغايتنا المعروفة هى إثارة العمل الجماعى وتنظيمه، وإذا استطعنا عن طريق التلويح بقوتنا أن نستثير يوغوسلافيا واليونان وتركيا على الاشتراك فى العمل، فإننا سنقهر هتلر على الاختيار بين أمرين، إما أن يترك أطماعه الحالية فى البلقان، وإما أن يخوض قتالاً عنيفاً مع جيوشنا المشتركة حيث يجد قوة واحدة متآزرة فى الميدان، ولم يصلنا آنذاك أنه عقد العزم على زحفه الجرىء على روسيا، ولو عرفنا ذلك فى حينه لكنا على يقين أكبر من فوز خططنا، وكنا نعرف أنه يغامر بالسقوط بين مقعدين، وقد يقهر على التحول عن مشروعه الضخم إلى اتخاذ خطوات مبدئية فى البلقان، وهذا هو الذى حدث بالفعل، ولم يكن فى مقدورنا أن نصل إلى معرفته آنذاك، وقد يعتقد البعض أن ما افترضناه كان صحيحاً، أو أنه كان أصح مما كنا ندرك، فقد سعينا إلى ضم يوغوسلافيا واليونان وتركيا فى جبهة قوية، أما واجبنا حتى ذلك الوقت فقد كان يفرض علينا تعضيد

اليونانيين، ولجميع هذه الأهداف فقد كان موقف فرقنا الأربع فى الدلتا فى وضعه الملائم.

وفى مطلع مارس أخذت القوات الألمانية تتهال على بلغاريا، واستعد الجيش البلغارى بكل قواه، ووقف على أهبة الاستعداد على الحدود اليونانية وكانت الجيوش الألمانية - بصفة عامة - تزحف نحو الجنوب، يؤازرها البلغاريون بشتى الطرق والوسائل، واستأنف المستر ايدن والجنرال ديل فى اليوم التالى محادثاتهما فى أثينا، وأرسل إلينا المستر ايدن على هدى ذلك ببرقية غاية فى الأهمية، غيرت بعض الشىء من أفكارنا بلندن، وبالرغم من أن الأميرال كنغهام كان مقتنعاً بصحة آرائنا إلا أنه لم يدعنا فى شك من الأخطار البحرية التى تهددنا فى المتوسط، والتى تحملها هذه الآراء، وسجل رؤساء أركان الحرب العوامل العديدة التى تنمو باطراد متعارضة مع خططنا فى البلقان وخصوصاً مع نوايانا فى تسيير جيش إلى اليونان، ولخص الرؤساء رأيهم فى هذه العبارة: «الأخطار قد تزايدت على المشروع بصورة واضحة» لكنهم لم يرتابوا على الإطلاق فى تأكيد القادة العسكريين العاملين فى المنطقة بأن الأمور لا تدعو إلى اليأس بأى حال من الأحوال، وبعد أن أعملت التفكير منفرداً فى تشيكرز ليلة الأحد تلك وقبلت وجهات النظر التى عرضت بوزارة الحرب فى الصباح الماضى، أرسلت الخطاب التالى إلى المستر ايدن، الذى كان قد رجع إلى القاهرة من أثينا، وكان هذا الخطاب يشير إلى تغير ملحوظ من موقفى، ولكننى أحمل كل المسئولية فى القرار الأخير، إذ إننى كنت واثقاً من قدرتى على إيقاف كل شىء لو اقتنعت، وإيقاف العمل أسهل دائماً على كل إنسان من العمل، وقد جاء فى خطابى:

«لقد حاولنا بكل الوسائل إيجاد اتحاد بلقانى ضد ألمانيا، وعلينا أن نتذرع بالحذر، فلا ندفع اليونان وحدها دون رغبتها الحرة، إلى المقاومة الباسلة، فى الوقت الذى ليس فى مقدورنا مؤازرتها إلا بمجموعة ضئيلة من

الجنود، تستطيع أن تصل إلى ميدان المعركة فى الفرصة المواتية، وقد تثار مشاكل إمبراطورية مهمة عندما نزج بالجيوش النيوزيلندية والأسترالية فى عمل وصفته أنت بالخطورة البالغة. ولذا علينا أن نحرر اليونانيين من إحساسهم بالتزام الرفض لأى إنذار ألمانى، إما إذا أصروا من ناحيتهم على الكفاح فعلينا أن نؤازرهم فى موقفهم بقدر المستطاع، ولكن سرعة الزحف الألمانى ستقف بكل تأكيد دون اشتراك جيوش إمبراطورية كبيرة فى القتال، ولا تعتبر خسارة اليونان والبلقان بأى حال من الأحوال بالنسبة لنا خسارة جوهرية بشرط أن تظل تركيا بكل أمانة وصدق على الحياد. ونستطيع أن نستولى على رودس، وأن نعد لاحتلال صقلية أو طرابلس، وتشير علينا جهات عديدة بأن الإطاحة بنا من اليونان يضر بسمعتنا فى إسبانيا وفيشى، أكثر من تركنا للبلقان، الذى لا نقدر على الحيلولة بينه وبين السقوط فى يد العدو ولضآلة قواتنا».

وقد أرفقت بهذه البرقية التقرير المهم الذى وصلنى من رؤساء أركان الحرب.

وعندما قرأ رسالتى سفيرنا لدى اليونان، أصيب باليأس وخيبة الأمل، وأرسل إلى وزير الخارجية برقية يقول فيها (كيف يتسنى لنا أن نترك ملك اليونان وحده بعد ما أبدى له القائد العام ورئيس أركان حرب الجيش تأكيدات واضحة عن الفرص المتاحة للنصر، إننى لا أتصور موقفنا كهذا لأننا سنضع أنفسنا موضع التشهير فى اليونان وفى كافة أنحاء العالم، وسيشاع أننا نعرف الوفاء بالوعد، فليس هناك مجال لأن نترك لليونانيين حرية رفض أو قبول الإنذار الألمانى ذلك لأنهم قد بيتوا العزم على قتال ألمانيا وحدهم إذا لزم الأمر والقضية الآن هى: أنمد لهم يد العون أم لا؟

وعلى هدى ذلك قررت وزارة الحرب تأجيل خطتها إلى أن يصلنا رأى المستر ايدن، وفى اليوم التالى وصلتنا برقية يعبر فيها عن رأيه بقوله: «لا شك فى انهيار اليونان دون أن نحاول إنقاذها بالتدخل العسكرى، خصوصاً

بعد أن أدرك العالم كله أن انتصارات الصحراء قد وفرت لنا القوات المطلوبة، سينذر بفاجعة محتمة، فحينئذ ستهوى يوغوسلافيا أيضاً، ولن نثق فى إمكانيات تركيا على الصمود إذا استطاع الألمان والإيطاليون أن يحتلوا اليونان دون أن نقاومهم بأى مجهود من جانبنا، ولا أشك فى أن سمعتنا ستتأثر من طردنا من اليونان طرداً معيباً، لكن القتال فى اليونان وتكاليفه أخف بكثير على أى حال من أن نتخلى عنها لتقابل أقدارها بلا معين وبالنسبة إلى الظروف الحاضرة، فكلنا هنا نرى أن ما رأيناه سابقاً يجب أن ينفذ ويجب أن نمد اليونان بكل عون».

وذهبت أنا ورؤساء أركان الحرب، إلى وزارة الحرب التى كانت تحيط علماً بكل شىء إثر وقوعه، لتقرر بصدده الرأى الأخير، وهناك عرضنا القضية للبحث، وعلى الرغم من إدراكنا للحقيقة الماثلة التى تؤكد عجزنا عن إرسال طائرات أكثر عدداً من التى قد أرسلناها أو من التى ما زالت فى طريق وصولها، فإننا لم نجد سبيلاً للتردد ولم تختلف آراؤنا، وقد أدركت أن المسئولين هناك قد مروا بتجربة مفيدة، لم يكن ثمة ريب على الإطلاق فى أنهم يقعون تحت أى ضغط سياسى من لندن، وقد اقتنع سمطس بوجهة النظر هذه وهو الدقيق الرأى، الذى يتمتع باستقلال فكرى خاص، ولم يكن فى طاقة أى إنسان أن يدعى أو يفترض أننا تطفلنا على اليونان وأجبرناها على العمل ضد إرادتها، إذ لم تكن ثمة دولة أكثر منها اقتناعاً بالسير فى الطريق الذى سلكته، وكنا بقرارنا قد حصلنا على تعضيد كافة الرجال المسؤولين الذين أصدروا حكمهم فى حرية كاملة، وعلى هدى من إدراكهم التام للموقف من مختلف جوانبه، وكان زملائى الذين حنكتهم التجارب قد انتهوا بكامل حريتهم إلى النتيجة ذاتها، وكان المستر منزيس الذى تثقل المهام كاهله بالنسبة لهذا الموضوع فى غاية الشجاعة لقد كان من جذوة متقدة تنادى بالعمل وكان الاجتماع قصيراً والقرار حاسماً والرد مختصراً وهذا هو:

«رأى رؤساء أركان الحرب، إنه بالنظر إلى إصرار قادة المنطقة ورئيس أركان حرب الجيش البريطانى، ورؤساء الوحدات المعدة للعملية، على وجهة نظرهم فى أن يستمر تنفيذ القرارات السابقة، فقد انتهى رأى وزارة الحرب إلى أن تتحمل أنت مسئولية تنفيذ العملية، وهى فى قرارها هذا تتحمل كافة التبعات، وستتصل بحكومات أستراليا ونيوزيلنده تنفيذاً لهذا القرار».

وعلينا الآن أن نتحدث عن مصير يوغوسلافيا، كان الدفاع عن منطقة سلانيك يعتمد اعتماداً كاملاً على دخولها الحرب، وكان فى غاية الأهمية أن نقف على حقيقة نياتها، وقد اجتمع سفيرنا فى بلغراد المستر كاميل فى ٢ آذار بالمستر ايدن فى أثينا، وأوقفه على مدى الفزع الشديد الذى يستولى على يوغوسلافيا من ألمانيا، وأن الأحوال الداخلية ليوغوسلافيا يسودها القلق بسبب النزاع السياسى، لكن هناك فرصة لضمان تأييد اليوغوسلافيين إذا ما أدركوا سياستنا فى مساندة اليونان، وأرسل وزير الخارجية فى ٥ آذار مستر كامبل إلى بلغراد ومعه رسالة مخطوطة إلى ولى عرش يوغوسلافيا الأمير بول، وقد صور المستر ايدن مآل يوغوسلافيا إذا وقعت فى أيدى الألمان، وأبدى له تصميم تركيا واليونان على الدفاع إذا وقع أى هجوم عليها، فعلى يوغوسلافيا فى مثل هذا الموقف أن تنحاز إلينا، وطلب من السفير أن يبلغ الأمير بول شفوياً أن بريطانيا قد أعدت قوات كبيرة برية وبحرية لتمد بها اليونان بصورة عاجلة وأنه إذا ما وصل إلى أثينا أحد ضباط الأركان اليوغوسلافيين فسيشترك فى المباحثات الدائرة.

وانعقد الكثير من الأمل على ظروف الوصى، فقد كان الأمير إنساناً محبوباً، يحب الفنون ولكن سمعة الملكية فى البلاد كانت سيئة للغاية، وكان فى هذه الآونة يحرص على موقف الحياد حرصاً تاماً، وكان يخاف من تفسير الألمان لأية حركة تتخذ من جانب يوغوسلافيا على أنها استثارة لهم، فيزحفون جنوباً فى اتجاه البلقان، وقد أبدى اعتذاره عن قبول زيارة للمستر

ايدن كان قد رغب فى القيام بها، وكان الرعب مستولياً عليه، ولم يكن فى وسع الوزراء والساسة المرموقين أن يبدوا رأيهم بوضوح، ولكن كان هناك رجل واحد فقط يدعى سيموفيتش يخرج على هذا الإجماع وهو جنرال فى السلاح الجوى، يمثل العناصر الوطنية بين ضباط الجيش، وقد أصبح مكتبه الخاص منذ حزيران مكاناً سرياً لمقاومة التسلل الألمانى إلى البلقان، ومناهضة موقف الجمود الذى طبع تصرفات حكومة يوغوسلافيا.

وقام الأمير بول بزيارة سرية لبيرخيتسغارن فى ٤ أذار، وانصياعاً للتهديد الشفوى الشديد تعهد بأن تنحو يوغوسلافيا منحى بلغاريا، وعندما عاد كانت فى انتظاره وجهات نظر متعارضة فى مجلس التاج، وفى المحادثات الفردية التى قام بها مع القادة ـ سياسيين وعسكريين ـ وكان الجدل حاداً، ولكن الإنذار الألمانى كان حقيقة صارخة، وعندما استدعى الجنرال سيموفيتش إلى القصر الأبيض، حيث يقيم الأمير بول على التلال المطلة على بلغراد، عارض الاستسلام بشدة، وأكد أن مثل هذا القرار سترفضه بلاد الغرب وأن الأسرة المالكة ستواجه الأخطار، ولكن الأمير كان قد بذل تعهده السالف باسم بلاده.

وعقد مجلس الوزراء ليلة ٢٠ آذار جلسة وانتهى فيها إلى قرار الاشتراك فى المعاهدة الثلاثية فاستقال ثلاثة وزراء احتجاجاً، ومن محطة جانبية للسكة الحديدية استقل رئيس الوزراء ووزير خارجيته القطار إلى فيينا، وأبرما الميثاق فى اليوم التالى مع هتلر ـ وأذيع النبأ مباشرة من راديو بلغراد وسرعان ما أعقبته شائعات فى جميع مقاهى العاصمة اليوغوسلافية ومنتدياتها عن الويلات المتوقعة.

وكانت المجموعة الصغيرة من الضباط الموالية لسيموفيتش قد فكرت منذ أشهر فى القيام بعمل إيجابى إذا ما استسلمت الحكومة للألمان، وعندما شاعت فى ٢٦ أنباء رجوع الوزيرين من فيينا إلى بلغراد رأى هؤلاء أنى يبدأوا

العمل، ولسنا نعرف عدداً كبيراً من الثورات كان فى مثل نعومة ثورتهم، حيث لم ترق قطرة من الدماء، فقد قاموا باعتقال عدد من كبار الضباط، وساق رجال الشرطة رئيس الوزراء إلى مكتب سيموفيتش حيث وقع مرغماً على استقالته، وأخبر الأمير بول بأن سيموفيتش قبض على ناصية السلطة نيابة عن الملك وأصدر أمراً بحل مجلس الوصاية، واقتيد على التو إلى مكتب سيموفيتش الأمير نفسه، حيث فرض عليه وعلى زميله أن يوقعا على وثيقة تنازلهما عن الوصاية، وأمهل الأمير بضع ساعات ليحزم متاعه، وليغادر البلاد مع أسرته إلى اليونان فى الليلة نفسها.

وقد وضعت هذه الخطة وتم تنفيذها بواسطة مجموعة صغيرة من الضباط الصربيين الذين تحسسوا بوعى مشاعر الجماهير الحقيقية، فأثار عملهم موجة طاغية من التأييد الشعبى، وانطلقت الجماهير الصربية فى شوارع بلغراد تهتف «الحرب ولا المعاهدة» و«الموت ولا العبودية» وتناثرت حلقات الرقص فى الميادين العامة وانتشرت الأعلام الإنكليزية والفرنسية فى كل مكان، ورددت الجموع الصربية اليائسة المناضلة النشيد الوطنى فى اندفاع عارم، وشهد الملك فى ٢٨ آذار صلاة شكر فى كاتدرائية بلغراد، وكانت الظروف وحدها هى التى خلصته من مجلس الوصاية، وحضر الصلاة جمهور ضخم مندفع، ووجهت علناً الإهانات لوزير ألمانيا المفوض، وبصق الشعب على سيارته وأثارت المفاجأة العسكرية موجة فياضة بالحماس والوطنية واستيقظ الشعب الذى كان قد حرم من حرية العمل، تحت سلطة حكومة مستبدة، وحكام فاسدين، والذى رأى الكثير من الشباك تنصب من حوله، استيقظ ليعلن تحديه للطاغية وهو يحلم بالفتح فى عزة بطشه وسلطانه.

وكأنما أصيب هتلر بلدغة ثعبان، فاهتاج ذلك الاهتياج المدمر الذى يعوق التفكير السليم لبعض الوقت والذى كان يؤدى به أحياناً إلى أخطر مغامراته وأكثرها جرأة، واستدعى فى فورة اهتياجه رجال القيادة العليا الألمانية،

فأسرع جورنج وكايتل ويودل، ولحق بهم على الفور ريبنتروب، وقال إن يوغوسلافيا قد أصبحت عاملاً مريباً فى الخطة المدبرة ضد اليونان، وفى خطة «بربروسا» المقبلة ضد روسيا كذلك، واستطرد قائلاً إن إعلان يوغوسلافيا عن حقيقة نواياها ليس سيئاً على كل حال قبل الشروع فى عملية «بربروسا» ثم أضاف: يجب تدمير يوغوسلافيا ووحدتها القومية والعسكرية، ويجب أن تنزل بها ضربة قاضية، وأمضى القادة العسكريون طيلة الليلة يعدون خطط العملية ويحضرون أوامرها، وقد أيد كايتل وجهة نظرنا فى أن الخطر الأكبر الذى تتعرض له ألمانيا يتمثل فى هجوم من المؤخرة على الجيش الإيطالى، واستطرد قائلاً: «وكان قرار هتلر بالهجوم على يوغوسلافيا يعنى نقض كافة الخطط والترتيبات العسكرية التى أعددناها حتى ذلك الوقت وفرض علينا أن نضع ثانية ترتيبات الهجوم على اليونان، وأن ننقل وحدات أخرى من الشمال عبر المجر، أجل لقد فرض علينا الارتجال فى كل شىء».

وكان تأثر المجر متوقعاً بصفة عاجلة، وبالرغم من أن الغزو الألمانى المباشر ليوغوسلافيا سيمر عبر رومانيا، إلا أن كافة سبل المواصلات تخترق الأراضى المجرية، وكرد فعل لما حدث فى بلغراد بعثت ألمانيا بوزير المجر فى برلين إلى بودابست بالطائرة، ومعه رسالة فورية إلى الأميرال هورتى الوصى على عرش المجر هذا نصها:

«ستمحى يوغوسلافيا من الوجود، لمناهضتها علناً لسياسة التفاهم مع المحور، ويجب أن تعبر معظم القوات الألمانية المسلحة أراضى المجر أولاً، لكن الغزو الرئيسى لن يتم عبر الجبهة المجرية، وعلى القوات المجرية أن تتدخل فى هذه الجبهة، ومقابل هذه المعاونة سترد للمجر كل الأراضى التى كانت لها سابقاً والتى أرغمت فيما مضى على التنازل عنها إلى يوغوسلافيا، إن المشكلة عاجلة تماماً وألمانيا تنتظر الرد السريع الإيجابى».

وكانت المجر قد أبرمت مع يوغوسلافيا معاهدة صداقة فى كانون أول ١٩٤٠، لكن الرفض الصريح لمطالب ألمانيا سيؤدى إلى احتلال ألمانيا للمجر فى غمار الزحف العسكرى الذى أصبح متوقعاً فى كل حين، ولا سبيل إلى إغفال الإغراء الألمانى برد مناطق الحدود الجنوبية التى انتزعتها يوغوسلافيا من المجر بعد الحرب العالمية الأولى، وكان الكونت تيليكى رئيس وزراء المجر يحافظ باستمرار على حرية بلاده فى التصرف، ولم يكن مقتنعاً بأية حال بانتصار ألمانيا فى الحرب وعندما وقع المعاهدة الثلاثية، وكان غير متأكد من استقلال إيطاليا كشريكة فى المحور.

وكان معنى إنذار هتلر له أن يتخلى عن الوفاء ليوغوسلافيا بما تفرضه معاهدة الصداقة، لكن القيادة المجرية العليا تحت قيادة الجنرال ويرث وهو ألمانى الأصل، قد تسلمت زمام المبادرة منه، ووضعت مع القيادة الألمانية العليا خطة مشتركة بدون أن تدرى حكومة المجر.

وقد أسرع تيليكى فاتهم الجنرال ويرث بالخيانة، ووصلت برقية من وزير المجر المفوض فى لندن إلى رئيس الوزراء فى ٢ نيسان سنة ١٩٤١، يخبره فيها أن وزارة الخارجية البريطانية تعتبر ـ كما أبلغته رسمياً ـ أن مساهمة المجر فى أية عملية ضد يوغوسلافيا إعلان من بريطانيا للحرب ضدها.

وهكذا رأت المجر نفسها فى موقف اختيار بين مقاومة لا جدوى منها لاختراق الجيوش الألمانية لأراضيها، وبين الوقوف علناً ضد الحلفاء وخيانة يوغوسلافيا، ولم يجد الكونت تيليكى سوى طريق واحد لإنقاذ شرفه الشخصى، فما تجاوزت الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم بقليل حتى كان قد ترك وزارة الخارجية وذهب إلى غرفته الخاصة بقصر ساندور، وبعد محادثة تليفونية يغلب على الظن أنها أخبرته باجتياز القوات الألمانية لحدود بلاده، أطلق الرصاص على نفسه منتحراً.

وبذلك قدم حياته قرباناً للتكفير عن نفسه وعن شعبه من جريمة الغزو

الألمانى ليوغوسلافيا ولا شك فى أن هذا العمل قد برأ ساحته أمام التاريخ ولكنه لم يوقف الغزو الألمانى، ولا ما تسبب عن هذا الغزو من نتائج.

وبدأت فى خلال ذلك عملية زحفنا فى اتجاه اليونان، وقد سار الزحف تبعاً لترتيب قيامه من اللواء البريطانى المدرع الأول، والفرقة النوزيلندية، والفرقة الأسترالية السادسة، وقد جهزت هذه القوات بالعتاد الكامل على حساب غيرها من الفرق فى الشرق الأوسط وكان المفروض أن يذهب فى إثرها اللواء البولندى، والفرقة الاسترالية السابعة، وأعدت الخطة على أن تأخذ قواتنا خط الياخمون الذى يبدأ من مصب النهر الذى يسمى الخط باسمه ماراً بفيريا وادهيسا حتى الحدود اليوغوسلافية، وكان على جيوشنا أن تنحاز إلى الجيش اليونانى المقيم فى هذه المنطقة، والذى كان يبلغ حوالى سبع فرق، على أن يتولى القيادة العامة الجنرال ويلسون.

وكانت القوات اليونانية أقل عدداً مما تعهد به الجنرال باباغوس بادئ الأمر، فقد كان القسم الأكبر منها يبلغ خمس عشرة فرقة فى ألبانيا. أما الباقى ففى مقدونيا، وقد رفض باباغوس أن يسحبها، وقد أصبحت قوة غير عسكرية بعد أربعة أيام من الغزو الألمانى، وتكونت قواتنا الجوية من حوالى ثمانين طائرة محاربة أمام قوة جوية ألمانية يبلغ عددها عشرة أضعاف ذلك العدد، وكانت نقطة الضعف فى خط الياخمون تتمثل فى جناحه الأيسر الذى يتمكن الألمان بزحف سريع عبر المناطق الجنوبية اليوغوسلافية من محاصرته، ولم يكن هناك اتصال بالقيادة اليوغوسلافية العليا. حيث لم نكن نحن واليونانيون قد وقفنا على مدى استعدادها ونوع خطتها للدفاع وعلى أية حال، فقد تمثلت أمامنا فى الأرض الوعرة التى يجب أن يجتازها العدو، وطبيعتها التى تستطيع أن تعطى الفرصة لليوغوسلافيين لتعويق الزحف فترة من الزمن، ولكن هذا الظن تبدد سريعاً ولم يجد الجنرال باباغوس أن عملية الانسحاب من ألبانيا تستطيع أن تواجه حركة التطويق هذه فهى ستؤثر أولاً

فى الروح المعنوية للجيش، كما أن وسائل النقل السريعة غير متاحة للجيش اليونانى كما أن وعورة الطريق تجعل هذا الانسحاب متعذراً جداً ولا شك فى أن تأخير قرار بهذا الشأن قد ضيع الفرصة المتاحة، وفى غضون هذه الملابسات وصل إلى الجبهة الأمامية لواؤنا المدرع فى ٢٧ آذار، وتبعته بعد أيام قليلة الفرقة النيوزيلندية.

ولا شك فى أن أخبار ثورة بلغراد، قد بثت فى نفوسنا الارتياح والأمل فهى على أقل تقدير مكسب وحيد ملموس لما بذلنا من جهود متوالية فى سبيل قيام جبهة للحلفاء فى البلقان. ولمنع أن تسقط الدول واحدة بعد أخرى فى يد هتلر بسهولة ويسر، ورؤى أن يظل ايدن فى أثينا للتصرف فى أمر تركيا. وأن يتوجه إلى بلغراد الجنرال ديل، وكان فى استطاعة كل إنسان أن ييأس من وضع يوغوسلافيا إلا إذا تكتلت سائر الدول المعنية فى جبهة واحدة بمنتهى السرعة، وكانت الفرصة متاحة بالنسبة ليوغوسلافيا على الأقل لتسديد ضربة إلى مؤخرة الجيوش الإيطالية المضطربة فى ألبانيا، وإذا سدد الجيش اليوغوسلافى ضربة فورية حاسمة استطاع أن يحقق عملاً جوهرياً من وجهة النظر العسكرية، فمع أن بلادهم معرضة للغزو من الشمال إلا أن هذه الفرصة ستمكنهم من إحراز كمية هائلة من الذخائر والعتاد، تقدر على تموينهم فى حرب العصابات بالجبال، وقد أصبحت أملهم الوحيد، ولا شك فى أن تحقيق مثل هذه الضربة سيكون أمراً عظيماً للغاية، ويسدى صداه فى آرجاء الجانب البلقانى بأكمله وهذا ما كنا ندركه تماماً فى لندن.

لكن أخطاء السنين لا يمكن معالجتها فى ساعات، فعندما هدأت شعلة الحماس العام التى اتقدت فى صدر كل إنسان ببلغراد بدأ كل منهم يدرك أن بلاده على حافة الهاوية. وأن ليس فى مقدوره أن يقوم بأى عمل لإنقاذها، وكان فى استطاعة القيادة العامة على الأقل أن تحشد قواتها لكن لم يكن لديها أية خطة استراتيجية، ولم يرد ديل إلا الركود وسوء النظام وربما تكون

الحكومة اليوغوسلافية نتيجة لخوفها من الوضع الداخلى قد عزمت على تجنب أى عمل يثير ألمانيا، وها هى الجيوش الألمانية تتدفق عليها كجبال من الثلج، وكان بمقدور أى إنسان حين يتأمل فى موقف الوزراء اليوغوسلافيين وآرائهم أن يظن أنهم عقدوا العزم منذ أمد بعيد تجاه الحرب مع ألمانيا أو الصلح معها والواقع أنهم لم يبدأوا التفكير فى هذا الصدد إلا فى غضون الاثنتين والسبعين ساعة التى سبقت اجتياح الألمان لبلادهم.

ولاحت طائرات ألمانيا فى سماء بلغراد صباح ٦ نيسان، وأمطرت الطائرات العاصمة اليوغوسلافية بوابل من القنابل، ثلاثة أيام متوالية بصورة منظمة نموذجية، وكانت تحلق على ارتفاع قريب من أسطح العمائر بدون أن تهاب أية مقاومة، فشاع الدمار فى كل أنحاء المدينة بصورة تخلو من إحساس بالرحمة أو الإنسانية، وقد عرفت هذه الغارات باسم «عمليات العقوبة» وعندما خيم الهدوء ثانية على سماء بلغراد فى ٨ نيسان تكشف عن حوالى سبعة عشر ألف إنسان من أبناء العاصمة وقد صاروا جثثاً هامدة على جوانب الطريق أو تحت الأنقاض، وانطلقت الوحوش الضارية إلى فك حصارها من حديقة الحيوانات بعد هذه الغيوم الثقيلة السوداء المليئة بالدخان والشرر، وسار دب ذاهل لا يدرك شيئاً مما يحدث حوله وسط هذا الجحيم فى خطوات ثقيلة ومرعبة نحو نهر الدانوب، ولكنه لم يكن آخر دب لا يفهم.

وفى الوقت نفسه وبلغراد تعانى أهوال الغارات الوحشية، كانت القوات الألمانية تجتاح من كل الجوانب حدود يوغوسلافيا، ولم تتحرك القيادة اليوغوسلافية العليا لتسديد ضربتها الوحيدة القاتلة إلى مؤخرة الإيطاليين، واعتبرت أن الواجب يلزمها بعدم التخلى عن كرواتيا وبلاد السلوفين، ولذلك فقد حاولوا الدفاع عن جميع مناطق الحدود، ولم يمض وقت طويل حتى وجدت الفرق اليوغوسلافية الأربع العاملة فى الشمال نفسها، محاصرة بالوحدات الألمانية المدرعة. تؤازرها الوحدات الهنغارية التى عبرت نهر

الدانوب، والوحدات الألمانية والإيطالية الزاحفة نحو زغرب.

واضطرت الجيوش اليوغوسلافية إلى الانسحاب إلى الجنوب فى ارتباك وفوضى، ووصل الألمان إلى بلغراد فى ١٣ نيسان، وفى خلال ذلك كان الجيش الألمانى الثانى عشر المرابط فى بلغاريا قد اجتاح بلاد الصرب ومقدونيا واقتحم «موناستر» و«يانينا» فى اليوم العاشر من نيسان، فقطع بذلك كل اتصال بين يوغوسلافيا واليونان ودمر جيش يوغوسلافيا فى الجنوب.

وما مرت سبعة أيام حتى أعلنت يوغوسلافيا استسلامها، ونسف هذا الانهيار آمال الإغريق وكان هذا مثالاً جديداً لخطة هتلر "عدو واحد فى كل مرة" وقد بذلنا ما فوق الطاقة، لإيجاد نوع منظم من العمل، ولكننا عجزنا، وليس الخطأ فى ذلك خطأنا، وبدت لنواظرنا صورة قاتمة مروعة، فقد تعاونت خمس فرق ألمانية ـ ثلاث منها مدرعات ـ على غزو أثينا من الجنوب وبدا لنا أن مقاومة يوغوسلافيا فى الجنوب كانت تلقى تدميراً كاملاً وأن جناحنا الأيسر على نهر الياخمون سيدهمه الخطر عما قريب وفعلاً بدأ الهجوم على حرس جناحنا فى ١٠ نيسان، ولكنه توقف إثر مقاومة عنيفة ظلت يومين فى طقس قاس للغاية. وغرباً كانت فرقة واحدة من الفرسان اليونانيين متصلة بالقوات المرابطة فى ألبانيا، فرأى الجنرال ويلسون التراجع بجناحه الأيسر نتيجة لما يلقاه من ضغط شديد.

وتم هذا فى ١٣ نيسان، ولكن القوات اليونانية أخذت حينذاك فى التمزق، ومنذ ذلك الوقت أضحت القوات البريطانية فى الميدان وحدها، وبالنظر للخطر الذى يحدق بالجناح الأيسر رأى الجنرال ويلسون التراجع به إلى ترموبولى، واستشار باباغوس فوافق على رأيه، وعرض بدوره أن تنسحب فى هذه المرحلة الوحدات البريطانية عن اليونان، وكانت الأيام القليلة التى أعقبت ذلك أياماً فاصلة وبعث ويفل فى ١٦ نيسان برقية يقول فيها: إن باباغوس اعترف للجنرال ويلسون بأن القوات اليونانية تواجه ظروفاً قاسية، وتعانى

مصاعب جمة فى التمرين والإدارة نظراً للغارات الجوية، وكانت أوامر ويفل إلى ويلسون تشير باستمرار القتال بجانب اليونانيين ما داموا قادرين على القتال، ولكنه ترك له حرية تقدير الجلاء عندما تحتم الظروف، وأعطيت التعليمات لكافة البواخر الذاهبة إلى اليونان بالعودة إذ كان الموقف فى غناء عن إمدادات جديدة، أما البواخر التى بسبيل تنزيل حمولتها فيجب أن تتم مهمتها.

وقد قلت رداً على خطورة هذه الأنباء غير المنتظرة أنه لا يهمنا الاستمرار فى اليونان ضد رغبة قائدها العام، إذ نكون بذلك قد عرضنا البلاد للدمار والخراب.

ولذلك أصدرت أوامرى بالانسحاب فوراً إذا ما رأت حكومة اليونان ذلك وأضفت إلى ذلك قولى: «أما كريت.. فمن المحتم الإبقاء عليها فى يدنا بكل وسيلة».

واستقل الجنرال ويلسون فى ١٧ نيسان زورقه البخارى من طيبة إلى القصر الملكى فى تاتوى، حيث اجتمع بالملك والجنرال باباغوس وسفيرنا، وقرروا التراجع إلى ترموبولى كعمل حازم ممكن، وكان الجنرال ويلسون على يقين من مقدرته على الصمود بهذا الخط إلى وقت ما، وتركز الحديث على أسلوب الانسحاب ونظامه، واستقر الرأى على ألا تجلو الحكومة اليونانية إلا بعد أسبوع على الأقل.

وقد أوردت سابقاً اسم المسيو كوريسيس رئيس وزراء اليونان، وقد وقع الاختيار على هذا الرجل ليسد الثغرة التى خلفها ميتاكساس بوفاته، وكانت مؤهلاته التى رشحته لهذا المنصب.. سيرة شخصية نظيفة، ومعتقدات واضحة ثابتة، واتضح لى أن ليس فى مقدوره أن يشاهد تدمير بلاده، كما لم يعد فى وسعه النهوض بأعبائه، فحذا حذو الكونت تيليكى، رئيس وزراء المجر وقرر أن يضحى بحياته ثمناً لكل ما حدث فانتحر فى ١٨ نيسان، ولا شك أن

ذكراه ستبقى محفوفة بكل تقدير.

وكان الانسحاب إلى ترموولى مهمة قاسية، ولكن تغطية المؤخرة البارعة، صدت رغبات الجيش الألمانى المتحفزة، منزلة به أضراراً جسيمة، ولم يأت يوم ٢٠ نيسان، حتى كانت جيوشنا قد سيطرت تماماً على مواقعها الجديدة، وكانت الجبهة قوية، أما جنودنا فكانوا متعبين جداً، واستمر الجيش الألمانى فى زحفه ببطء، ولم تحدث أية محاولة شديدة وجادة لاختيار الموقع، وفى اليوم نفسه أعلنت القوات اليونانية التى كانت لا تزال على حدود ألبانيا استسلامها وفى ١١ نيسان أبلغ جلالة ملك اليونان الجنرال ويفل، أن الزمن وحده هو الذى لم يساعد أية قوة يونانية على مؤازرة الجناح البريطانى الأيسر قبل أن يملك العدو فرصته للهجوم، وقد قال ويفل إن واجبه فى مثل هذا الموقف يهيب به أن يعمل على انسحاب سريع للجيش، حتى ينقذ منه ما يمكن إنقاذه، وقد لاقى هذا الرأى قبولاً تاماً من الملك، فيبدو أنه كان يفكر فيه وعبر عما يشعر به من أسف، لأنه كان السبب فى أن تلاقى الجيوش البريطانية هذا الوضع المحرج، وأبدى استعداده لتقديم كل ما فى وسعه من مساعدة، ولكن هذا كله كان هباء، وفى ٢٤ نيسان استسلمت اليونان استسلاماً تاماً للزحف الألمانى الجبار.

وأصبحنا الآن أمام عملية انسحاب تشبه تلك العمليات التى فرضت علينا عام ١٩٤٠، واتضح لنا أن إجلاء ما يزيد عن خمسين ألف رجل بصورة منتظمة من اليونان - فى مثل هذه الأوضاع القاسية - أمر مستحيل، ففى دنكرك كنا متفوقين جوياً، أما اليونان فالألمان يقبضون بيد من حديد على ناصية الجو، وفى وسعهم الاستمرار فى الإغارة على الموانئ وعلى القوات المنسحبة، وكان من الواضح أن الجلاء لا يمكن أن يحدث إلا أثناء الليل، وأن المفروض على الجنود ألا يبصرهم العدو نهاراً قريبين من الساحل، إنها قصة النرويج تعود من جديد، مع تزايد الصعوبات التى تلقاها عشرة أضعاف على الأقل.

وقذف الأميرال كنجهام بكل الوحدات البحرية الخفيفة لتحمل العبء وتتألف هذه الوحدات من ستة طرادات وتسع عشرة مدمرة، وبدأت عمليات الجلاء ليلة ٢٤ من الموانئ اليونانية الصغيرة، وسواحلها الرملية فى الجنوب واستخدمت فيها فضلاً عن القطع البحرية، سفن النقل، وسفن الهجوم ومجموعة من القطع الصغيرة.

وتواصل العمل طيلة خمس ليال متوالية، وسيطر العدو فى ٢٦ على الجسر المهم على قناة كورنث، بهجوم جوى عن طريق جنود المظلات، وانهالت القوات الألمانية على شبه جزيرة البلوبونيس، يمطرون جنودنا المجهدين وابلاً من النيران الحامية، بينما هم يجاهدون لكى يصلوا إلى الشطآن الجنوبية، ونزلت بنا فى نوبليون إحدى الكوارث، فقد مكنت الناقلة «سلامات» فى الميناء وقتاً أكثر مما ينبغى فى محاولة مستميتة ـ ولكنها غير مجدية ـ لتنقذ أكبر عدد من القوات، وما كادت تقلع من الشواطئ بعد الفجر حتى انقضت عليها طائرتان فأغرقتاها، وسعت مدمرتان لإنقاذ القوات التى كانت تقلها ويبلغ عددهم سبعمائة جندى، ولكن الغارات الجوية أغرقت المدمرتين أيضاً، ولم ينج رجال من القطع الثلاث سوى خمسين رجلاً تقريباً.

وقام طرادان وست مدمرات فى ٢٨، ٢٩ بنقل ثمانية آلاف جندى وحوالى ألف وأربعمائة لاجئ يوغوسلافى من السواحل القريبة من كالا مانا، وما كادت تصل إحدى المدمرات إلى المكان لتبدأ فى عملية الإجلاء حتى كان العدو قد احتل البلدة وشوهدت نيران الحرائق مشتعلة، فعدلت المدمرة عن المهمة، وفضلاً عن أن قواتنا شنت هجوماً على القوات المحتلة وأرغمتها على الانسحاب من البلدة، فلم يقدر النجاة لأكثر من أربعمائة وخمسين رجلاً من الشواطئ الشرقية، عن طريق أربع مدمرات استعانت به الزوارق، وكانت هذه الأحداث نهاية لعمليات الانسحاب الأساسية، واستطاعت قطعنا البحرية إنقاذ جماعات صغيرة متناثرة فى عديد من الجزر أو فى زوارق صغيرة

بالبحر فى غضون اليومين التاليين، كما استطاع حوالى ألف وأربعمائة ضابط وجندى بفضل اليونانيين ورغم الأخطار الهائلة أن يمهدوا السبيل لهم نحو مصر فرادى فى خلال الأشهر التالية.

وهكذا خسرنا حوالى أحد عشر ألف جندى، ولكنا استطعنا إنقاذ (٥٠,٦٦٢) رجلاً، من بينهم رجال السلاح الجوى الملكى، وعدة ألوف من قبرص وفلسطين واليونان ويوغوسلافيا، وهذا العدد يبلغ حوالى ٨٠٪ من القوة الأساسية التى أرسلت إلى اليونان، وكان هذا ـ بكل تأكيد ـ بفضل بحارة أسطولنا التجارى وأساطيل أصدقائنا وما امتاز به أولئك البحارة من عزيمة قوية وخبرة وافرة، وتصميم على أداء المهمة تحدياً لكل ما قام به العدو من محاولات مستميتة عنيفة، وقد خسرنا نتيجة للهجوم الجوى ٢٦ باخرة منذ ٢١ نيسان حتى نهاية الانسحاب. وقد بذل السلاح الجوى الملكى ووحدة من سلاح الأسطول الجوى من كريت كل ما فى طاقتهما، ولكن العدو كان يتفوق دائماً عليهما بأعداد ضخمة من الطائرات، ومع ذلك فقد قام سلاحنا الجوى بمهمات رائعة منذ تشرين الثانى الماضى إلى آخر معركة اليونان فقد أسقط بكل تأكيد (٢٣١) طائرة معادية، وأمطر العدو بما يقدر بخمسمائة طن من القنابل. أما خسائر سلاحنا فكانت فادحة أيضاً، فقد أسقطت (٢٠٩) طائرات منها (٧٢) فى المعارك الجوية، التى شهدت أمثلة نادرة من البطولة.

وكان الأسطول اليونانى الصغير قد فر إلى الإسكندرية وكان عبارة عن طراد وست مدمرات حديثة، وأربع غواصات، وصلت كلها سالمة فى ٢٥ نيسان وانضمت إلى قواتنا تحت إشراف قادتنا، وقد أبدى هذا الأسطول الصغير مهارة ملحوظة فى كل المعارك التى خاض غمارها بجانبنا منذ ذلك التاريخ فى البحر الأبيض المتوسط.

وإذا كانت كتابتى عن هذه الكارثة توحى بأن جيوشنا البريطانية

والإمبراطورية لم تعضدها المساعدات العسكرية اليونانية، فإن علينا أن ننسى أن هذه الأسابيع الثلاثة من الحرب فى شهر نيسان ضد الحشود الهائلة، تعتبر لدى اليونانيين قمة النضال الذى امتد خمسة أشهر ضد إيطاليا، والذى قضى على كل منابع القوة والحياة فى البلاد، فقد هوجم اليونانيين فى آيار من عام ١٩٤٠ دون سابق إنذار بقوات تبلغ ضعف ما لديهم على الأقل، فصمدوا أمامهم أولاً، ثم شنوا هجوماً أرغم العدو على الانسحاب مسافة أربعين ميلاً داخل ألبانيا، كما استمر اليونانيون طيلة الشتاء القاسى ينازلون فى الجبال عدواً قد تفوق عليهم فى العدد والعتاد. ولم تكن فى حوزتهم وسائل النقل فى الشمال الغربى أو سبله اللازمة للقيام بمناورة سريعة يصدق بها الهجوم الألمانى العنيف فى آخر لحظة والذى يطوق مؤخرة الجيش اليونانى ويحاصر جناحه، ولقد استنفد جيش اليونان كل طاقته فى الدفاع الباسل عن حياض وطنه.

ولم يكن ثمة سبيل، لإلقاء التهم، فما لقيناه من أخوة ومساعدة من الجيش اليونانى قد استمرا فى صدق وإخلاص إلى النهاية، وكان سكان أثينا وغيرها من مناطق الانسحاب الأخرى، مهتمين بسلامة من عرفوا أنهم ما جاءوا إلا لحمايتهم، أكثر من اهتمامهم بسلامتهم الشخصية، وسيظل الشرف العسكرى اليونانى نقى السيرة.

ووجهت إذاعة إلى الشعب حاولت فيها ألا أعبر عن مشاعر العالم الناطق بالإنكليزية فحسب، بل أن أعرض الظروف التى صنعت أقدارنا أيضاً وجاء فيما أذعته:

«وبينما ننظر قلقين متألمين إلى أحداث أوروبا وإفريقيا وإلى ما قد يحدث فى آسيا علينا أن نسيطر على أعصابنا وألا يستبد بنا الفزع أو الإحساس بوهن العزيمة، وعندما نسلط نظرة فاحصة على المتاعب التى ما زالت تنتظرنا، فإننا نتذرع بالإيمان من جديد إذا ما لاحظنا العقبات التى

استطعنا اجتيازها إلى اليوم، وكل ما يحدث اليوم لا يمكن أن تقاس أخطاره بالأخطار التى واجهناها فى العام الماضى، ولا شىء مما قد يحدث فى الشرق يمكن أن يقاس بما يعد اليوم فى الغرب».

وإنى لأذكر أبياتاً من الشعر، أحس بأنها تتوافق مع ظروفنا الراهنة، ويملؤنى الاعتقاد بأن كل أرض تنطق بالإنكليزية ستصدر عليها هذا الحكم وكذلك كل بلد تخفق فيه راية الحرية.

«وبينما ـ عبثا ـ تتكسر الأمواج الواهنة

يائسة من الحصول على شبر من الشاطئ الهادئ

بعيداً.. هناك.. عبر الخلجان والمداخل

تأتى الموجة الغامرة.. فى هدوء

وعبر النوافذ الشرقية.. وحدها.. لا يأتى الضوء

عندما يشرق نور الصبح.. وتنسل الأشعة من النوافذ التى تصعد الشمس أمامها إلى أجواء الفضاء..

بطيئة وعلى مهل...

بل هناك.. إلى الغرب.. لا تزال الشمس مشرقة»...



الفصل الخامس عشر

جنـاح الصحـراء

أصبحت كل مهمتنا تكوين جبهة بلقانية مع الإبقاء على جناح الصحراء فى شمال إفريقيا، وكان فى مقدورنا أن نكون هذه الجبهة فى طبرق، ولكن ويفل اختار أن يستمر فى زحفه السريع غرباً وأن يستولى على بنغازى، مما مهد لنا الاستيلاء على برقة كاملة، وكانت الزاوية البحرية فى «العقيلة» هى المدخل لهذه المنطقة، وتقرر فى القاهرة ولندن أن تستمر هذه الجبهة بكل الوسائل، وأفرادها بالأولوية دون أية مغامرة أخرى، وقد اقتنع ويفل نظراً إلى تحطيم الجيوش الإيطالية تحطيماً كاملا فى برقة، وبالنسبة للمسافات البعيدة التى يفرض على العدو اجتيازها قبل أن يستطيع الإتيان بقوات جديدة ولا فى استطاعته إلى فترة طويلة الإبقاء على هذا الجناح الفعال بوحدات معقولة والاستعاضة عن الوحدات المجرية بأخرى أقل منها خبرة، ولم يكن يخطر ببال أحد أن يضحى بهذا المرتكز الذى يعتمد عليه كل شىء فى الصحراء أو تعرضه للخطر فى سبيل اليونان أو من أجل أى شىء آخر فى البلقان.

ولكن صعد الآن على المسرح وجه جديد، هو مقاتل ألمانى سيفرض نفسه كثيراً على أساطير قومه وبطولاتهم الحربية.

ولد إيروين روميل فى هايد نهايم دورتمبرج فى تشرين الثانى سنة ١٨٩١ وفى الحرب العالمية الأولى اشترك فى معارك الأرغون ورومانيا وإيطاليا، وجرح مرتين واستحق أرفع الأوسمة من الصليب الحديدى ومنح وسام

الاستحقاق، وتولى فى بداية الحرب العالمية الثانية قيادة مقر الفوهرر فى الحملة على بولندا ثم تولى قيادة الفرقة السابعة المدرعة (البانزر) من الفيلق الخامس عشر، وقد سميت هذه الفرقة باسم «الأشباح» وكانت خلال جبهة الموز بمثابة رأس الرمح للاختراق الألمانى، ونجا من الأسر بما يشبه المعجزة عندما شن البريطانيون هجوماً مضاداً على أراس فى ٢١ آيار سنة ١٩٤٠، وكانت فرقته ثانية رأس الرمح الذى اخترق السوم متقدماً نحو السين فى اتجاه روان مطوقاً الجناح الفرنسى الأيسر، وموقعاً عدداً كبيراً من الفرنسيين والبريطانيين حول سان فاليرى فى أسره، واحتلت فرقته شربورج، بعد أن تم انسحابنا، واستسلمت له المدينة وما بها من القوات الفرنسية التى كان يبلغ تعدادها ثلاثين ألفاً.

وكانت هذه المهام الجسيمة هى الدافع إلى اختياره، فى بداية عام ١٩٤١ قائداً للقوات الألمانية المرسلة إلى ليبيا، وكانت أمانى الإيطاليين فى ذلك الحين تنحسر فى الإبقاء على مقاطعة طرابلس وتولى رومل قيادة الفرق الألمانية النشيطة تحت الإشراف العام للقيادة الإيطالية، وحاول إثر وصوله تدبير هجوم قوى، وعندما طلب منه القائد الإيطالى فى بداية شهر نيسان أن يتعهد له بعدم تحرك القوات الألمانية الإفريقية بدون أوامره قال له رومل محتجاً: «بصفتى قائدا ألمانيا يجب على إصدار التعليمات حسب ما يملى على الموقف».

ولقد أبدى رومل فى الحملة الإفريقية ضروباً من البراعة فى قيادة التنظيمات وتوجيهها وخصوصاً فى إرجاع التجمع على الفور بعد أية عملية، والاستمرار فى اكتساب النصر والغلبة، ولقد كان مغامراً عسكرياً نادراً، يسيطر بكل براعة على شئون التموين ويستخف بالدفاع، وكانت القيادة العليا الألمانية قد ألقت له الزمام فى بداية الأمر فأدهشها بانتصاراته، وجنحت إلى تقييد تصرفاته، وقد أنزلت بنا حيويته أضراراً فادحة مؤلمة، ولكنه جدير

بالتحية التى أرسلتها فى مجلس العموم فى كانون الثانى ١٩٤٥، مع ما جلبه إلىَّ من لوم الجماهير فقلت آنذاك إن أمامنا خصماً جريئاً بارعاً، بل إنى لأجد من الجرأة فى نفسى ما أستطيع به أن أقول: إننا نواجه جنرالاً عظيماً، خليقاً بكل تقدير، لأنه على الرغم من كونه جنديا ألمانيا مخلصاً، بدأ يمقت هتلر ويكره كل أعماله، واشترك فى مؤامرة عام ١٩٤٤ لإنقاذ ألمانيا من قبضة الدكتاتور المجنون، وقد دفع حياته ثمناً لهذا العمل.

كان مضيق العقيلة مرتكز الموقف كله، فإذا استطاع العدو اجتياح جبهتنا والوصول إلى أجدابية، فإن بنغازى وكل ما يقع إلى غرب طبرق، تغدو فى خطر، وكان على العدو أن يختار بين أن يمضى فى الطريق الساحلى الممهد إلى بنغازى وما وراءها وبين الطرق الصحراوية التى تصل مباشرة إلى المخيلى وطبرق، والتى تتخلل منطقة صحراوية يبلغ طولها مائتى ميل وعرضها مائة، وقد اخترنا نحن هذا الطريق فى شهر شباط الماضى فحاصرنا وأسرنا بضعة آلاف من الإيطاليين المنسحبين عبر بنغازى، ولم نكن نفاجأ قط إذا اقتحم رومل الطريق نفسه، وواجهنا بلعبتنا السابقة، ولكن مادمنا مسيطرين على العقيلة فإنه لن يستطيع استغفالنا بهذه الصورة.

وقد اعتمدت كل خطوة على إدراك طبيعة الحرب البرية والصحراوية معا فإن الحرب فى الصحراء تستلزم تفوقاً فى السلاح المدرع، وفى نوع الجنود لا كميتهم وتستلزم جوا معيناً. ولو ضمنا هذه الأمور لاستطعنا أن ننتصر فى معركة الانهيار والتماسك فى الصحراء حتى ولو أصبحنا ببوابة العقيلة، ولكن أى وضع من هذه الأوضاع لم يتهيأ لنا برغم كل الإعدادات التى اتخذناها، كانت قوات العدو الجوية متفوقة علينا، وكان سلاحنا المدرع فى حالة غير صالحة لأسباب سأذكرها فيما بعد، كما كانت أحوال جنودنا التدريبية ومعداتهم إلى الغرب من طبرق تثير الأسى.

وبدأ رومل فى هجومه على العقيلة يوم ٣١ آذار، وتراجعت وحدتنا

المدرعة التى لم تكن فى الحقيقة تتألف إلا من لواء واحد مع مساعديه تراجعت فى بطء خلال اليومين التاليين، وضح منذ البداية تفوق العدو الجوى، ولم نكن نلقى بالا - للطائرات الإيطالية. فثمة مائة طيارة ألمانية مقاتلة، ومائة من القاذفات المنقضة وفى مواجهة قسوة هذا الهجوم انتثر نظام جيوشنا ونزلت بنا أفدح الخسائر وانهار فى يوم واحد، وفى ضربة واحدة، جناح الصحراء الذى كان أساس جميع خططنا.

وأرسلت التعليمات بالجلاء عن بنغازى، ولم تأت ليلة ٦ نيسان، حتى كَان الإخلاء يتم بسرعة بالغة، وكانت طبرق قد دعمت بقوات إضافية وأصررنا على الاحتفاظ بها، ولكن الفرقة الثانية المدرعة وكتيبتان هنديتان مدرعتان فوجئت بحصار من قوات العدو فاستطاع عدد من الرجال اختراق طريقا للنجاة بأنفسهم من هذا المأزق، وأسروا حوالى مائة جندى ألمانى، ولكن الأغلبية قد استسلمت مرغمة، وعلى التو اندفع العدو إلى البردية والسلوم بواسطة عدد كبير من السيارات المدرعة الثقيلة والمشاة المحملين على السيارات. بينما شنت قوات أخرى هجومها على خطوط طبرق الدفاعية، واستطاعت قواتها الصمود أمام هجومين منزلة بدبابات العدو أضراراً بالغة، وهكذا استتب الأمر فى تلك الآونة بكل من طبرق والحدود المصرية.

كانت الهزيمة التى منى بها جناح الصحراء على حين وجود جيوشنا فى معركة اليونان فاجعة من نوع فريد، واستبدت بى الحيرة الكاملة فى العوامل التى أدت إلى هذه الكارثة، ولذا فقد أسرعت فى مساءلة الجنرال ويفل فى بداية فترة التوقف، وطلبت إليه أن يوضح لى بصورة كافية كل ما حدث، وكان مما لا ينسى أن الجنرال نسب إلى نفسه كل تقصير، ورأى أنه سبب الكارثة التى استنفدت كل ما لديه من سلاح مدرع.

وبينما كنت فى رتيشلى أقضى عطلة الأسبوع فى يوم الأحد ٢٠ نيسان وصلتنى رسالة كتبها الجنرال ويفل إلى رئيس أركان حرب الإمبراطورية يوضح

فيها خطورة الموقف، وقد توسع فى الحديث عما يوجد لديه من دبابات.

ورسم لى لوحة قاتمة، واستطرد قائلا: «ويظهر من هذا بوضوح أن هناك فرقتين فقط من الدبابات السريعة فى مصر فى أواخر شهر آيار، بينما لم تكن هناك أية قوة متوافرة لسد الفراغ حين وقوعه، وبالرغم من أن لدينا بمصر قوات مدربة ومتفرقة تكفى لعدة كتائب، وأن مدنا بالدبابات الثقيلة والسريعة أمر جهورى وخصوصا أن الدبابات الثقيلة تنقصها السرعة وتحتاج إلى مجال العمل الفسيح الذى تحتمه العمليات الصحراوية، أرجوك يا رئيس الأركان أن تبذل شخصيا كل ما فى وسعك».

وقد فزعت من قراءة هاتين الرسالتين ورأيت أن أتغافل عن كل تردد يبدو على الإمبريالية من إرسال القوات عبر البحر الأبيض المتوسط، وأن أرسل إلى الإسكندرية رأسا قافلة تتضمن ما يحتاج إليه الجنرال ويفل من الدبابات. وكنا قد جهزنا قافلة بإمدادات مدرعة ضخمة، وكادت أن تقلع إلى مصر عن طريق رأس الرجاء الصالح فقررت أن تتجه البواخر السريعة الحاملة للدبابات فى القافلة من جبل طارق نحو مصر متخذة أقصر طريق حيث توفر أربعين يوما، وحضر الجنرال إيسماى ليرانى عند الظهيرة وكان يقيم بالقرب من المنزل الذى أقيم فيه، فدفعت إليه برسالة خاصة ليبلغها بدوره إلى رؤساء الأركان، ورغبت إليه فى أن يذهب بها عاجلا إلى لندن، وأن يؤكد لرؤساء الأركان أننى أعطى أهمية بالغة لتنفيذ هذه الفكرة عاجلا.

وكان رؤساء الأركان فى الوقت الذى وصل فيه أيسماى إلى لندن يعقدون اجتماعات، فأخذوا يناقشون رسالتى فى ساعة متأخرة من الليل. وكانت إحساساتهم الأولى لا تؤيد ما جاء بها، كما كان أملهم ضعيفاً فى أن تستطيع السفن المحملة بالدبابات أن تمخر عباب المتوسط، متجنبة كل خطر، بينما تواجه بعد اجتيازها ماطلة ودخولها فى المضايق هجمات من طائرات العدو المنقضة، بينما لا تستطيع طائراتنا المقاتلة فرض حماية عليها من قواعدها

الساحلية، وأشار بعضهم إلى حاجتنا للدبابات فى داخل البلاد وإلى أن أية خسارة فى الدبابات خارج البلاد تستلزم - لتعويضها - إرسال دبابات أخرى من سلاحنا الداخلى.

وعندما اجتمعت فى اليوم التالى مع لجنة الدفاع أحسست بالارتياح لوقوف الأميرال باوند إلى جانب رأيى، وموافقته على عبور القافلة فى البحر المتوسط، وتعهد ماريشال الجو بورتال رئيس أركان السلاح الجوى أن يبذل كل ما فى وسعه لإرسال وحدة من طائرات «اليوفاتير»، لتضفى من جزيرة مالطة حمايتها على القافلة، ورغبت حينئذ إلى اللجنة أن تبحث فى إرسال مائة دبابة سريعة أخرى مع القافلة، فاعترض الجنرال ديل على ذلك بحجة افتقارنا إلى الدبابات فى الدفاع الداخلى، ولكنى تذكرت أنه أبدى موافقته سابقا وقبل عشرة شهور على إرسال نصف ما تحت يدنا من دبابات إلى الشرق الأوسط عن طريق رأس الرجاء الصالح، وكان هذا فى تموز سنة ١٩٤٠، لذلك لم أسلم بحجته الراهنة، ولعل القارئ يذكر أن خطر الغزو لم يكن بالنسبة لنا فى نيسان سنة ١٩٤١ خطراً مهدداً بالنظر إلى ما أعددناه من ترتيبات المقاومة، وها نحن اليوم نرى أن رأيى كان صائباً وقد استقر الرأى أخيراً على تنفيذ هذه الخطة التى دعوناها باسم «النمر».

وبينما حدث كل هذا كانت طبرق لا تزال تملأ خواطرنا، فقد فقدنا كل طائرات «الهاريكين» فى اليونان، وفى طبرق حطم عدد منها أو أسقط، وأكد ماريشال الجو لونغمور أن كل محاولة للإبقاء على سرب من الطائرات المقاتلة فى طبرق ستضيف خسارة جديدة دون أن تخدم غاية، وهكذا سيمضى العدو فى سيطرته الكاملة على سماء طبرق إلى أن نقدر ثانية على تجهيز قوة جوية محاربة، ومع ذلك فقد صدت قواتنا هناك هجوماً جديداً للعدو وكبدته خسائر لا يستهان بها، وأسرت من رجاله مائة وخمسين.

وقد أرسل إلينا الجنرال ويفل عاجلا أخباراً مروعة أخرى عما ينتظره

رومل من إمدادات جديدة، وأخبرنا بأن نزول الفرقة الألمانية المدرعة الخامسة عشرة إلى الساحل سيتم فى ٢١ نيسان، وكانت هناك علامات على استخدام بنغازى فى هذه العمليات بشكل منظم، وعلى الرغم من أن حشد المؤن يستلزم خمسة عشر يوما على الأقل إلا أن ويفل توقع أن تبدأ الفرقة الألمانية الجديدة المدرعة، والفرقة الخامسة الآلية الخفيفة، والفرقتان الإيطاليتان اريتى وتورنتو هجوماً فى منتصف حزيران، وقد أزعجنا ونحن فى الوطن أن نعجز عن استخدام بنغازى قاعدة، مفيدة، بينما يستطيع الألمان بعد سيطرتهم عليها استخدامها على هذا النحو.

وفى الأسبوعين التاليين أخذ اهتمامى وقلقى يجتمع فى سير عملية «النمر» ولم أهون أبدا من مدى الأخطار التى أخذ على عاتقه لورد البحر الأول مواجهتها، وأدرك أن الأميرالية تنظر للعملية بقلق وخوف، ومرت القافلة المكونة من خمس بواخر تسير بسرعة خمس عشرة عقدة بمضيق جبل طارق فى ٦ آيار تحت حراسة من قوة الأميرال سرموفيل التى تتكون من ريناون والملايو وارك رويل وشيفلد واحتوت القافلة كذلك على المجموعات التى بعث بها لتدعيم أسطول متوسط، وتتكون من الملكة اليصابات - ونایاد وفيجى، وصدت الغارات التى شنت على القافلة فى ٨ آيار دون أن تصاب إحدى القطع بأى سوء، لكن الألغام فى تلك الليلة قد انفجرت فى باخرتين لدى اقتراب القافلة من مضيق صقلية فنشبت الحرائق فى إحداهما وغرقت بعد الانفجار الذى حدث على سطحها، وقدرت الثانية على الاستمرار فى الرحلة مع القافلة، وعندما وصلت القافلة مدخل المضيق من جانب قناة سكيركى غادرها الأميرال سومر فيل بقواته وعاد إلى جبل طارق، وجاء الأميرال كنجهام الذى تهيأت له الفرصة فى ٩ آيار لتسيير قافلة إلى مالطة فالتقى بقافلة «النمر» بأسطوله على بعد خمسين ميلا جنوب الجزيرة، وشقت كل هذه القوات طريقها نحو الإسكندرية حتى رست بها فى أمان دون

أى ضرر أو خسارة.

وبينما كان قدر العملية كلها مجهول المصير، ذهبت بأفكارى إلى جزيرة كريت التى كنا على يقين من وقوعها تحت وطأة هجوم جوى بين لحظة وأخرى، وفكرت فى أن الألمان إذا قدروا على احتلال مطارات الجزيرة واستعمالها، فستكون لديهم الفرصة دائما لتعضيد مركزهم وتدعيم أوضاعهم، وأن فى مقدور اثنتى عشرة دبابة أن تفرض عليهم حرماناً أبدياً من هذه الفرصة، ولهذا طلبت من رؤساء أركان الحرب أن يدرسوا احتمال إقلاع عدد من بواخر القافلة «النمر» إلى كريت لتمدها بعدد قليل من هذه الدبابات قبل أن تصل إلى الإسكندرية.

وعلى الرغم من موافقة زملائى الخبراء على الأهمية القصوى لإرسال هذه الدبابات إلا أنهم رأوا أن الأسلم عدم استهداف بقية ما تحمله الباخرة لخطر مؤكد نتيجة لهذا التغيير، واستناداً لهذا طلبت فى ٩ آيار تجنبا لما يحدث من أخطار أنه لو أبحرت إحدى السفن كطلان لامونت مثلا إلى خليج سودا فى كريت، أن تبحر هى أو سواها بعد أن تنزل حمولتها فى الإسكندرية وتحمل اثنتى عشرة دبابة لتنزلها هناك، وأصدرت التعاليم بمقتضى هذا مباشرة، وأرسل إلينا ويفل فى ١٠ آيار أنه قد تمت الإجراءات لنبعث إلى كريت بست دبابات ثقيلة وخمس عشرة دبابة خفيفة.

ويحتمل وصولها خلال الأيام القليلة المقبلة إذا واتت الظروف، وكانت الأمور تسير سيراً حسناً لكن الزمن كان معنا فى سباق.



الفصل السادس عشر

معركة كريت

فى مختلف شئوننا فى البحر الأبيض المتوسط بدت بوضوح الأهمية الاستراتيجية لكريت، فالبوارج البريطانية التى تتخذ من خليج سودا قاعدة لها أو التى تتزود منه بالوقود تستطيع أن تفرض حماية ـ ليس من السهل تجاهل أهميتها ـ على جزيرة مالطة، فإذا استطعنا حماية قاعدتنا فى كريت ومقاومة كل الغارات الجوية، فإن تفوقنا البحرى يصد بصورة كافية كل هجوم عن طريق البحر، ولكن على بعد مائة ميل فقط من الجزيرة كانت توجد قلعة رودس الإيطالية بما جهزت به من مطارات شتى ومنشآت حربية مهمة، بينما لم يكن يوجد فى كريت سوى الصمت والجمود، وكنت قد أرسلت التعليمات المتوالية بضرورة تحصين خليج سودا، وأشرت فى إحداها إلى ضرورة تحصين هذا الخليج «سكابا فلو» بطريقة جديدة، والآن وقد مرت على الجزيرة وهى تحت سيطرتنا أكثر من ستة أشهر، وليس فى وسعنا تدعيم الميناء بمجموعة حديثة من بطاريات المدفعية المضادة للطائرات إلا إذا انتقصنا من حاجتنا الماسة فى جوانب أخرى، كما أن قيادة الشرق الأوسط كانت لا تعرف السبيل لسد احتياجاتها إلى العمال اللازمين لتوسع المطارات وإصلاحها، ولم تكن هناك ضرورة ملحة لوجود قوات كبيرة فى كريت أو حشد وحدة جوية كبيرة فى مطاراتها مادامت بلاد اليونان فى يد الحلفاء، ولكن كان المفروض أن تعد كريت كقاعدة تستقبل الإمدادات حين توفرها، وعند اقتضاء الظروف لإرسالها، ولاشك فى أن تبعة القصور فى تفهم المشكلة، وفى ضعف التنفيذ للأوامر الصادرة تتوزع بين القاهرة وهوايتهول

معا، ولم تتضح لى جسامة الأعباء التى يحملها كاهل الجنرال ويفل وجهازه، ومدى القصور فى تكوين هذا الجهاز إلا حين حلت بنا الكوارث فى برقة وكريت والصحراء، لقد جهد ويفل وسع طاقته، لكن الجهاز التنفيذى الذى كان تحت يده لم يكن كفء لتحمل الأعباء الكثيرة الهائلة المفروض اضطلاعه بها نتيجة لأربع أو خمس معارك تنشب فى وقت واحد.

وكان جهاز مخابراتنا فى ذروة دقته ومهارته فى تلك الآونة، ففى غمار الاضطراب الشديد الذى اجتاح أثينا غداة الاحتلال الألمانى لها، بدأ ضباط الأركان الألمان يتخففون مما اشتهر عنهم من حيطة وحذر، وكتمان شديد للأسرار الحربية، فدب النشاط فى وسائل استخباراتنا، وتذرعوا بالجرأة والحيوية، مما أتاح لنا فى الأسبوع الأخير من شهر نيسان أن نتلقى معلومات مهمة عن الضربة المقبلة لألمانيا، ولم يكن فى مقدور الألمان التستر على تحركات الفيلق الجوى الحادى عشر ولا نشاط رجاله، أو إخفاء سرعة تجميع القطع البحرية الصغيرة فى الموانئ اليونانية عن العيون اليقظة والآذان المرهفة، وقد تحمل بما لم يسبق له مثيل - متاعب شخصية فى دراسة كافة التقارير وتقدير شتى البراهين، للتأكد من درجة الوعى اللازمة لدى القادة بالأهمية الخاصة للهجوم المنتظر، وللتأكد من أنهم قاموا بنقل هذا الوعى إلى قاعدة العمليات الفعلية فى الميدان.

وكنت قد رغبت إلى رئيس أركان الحرب، أن يتولى الجنرال فيربرغ قيادة - جزيرة كريت، فأبلغ الرئيس بدوره رغبتى إلى الجنرال ويفل الذى وافق على الفور، وكان فريبرغ صديقى من سنين عديدة، وكان حائزاً على وسام صليب فكتوريا ووسام الخدمة الممتازة، ووسامين آخرين، مما يؤكد تفوقه فى أداء واجبه العسكرى، وكان كمثيله الأوحد - كارتون دى ويارث - يستحق لقب «الضفدعة» الذى أطلقته عليه، فكلا الرجلين بطل جابه النيران بصلابة وكاد أن يطير أشلاء دون أن يتأثر فى جسده أو فى معنوياته بما يتعرض له من

أهوال، ولم يكن أحق منه فى بداية الحرب بتولى قيادة الفرقة النيوزيلندية فتولى قيادتها، وكان يدور بذهنى فى شهر أيلول سنة ١٩٤٠ أن يعهد إليه بقيادة أكثر فاعلية، وها هى الفرصة المواتية التى تتقدم إليه فيها هذه القيادة المهمة ليتولى زمامها.

ولم يكن أى من فيربرغ وويفل واهماً أو خيالياً، فالوضع الجغرافى لجزيرة كريت يجعل من الدفاع عنها معضلة، فهناك طريق أحد يسير فى محاذاة الشاطئ الشمالى للجزيرة، وتوجد على امتداده كل النقاط الصالحة للهبوط والغزو فى الجزيرة، وكان من المحتم أن تصبح كل نقطة الوسائل الكافية لتأمينها، ولم يكن فى وسعنا توفير قوة احتياطية، حرة التحرك تتمكن من الانتقال الفورى إلى أية نقطة يقع عليها تهديد بعد أن يكون العدو قد قطع الطريق المشار إليه ودعم موقفه فيها، وهناك طرق غير صالحة للسيارات تمتد من جنوب الجزيرة إلى شمالها وعندما اقترب الخطر من الجزيرة أخذت العقول الموجهة تبذل ما فى وسعها لحشد الإمدادات والتموين والأسلحة وخاصة المدافع فى الجزيرة، ولكن الوقت كان قد مضى، ففى الأسبوع التالى من شهر آيار كان السلاح الجوى الألمانى من قواعده فى اليونان وجزر بحر ايجه قد قام بتطويق عنيد وكبدنا أضراراً جسيمة فى وسائل النقل وخاصة على الساحل الشمالى، وهو مكان الموانئ الوحيدة فى الجزيرة، فلم نستطع إنزال أكثر من ثلاثة آلاف طن من سبعة وعشرين ألفا من الإمدادات المهمة أرسلناها فى الأسابيع الثلاثة الأولى من شهر آيار إلى البر، وقد عادت بقية الحمولة، وكنا قد أوجدنا فى الجزيرة حوالى خمسين مدفعاً مضاداً للطائرات، وأربعة وعشرين كشافاً، وكان لدينا هناك كذلك خمس وعشرون دبابة خفيفة بعضها كان فى حاجة إلى إصلاحيات وتناثرت حامياتنا فى شتى المناطق التى يتوقع هبوط العدو بها وكان مجموع هذه القوات يبلغ حوالى ثمانية وعشرين ألفا.

ولكن السبب الرئيسى الذى مهد لهجوم الألمان هو ضعفنا الجوى، فكانت طائرات سلاحنا الجوى فى بداية آيار لا تعدو ستة وثلاثين طائرة، يصلح النصف منها فحسب لدخول معركة، وقد وزع هذا العدد القليل على ربيتمو وماليمى وهيراقليون، وكانت شيئا لا يعبأ به بالنظر إلى الأفواج الهائلة التى انهالت على سماء الجزير، وقد أدرك جميع من يهمهم الأمر ضعف سلاحنا الجوى، وفى ١٩ آيار أعطت التعليمات بانسحاب ما تبقى من طائرات إلى مصر، وكانت وزارة الحرب ورؤساء الأركان والقاعدة العاملون يدركون أن عليهم أن يختاروا بين أمرين: إما الاشتباك وسط هذه العوامل المروعة، أو الجلاء عن الجزيرة، كما كان ذلك متاحاً فى مطلع شهر آيار، ولكن اتحدت وجهات نظرنا على ضرورة الاشتباك، وعندما ندرك الآن بالنظر إلى ما توفر لنا أخيراً من دلائل، أنا بغض النظر عن كل صعوباتنا كدنا ننتصر فى القتال وأن ما أحرزناه بفشلنا كان مكسباً بعيد المدى ونحس بالارتياح، لأننا قررنا أن نغامر وسط هذه الأخطار، وأن ندفع الثمن مهما كان غالياً.

بدأ القتال فى صباح ٢٠ آيار، ولم نشهد حتى هذا التاريخ هجوماً أكثر منه اندفاعاً وعنفاً، فقد كان لأسباب كثيرة طرازاً وحده، لم ير العالم مثله، لقد كان أول هجوم فى سجل الحروب ينقل بالجو على نطاق واسع، وكان الفيلق الألمانى يمثل عنفوان حركة الشبيبة الهتلرية، كما كان تجسيدا عنيفا للثأر من اندحار عام ١٩١٨، وكان جنود المظلات النازيون بولائهم الشديد بسالتهم النادرة تعبيرا عن عنفوان الرجولة الألمانية، وعاطفتها المندفعة للتضحية على مذبح مجد ألمانيا ووهم السيطرة على العالم، وقد شاء القدر لهم أن يصطدموا بكبرياء جنود أتى أكثرهم من طرف العالم الآخر عبر المحيطات والبحار متطوعاً للدفاع عن الوطن الأب وعن كل ما يؤمن به من قيم الحق والحرية.

وبذلك الألمان أقصى ما فى وسعهم من قوة، فقد اعتبر غورنغ هذا الهجوم أعظم ما سيقوم به، وكان من المحتمل أن يفرض هذا الهجوم على

إنجلترا ذاتها سنة ١٩٤٠ لو دمر سلاحنا الجوى آنذاك، ولكن هذا الأمل ضاع هباء، وكان ربما يقع على مالطة، ولكننا أسرعنا بتفادى هذه الضربة، وقد لبث الفيلق الألمانى الجوى ينتظر ما يزيد على سبعة أشهر ليسدد هذه الضربة، وليكشف عن مدى قوته ونوع معدنه، وها هو غورنغ يجد فى وسعه أخيرا أن يصدر الأمر الذى تحرقوا شوقاً إليه، وعندما شب القتال لم تكن لدينا المعلومات الكافية عن جنود المظلات لدى العدو، وكان من المحتمل أن يكون الفيلق الجوى الحادى عشر وحدة من مجموع وحدات ست من هذا الطراز، وقد مرت بضعة شهور على المعركة قبل أن نعرف يقينا أن هذا الفيلق كان وحده كل ما لدى الألمان من هذا الطراز، لقد كان فى الواقع رأس الرمح للسلاح الألمانى، وهذه هى حكاية نجاحه وحكاية تدميره.

تم إسكات مدافعنا المضادة للطائرات فى ماليمى دفعة واحدة، وقبل انتهاء الضرب الجوى أخذت الطائرات التى تسير بلا محركات تنزل غرب المطار، وكانت الطائرات تمطر قواتنا حيث توجد وابلاً من قذائفها، واستحال القيام بهجوم مضاد فى وضح النهار ونزلت هذه الطائرات أو ناقلات الجنود على السواحل وعلى السهل الضيق وعلى أرض المطار الذى حطمته القذائف، واستطاع خمسة آلاف جندى ألمانى النزول إلى الأرض فى أول يوم حول ماليمى وكانيا وفيما بينهما، وقد كبدتهم نيران النيوزيلنديين الذين التحموا معهم فى معركة بالسلاح الأبيض أضراراً جسيمة، وعندما أتى المساء كان المطار لا يزال تحت أيدينا، ولكن من كان لا يزال باقياً من الفوج انسحب عنه إلى النقط المساعدة أثناء الليل واستهدف القصف الجوى العنيف ريتيمو وهيراقليون فى ذلك الصباح، وأعقب ذلك هبوط جنود المظلات عند الظهيرة، وشبت معركة حامية، وعندما جن الليل كان كل من المطارين تحت سيطرتنا الكاملة، وهكذا كانت نتيجة الاشتباك فى اليوم الأول مرضية إلى حد ما باستثناء القتال فى ماليمى، ولكن عدد الجنود الذين نزلوا فى كل نقطة من النقاط كان ضخماً، وقد كان عنف الهجوم أكثر مما دار فى خواطرنا كما أن العدو لم يكن يتوقع هذا الدفاع المستميت.

وفى اليوم الثانى واصل العدو غاراته القاسية، عندما أطلت الطائرات من حاملات الجنود، وبالرغم من أن مطار ماليمى ظل تحت وابل من نيران مدافعنا القريبة منه، إلا أن حاملات الجنود استمرت فى النزول به، وغرباً منه رغم وعورة الأرض، وبدا أن القيادة الألمانية كانت تستهين بالخسائر فقد دمرت حوالى مائة طائرة على الأقل خلال نزولها فى تلك المنطقة، ومع ذلك واصل العدو عنفوان هجومه وشنت هجوماً مضاداً فى تلك الليلة، زحفت فيه نحو أسوار المطار، ولكن عندما بزغ النهار عادت الطائرات الألمانية من جديد فاستحال على قواتنا الإبقاء على مكاسبها.

وأصبحت ماليمى فى اليوم الثالث بالنسبة للعدو مطاراً حسناً للعمليات واستمرت ناقلات الجنود تنهال بما يبلغ عشرين طائرة فى كل ساعة.

وكان فى مقدور هذه الطائرات أن تكرر عملياتها، وقد بلغ عدد الطائرات التى هبطت فى تلك الأيام التالية حوالى ستمائة طائرة، ونتيجة للضغط المتفاقم بدأ اللواء النيوزيلندى يتراجع إلى ما بعد ريتيموا، فقد بقيت لنا السيطرة على الموقف فى هيراقليون، بدأ العدو فى عملية إنزال شرقى المطار، وأخذ فى تثبيت أقدامه على مساحة تتسع شيئا فشيئا.

وفى الليلة التالية رأت قواتنا المجهدة ناراً تشتعل فى صفحة السماء من ناحية الشمال وشاهدوا بريق انفجارات، فأيقنوا أن أسطولنا بدأ يدخل المعركة وأخذت أول قافلة ألمانية بحرية تبذل محاولة مستميتة، فتعقبتها البوارج البريطانية طيلة ساعتين ونصف الساعة مغرقة اثنى عشر زورقاً على الأقل وثلاث بواخر مفعمة بالجنود الألمان، ويبلغ عدد الغرقى من رجال العدو حوالى أربعة آلاف فى تلك الليلة، وفى خلال ذلك كان الرير أميرال كنغ قد أمضى الليلة يمخر عباب البحر أمام هيراقليون على طراداته الأربع ومدمراته الثلاث، وعندما أطل صباح الثانى والعشرين بدأ يذهب نحو الشمال، فأغرق أحد الزوارق المزدحمة بالجنود، ووصل إلى جزيرة ميلوس

فى الساعة العاشرة، وبعد دقائق قليلة رؤيت مدمرة معادية ترافقها بعض الزوارق الصغيرة فى شمال الجزيرة، فناوشتها الوحدات البريطانية وشب بينهما القتال، ولاحت مدمرة أخرى وهى تنفث سحباً من الدخان، وتحت هذا الستار يغيب عدد آخر من القوارب، وهكذا اعترضت وحداتنا البحرية طريق قافلة أخرى مبهمة للعدو محملة بالجنود، وقد أخبرت طائرات الاستطلاع هذا إلى الأميرال كانينغهام، ولكن مرت أكثر من ساعة قبل أن يتأكد الأميرال كنغ من هذه الأخبار، وكانت قطعة البحرية تغير عليها الطائرات المعادية منذ الصباح وعلى الرغم من سلامتها التامة فإن ذخيرة المدافع المضادة للطائرات قد قاربت الانتهاء، ولم يدرك الأميرال أى مكسب كان على بعد خطوات منه، ولكنه أحس بأن استمراره فى المضى شمالا، يهدد قواته بالتوقف تماماً عن الحركة، ولذا فقد أعطى تعليماته بالتراجع غرباً، وعندما وصلته التعليمات إلى القائد العام أصدر أوامره الحاسمة.

«احرص على موقعك، واتصل بنا باستمرار..

يجب ألا ينزل الجيش الألمانى فى كريت، من المهم جدا ألا ينزل جنود الأعداء من البحر فى الجزيرة».

وقد مضت الفرصة الآن لتدمير القافلة التى رجعت أدراجها وتناثرت فى اتجاهات شتى بين مختلف الجزر، وهكذا فر خمسة آلاف جندى ألمانى من المصير نفسه الذى لقيته زملاؤهم، ولعل ما وضح الآن من غرابة هذا التصرف للقيادة الألمانية، وإصدارها الأمر لهذه القافلة بالسير محملة بالجنود، ودون أن تفرض عليها أية حماية فى مياه لا تسيطر بحرياً عليها ولا جويا، يعتبر مثالا لما كان يمكن أن يحدث، وعلى مدى أوسع فى بحر الشمال وقناة المانش فى أيلول من سنة ١٩٤٠ إنه يشير إلى نقصان خبرة الألمان ومدى فهمهم القاصر لأثر القوة البحرية فى مقاومة القوات المهاجمة، ويشير كذلك إلى الثمن الباهظ الذى قد تدفعه حياة البشر عقاباً على هذا النوع

الغريب من الجهل.

وكان الأميرال كننجهام قد عقد عزمه، على تحطيم الغزاة بطريق البحر مهما اتخذ من وسائل، ولذلك فقد ألقى بكل جنوده فى لهيب المعركة، ولم يعتره أى تردد فى هدفه فقذف بعدد من بوارجه الغالية فى الميدان بل أقحم كل أسطول الشرق الأوسط عن آخره، وقد أجمعت الأميرالية إجماعاً تاماً على قراره، ولم تكن القيادة الألمانية تقامر وحدها بكل شىء لديها فى هذه المعركة، ولذلك أكدت الأحداث التى وقعت فى الثمانى والأربعين ساعة بين الحرب البحرية للعدو أن محاولة إنزال قواته من البحر مستحيلة، فلم يكرر المحاولة نفسها مرة أخرى حتى تحدد مصير جزيرة كريت.

وفى يومى الثانى والعشرين والثالث والعشرين من آيار دفع أسطولنا ثمنا غاليا فقد منى طرادان منه وثلاث مدمرات بالغرق كما توقفت البارجة وورسبايت عن التحركات لمدة غير قصيرة، ومنيت البارجة الأخرى فاليانت وغيرها من القطع البحرية بخسائر فادحة، وبالرغم من كل ذلك حمينا الجزيرة بحريا، ووفق الأسطول فى أداء واجبه، ولم يستطع ألمانى واحد أن يطأ بقدمه الجزيرة عن طريق البحر إلى أن انتهت المعركة.

وكان يوم ٢٦ أيار يوماً فاصلاً، فطيلة الأيام الستة الماضية كانت قواتنا هدفاً لقسوة ضارية، ولم يكن فى وسعها أن تصمد أكثر، فاتخذ فى تلك الليلة قرار الانسحاب من كريت، وفرض علينا أن نقوم من جديد بتلك العمليات الشاقة المزعجة، وأن نتوقع أفدح الخسائر، وأن يقوم الأسطول المنهك القوى بعملية ترحيل لحوالى اثنين وعشرين ألف جندى أغلبهم من الساحل المنكشف فى «صفاقية» وكان من المحتم أن تستتر القوات بالصخور إلى أن تدعى لركوب البواخر، وكان هناك على الأقل خمسة عشر ألف جندى يتخذون من شقوق الأرض وأخاديدها مخابئ لهم بالقرب من صفاقية، بينما استمرت المؤخرة فى مناوشات مستمرة مع الأعداء.

وحدثت فاجعة للحملة التى جهزها الأميرال رولينجز فى الوقت نفسه لإنقاذ رجال الحامية إلى الطرادات المنتظرة بالخارج، وتمت المهمة فى الساعة الثانية والنصف صباحا، وأبحر أربعة آلاف جندى على السفن الحربية التى أخذت سبيل العودة، وكانت القيادة قد دبرت تأميناً جوياً لهما ولكن الطائرات المقاتلة لم تستطع الوصول، ولا العثور على السفن لتغيير المواقيت، وفى السادسة صباحاً بدأت الغارة العنيفة تمطرهم بوابل من القذائف، وتواصل ذلك حتى الثالثة مساء عندما بدت القافلة على بعد مائة ميل من الإسكندرية، وأصيبت المدمرة «هيروورد» إصابة شديدة فى الساعة السادسة والدقيقة الخامسة والعشرين، ولم تقدر على الاستمرار فى رحلتها وفر الأميرال وكان محقاً فى ذلك أن يدع المدمرة المصابة لتواجه أقدارها ورؤيت للمرة الأخيرة بالقرب من شواطئ كريت، وقد نجا أكثر من كانت تقلهم من الجنود، ولكن الألمان قد أسروهم، وفيما بعد حدث أسوأ من ذلك، فقد أصيب الطرادان ديدو، وأوريون، والمدمرة ديكوى فى خلال الساعات الأربع التالية، وخفت سرعة القافلة إلى إحدى وعشرين عقدة، ولكن سائر قطعها استمرت فى السير نحو الجنوب، وعلى سطح الطراد أوريون كانت الأحوال مثيرة للرعب فعلا، فقد كان هناك ألف ومائة جندى فضلا عن رجالها، وقد قتل حوالى ٢٦٠ جنديا، وأصيب ٢٨٠ جنديا آخر بجراح نتيجة لاختراق قنبلة ظهر الطراد، وقد سقط قبطان الطراد «باك» قتيلا وشبت فيه الحرائق ولاحت فى الأفق لدى الظهيرة طائرتان من نوع الفولمار من سلاحنا الجوى فأثارت فى النفوس مشاعر التفاؤل، وبرغم ما قال به سلاحنا الجوى من جهود فلم تستطع طائراته أن تعثر على الوحدات المعذبة، مع أنها اشتبكت فى أكثر من قتال وأصابت طائرتين من طائرات العدو على الأقل، وعندما انتهت القوات إلى ميناء الإسكندرية فى الساعة الثامنة مساء ٢٩، ورؤى أن مجموع الذين قتلوا أو جرحوا أو أسروا يبلغ خمس قوات الحامية التى كتبت لها النجاة من هيراقليون.

وبعد هذه المحن كان على الجنرال ويفل ورفاقه أن يفكروا إلى أى مدى سيحاولون إنقاذ جنودهم من جزيرة كريت، لقد كان الجيش فى خطر داهم، وليس فى وسع السلاح الجوى أن يفعل شيئا، وكل الأعباء تثقل كاهل الأسطول المنهوك القوى الذى أصابته القذائف وكان من رأى الأميرال لينجهام أن ترك الجيش ليواجه قسوة هذا الاختبار أمر يتجاوز حدود تقاليده البحرية وصرح الأميرال بأن إنشاء سفينة واحدة يستغرق من الأسطول ثلاث سنوات ولكن تدعيم تقاليد جديدة يتطلب ثلثمائة عام، ولذلك فلن تنقطع مهمة نقل الجنود.

وعندما أتى صباح ٢٩ كان خمسة آلاف جندى قد أنقذوا، ولكن مازال عدد كبير يدفع ثمن بقائه، ويتستر فى مداخل صفاقية، ويتعرض لنيران العدو إذا ما غادر مخابئه بعض الوقت، وكان اتخاذ قرار الإنقاذ بما فيه من مغامرة أخرى بخسائر بحرية غير معروفة المدى قرارا يحمل مبرراته ليس بالنظر إلى بواعثه فحسب، بل باعتبار النتيجة أيضا.

وأبحر الأميرال فى يوم ٢٨ إلى صفاقية واستطاع ستة آلاف جندى فى الليلة التالية أن يصلوا إلى سفن النقل دون ما تدخل من الأعداء، وعلى الرغم من استهداف القوات البحرية للهجوم ثلاث مرات يوم ٣٠ من الشهر نفسه إلا أنها وصلت إلى الإسكندرية سالمة، وهم مدينون لحسن حظهم لطائرات السلاح الجوى الملكى، التى استطاعت رغم عددها الضئيل، أن تصد الطائرات المعادية فى أكثر من غارة قبل أن تتمكن من أهدافها، وفى صباح يوم ٣٠ أبحر القبطان أرليس ثانية إلى صفاقية وبصحبته مدمرات أربع، اضطرت اثنتان منها إلى العودة، واستطاعت الأخريان إجلاء ألف وخمسمائة جندى بنجاح. وبرغم الأضرار التى أصيبتا بها فى طريق العودة إلا أنهما وصلتا إلى الإسكندرية بسلام. وكانت القطع البحرية قد نقلت ملك اليونان بعد أن صادف كثيرا من الصعاب وفى رفقته وزيرنا المفوض فى أثينا، وفى تلك الليلة أيضا، تم إنقاذ الجنرال فريبرج عن طريق الجو تنفيذاً لأوامر

القائد العام.

وأرسلت التعليمات بالقيام بمحاولة أخيرة فى ٣٠ آيار لإجلاء من ظل هناك من القوات، وكان عدد الموجودين فى صفاقية لا يزيد فى احتمالنا على ثلاثة آلاف جندى، ولكن الأنباء التالية أكدت أن هذا العدد يبلغ الضعف، وفى صباح يوم ٣١ أبحر الأميرال لينتج ثانية، ولم يكن هناك رجاء فى إجلاء الجميع، ولكن تعليمات الأميرال كننجهام اقتضت بأن تحمل البواخر أقصى ما يمكن، وقيل للأميرالية فى الوقت نفسه بأن هذه آخر ليلة فى عمليات الإنقاذ، وتم الركوب فى أمان وفى الساعة الثالثة من صباح أول حزيران أبحرت البواخر وعلى ظهرها حوالى أربعة آلاف جندى وصلوا الإسكندرية بسلام.

وبقى فى كريت أكثر من خمسة آلاف جندى من الوحدات البريطانية والإمبراطورية وأذن الجنرال ويفل لهم بالاستسلام، ولكن كثيرين منهم تناثروا فى أنحاء الجزيرة الجبلية التى يبلغ طولها مائة وستين ميلا، وقد أعانهم أهل القرى والريفيون بحاجاتهم من المؤن وضمدوا جراحهم، هم والجنود اليونانيين، ولكن وقعوا تحت طائلة عقاب وحشى عندما عرف الألمان حقيقتهم، وامتدت هذه العقوبات الوحشية للفلاحين الطيبين الأبرياء، فصدرت أوامر إعدامهم بالجملة فى مجموعات يبلغ عدد كل منها عشرين أو ثلاثين إنسانا.

وكان هذا هو السبب الذى دفعنى لأقدم اقتراحاً بعد ثلاث سنوات أى فى سنة ١٩٤٤ إلى مجلس الحرب الأعلى يقضى بمحاكمة مرتكبى هذه الجرائم الوحشية فى جزيرة كريت وأن يحاكم المتهمون فى قلب الجزيرة، فأخذ باقتراحى وسددت كثير من الديون الضخمة.

انسحب إلى مصر فى سلام ستة عشر ألفا وخمسمائة جندى، أكثرهم من قوات بريطانيا وإمبراطوريتها، واستطاع حوالى ألف جندى آخر أن يمهدوا لهم طريق الفرار بمعاونة الفدائيين الباسلة، ووصلت خسائرنا إلى ثلاثة عشر ألفا بين قتيل وجريح وأسير فضلا عن ألفين من رجال القطع البحرية، وقد

أحصيت بعد الحرب بالقرب من ماليمى وخليج سودا حوالى أربعة آلاف قبر ألمانى، وألف قبر أخرى بالقرب من ويتمو وهيراقليوان فإذا ما أضيف إلى هذا الأعداد الضخمة المجهولة التى ابتلعتها الأمواج، بدت لنا خسائر الألمان فى صورة باهظة، فلن يبلغ عددها أقل من خمسة عشر ألفاً بين قتيل وجريح، كما دمرت حوالى مائة وسبعون طائرة من طائرات النقل، وأيا ما كان الأمر، فإن النصر الذى أحرزوه لا يمكن أن يقارن بالمجازر الذى نزلت بهم.

فمعركة كريت ليست سوى مثال للنتائج الفاصلة التى يتمخض عنها قتال عنيف بعيدا عن قدرات المناورة للفوز بمواقع استراتيجية، ولم نكن ندرى شيئا عن عدد فرق جنود المظلات الألمانية، ولكن الفرقة السابعة المحمولة بالجو كانت الفرقة الوحيدة التى فى حوزة جورنج، وقد دمرت هذه الفرقة فى كريت، فقد قضى على أكثر من خمسة آلاف جندى من أكثر محاربيه شجاعة، وقد تهدم الكيان الكلى لهذه الوحدة بصورة يعز ترميمها، فلم تظهر ثانية بشكل حيوى فعال، وتستطيع القوات النيوزيلاندية والبريطانية والإمبراطورية واليونانية أن تقول إنها احتملت عبئا لا ينكر فى عملية جلبت لنا الكثير من راحة الأعصاب فى ظروف مروعة.

فقد زال الخطر الرهيب لسلاح جنود المظلات الألمانى، فلم يعد إلى الظهور بصورة حيوية فى معارك الشرق الأوسط، نتيجة للأضرار البالغة التى حاقت به فى محاربيه الممتازين، وقد نال جورنج فى كريت انتصاراً أشبه بالهزيمة، لأن الجهود التى بذلها هناك كانت كافية لسيطرته على قبرص والعراق وسوريا وربما فارس أيضا فمثل القوات ضرورية للاستيلاء على مناطق واسعة الأماد، حيث لا تواجه بمقاومة جادة أو عنيفة، ولعله أصيب بكثير من خطل الرأى إلى الدرجة التى أطاح فيها بمثل تلك الفرص السانحة بينما ضحى بقوات لا تعوض فى قتال بائس لعب فيه السلاح الأبيض الدور الأكبر من مقاتلى الإمبراطورية البريطانية.

وقد حصلنا على «تقرير المعركة» الذى أعده الفيلق الجوى الألمانى الحادى عشر الذى كانت الفرقة السابعة المحمولة بالجو بعضا منه، وعندما نوجه نقدنا القاسى إلى أنفسنا وإلى خططنا، فقد يكون من المفيد أن نضيف إلى ذلك وجهة نظر الفريق المضاد «لقد كتب الألمان ما يلى: كانت قوات البر البريطانية فى كريت ثلاثة أضعاف ما دار فى احتمالنا، وقد أعدوا فى غاية المهارة والدقة عمليات الدفاع فى الجزيرة، وجهزوا المنطقة بكل الطرق المستطاعة... وأتقنت عمليات التعمية بمهارة فائقة، ونتيجة لافتقارنا إلى المعلومات الصائبة عن مدى قوة العدو ونوع موقفه، عرضنا هجوم الفيلق الجوى الحادى عشر، وكبدناه أضراراً جسيمة ظهرت نتائجها»...

واهتز الموقف فى البحر المتوسط نظرياً على الأقل بالأضرار الجسيمة التى حاقت بنا فى جزيرة كريت وحين الانسحاب منها، وكانت معرفة ماتايان فى ٢٨ آذار قد اضطرت الأسطول الإيطالى أن يلتزم مواقعه حينا. أما الآن فقد منى أسطولنا بخسائر جديدة باهظة، وبانتهاء القتال فى كريت لم يجد الأميرال كننجهام تحت تصرفه سوى بارجتين وثلاث طرادات وسبع عشرة مدمرة، وهناك تسع طرادات أخرى ومدمرات رهن الإصلاح فى مصر، أما البارجتان وورسبايت و«برهام»، وحاملة الطائرات الوحيدة «فورميدال» وسواها من القطع البحرية، فكان عليها أن تبحر من الإسكندرية حيث تستصلح فى مناطق أخرى، وقد خسرنا ثلاث طرادات وست مدمرات وعلينا أن نرسل فورا بالإمدادات التى تعيد التكافؤ للموقف البحرى، ولكن كوارث أخرى كانت معنا على ميعاد، وهذا ما سيتضح بعد حين، وهيأت ظروفنا الشائكة أحسن الفرص للعدو ليتحدى سيطرتنا على البحر المتوسط والشرق الأوسط، ويتمادى فى الشك بهذه السيطرة، بكل ما يعنيه هذا الشك وذلك التحدى من أخطار علينا، ولم نكن نستطيع أن ننكر عدم فوزه إذا خاض غمار التجربة.

الفصل السابع عشر

الجهد الأخير للجنرال ويفل

بينما كان وطيس المعركة فى كريت والصحراء الغربية يشتد إلى أبعد مداه والبحث عن البارجة «بسمارك» باقتناصها ومواراتها فى أمواج الأطلنطى كانت مصاعب لم تسفك فيها كثير من الدماء، ولم يبلغ فى أخطارها حدا كبيرا قد بدأت تعترض طريقنا فى سوريا والعراق، وكانت معاهدتنا مع العراق سنة ١٩٣٠، تسمح لبريطانيا فى أوقات السلم ـ فضلا عن أشياء أخرى ـ بإنشاء قاعدتين أولاهما قرب البصر والأخرى فى الحبانية، وتعطى لقواتنا المسلحة ومعداتها حق المرور فى سائر الأوقات وتضمنت المعاهدة - أيضا - أن لجيوشنا فى حالة الحرب أن تجد كل تسهيلات مستطاعة من خطوط حديدية وأنهار وموانئ ومطارات لتيسير التنقلات، وعندما أعلنت الحرب، قطع العراق علاقته الدبلوماسية مع ألمانيا، وإن كان لم يشهر عليها الحرب، وصارت المفوضية الإيطالية فى بغداد هى مقر الدعاية للمحور، وإثارة مشاعر العداء لبريطانيا وكان يسهم فى تلك المهمة مفتى القدس الذى فر من فلسطين قبيل إعلان الحرب، وذهب إلى بغداد كلاجئ سياسى وتعرضت سمعة بريطانيا بعد هزيمة فرنسا للتدهور، وانتابنا القلق للأوضاع هناك، ولكننا لا يحقق النتيجة المرجوة وربما يكون بعد فوات الأوان، وأى ضعف ينتاب أفضل ما نستطيع من وسائل.

وفى آذار عام ١٩٤١ حدث التغير السيئ، فقد أصبح رشيد عالى الذى كان منساقاً للألمان رئيسا للوزراء، وفر من العراق الأمير عبد الإله الوصى المتضامن مع بريطانيا، وتحتم علينا أن نستوثق من بقاء البصرة، الميناء

الرئيسى للعراق على الخليج العربى، مؤمنا لحسابنا، ولذا فقد أرسل الجنرال أوكنلك القائد العام فى الهند مجموعة لواء، استقلت الشاطئ فى ١٨ نيسان دون مقاومة. وبدأ رشيد عالى الكيلانى العمل مستنداً إلى مساعدة الطائرات الألمانية وجنود المظلات فى تحركاته.

وكان اتجاهه فى بادئ الأمر نحو الحبانية قاعدتنا الجوية للتدريب فى صحراء العراق، وبها حوالى ٢٢٠٠ جندى وتسعة آلاف عامل مدنى، وأصبحت مدرسة الطيران هناك ذات أهمية خاصة، فبدأ مارشال الجو الذى كان يتولى قيادة القاعدة فى اتخاذ إجراءات مؤقتة صغيرة، وكان كل ما فى القاعدة من طائرات كان طائرات تدريب أو طائرات أصابها العطب، فطلب من مصر بعضا من طائرات «الجلاد يتيور» فتوافد إلى القاعدة على الفور حوالى اثنتين وثمانين طائرة شكلت فى أربع مجموعات، ووصلت دفعة أخرى بريطانية من الهند فى ٢٩ نيسان، وكان محيط كل هذا القطاع حوالى سبعة أميال ليس له من وسائل الدفاع سوى خط واحد ضعيف من الأسلاك، وفى ٣٠ نيسان لاحت القوات العراقية القادمة من بغداد على ربوة لا تبعد عن المعسكر أكثر من ميل واحد، وتطل عليه وعلى المطار فى الوقت نفسه ثم انضمت إليها قوات أخرى للتعزيز حتى بلغ العدد حوالى تسعة آلاف جندى وخمسين مدفعاً، ومر اليومان التاليان فى مباحثات من الجانبين بلا جدوى، وفى فجر ٢ آيار بدأ الاشتباك.

وواجهنا فى سوريا خطرا مماثلا مع ضيق مواردنا وقلتها، وكانت سوريا إحدى ممتلكات فرنسا فيما وراء البحار، ورأى الفرنسيون فيها أن الهدنة التى وقعتها حكومتهم فى فيشى تسرى عليهم شروطها، وكانت السلطات فى فيشى من جانبها تحاول جاهدة أن تحول بين جنود فرنسا فى الشرق وبين الانضواء تحت لواء الحلفاء فى فلسطين، وفى شهر آب عام ١٩٤٠ وصلت لجنة الهدنة الإيطالية إلى البلاد، وأفرج عن المعتقلين الموالين للألمان الذين

تحفظ عليهم منذ نشوب الحرب، فأتيحت الفرصة ليبذلوا كل الجهود، ولم تأت نهاية العام حتى وصل عدد آخر من الألمان واستطاعوا بالأموال الكثيرة التى بذلوها أن يوقظوا المشاعر المعادية لبريطانيا والصهيونية بين العرب فى الوقت نفسه الذى استولى رشيد عالى فيه عنوة على السلطة. فأثارت سوريا قلقنا أيضا. كانت الطائرات الألمانية قد بدأت فى شن غاراتها على السويس من قاعدتها فى جزر الدوديكانيز، وكان فى مقدورها أن تعمل إذا رغبت ضد سوريا، وخصوصا بقوات منقولة عن طريق الجو، ولو استطاع الألمان التمكن من سوريا لأضحت مصر وقناة السويس ومعامل تكرير الزيت فى عبادان واقعة تحت خطر التهديد المباشر من الهجوم الجوى المتواصل، وستكون طرق مواصلاتنا البرية بين فلسطين والعراق معرضة للخطر أيضا، وربما تثير هذه التغيرات قلاقل فى مصر، كما أن هذا سيعتبر ضربة قاصمة على سمعتنا فى تركيا وسائر دول الشرق الأوسط.

وما كان رشيد عالى يطلب العون العسكرى من هتلر حتى بدا الأميرال فى إجراء مباحثات مع الألمان حول اتفاق مبدئى عن سوريا واتفقوا على توصيل ثلاثة أرباع المواد الألمانية الموجودة لدى بعثة الهدنة الإيطالية فى سوريا والعراق، وأن تسهل للطائرات الألمانية سبل النزول فى مطاراتها، وصدرت التعليمات للجنرال وأنزل المفوض السامى الفرنسى والقائد العام بتنفيذ هذه الأوامر، وما اقترب آيار من نهايته حتى استقبلت مطارات سوريا مائة طائرة ألمانية وعشرين إيطالية.

ومنذ أن بزغ هذا التهديد الجديد، بدا على الجنرال ويفل تردد واضح فى القدرة على استيعاب مهام جديدة، وأبدى أن كل ما فى وسعه لبعده ضد سوريا لا يعدو مجموعة لواء واحد، وقال إنه سيبذل كل ما فى وسعه، وسيطلق الشائعات عن وجود قوة كبيرة على أهبة الاستعداد فى فلسطين فربما تفكر حكومة العراق فى موقفها، ولكن ما يقدر على توجيهه بالفعل لا

يحقق النتيجة المرجوة وربما يكون بعد فوات الأوان، وأى ضعف ينتاب قواتنا فى فلسطين يوقفها على حافة الخطر، خصوصا والحث على الثورة يجوب أنحاءها. وأبرق قائلا: «لقد حذرتكم دائما أن من المستحيل إرسال أية مساعدة للعراق فى الظروف الحالية عن طريق فلسطين، وكثيراً ما نصحت بالابتعاد عن أى التزام هناك، فقواتى منتشرة إلى أبعد مدى فى كل مكان، وليس فى استطاعتى أن أقامر بأى فريق منها فى عمليات يملؤنى اليقين بعدم جدواها».

أما الجنرال أوكنلك، فقد عرض علينا مدى المساعدات التى فى مقدوره أن يمد بها العراق، إذا حصلت على الحماية الكافية فى وسائل النقل الضرورية، والتى أوضح أنها تصل إلى خمسة الوية من المشاة عدا قوات أخرى مساعدة، مما أثار إعجابنا بحماسته واندفاعه، أما الجنرال ويفل فلم يكن ينصاع للتعليمات دون أن يرفق بذلك احتجاجه وتبرمه، وفى ٥ آيار أرسل لنا برقية قال فيها:

«أرى من واجبى أن أحذركم بلا تردد فى أن امتداد القتال فى العراق يعرض الدفاع عن فلسطين ومصر للخطر، وقد يترتب عليه من النتائج السياسية ما لم يدر فى الحسبان، وقد يحدث نتيجة له ما بذلت عامين فى محاولة تجنبه، وهو اندلاع فتن خطيرة داخل قواعدنا، ولهذا فإنى استحثكم ثانية بكل قوة وإصرار على أن الواجب يحتم عليكم التباحث مع العراق من أجل الوصول إلى ترضيات مقبولة فى أقصر مدى مستطاع».

ولم أكن مقتنعاً بذلك، وعندما عرفت أن رؤساء أركان الحرب يوافقوننى عرضت القضية على لجنة الدفاع عندما انعقدت ظهر اليوم التالى، وانتهى الاجتماع إلى قرارات نهائية مؤكدة، فأرسلنا إلى الجنرال ويفل تبعاً لذلك التعليمات الآتية: «لا نقبل إنهاء الموقف عن طريق المباحثات إلا بخضوع العراقيين وتعهدهم بالتخلى عن أية مشاريع قادمة للمحور فى العراق، أما

الوضع هناك فإنه يؤكد الولاء التام للمحور من جانب رشيد عالى، وأنه كان ينتظر الوقت الذى يمد فيه المحور له يد العون، قبل أن يكشف عن حقيقة اتجاهاته، وقد اضطره وصولنا للموصل إلى الإفصاح عن نواياه، قبل أن يقدر الألمان على مساعدته، وهناك فرصة لاشك فيها للسيطرة على الموقف ثانية بالعمل الفورى الحاسم».

«وقد تعهد رؤساء أركان الحرب بتحملهم لكل مسئولية تنتج عن إرسال القوات المعينة فى برقيتك على الفور، وتطلب لجنة الدفاع الإبراق إلى نائب ماريشال الجو سمارت بأن المساعدة المطلوبة فى طريقها إليه: وأن الواجب يحتم عليه فى خلال ذلك الدفاع عن الحبانية إلى أقصى ما يمكن، ومن المحتم أن نرسل إلى العراق غاية ما فى الوسع من المدد الجوى لتعضيد العمليات هناك بشرط أن تستمر حماية الأمن فى مصر».

وفى خلال ذلك بدأت طائراتنا فى الحبانية وقاذفاتنا العاملة من طراز ويلنجتون من قاعدة الشعبية تشن هجومها على القوات العراقية المتجمعة على ربوتها، وقد أجابت هذه القوات بمدافعها المضادة، وأسهمت الطائرات العراقية بقذائفها ونيران مدافعها الرشاشة، وقد قتل وجرح حوالى أربعين جنديا من قواتنا فى اليوم الأول، كما تحطمت حوالى اثنتين وعشرين من طائراتنا، وعلى الرغم من الخطورة التى تهدد الطيران من منطقة تقترب منها نيران مدفعية العدو، إلا أن طيارينا خاضوا التجربة ببسالة، ولم يهاجمنا المشاة العراقيون، وصمتت مدافعهم بعد قليل، فلم تستمر فى قصفها لغاراتنا الجوية، أو لطائراتنا حينما تحلق فوق قواتهم، فكانت حالتهم العصبية فرصة لنا انتهزناها فى اليوم الثانى ليقوم بهجوم جوى جزء من سلاحنا الجوى على قواعد السلاح الجوى العراقى، وشنت الدوريات هجومها فى ليلتى الثالث والرابع على الجبهة العراقية، وفى الخامس وبعد أربعة أيام من هجمات سلاحنا الجوى الملكى، كنا قد أنزلنا الكثير بالعراقيين فاضطروا

فى تلك الليلة إلى الجلاء عن مواقعهم وتبعتهم قواتنا فى حملة ناجحة كانت نتائجها أن أسرنا أربعمائة عراقى، واستولينا على اثنى عشر مدفعا وستين مدفعا رشاشا وعشر سيارات مصفحة، ووجدت طائراتنا قوات فى طريقها للتعضيد فأمطرتها وابلا من نيرانها، وفى ٧ آيار فك الحصار، وفى ١٨ من الشهر نفسه وصلت طلائع المدد الحربى المرسل من فلسطين.

وعندئذ أصبح العراقيون غير منفردين، ففى ١٣ آيار هبطت بالموصل طليعة الطائرات الألمانية وغدت المهمة الأولى لسلاحنا الجوى شن الهجوم عليها، وقطع طرق تموينها من سوريا فى الخطوط الحديدية وبعد بضعة أيام كنا قد دمرناها ووصلت مجموعة من الطائرات المقاتلة الإيطالية فيما بعد، ولكن تحركاتها قد شلت تماما، ووصل الضابط الألمانى الذى يحمل عبء توزيع العمليات فى العراق بين قوات المحور وقوات العراق وهو ابن الماريشال بلومبرج، وصل إلى بغداد، مصاباً فى رأسه، بطلق نارى من حلفائه، ولم يستطع من جاء بعده ـ وقد انتهى إلى مطار بغداد سالما ـ للقيام بأى عمل، فتبدد كل أمل للمحور، فى أن يكون عاملا له أثره فى العراق.

وفى ٣٠ آيار زحفت مقدماتنا حتى مشارف بغداد، وعلى الرغم من وهن قواتنا، ومن وجود فرقة عراقية كاملة ببغداد، إلا أن أعصاب رشيد عالى وزملائه، لم تستطع الصمود أمام زحف جيوشنا. فالتمسوا الفرار إلى إيران، وبصحبتهم وزيرا ألمانيًا وإيطالياً فى بغداد ومفتى فلسطين، وفى اليوم التالى عقدت الهدنة وأعيد الوصى إلى منصبه وشكلت حكومة عراقية جديدة، وسيطرت قواتنا على جميع المناطق المهمة فى العراق.

وهكذا حاق الفشل بالخطة الألمانية التى هدفت إلى إحداث انقلاب فى العراق والاستيلاء على هذه الجبهة العريضة بثمن زهيد فى اللحظة الأخيرة، وكان لديهم فى ذلك الوقت بكل تأكيد قوات تنتقل عن طريق الجو، وتمهد لهم وسائل الاستيلاء على سوريا والعراق وإيران بكل ما تملكه من آبار

البترول الغنية، وكان فى استطاعة يد هتلر الممتدة أن تصل بعيداً إلى الهند، وأن تمر على اليابان، ولكنه على أية حال قد رغب ـ كما عرفنا ـ أن يوجه سلاحه الجوى بكل قواه فى طريق آخر، ولاشك أنه لم ينتهز هذه الفرصة طمعاً فى هدية أعلى بتكاليف أقل فى أنحاء الشرق الأوسط طولاً وعرضاً.

واضطررنا لكبح آمال الألمان فى سوريا أن نوالى الضغط على ويفل، وقد رغب فى ألا نحمله تبعات حملة فى سوريا، إلا إذا أصبحت الحاجة ماسة إلى ذلك، وقد أجابه رؤساء أركان الحرب بألا مندوحة له عن حشد أكبر عدد ممكن لغزو سوريا على ألا تتأثر سلامة قواته المرابطة فى صحراء الغربية، وفى ٢١ آيار فى الوقت الذى بدأ الألمان فيه يشنون هجومهم على كريت كان ويفل يبلغ تعليماته للجنرال ويتلاند ولسون بالاستعداد للزحف.

وبدأت الإغارة فى ٨ حزيران بتعضيد من أحرار الفرنسيين، وقوبلت بالمقاومة بادئ الأمر، ولم يكن من الواضح مدى ما ستحارب إليه فيشى، وعلى الرغم من عدم وجود عنصر المفاجأة فى زحفنا، إلا أن البعض قد ظن أننا سنلقى مقاومة رمزية ليس إلا، ولكن عندما أدرك الفرنسيون ضعف موقفنا قويت عزائمهم على القتال وربما لا نجد سبباً آخر لعنف مقاومتهم سوى الاحتفاظ بسلامة شرفهم العسكرى، وبدا لويفل بعد قتال دام أسبوعاً أن عليه أن يرسل مؤازرة أخرى، فاستطاع أن يعد فوجاً آخر ومن بين قواته الوحدة التى استولت على بغداد فيما سبق، واستولى الإستراليون على دمشق بعد ثلاثة أيام دار فيها قتال مرير، وكان ذلك فى ٢١ حزيران، وقد عضدت زحفهم على المدينة عملية باسلة استوجبت الثمن غالياً هبطت فيها وحدة من الفدائيين الحادية عشرة خلف خطوط العدو من البحر، وأحس الجنرال رانتز بأنه بذل ما فى وسعه واستنفد طاقته، وكان لا يزال حوالى أربعة وعشرين ألف جندى يقاتلون معه، ولكن أمله فى الاستمرار كان قد انهار، فلم يبق من قواته الجوية إلا حوالى الخمس، وفى الثامنة والنصف من صباح ١٢ تموز

وصلت رسل من فيشى ترغب فى الهدنة، وقد استجبنا إليهم بالطبع، وأبرمنا اتفاقاً، انضمت سوريا على إثره إلى سيطرة الحلفاء، وكانت خسائرنا حوالى ٤٦٠٠ بين قتيل وجريح، بينما كانت خسائر الأعداء ٦٥٠٠، ولم يبق هناك غير إجراء واحد مثير، قد قامت السلطات الفرنسية بترحيل الأسرى إلى فيشى، ومعنى هذا أنهم سينقلون بكل تأكيد إلى معسكرات ألمانيا، وعندما عرفنا هذا الإجراء الغريب الذى عجز الفرنسيون عن تفسيره قمنا باعتقال الجنرال رانتز وكبار ضباطه كرهائن، مما أدى إلى أحسن النتائج إذ عاد جنودنا فى سلام.

وتحسنت أوضاعنا الاستراتيجية فى الشرق الأوسط نتيجة للعمليات الموفقة فى سوريا والعراق فسد الطريق أمام أية رغبة للعدو فى التوغل شرق البحر المتوسط، وامتد شمالا خط دفاعنا عن قناة السويس مسافة مائتين وخمسين ميلا. وزال القلق عن حدود تركيا الجنوبية، وأصبح فى يقينها الآن أن باستطاعة دولة صديقة أن تمد يد العون العاجل فى أى وقت يلوح لها الخطر، وقد دمرت معركة كريت مع ما دفعنا فيها من ثمن باهظ القوة الضاربة للعدو، وسحقنا أخيرا الثورة العراقية، وبقوات صغيرة تستدعى الشفقة أعدنا سيطرتنا على منطقة شاسعة وحدد استيلاؤنا على سوريا وهجومنا عليها الذى أرغمتنا عليه الضرورة الملحة رغبات العدو فى الانطلاق باتجاه خليج البصرة والهند بصورة حاسمة، ولو استجبنا لدواعى التريث والعقل ولم تحول وزارة الحرب كل مشروع إلى عملية ظافرة، ولو لم نفرض وجهة نظرنا على كافة القادة العسكريين فى المنطقة، لكنا فى موقف الراضين عن الأضرار الجسيمة التى تكبدناها فى كريت، ولم نحقق الأرباح العظيمة التى جنيناها من حربنا المجيدة هناك، ولو تخاذل الجنرال ويفل تحت وطأة السهام الجسيمة التى ألقتها الحوادث على عاتقه، وصمدت أمامنا وجهة نظره، فإن ما أسفرت عنه الحرب وأن مستقبل تركيا كان

سيحدث فيها تغيرات رئيسية، فإذا كان هناك حسنات لتخلى الإنسان عن كل ما ليس فى وسعه، وعن إقلاعه عن كل عمل لا يقتنع به شخصيا، فلكل قاعدة - فى الحرب وفى الحياة - شواذها .

ويجب ألا ننسى أن ثورة العراق، والانطلاق إلى سوريا لم يكونا غير أحداث صغيرة من الأخطار المفاجئة فى الشرق الأوسط التى عاش فى غضونها الجنرال ويفل، وأحاطت بكل كيانه، وعلى النمط والمثال نفسه كان ميدان الشرق الأوسط بأكمله ليس سوى أمر ثانوى بجانب مشاكلنا العالمية التى كنا نبصرها فى لندن، حيث يقفز فيها إلى مقدمة اهتمامنا خطر الغزو، وحرب الغواصات، والتهديد اليابانى، وقد انتصرنا على سائر هذه الاختبارات القاسية بدون أن ننسى ما منينا به من خسائر فادحة بفضل قوة وزارة الحرب والتفاهم بين أعضائها، وصلات الاحترام المتبادل، واستعراض وجهات النظر بين القادة العسكريين والسياسيين، وبفضل جهازنا الحربى الذى كان يعمل فى هدوء ورتابة، وليس أمامى الآن ما أعرضه فى مجال البحث سوى القتال فى الصحراء العربية، وكان موضوعها يستأثر بعظيم اهتمام منى ومن رؤساء الأركان ومع أننا لم ننل فيها أى انتصار إلا أننا فرضنا على رومل التوقف لمدة خمسة شهور أخرى.

وكانت مخابراتنا فى ذلك الوقت قد نفذت إلى مقر قيادة رومل وتولى عميلنا إرسال أدق الأخبار عما يواجهه رومل من مصاعب شتى فى موقفه المتجمد الغريب وكنا ندرك تماما الثغرة الوحيدة التى كان يأمل القائد الألمانى فى الإبقاء عليها، كما كنا نقف على الأوامر الصارمة والتحذيرات الشديدة التى كانت تصله من القيادة الألمانية العليا، منذرة إياه بالا تهرب المكاسب التى حازها حتى هذه الآونة فى خضم اعتماده أكثر مما ينبغى على يمن الطالع.

وكنا نمد ويفل بكافة المعلومات، وقد رغب بدافع شخصى بحت، وفى غمار القتال الدائر فى كريت أن يجرب مخالبه فى روميل قبل أن تلحق به الفرقة الألمانية المدرعة التى تنشر الرعب، وهى الفرقة الخامسة عشرة، عابرة طريق طرابلس الطويل وقبل أن يتاح له فتح أبواب بنغازى، لتكون الطريق القصير لوسائل تموينه، وأراد أن يشن هجوماً حتى قبل أن تباشر الدبابات التى أرسلناها فى عملية «النمر» أداء مهمتها، وأرادت قوة صغيرة يتولى قيادتها الجنرال غوت أن تتولى هى شن هذا الهجوم ولكنه اندحر تماما وفاتت الفرصة التى كانت متاحة لهزيمة روميل قبل أن تلحق به التعزيزات اللازمة.

وعلى الرغم من إسراعنا فى اتخاذ الإعدادات، إلا أن التأخير فى تفريغ واستصلاح وتجهيز دبابات عملية النمر للقتال، كان فى غاية القسوة واتضح بعد القيام بتفريغ الشحنة أن بعض الدبابات التى كانت بطيئة من الناحية الميكانيكية لا تصلح، وعاجلا ما سهلت الأمور، فقد جمع روميل القسم الأكبر من فرقته المدرعة الخامسة عشرة، وحشد قواته على الحدود بين كابوتزر وسيدى عمر، ودار فى احتماله قيامنا بهجوم عنيف للسيطرة على طبرق، ولذلك فقد قرر الاستيلاء ثانية على حلفايا والإبقاء عليها ليصبح هذا الهجوم صعباً للغاية وكانت الدفعة الثالثة من حرس جولد ستريم وكتيبة مدفعية الميدان، ووحدتان من الدبابات تقوم بحماية هذا الممر المعروف فى ٢٦ آيار. بدأ العدو تقدمه، واستولى على مركز فى الشمال، يشرف على سائر النقط التى يرابط فيها الفوج، وفى صباح اليوم التالى، وبعد أن دوت طلقات المدافع، قام فوجان ألمانيان تؤازرهما على الأقل ستون دبابة بهجوم مجتاح، جعل قواتنا على حافة الخطر، وكانت الوحدات الإضافية بعيدة بحيث لا تملك المشاركة فى القتال، ولم نجد أمامنا سبيلا سوى القيام بإنقاذ قواتنا فى هدوء ودون جلبة، وقد قمنا بذلك فعلا، ولكن الثمن كان باهظاً، فلم تبق

من دباباتنا إلا اثنتان صالحتان للعمل، ووصل رومل إلى ما يريد وبدأ يدعم موقفه فى حلفايا. وقد كانت سيطرته على هذا الموقع. كما كان يتطلع. سبيلا بتعويق قدرتنا على العمل بعد ثلاثة أسابيع.

وظللنا نعد فى هجوم حيوى حاسم سميناه «فأس المعركة» ولكن كان أمامنا جانب مظلم ففى يوم ٣١ آيار أرسل إلينا ويفل يخبرنا بالمصاعب الفنية الجمة التى تعترض طريقه فى إعادة تجهيز الفرقة السابعة المدرعة، وذكر أول موعد يسعه أن يبدأ فيه الهجوم هو ١٥ حزيران، وأكد أنه يدرك تبعات التأجيل، وقد تصل إلى العدو أمداد جوية أخرى، وقد شن هجوماً عارما على طبرق، إلا أن المعركة المقبلة فيما يرى ستكون قتالاً بين الدبابات ولهذا فعليه أن يمنح فرقته المدرعة كل ما يستطيع، وأكد لنا أن فرصة التأجيل والتريث تزيد من احتمالات النصر.

وفى هذه الأثناء كنت نافد الصبر يتجاذبنى الرجاء والخوف من جراء هجومنا فى الصحراء متعجلا لوقوعه، متيقناً أنه قد يحول إلى لغتنا سير المعركة الإفريقية كلها، واستطاع الألمان استغلال ميناء بنغازى فى سرعة، مع أننا لم نوفق إلى ذلك فى بداية العام، وعن طريق هذا الميناء وصلت إليهم كثير من المؤن والذخائر، وقد عرفنا ـ فيما بعد ـ أن الألمان استطاعوا رصد جزء كبير من سلاحهم المدرع فى خطوطهم الأمامية وحشدوا حوالى مائتى دبابة فى مقابل دباباتنا البالغة نحو مائة وثمانين.

وفى صباح ١٥ حزيران بدأت عملية "فأس المعركة" وفى بداية الأمر سارت الأمور كما نحب غير أنه فى ١٧ حزيران أى فى اليوم الثالث من المعركة أخذ كل شىء ينقلب على عقبه، وأدركنا أننا منينا بالفشل فى غارتنا، فبدأت عمليات التقهقر المنظم، تحت حماية من سلاح الطيران، ولم يبد العدو أى محاولة لتعقبنا، وربما يكون ذلك بسبب الأضرار التى أنزلتها بسلاحه المدرع قاذفات قنابلنا، وربما تكون هناك أسباب أخرى فقد علمنا

فيما بعد أن أوامر رومل كانت تحرص على الدفاع القوى لهجوم فى الخريف، ومعنى ذلك أن القيام بمطاردتنا يتنافى مع خططه، فضلا عما يتكبده من أضرار فادحة.

ومع أن هذا القتال كان محدوداً إذا قورن بالمعركة الواسعة المدى فى البحر الأبيض المتوسط فى شتى اشتباكها، فإن ما أصبنا به من فشل كان ضربة مؤلمة، لأن نجاحنا فى الصحراء يعنى تدمير جيش رومل المغامر، والاستيلاء على طبرق وإنقاذ حاميتها، وسرعان ما انسحب العدو إلى ما بعد بنغازى بالطريقة نفسها التى زحف بها، وقد كلفنا هذا الهدف كثيراً فنحن لم ننس الأخطار التى صاحبت عملية «النمر»، ومقامرتنا بأشياء كثيرة، ولم أكن بعد قد عرفت شيئا عما وقع فى يوم ١٧ ، ولكن الأخبار كانت ستصلنى حتماً بعد قليل، لذلك فقد ذهبت إلى شارتويل، الموصدة ومنذ مدة، أنشد هناك نوعاً من العزلة، واحيا وحيداً، فجاءتنى هنالك الأنباء فمضيت أتجول فى الوادى حزيناً وحيداً... عدة ساعات.

ولاشك فى أن القارئ الذى تابعنى، قد تهيأت نفسه لتقبل القرار الذى انتهيت إليه فى الثلث الأخير من شهر حزيران سنة ١٩٤١، فقد قر شعورنا فى لندن بأن ويفل أصبح شخصية شائكة، ومن الصائب أن يقال إننا ركبنا الجواد حتى استنفد قواه، ولاشك أن اجتماع خمسة أو ستة ميادين للقتال فى تقارب مثير بما تزخر به من نصر أو هزيمة، تتغلب فيه الأخيرة دائما، ثم وقوع ذلك كله على كاهل القائد العام فرد، يؤلفان عبئاً لم يسبق أن صادفه إلا عدد قليل من القادة، ولم أقنع بما قدمه ويفل تبريراً لفشله والذى عزاه إلى قتالنا فى كريت، وإلى عدم إمداده بعدد آخر من الدبابات، وكان رؤساء أركان الحرب قد تخطوا آراءه فعلا فى عملية العراق البسيطة الناجحة، والتى أدت إلى السيطرة النهائية على الحبانية، وإلى أن نحصل على نجاح محلى مهم، ثم جاءت خطة "فأس المعركة" التى نفذها ويفل نظراً للأخطار

الشديدة التى أحاطت بعملية «النمر» ولم أكن راضياً عما استقبلت به قيادة الأوسط دبابات «النمر» من إجراءات مع ما اعترضها من مصاعب تغلبت عليها لحسن الحظ، ولكننى كنت معجباً من ناحية أخرى بروح المغامرة التى أبداها فى هذه المعركة الصغيرة وعدم التفاته لما يهدد شخصه من أخطار حين طيرانه ذهاباً وإياباً، فوق هذه المساحات الشاسعة، التى تشب فى أنجائها والمضطربة فى مثل هذه المعارك الراهنة ولكننى كنت واثقاً من عدم التوفيق، فى وضع خطته العملية، خصوصاً حين فشلت فى تحقيق اندفاع من ناحية طبرق، فى الوقت الذى حدث فيه الهجوم ليكون تمهيداً لذلك ليس أكثر، وحركة مصاحبة فى الوقت ذاته.

وفضلا عن ذلك كانت هناك الضربة التى سددها رومل لجناحها فى الصحراء فقضت على كل الخطط التى كنا على أهبة تنفيذها باليونان، ودمرت كيانها بما تنطوى عليه من جوانب قائمة وانتصارات باهرة، كانت تلوح لنا على أطراف المسرح البلقانى الكبير، وتذكرت قولى السابق «أن رومل قد نزع أكاليل الغار عن رأس ويفل ومرغ بها فى الرمال» وقد لا يكون ذلك مستساغا، ولكنه على أية حال نتيجة لحزن ملم، ولكن الحكم الصائب على كل ما حدث من الممكن أن يستمد دعائمه مما تشير إليه الوثائق المدونة فى أوانه، ومما يكشف عنه المستقبل من أدلة أخرى، والذى حدث أننى انتهيت إلى رأى حاسم بعد معركة «فأس المعركة» وهو ضرورة تغيير جوهرى فى القيادة.

وكان الجنرال أوكنلك القائد العام فى الهند، مازال يثير إعجابى بما فعله فى نارفيك فى خلال الحملة النرويجية، فقد لمست فيه الميل الشديد للسلامة والتحسس بالنتائج، وهما أمران مفقودان فى الحرب، مع القناعة بكل ما يتوقع منه تحقيق الحد الأدنى من الرغبات لكننى على أية حال كانت تثير إعجابى مواهبه الشخصية، وذهنه المتألق وأخلاقه الرفيعة، وعندما كان قائداً للمنطقة الجنوبية بعد نارفيك فى إنجلترا، وصلتنى كثيرا من الرسائل

من جهات رسمية وغير رسمية تصف ما به من حيوية ونشاط فى قيادته الجديدة. وقد استحسن الجميع توليه للقيادة العامة فى الهند، وقد وقفنا قبل هنيهة على مقدار حماسته لتسيير القوات الهندية بالبصرة، وضرورة القضاء على ثورة العراق، وكنت أعتقد أن أوكنلك دم جديد سيثير الحيوية ويتحمل التبعات بشجاعة إذا تولى قيادة الشرق الأوسط، كما أن ويفل سيصادف فى توليه قيادة الهند العظيمة فرصة لاستعادة أنفاسه، قبل أن تهجم الأخطار المتوقعة فى كل حين، ووجدت موافقة تامة لآرائى هذه فى الوزارة، وبين رؤساء الأركان فى لندن، ولعل القارئ لا ينسى أننى لا أحرص قط على أن أتولى أى سلطات استبدادية، وأن آرائى كانت تتمشى دائما مع وجهات نظر الخبراء السياسيين، وأصدرت أوامرى الجديدة فى ٢١ حزيران، فتلقاها ويفل فى هدوء، وكان يهم برحلة إلى الحبشة سرعان ما وضحت أمامه مخاطرها. وقد كتب من أرخ حياته قائلا إن الجنرال عندما وصلته برقيتى قال: «إن رئيس الوزراء على حق فالموقف هنا يحتاج إلى يد جديدة وعين أخرى».

وكان القلق ينتابنى منذ أشهر لما وجدت عليه قيادة القاهرة من نقصان الكفاءة الواضحة، وأدركت جيدا مدى الأعباء الثقيلة التى تتراكم على كاهل القائد العام المنهك، وكان ويفل نفسه وغيره من القادة العامين قد عبروا عن احتياجهم فى ١٨ آيار إلى بعض المعاونين، وقد أكد ذلك - أيضا - رفيقاه القائد العام الجوى والقائد البحرى، وكانت زيارة المستر ايدن تثير الارتياح فى نفوس جميع القادة لإحساسهم بوجود شخصية ذات سلطة سياسية عليا معهم، وعند عودته إلى الوطن شعروا بفراغ كبير.

وكنت لم أسمع عن ولدى راندولف كثيراً فى الأيام الأخيرة وقد كان واحدا من الفدائيين الذين تفرق شملهم الآن إلى حد ما فى الصحراء، وفى ٧ حزيران وصلتنى برقية منه عن طريق وزارة الخارجية أرسلها من القاهرة

بعد اطلاع سفيرنا عليها السير مايلز لاميسون، ويقول فيها:

«أرى ـ لننتصر فى القتال ـ ضرورة وجود شخصية مدنية ذات كفاءة فى الميدان توضح المعالم السياسية والاستراتيجية يوماً بعد يوم، فلم لا تبعث بأحد أعضاء وزارة الحرب هنا يرأس كل الجهود الحربية، وكل احتياجه لا يتعدى ـ فضلا عن مجموعة صغيرة من الموظفين ـ إلى رجلين قديرين ينسق أحدهما شئون التموين، ويقوم الآخر بالرقابة والدعاية. ويرى هنا كثير من المفكرين أن الحاجة ملحة لتغيير جوهرى، وليس إلى تبديل الأفراد فحسب، فالفرصة سانحة تماما لإجراء تعديل فى الكيان كله، أرجو أن تغفر إقلاقى لك، فقد اضطررت إليه ليقينى بأن الوضع هنا أصبح لا يحتمل، وأن العمل العاجل ضرورى لأى نصر متوقع».

ولا ريب فى أن هذه الرسالة دعمت نواياى نحو العمل النهائى الحاسم، وقد أرسلت إليه بعد أسبوعين: «لقد توافقت آراؤك القيمة والمرتبة فى رسالتك إلى مع ما كان يخالج نفسى من أفكار منذ مدة غير قليلة»، وعلى هدى من ذلك اتخذت طريقى.

وكان الكابتن أوليفر ليتلتون قد اشترك فى الوزارة وزيراً للتجارة منذ تشرين أول سنة ١٩٤٠ وكنت أعرفه منذ صباه، ففى غضون الحرب العالمية الأولى اشترك فى وحدة قاذفى القنابل، وأصيب مرات عديدة ببعض الجراح، واستحق عدداً من الأوسمة، وبعد أن ترك الخدمة العسكرية خاض غمار الأعمال الحرة، وأصبح عضو مجلس الإدارة المنتدب لشركة معدنية كبرى، ولما كنت واثقاً من مواهبه الخاصة فقد عملت على إشراكه فى البرلمان وإسهامه فى الوزارة، وقد استأهل تقديراً من جميع زملائه فى حكومتنا القومية، وكنت قد تعديت وجهة نظره فى توزيع الملابس بالبطاقات، ولكن لما وافق مجلس الوزراء ومجلس العموم على ذلك رضيت به، ولاشك فى أن ذلك جاء فى أوانه، لقد كان رجلا كفؤا للعمل بمهارة فى كافة الميادين، مما جعلنى أثق فى

صلاحيته للمنصب المقترح الجديد، كعضو فى وزارة الحرب مقره الشرق الأوسط ولاشك فى أن هذا العمل سيخفف كثيرا من العبء الواقع على القادة العسكريين، وأيد كل زملائى من جميع الأحزاب هذا الرأى، وعلى ذلك عين على أن تكون مهمته الأولى «المساهمة فى حمل التبعات المنوطة بالقادة العسكريين وإصدار التعليمات العاجلة على هدى من تفهم سياسة حكومة جلالته فى شتى الشئون المتعلقة بمختلف الوزارات والدوائر التى كانت تصل قبل ذلك إلى لندن للفصل فيها».

ولاشك فى أن هذه التنظيمات الجديدة، بما تتضمنه من نتائج إدارية، جاءت ملائمة كل الملاءمة للتغيرات التى حدثت فى قيادة الشرق الأوسط.



الفصل الثامن عشر

نيميسيس
إلهة الثأر السوفييتية

تقول الأساطير أن «نيميسيس إلهة غاضبة، تنزل النقمة بكل خط يتجاوز الحدود، وتحد من غلول كل مغرور، وتثأر من كل من يقترف جريمة نادرة الوقوع».

وعلينا هنا أن نوضح تماماً ما تردت فيه الحكومة السوفييتية من أخطاء فاضحة، وغرور مأفون قدرت على إثره الموقف هى وجهازها الشيوعى الضخم، وأن نكشف ما كان يسودها من جهل أبعدها عن إدراك حقيقة موقفها.

وكانت هذه الحكومة قد أبدت عدم اهتمامها بمصير الدول الغربية على الرغم من أن هذا لا يعنى سوى تحطيم الجبهة الثانية التى قامت بعد ذلك بقليل للمطالبة الملحة بها، وظهر أن هذه الحكومة لم يدر فى خاطرها أن هتلر قد عقد العزم منذ شهور ستة على تدميرها، وإذا كانت مخابراتها قد أوصلت إليها أنباء انتشار القوات الألمانية على مدى واسع فى اتجاه الشرق، وقد أخذ يتضاعف يوماً بعد يوم، فإنها تكون قد تغافلت عن اتخاذ إجراءات حاسمة لمواجهته، فها هى ألمانيا تحت رضائها تجتاح البلقان بأكمله، وحكومة السوفييت تنكر الديمقراطيات الغربية وتستهين بها، ولكن كان فى استطاعتها أن تؤازر بريطانيا فى تكتيل دول البلقان الأربع، تركيا، ورومانيا، وبلغاريا ويوغوسلافيا فى حلف واحد لمقاومة هتلر بالنسبة لأن هذه الدول تعتبر ذات أهمية خاصة لأمنها وسلامة حدودها، ومع ذلك فقد رضيت بأن تنهار وأن تجتاحها الفوضى والاضطراب، وأن تختفى واحدة بعد واحدة عدا تركيا - من الوجود، وقد تكون الحرب فى مجملها مجموعة من الأخطاء، ولكنى أشك

فيما إذا كانت هناك جريمة أخرى تعادل فى شناعتها ما ارتكبه ستالين وقادته السوفييت من جرم عندما تغاضوا عن كافة إمكانيات دول البلقان ولبثوا فى حالة خمول وتراخ أو جهل وحاجة المزيد من الإدراك، ينتظرون الخطر الجامح الذى كان مسلطاً على رقبة روسيا، وكنا آنذاك نعدهم فئة من الأنانيين فى تقديراتهم، ولكنهم أكدوا لنا فى تلك الفترة أنهم سذج مغفلون كذلك، وكان علينا أن نرى فى ميدان المعركة كل ما اشتهر عن "روسيا الأم" من شجاعة وقدرة على الحشد والاحتمال، ولكن بالنظر إلى الاستراتيجية والسياسة وتفهم الأمور فقد بدأ ستالين ورفاقه فى هذه الفترة كأغبى الناس فى تاريخ الحرب العالمية الثانية.

وكانت عملية «بربروسا» الذى أصدر بها هتلر تعليماته فى ١٨ تشرين أول سنة ١٩٤٠، تتضمن الخطة لحشد القوى بصورة عامة كما وضحت التبعات الأولى للجيوش التى حشدها ضد روسيا، وكان كل عدد الوحدات الألمانية الموجودة فى ألمانيا عند إصدار هذه التعليمات يزيد على أربع وثلاثين فرقة، وزيادة هذا العدد إلى أكثر من أضعافه الثلاثة عمل هائل يدل على التخطيط والإعداد، استنفد الأشهر الأولى من سنة ١٩٤١، واحتاجت المغامرة البلقانية، التى رضى هتلر أن يخوض غمارها أن يوجه فى شهر كانون ثان وشباط حوالى خمس فرق، من الشرق إلى الجنوب ثلاث فرق منها مدرعات، ولم يأت شهر آيار حتى كانت القوات الألمانية فى الشرق قد وصل تعداد فرقها إلى سبع وثمانين، بينما كان هناك خمس وعشرون فرقة تواجه الموقف فى البلقان، وإذا ما نظرنا جيداً إلى ما ينطوى عليه غزو روسيا من أخطار، وما يلزمه من قوات، فقد كان من خطل الرأى تحويل الحشود لهذا العمل الخطير، وسنعرف بعد قليل كيف أرغمت أحداث البلقان، ومقاومتنا الصامدة هناك، ولاسيما ثورة يوغوسلافيا، أرغم كل ذلك هتلر على أن يؤجل مغامرته الكبيرة خمسة أسابيع أخرى، ولم يكن أحد يعرف مدى أهمية هذا التأخير وآثاره، إلا حين حل الشتاء، وما صحبه من تغيير فى أقدار الزحف الألمانى

على روسيا، ومن الطبيعى أن يرى الإنسان أن الفضل لهذا التأجيل فى تجاه موسكو، وقد تم خلال شهر آيار وبداية حزيران سحب أغلب الفرق الألمانية المدربة تدريبياً جيداً من البلقان إلى الجبهة الشرقية، وكان الألمان فى أبان هجومهم يملكون مائة وعشرين فرقة من بينها سبع عشرة فرقة مدرعة واثنتا. عشرة فرقة آلية، وتبعت ست فرق رومانية أخرى مجموعة القوات الجنوبية، وكان هناك ست وعشرون فرقة أخرى تجمعت أو هى على وشك التجمع كقوات احتياطية، ولم يكد يطلع تموز حتى كان لدى القيادة الألمانية فرصة استخدام مائة وخمسين فرقة على أقل تقدير، تسندها قوة السلاح الجوى الألمانى الضاربة، وتقدر بحوالى ألفين وسبعمائة طائرة.

وكان يخالجنى الشك حتى شهر آذار فى تصميم هتلر على قتال روسيا، ولم يدر بخاطرى أن ذلك سيحدث قريباً جداً، وكانت مخابراتنا قد أمدتنا بمعلومات مفصلة عن تحركات الجيوش الألمانية الكبيرة فى اتجاه دول البلقان، وهو ما شهدته الشهور الثلاثة الأولى من عام ١٩٤١، وكان فى مقدور جواسيسنا الانتقال بحرية فى تلك البلاد نصف المحايدة، وأن يواصلوا اطلاعهم الدقيق على تحركات الجيوش الألمانية الهائلة فى السكك الحديدية أو فى الطرق المعبدة إلى الجنوب الشرقى، لكن هذه التحركات كافة لم تكن تقطع الشك بأى محاولة لغزو روسيا، وكان من السهل تفسيرها برغبة ألمانية فى المحافظة التامة على مصالحها برومانيا، وما تضمره نحو اليونان، وأوضاعها مع يوغوسلافيا والمجر، أما التقريرات عن التحركات الواسعة التى تقع عبر ألمانيا تجاه الجبهة الروسية أساسية وهى التى تمتد من رومانيا حتى البلطيق، فكانت أقل وأصعب تفهماً مما سبق، وكان فى تفكيرى أن فتح ألمانيا لجبهة رئيسية أخرى مع روسيا فى هذه الآونة، وقبل أن تستقر الأوضاع فى البلقان أمر يثير الدهشة حقا لأنه بعيد فى غرابته.

ولم يحدث ما يشير إلى انتقاص القوى التى تواجهنا بها ألمانيا عبر

المانش، فما يزال الهجوم الجوى الألمانى على بلادنا فى عنفوانه، وكان مجرد غفلة روسيا السوفييتية ثم قبولها أخيراً لهذا التدفق الألمانى على رومانيا وبلغاريا، والبراهين التى بين أيدينا على مدى العون الضخم الذى تمد به روسيا ألمانيا، والاشتراك الواضح فى مصلحة الدولتين حين تسحق الإمبراطورية البريطانية ويجتاح الشرق، كل هذا يوحى لنا بأن هتلر وستالين يفكران فى صفقة مشتركة على حسابنا ولن يقف أحدهما موقف العداء من الآخر. وها نحن الآن قد أدركنا أن هذه الصفقة كانت من بين آمال ستالين الواسعة التى طالما طافت بأحلامه.

وكان يتفق معى فى هذه المشاعر والتقديرات أفراد لجنة للمخابرات، وقد حملوا إلىَّ فى ٧ نيسان أن أخباراً تجوب الآن أنحاء أوروبا عن خطة ألمانيا فى اجتياح روسيا، ولكنهم رأوا أن هذا الاحتمال مستبعد فى الظروف الراهنة على الأقل، لأنه بالرغم من تدفق جيوش ألمانية ضخمة على الشرق، واحتمال قتال ألمانيا لروسيا فى وقت آخر، فإن الوقت الحاضر غير ملائم لتخوض ألمانيا مع روسيا غمار معركة رئيسية، وقد رأوا أن الاحتمال المعقول أن يظل هدف ألمانيا الجوهرى فى عام ١٩٤١ هو إنزال هزيمة ببريطانيا، وفى ٢٣ آيار رأى أعضاء هذه اللجنة المشتركة ممن يمثلون القوات المسلحة الثلاثة. أن شائعات الهجوم الألمانى على روسيا قد ضعفت قليلا، وأن الشائع الآن هو اعتزام البلدين توقيع معاهدة جديدة بينهما فى أقرب فرصة.

وكان رؤساء أركان حزبنا أكثر معرفة من معاونيهم، وأشد تثبتاً، فقد أرسلوا تحذيرا إلى قيادة الشرق الأوسط العامة فى ٣١ أيار، جاء فيه: «لدينا البراهين الدالة على أن الألمان يجمعون قوات هائلة وسلاحاً جوياً كبيراً ضد روسيا، ومن المحتمل أن يطلبوا منها مهددين لها طلبات تضر بصالحنا، فإذا أبى الروس شنوا عليهم الهجوم».

«وفى ٥ حزيران رأت لجنة المخابرات المشتركة أن الإعدادات العسكرية

الألمانية فى شرق أوروبا واسعة النطاق، وأن شيئاً حاسماً سيحدث أكبر أهمية من أى اتفاق اقتصادى وربما تهدف ألمانيا إلى أن تزيل من حدودها الشرقية أى خطر محتمل أن يكون مصدره القوات السوفييتية الهائلة العدد، ولكن اللجنة حائرة تماماً فى تعيين الهدف الحقيقى وهل هو الحرب أم المعاهدة؟».

ولم أقتنع بهذا الأسلوب من التقارير العامة. وملت إلى أن أطلع بنفسى على مصادر هذه التكهنات، فرغبت إلى الرائد (الميجور) ويزموند مورتون، بأن يجهز لى قصاصات مختارة من التقارير منذ بداية الصيف لسنة ١٩٤٠، وأن يستمر فى هذا العمل يومياً، مما استطعت به استنباط وجهة نظر خاصة عن القضية قبل وقوع أحداثها بزمن كاف.

وعندما اطلعت على تقرير المخابرات، أرسله أحد عيوننا الموثوقة جدا، فى يوم من الأيام الأخيرة من شهر آذار سنة ١٩٤١، شعرت بكثير من الارتياح لدى قرائه، وكان عن تحركات المدرعات الألمانية، والتحركات المضادة لها على الخطوط الحديدية والواصلة بين بوخارست وكراكاو، وقد أوضح هذا التقرير أنه عقب توقيع الوزراء اليوغوسلافيين على الميثاق الثلاثى، فإن ثلاث فرق مدرعة (بانزر) من بين خمس فرق كانت قد عبرت رومانيا جنوبا فى اتجاه الحدود اليونانية واليوغوسلافية قد اتجهت إلى الشمال نحو كراكا، وثم عادت على التو دراجها بعد ثورة بلغراد، ورجعت الفرق الثلاث إلى رومانيا وليس من سبيل إلى أن تسير هذه الأعداد الضخمة من القطارات التى تصل إلى ستين قطاراً ثم تنقلب على عقبها فوراً، دون أن يقع على ذلك عملاؤنا اليقظون فى المنطقة.

وأضاءت لى هذه المعلومات الطريق لتفهم الموقف، فتوجه هذا العدد الضخم من المدرعات إلى كراكاو وتحوله عن المسرح البلقانى فى أشد الأوقات احتياجاً له، يعنى بصورة واضحة أن هتلر قد بيت عزمه على الهجوم على روسيا فى شهر آيار، وهذا ما وثقت فيه غاية الثقة. أما عودة هذه المدرعات فلا تعنى سوى أن تأجيلاً حدث لموعد الهجوم على روسيا من آيار

إلى حزيران، واتجه تفكيرى إلى تلمس سبيل لاستثارة ستالين وإنذاره بهذا الخطر المحدق، محاولا أن يكون بينى وبينه من الصلات ما بينى وبين الرئيس روزفلت، وأرسلت إليه رسالة مختصرة يحوطها الغموض، أملا أن يثير هذا الغموض وكونها أول رسالة أرسلها إليه بعد الرسالة الرسمية التى أبرقت إليه بها فى ٢٥ حزيران سنة ١٩٤٠ أوصى فيها بقبول تعيين السير ستافورد كريبس سفيراً لنا فى روسيا، أن يثير هذا وذاك انتباهه للموقف وهذا هو نص رسالتى:

- «من رئيس الوزراء إلى السير ستافورد كريبس، ٣ إبريل ١٩٤١».

- «مع هذا رسالة خاصة إلى المستر ستالين، بشرط إبلاغها إليه شخصيا»..

- «لدى براهين وثيقة من مصدر لا يتطرق إليه الشك بأن الألمان عندما يتيقنون من وقوع يوغوسلافيا فى قبضتهم - أى بعد ٢٠ آذار - بدأوا يتحولون بثلاث فرق مدرعة من فرقهم الخمس من رومانيا إلى جنوب بولندة، وعندما فاجأتهم ثورة الصرب، عادت الفرق على أعقابها، ولاشك فى أن فخامتكم ستقدرون هذه الحقائق المهمة».

ولم يصلنى رد من السفير إلا فى ١٢ نيسان عندما أخبرنى أنه قبيل تسلمه رسالتى كان قد وجه خطاباً خاصاً إلى فيشينسكى، وأوضح فيه تخاذل الحكومة السوفييتية عن مواجهة اجتياح ألمانيا لدول البلقان، وحث الاتحاد السوفييتى بعبارات شديدة، من أجل مصالحه الخاصة أن يحول سياسته إلى سياسة متآزرة مع الدول التى لا تزال تحارب المحور فى تلك الجبهة، وأضاف السفير قائلا:

- «وإذا كنت الآن سأبلغ ستالين عن طريق مولوتوف برقية رئيس الوزراء، التى يفهم منها الفكرة نفسها ولكنها تعرضها بصورة أكثر اختصاراً وحزماً، فإنى أخشى أن يكون تأثيرها الوحيد إضعافا للأثر الذى أبقته رسالتى فى نفس فيشنسكى ....».

وقد أحنقنى هذا التصرف، والتأخير الذى حدث، وكانت هذه هى الرسالة الوحيدة التى أرسلتها إلى ستالين شخصياً قبل أن يشن الهجوم، وكان الهدف من إيجازها، والظروف الخاصة بها، وصدورها عن رئيس حكومة لتبلغ مباشرة وبصفة شخصية عن طريق السفير إلى رئيس الحكومة الروسية، كان الهدف من كل ذلك أن تقع موقعاً خاصاً من نفس ستالين وتثير انتباهه لما حوله، وقد عرفت أخيراً أن السير ستافورد كريبس قد سلمها إلى فيشنسكى فى ١٩ نيسان، وأن هذا بدوره قد أبلغ السفير فى يوم ٢٣، أن مضمون الرسالة قد بلغ إلى ستالين.

وليس فى استطاعتى أن أقرر جازماً مدى ما كانت تفعله رسالتى لو سارت فى الطريق الذى رسمته لها، وما فيه من اختصار وشكليات، فى مجرى الحوادث، ولكنه مازال يحز فى نفسى ألا تنفذ تعليماتى كما رسمتها، فلو أتيح لى اتصال شخصى بستالين لاستطعت فى الأعم الأغلب أن أحول دون تدمير جزء كبير من سلاحه الجوى على الأرض.

الآن نحن نعرف أن تعليمات هتلر فى ١٨ كانون أول قد عينت يوم ١٥ آيار موعداً لشن الهجوم على روسيا، وأن الغضب الذى اجتاحه بسبب ثورة يوغوسلافيا قد أجلت هذا الموعد شهراً، ثم عاد الموعد فتأجل ثانية إلى يوم ٢٢ حزيران، ولم تتطلب طبيعة التحركات الألمانية فى شمال الجبهة الشرقية حتى منتصف شهر آذار أية وسائل لإخفائها وعلى كل فقد اقتضت الأوامر الصادرة من برلين فى ١٣ مارس إغلاق البعثات الروسية العاملة فى ألمانيا وإرجاعها إلى وطنها، فلم يصبح من المحتمل أن يستمر الروس فى ألمانيا بعد يوم ٢٥ آذار، وفى خلال ذلك الوقت كانت مائة وعشرون فرقة ألمانية من أفضل الجند تنتشر على مدى الجبهة الروسية، وتتوزع فى ثلاثة تشكيلات، وكانت المجموعة الجنوبية تحت قيادة رونشتادت ـ منهوكة القوى للعوامل التى سبق أن أوردتها، ولم تكن فرقها المدرعة (البانزر) قد قدمت من اليونان

ويوغوسلافيا إلا منذ فترة قليلة، وكانت على الرغم من أن الغزو قد تأجل إلى ٢٢ حزيران فى أمس الحاجة إلى الراحة والاستصكحات، بعد ما بذلته من جهد آلى فى البلقان.

وفى ١٣ نيسان وصل إلى برلين شولنبرج من موسكو، ولم يستدعه هتلر للقائه إلا فى يوم ١٨ من الشهر نفسه، وأشبعه شتائم فى روسيا ولكن شولنبرج تمادى فى تأكيد الرأى الذى أبداه فى كافة رسائله، وذكر أن روسيا قد أكدت لمندوبينا الاقتصاديين استعدادها إذا طلبت وعبر عن ثقته الشديدة فى استعداد ستالين للتنازل عن أشياء جديدة فى ظروف ملائمة تقدم إلينا خمسة ملايين طن قمحاً فى العام «ورجع شولنبرج من إصرار هتلر على القتال، ويبدو أن تحذير سفير روسيا فى برلين إلى موسكو فى ٣٠ نيسان مصاباً بخيبة الأمل من هذا اللقاء، فقد أيقن ديكانزوف من الموقف واستمر شولنبرج فى موقف الذود عن سياسة التفاهم الروسى - الألمانى حتى النهاية».

وكان دايزاكر، الرئيس الرسمى لوزارة الخارجية الألمانية، من نوع الموظفين المهرة الذين تجدهم فى دوائر الحكومة فى كل الدول، ولم يكن دايزاكر سياسياً صاحب سلطات تنفيذية، وهو فى اعتبار التقاليد البريطانية لا يعد من بين المسئولين عن سياسة الدول، ومع ذلك أصدرت عليه محاكم الحرب التى أنشأها المنتصرون حكما بالسجن لمدة سبع سنوات، وعلى الرغم من معاملته كمجرم حرب إلا أنه قد قام بالنصح الحسن لرؤسائه ومن يمن طالعنا أنهم لم يستمعوا إليه، فقد لخص رأيه فى هذه المقابلة بقوله «بودى أن أوجز رأيى عن العلاقة بين ألمانيا وروسيا، فلو كانت كل مدينة روسية تسعى إلى تدميرها تساوى عندنا إغراق بارجة بريطانية، فإننى كنت حينئذ أؤيد فكرة الهجوم هذا الصيف على روسيا، ولكننى متأكد أننا سننتصر على روسيا عسكرياً فحسب، أما اقتصادياً فسنبوء بالخسران.

وقد يكون من المثير حقاً تسديد ضربة قاضية إلى النظام الشيوعى، وقد

يقال أيضا إن المنطق يقتضى نشر سيطرتنا على هذه القارة الأوروبية الآسيوية، لنستطيع بعد ذلك حشد قوانا فى الصراع ضد العالم الأنجلو ـ سكونى وتابعيه، لكن السؤال الذى سيظل يتردد، هل هجومنا على روسيا سيعد خطوة فى سبيل القضاء على إنجلترا. وسيمنح غزونا لروسيا طاقة معنوية جديدة لبريطانيا، فسيفهمونه على أن الباعث إليه عدم ثقتنا فى الانتصار عليهم، ويعتبر قيامنا بهذا الغزو ليس اعترافاً بأن الحرب ستمتد فحسب بل عملا فعالا على امتداد زمنها بدلا من تقريب نهايته».

وفى ٧ آيار أخبر شولنبرج حكومته بأن ستالين قد تولى بنفسه رئاسة الحكومة السوفييتية (مجلس مفوضى الشعب) بدلا من مولوتوف، وكان هذا بالنسبة إليه يبعث الأمل من جديد، فأضاف إلى ذلك قائلا «إننى متأكد من أن ستالين بحكم منصبه الجديد سيكون عاملا فعالا فى استمرار الصلات الطيبة بين روسيا وألمانيا والحرص عليها».

وردد الفكرة نفسها ملحق ألمانيا البحرى فى موسكو، كما جاء فى البرقية التى أرسلها «إن ستالين هو مرتكز التعاون الألمانى ـ السوفييتى» وتضاعفت البراهين على رغبة روسيا فى خدمة ألمانيا، فاعترفت الحكومة الروسية فى ٣ أيار اعترافاً رسميّاً بحكومة رشيد عالى فى العراق الموالى لألمانيا، وطرد المفوضان الدبلوماسيان لحكومتى بلجيكا والنرويج من موسكو فى ٧ آيار ولقى الوزير اليوغوسلافى المصير نفسه تلمساً لرضاء ألمانيا، وفى بداية شهر حزيران أنهت روسيا عمل المفوضية اليونانية فى بلادها، وقد سجل الجنرال توماس، رئيس قسم الاقتصاد فى وزارة الحرب الألمانية فى تقرير كتبه فيما بعد عن اقتصاد الرايخ الحربى ما يلى:

ـ «استمر الروس فى إرسال عونهم حتى مساء اليوم الذى بدأ منه الغزو، وقد نقلنا بسرعة المطاط من الشرق الأقصى فى الأيام الأخيرة باستخدام القطارات السريعة».

ولم تصلنا معلومات كافية عن حقيقة الأوضاع فى روسيا، ولكن الغايات الألمانية كانت فى غاية الوضوح، وقد أرسلت برقية إلى الجنرال سمطس فى ١٦ آيار قلت فيها: «يبدو أن هتلر يعبئ قواته ضد روسيا، فهناك تحركات مستمرة للحشود والفرق المدرعة وسلاح الطيران من البلقان شمالا، ومن فرنسا وألمانيا شرقاً».

ولاشك فى أن ستالين قد بذل الكثير فى سبيل الإبقاء على انطباعه النفسى الخاص نحو هتلر، للدرجة التى استطاع شولنبرج أن يرسل إلى وزارة الخارجية فى ١٣ حزيران أى بعد مرور شهر بأكمله على تحركات القوات الألمانية الضخمة وحشدها، يرسل ما يلى: «أبلغنى مفوض الشعب مولوتوف منذ قليل محتوى البيان الذى ستذيعه وكالة تاس الليلة، والذى ستنشره صحف موسكو فى الغداة، وهذا نصه:

«قبل أن يذهب سفير بريطانيا كريبس إلى لندن، وبعد عودته خاصة، روجت كثير من الشائعات، عن قتال يوشك أن ينشب بين روسيا وألمانيا، وقد روجت هذه الشائعات الصحف الإنجليزية والأجنبية ....».

«وبالرغم مما فى هذا من كذب سخيف، فإن المسئولين فى موسكو رأوا أن يؤكدوا أن هذه الترهات ليست سوى مناورات سيكولوجية طائشة، يشنها أعداء الاتحاد السوفييتى وألمانيا هادفين إلى نشر الحرب واندلاعها».

وبات فى مقدور هتلر أن يحس بالرضا لنجاحه فى إضفاء السرية التامة على تحركاته، وفى خداع الفريسة التى ما زالت تحيا تحت سيطرة الأوهام.

وخليق بنا ألا ننسى هنا غفلة مولوتوف إلى آخر لحظة، فقد أرسل شولنبرج برقية فى الساعة الواحدة والدقيقة السابعة عشرة من صباح ٢٢ حزيران، إلى وزارة الخارجية الألمانية جاء فيها: «فى التاسعة والنصف من هذا المساء استدعانى مولوتوف، وبعد أن حدثنى عن حوادث اختراق طائراتنا

مرارا للحدود الروسية قال: «هناك براهين عديدة على عدم رضاء الحكومة الألمانية عن الحكومة الروسية، وقد تضافرت الأنباء على أن القتال أصبح لا محالة منه بيننا وبين ألمانيا، وليس فى استطاعتنا أن نجد مبررا لهذا التغير من جانب ألمانيا .... ولذا سيكون شاكرا إذا أبلغته العوامل التى طورت الموقف إلى هذا الحد فى الصلات بين ألمانيا وروسيا».

«وقد أجبته بأنى لا أملك التفسيرات للموقف، لأننى محتاج إلى معلومات كافية، كما وعدته بأن أبلغ رسالته إلى برلين».

ولكن الموقف كان قد وصل إلى غايته، وفى الساعة الرابعة من صباح اليوم نفسه أى فى يوم ٢٢ حزيران سنة ١٩٤١، كان ريبنتروب يقدم إعلان الحرب الرسمى إلى سفير روسيا فى برلين ولدى الفجر كان هناك لقاء بين شولنبرج ومولوتوف فى الكرملين كذلك، وأنصت جيدا الأخير إلى الرسالة التى تلاها السفير ثم قال:

«إذن هو القتال، لقد أغارت طائراتكم منذ هنيهة على عشر قرى مكشوفة، فهل أنت على يقين بأننا نستحق منكم ذلك؟».

وكان من الصعب علينا بعد البيان الذى أذاعته وكالة تاس، وقد أوردته منذ قليل، أن نقول شيئا بعد التحذيرات الكثيرة التى وجهها إيدن لسفير روسيا فى لندن، أو إلى ما قمت به بنفسى لأثير انتباه ستالين للخطر الذى يدهمه، وكانت حكومة أميركا قد أطلعت روسيا على تفاصيل دقيقة لتطور الأوضاع، ولكن ما فعلناه ذهب هباء إزاء المصطلحات النهائية التى حال بها ستالين بينه وبين رؤية الموقف الرهيب، وعلى الرغم من أن التقديرات الألمانية ذكرت أن مائة وستاً وثمانين فرقة روسية قد وقفت على الحدود ومن بينها مائة وتسع عشرة فرقة فى مواجهة القوات الألمانية، فإن الواضح أن الحشود الروسية قد فوجئت تماماً بالزحف الألمانى، ولم يجد الألمان أثراً لأية استعدادات دفاعية فى المناطق المتقدمة، وقد أسرعت إلى الانهيار كل

الوحدات الروسية التى حشدت على الحدود، وكان من المحتم أن كارثة كتلك التى حاقت بالسلاح الجوى البولونى فى أول أيلول سنة ١٩٣٩، ولكن على مدى أوسع، بالمطارات الروسية، وفوجئت مئات الطائرات هناك عند الفجر وهى رابضة فى أرض مطاراتها، فتحطمت قبل أن تستطيع التحليق فى الجو، وهكذا كان دوى القذائف الألمانية عند الفجر أقوى من صوت الدعاية الروسية التى قامت فى أثناء تلك الليلة بشن حملة واسعة ضد بريطانيا وأميركا وهكذا نرى أن الشريرين ليسوا دائما أذكياء، وأن الطغاة ليسوا دائما على صواب.

وليس لى أن أستمر فى البحث دون الإشارة إلى الإجراء الفظيع الذى قرر هتلر أن تتبعه السياسة الألمانية ضد أعدائه المحدثين، والذى اتخذ تحت هول القتال المرير فى المناطق المجدبة وبين غضب الشتاء ففى يوم ١٤ حزيران سنة ١٩٤١ عقد اجتماعاً أصدر فيه توجيهات شفوية بشأن معاملة القوات الألمانية لجنود الجيش الروسى وأفراد الشعب السوفييتى، تلك المعاملة التى بلغت غاية القسوة والوحشية، وقد أدى الجنرال هولدر فى محاكمات نورمبرج بالشهادة التالية:

«قبل بدء الهجوم على روسيا دعا الفوهور إلى اجتماع خاص حضره جميع القادة والأفراد الذين على علاقة بالقيادة العليا، ليتناقش معهم بشأن الهجوم المنتظر على روسيا وقد نسيت موعد الاجتماع بالضبط ولكنى لم أنس ما قاله هتلر من أن القتال الذى سينشب مع روسيا يجب أن يكون مغايرا تماما للقتال الذى شن على الغرب...... وأضاف الفوهرر أن النزاع بين روسيا وألمانيا هو نزاع روسى، ولما كانت روسيا لم تشترك فى معاهدة جنيف فإن أسرى الحرب يجب أن يعاملوا معاملة خاصة غير التى تنص عليها المعاهدة...... وذكر أيضا أن من يسموا بالمفوضين يجب ألا يعتبروا من أسرى الحرب».

وكتب كايتل ما يلى:

ـ «كان هتلر يرى أن القتال سيكون حاسماً بين مبدئين وأنه نظراً لذلك فلا يجب أن نستخدم مع روسيا فى هذا القتال الأساليب التى نقرها نحن الجنود، التى يقر العرف القانونى الدولى بأنها الأساليب الوحيدة الصائبة».

وفى مساء يوم الجمعة ٢٠ حزيران ذهبت وحيداً بسيارتى إلى تشيكرز، وكنت أعرف أن الاجتياح الألمانى لروسيا قد يبدأ بعد أيام أو بعد ساعات، وكانت قد انتويت توجيه رسالة من الإذاعة فى مساء السبت، خاصة بهذا الشأن، فكان على طبعاً، أن أصوغ أفكارى فى كلمات دقيقة، أختارها بكل عناية، خصوصاً وقد اعتبرت الحكومة الروسية فيما سبق كل ما يصدر عنا من نصائح أو تحذيرات ـ جهلا منها أو تكبرا ـ ليس سوى محاولة يائسة من قوم حاقت بهم الهزيمة لدفع الآخرين إلى المصير نفسه، وعلى هدى من هذه المخاطر التى دارت بنفسى فى السيارة، رأيت تأجيل الإذاعة إلى مساء الأحد، إذ يزداد الموقف وضوحاً، وهكذا مضى يوم السبت بأعبائه العادية.

وعندما استيقظت صباح الأحد ٢٢ حزيران، استمعت إلى أخبار مشروع هتلر فى هجومه على روسيا فانتقل اليقين إلى واقع، ولم يعد لدى أى تردد فى اختيار الموقف الذى يجب علينا أن نلتزمه، كما كنت على يقين مما سأذيعه، ولا ينقصنى فى هذا السبيل إلا إعداده، وطلبت من الإذاعة أن تعلن عن إذاعة لى فى تمام التاسعة مساء ولحق بى الجنرال ديل من لندن، حاملا لى كل تفاصيل الموقف، لقد كان الهجوم الألمانى على منطقة عريضة، وفاجأوا قسماً كبيراً من طائرات السلاح الجوى الروسى وهى رابضة فى أماكنها، ويبدو أن الألمان يواصلون توغلهم فى سرعة كبيرة، وبمنتهى الغلظة والعنف، وأضاف رئيس أركان حرب الإمبراطورية قوله: وأنا واثق من أن الجيوش الروسية سيتم حصارها فى مجموعات كبيرة».

وأمضيت النهار فى إعداد كلمتى، ولم تكن لدى الفرصة لأستطلع آراء

وزارة الحرب، كما لم أجد ما يحتم هذا، فقد كنت على ثقة من مشاركة الجميع لما بمشاعرهم إزاء هذه المسألة وزادنى المستر ايدن واللورد بيفر بروك والسير ستافورد كريبس، الذى كان قد ترك موسكو فى ١٠ حزيران، وقد قلت فى غضون الخطاب الذى وجهته للإذاعة "لا تكاد النازية تختلف عن أسوأ ملامح الشيوعية، فالنازية مجدبة من كل اعتقاد ومن أى مبدأ، إذ استثنينا نزعة السيطرة العنصرية الغاشمة، أن النظام النازى فى عنفه ووحشيته يفوق كل ما يتصور من نظم همجية قاسية، وأنا أشد الناس كرهاً للشيوعية، وأكثرهم عداء لها ومقاومة فى مدى الخمسة والعشرين عاماً الماضية، وبكل تأكيد لن أتنازل عن أية كلمة ضدها قلتها سابقا، ولكن هذا كله يتوارى أمام ما نشهده اليوم، إن الماضى يتوارى فى لمحة بصر بكل ما ينطوى عليه من جرائم وحماقات ومآسى، وكل الذى أشهده اليوم هو الجنود الروس، وقد وقفوا على عتبات بلادهم، يحرسون الحقول التى قلّب آباؤهم تربتها منذ فجر التاريخ، ويذودون عن البيوت التى تصلى فيها أمهاتهم وزوجاتهم، حيث يضرع الجميع فى مثل هذه الأوقات إلى الله، أن يحفظ لهن أحباءهن، ومن يتولى أمورهن، ويدافع عنهن، ويحميهن، وإنى لأشهد عشرة آلاف قرية روسية، ينتزع فيها القوت انتزاعاً من الأرض ومع ذلك، مع هذه الحياة الجافة فما تزال هذه القرى تموج بأمواج إنسانية أصيلة، حيث تنطلق ضحكات العذارى، ويتمادى الأطفال فى لهوهم، وأشهد معدات القتال النازى تغير على هذه القرى فى هجومها المجتاح وفى مقدمة المغيرين الضباط البروسيون يصلصلون ويجلجلون، ويتأنقون فى لباسهم العسكرى، والعملاء الماكرون الذين أجادوا وسائل إخضاع الشعوب وتعذيبها، (وأشهد كذلك الجموع المنهمرة من جنود الهون بكل ما عرف عنهم من بلاء وخشونة ووحشية وانقياد أعمى وهم ينطلقون فى كتل زاحفة كالجراد المنتشر، وأرى القاذفات والطائرات المحاربة الألمانية وهى تذرع الفضاء جيئة وذهاباً، وعلى ظهورها آثار جراح أحداثها السياط البريطانية، وقد هزها الفرح لوقوعها

على ما ترى أنه فريسة سهلة الاصطياد.

«وخلف كل هذا الرجاء، وكل هذه الرياح الهوجاء، يوجد فريق من الرجال الأوغاد يضعون الخطط، وينظمون، ويثيرون هذه الجبال المتراكمة من الشر والحقد على الإنسانية جمعاء».

«وإنى لأعلن قرار حكومة جلالته، وإنى على يقين كبير بأن دول الدومينونات المستقلة ستجد فى هذا القرار ما توافق عليه وتؤيده فى الوقت الملائم، وذلك لأن الظروف تحتم علينا أن نتكلم مباشرة وبدون إرجاء ذلك إلى يوم واحد سأعلن هذا القرار، ولكن هل يخالجكم شك فيما سننهجه من سبل؟».

إن لنا هدفاً واحداً واضحاً، وأملا لن نتوانى عن تحقيقه، فنحن نصر ونصمم على ضرورة القضاء على هتلر وتدمير نظامه النازى، ولن يحول بيننا وبين هذه الغاية شىء على الإطلاق، فلن نتحدث أو نتباحث مع هتلر أو مع أى واحد من أفراد عصابته، بل سنقاتله فى البر، وسنقاتله فى البحر، وسنقاتله فى السماء، حتى نستطيع بإذن الله، إنقاذ البسيطة منه ومن شبحه، ونحرر الشعوب ومن قبضة استذلاله، وكل رجل يقاتل هتلر وكل دولة تقاتل النازية، سنمد إليها يد العون، وكل من ينحاز إلى جانب هتلر فهو عدونا اللدود.

هذا هو نهجنا، وهذا هو قرارنا. وعلى هدى من ذلك سنبذل لروسيا ولشعبها كل ما نستطيع من مساعدة، وسنناشد كافة أصدقائنا وحلفائنا فى شتى أنحاء العالم أن يسيروا فى نفس هذا السبيل، كما ستسير فيه سياستنا بكل إخلاص وإصرار.

«وليست هذه الحرب صراعاً طبقياً، وإنما هى نضال مشترك بين الإمبراطورية البريطانية وجامعة شعوبها، دون تميز بالعنصر أو الدين أو الحزب، وليس من حقى أن أعبر عن أميركا، ولكن الذى أستطيع قوله إنه إذا كان هتلر يظن أن زحفه على روسيا سيؤدى إلى خلاف فى الرأى أو إضعاف

فى البذل، فى جانب الديمقراطيات العظيمة التى تصر اليوم على محقه والقضاء عليه، فإنه لبالغ الخطأ إذ إن العكس تماما هو الذى سيحدث، فهذا الهجوم الجديد لن يؤدى إلا إلى مضاعفة الجهود المبذولة لإنقاذ البشرية من وحشيته، وستضاعف مواردنا وجهودنا وعزيمتنا».

ولا أرى الوقت مناسباً لتدعيم القيم الأخلاقية ورثاء حماقات الدول التى أعطت العدو كل فرصة لضربها واحدة بعد أخرى بينما كانت تستطيع بالتكتل والعمل الجماعى أن تنجو بنفسها وبالعالم كله، من هذه الكارثة، ولكن عندما أشرف منذ قليل إلى ظمأ هتلر للدماء، وشهواته البغيضة التى دفعت به إلى مغامرة الهجوم على روسيا، قلت إن هناك هدفاً بعيداً من كل ذلك العنف، فهو يتطلع بعد أن يحطم القوة الروسية إلى أن يعود بقواته الرئيسية وجيشه الجرار وسلاحه الجوى من الشرق إلى هذه الجزيرة التى يعلم أن عليه أن يسيطر عليها وإلا فسيعاقب على كل ما اقترف من آثام، فهذا الغزو لروسيا ليس إلا تمهيداً لهجوم كبير على بريطانيا، وهو يتطلع بلا ريب إلى الخلاص من مغامرته قبل هجوم الشتاء، لينطلق إلى بريطانيا فيفرض سيطرته قبل أن يستطيع أسطول أميركا وقواتها التدخل، إنه يستطلع إلى استخدام تلك الخطة التى انتهجها كثيراً فى تدمير أعدائه واحداً واحداً وقد أصاب نجاحاً إلى اليوم فى تنفيذها، حتى تتهيأ له كل الظروف للقيام بعمليته الأخيرة التى بدونها تظل كافة انتصاراته لا معنى لها، وهذه العملية هى محاولة السيطرة على نصف العالم الغربى.

ولذلك فإن ما يواجه روسيا من أخطار يواجهنا نحن أيضا ويواجه أميركا كذلك، كما أن قضية كل روسى يهب للدفاع عن أرضه وبيته هو قضية كل إنسان حر فى سائر أرجاء العالم، وهى قضية الشعوب الحرة جميعا وعلينا ألا ننسى عبر هذه المحن التى نقاسيها جميعا، وأن نبذل جهودا مضاعفة، وأن نسدد متحدين ضربة قاصمة مادامت فينا إرادة، وإحساس بالحياة.

بيرل هاربور

كنت مساء الأحد فى السابع من كانون الأول عام ١٩٤١، مع السفير وينانت وافريل هاريمان فى تشيكرز نستمع إلى نشرة أخبار الساعة التاسعة، وكانت الأنباء تتحدث عنا لقتال فى الجبهة الروسية وعلى الجبهة الليبية، ثم تلتها أخبار عن هجوم يابانى على البواخر الأميركية فى جزر الهوايا وغارات أخرى على السفن البريطانية فى جزر الهند الشرقية الهولندية. ولم يخطر ببالى أى شىء، إلا أن أفريل هاريمان قال شيئاً عن هجمات يابانية على الأميركيين، فتفتحت آذاننا، وكان الخادم قد سمع ما قيل، فجاء إلى الغرفة يقول: «هذا صحيح. لقد سمعنا نحن أيضاً ما حدث، لقد هاجم اليابانيون الأميركان». وخيم علينا الصمت، وكنت قد أعلنت فى حفلة غداء رسمية أن بريطانيا ستضطر إلى إعلان الحرب على اليابان «بعد ساعة واحدة» إذا قامت بمهاجمة الولايات المتحدة. ونهضت من مكانى وذهبت إلى المكتب، وطلبت أن يسجلوا لى مكالمة هاتفية مع الرئيس. وبعد دقيقتين أو ثلاث، جاءتنى المخابرة الهاتفية. فقلت: «يا سيدى الرئيس، ما القصة حول اليابان؟» فقال: «إنها صحيحة. لقد هاجموا بيرل هابور وها قد أصبحنا معكم الآن». وأعطيت السماعة إلى وينانت. ودار حديث قصير، وسمعت السفير يقول: «حسناً... حسناً»، وعدنا إلى القاعة، وحاولنا أن نعود أنفسنا على هذا الحادث العالمى الكبير الذى كان مباغتاً، بحيث أدهش الجميع.

وطلبت إلى مكتبى الاتصال برئيس المجلس فى الحال لدعوة البرلمان إلى جلسة فى اليوم التالى. واتصلت بوزارة الخارجية طالباً إليها، أن تعد فوراً، إعلان الحرب على اليابان، على أن يصبح كل شىء جاهزاً حين انعقاد الجلسة،

كما طلبت دعوة جميع أعضاء وزارة الحرب لإبلاغهم، ورؤساء أركان الحرب والقوات المسلحة، الذين كنت أعتقد أن الأنباء لابد أن تكون قد وصلتهم.

وقد لا يستاء أى أميركى إذا قلت إن دخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانبنا، كان مصدر سعادة كبرى لى. فالولايات المتحدة أصبحت فى الحرب، وقد غرقت فيها حتى رأسها، وستبقى فيها حتى الموت. وهكذا فقد ربحنا أخيراً!! أجل، لقد ربحنا بعد دنكرك، وبعد سقوط فرنسا، وبعد وهران، وبعد خطر الغزو.

نعم لقد ربحنا الحرب، وستبقى إنكلترا وستعيش جامعة الشعوب البريطانية، والإمبراطورية. أما كم ستطول هذه الحرب وكيف ستنتهى، فلم يكن فى إمكان أى إنسان أن يعرف، ولم أكن أكترث لذلك فى هذه اللحظة. فالمهم بأننا لن نزول من الوجود، ولن ينتهى تاريخنا، ولن نموت كأفراد أيضاً. وهتلر وموسولينى قد عرف مصيرهما. أما اليابانيون فسيسحقون سحقاً، فالإمبراطورية البريطانية، والاتحاد السوفييتى، والولايات المتحدة جميعها مرتبطة الآن بكل ما لديها من قوة، وهى حسب معلوماتى، أقوى بضعفين أو ثلاثة أضعاف من أعدائها. وليس هناك من شك فى أن القتال سيطول وستكون هناك انتكاسات وخسائر خطيرة فى الشرق، إلا أنها لن تكون إلا مجرد مرحلة عابرة. وسنتمكن عن طريق اتحادنا أن نسحق كل قوة عدوة فى العالم. وربما ستقع كوارث ندفع ثمنها غالياً، لكن النهاية لا شك فيها....

وحاول بعض السخفاء، التقليل من القوة الأميركية. فقالوا إن الأميركيين ناعمون ولن يتحدوا قط وسيتحركون كالحمقى من بعيد، لأنهم لا يحتملون سفك الدماء. وعادت إلىَّ ذاكرتى كلمة قالها لى إدوارد غراى، قبل نحو من ثلاثين عاماً، وشبه الولايات المتحدة بمرجل هائل، فإذا ما أشعلت النار تحته، فليس هناك من حد للقوة التى يطلقها، ومضيت إلى فراشى تلك الليلة ونمت وأنا أشعر بالرضى والخلاص.

وعندما استيقظت من النوم، قررت السفر لمقابلة روزفلت. بعد أن أخذت موافقة جميع الوزراء وموافقة جلالة الملك أيضاً. وقد خولتنى وزارة الحرب، إعلان الحرب على اليابان، بعد أن اتخذت جميع الإجراءات المرعية. ولما كنت مسؤولاً عن وزارة الخارجية أثناء غياب ايدن فقد بعثت بالرسالة التالية إلى السفير اليابانى.

وزارة الخارجية، ٨ كانون الأول

«سيدى..

«فى ليلة السابع من شهر كانون الأول، علمت حكومة جلالته فى المملكة المتحدة، أن القوات اليابانية حاولت، دون أى تحذير سابق فى شكل إعلان بالحرب أو إنذار مشروط بإعلان الحرب. حاولت النزول على شاطئ الملايو وضربت بالمدفعية سنغافورة وهونغ كونغ».

«وبما أن هذه الأعمال العدوانية التى لم يسبقها استفزاز، والتى كانت بمثابة تحد مباشر للقانون الدولى وللمادة الأولى من ميثاق لاهاى الثالث المتعلق ببدء الأعمال الحربية، والذى وقعت كل من اليابان والمملكة المتحدة، فإن التعليمات قد أرسلت إلى سفير جلالته فى طوكيو بإبلاغ الحكومة اليابانية الإمبراطورية، باسم حكومة جلالته فى المملكة المتحدة، بأن تعتبر حالة الحرب قد نشأت بين بلدينا».

لى الشرف، يا سيدى، مع مزيد الاحترام

أن أكون خادمكم المطيع

«ونستون تشرشل».

ولم يرض أسلوبى المجامل هذا بعض الناس، ولكن حتى لو أردت أن تقتل شخصاً، فليس من مانع يمنعك من أن تكون مهذباً معه.

وبعد مدة سمعنا تفاصيل الهجوم على بيرل هاربور فقد كانت الخطة اليابانية حتى مطلع عام ١٩٤١ تقضى بأن يشتبك الأسطول اليابانى الرئيسى فى معركة واسعة فى مياه الفلبين، وذلك عندما يحاول الأميركيون، كما هو متوقع، فتح طريقهم عبر الباسفيك، لإنقاذ حاميتهم. لكن فكرة الإغارة على بيرل هاربور بصورة مفاجئة، تكونت فى ذهن الأميرال ياماماتو، القائد الأعلى اليابانى. وتمت الإعدادات لهذه الضربة الغادرة قبل إعلان الحرب، وذلك فى منتهى السرية والتكتم، وفى ٢٢ تشرين الثانى رست ست حاملات تدعمها البوارج والطرادات، فى ميناء لم تألف الوقوف فيه فى جزر كوريل، شمال اليابان. وحدد يوم الأحد فى السابع من كانون الأول كموعد لبدء الهجوم، وأبحرت السفن المهاجمة فى ٢٦ تشرين الثانى تحت قيادة الأميرال ناغومو إلى الشمال من هاواى، متخفين فى الضباب إلى أن اقتربت من هدفها دون أن يشعر بها أحد، وعند الفجر، شن الهجوم من موقع على بعد (٢٧٥) ميلاً إلى الشمال من بيرل هاربور. واشتركت ثلاثمائة وستون طائرة، تضم قاذفات من مختلف الأنواع، تحرسها المقاتلات. وكانت بوارج أسطول الباسفيك هى الهدف الأساسى للهجوم. وكانت ترسو هناك أربع وتسعون سفينة حربية من سفن الأسطول الأميركى. ولم تكن موجودة لحسن الحظ حاملات الطائرات. وانتهت المعركة فى العاشرة صباحاً وانسحب العدو تاركاً وراءه أسطولاً محطماً، تلتهمه الحرائق والدخان وروح الثأر. وقتل نحو من ألفى أميركى كما جرح نحو من ألفين آخرين. وانتقلت السيادة على المحيط الهادى إلى أيدى اليابانيين، واختل الميزان الاستراتيجى العالمى.

وكان الأميرال هارت قائد الأسطول الأميركى المتواضع فى آسيا، قد بدأ سلسلة مباحثات مع السلطات البحرية البريطانية والهولندية القريبة، ثم قام بتوزيع قواته باتجاه الجنوب، حيث قرر أن يجمع قوة ضاربة فى المياه الهولندية بالاشتراك مع حلفائه المنتظرين. ولم يكن لديه إلا طراد ثقيل

واحد، وطرادان خفيفان واثنتا عشرة مدمرة وبعض السفن المعاونة. أما قوته الكبيرة فكانت فى غواصاته، البالغ عددها ثمانية وعشرين غواصة. فعندما التقط الأميرال هارت فى الساعة الثالثة من صباح ٨ كانون الأول رسالة الأنباء المذهلة عن وقوع الهجوم على بيرل هاربور، فأسرع إلى تحذير جميع من يعنيهم الأمر، بأن العمليات الحربية قد بدأت، دون أن ينتظر تأكيد النبأ من واشنطن. وقامت طائرات الانقضاض اليابانية، بتوجيه ضربتها عند الفجر، واستمرت الغارات الجوية طيلة الأيام التالية بشكل متزايد، فدمرت القاعدة البحرية فى كافيتى، وقام اليابانيون بأول إنزال لقواتهم فى شمال جزيرة لوزون فى صباح اليوم نفسه. وتوالت الكوارث بسرعة. وتحطمت معظم الطائرات الأميركية على الأرض. وكانت سفن الأميرال هارت قد تفرقت جنوباً قبل بضعة أيام، ولم تبق إلا الغواصات، لتقارع العدو فى السيطرة على البحار. ونزلت قوة يابانية فى خليج لينغابن مهددة مانيلا نفسها، ومنذ هذا التاريخ، توالت الأحداث على النحو الدائر فى الملايو، إلا أن الدفاع أخذ يطول. وهكذا نجحت خطط اليابان الموضوعة منذ أمد بعيد.

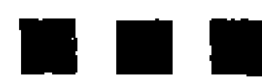
وذهل هتلر وأركان حربه من المفاجأة. وقد روى يودل أثناء محاكمته كيف أن هتلر «وصل عند منتصف الليل إلى بروسيا الشرقية لينقل هذه الأنباء إلى والى الماريشال كايتل. وكان مندهشاً حقّاً منها». لكنه أصدر أوامره صباح ٨ كانون الأول إلى الأسطول الألمانى بمهاجمة البواخر الأميركية حيثما وجدت وذلك قبل ثلاثة أيام من إعلان ألمانيا الحرب على الولايات المتحدة.

وذهل هتلر وأركان حربه من المفاجأة. وقد روى يودل أثناء الوضع البحرى. لقد فقدنا السيطرة على كل البحار باستثناء الأطلنطى. وأصبحت أوستراليا ونوزيلندة، وبقية الجزر الحيوية الأخرى معرضة للهجوم. ولم يبق فى يدنا إلا سلاح مهم واحد. فقد وصلت البارجة «الأمير ويلز» والبارجة «ريبالس» إلى سنغافورة. وقد بعثنا بهاتين البارجتين لنمارس بواسطتهما ذلك

التهديد الغامض، الذى تفرضه البوارج الكبرى على الحسابات البحرية العادية. فقد ترتب عليهما أن تمضيا إلى البحر وتختفيا بين الجزر التى لا حصر لها. وخيل إلى أن أحسن طريق لهما هو فى عبور المحيط الهادى والانضمام إلى ما تبقى من الأسطول الأميركى، فهذه الحركة ستكون دلالة كريمة فى مثل هذا الوقت، فتوثق الروابط بين دولتينا. وكنا قد وافقنا على طلب وزارة البحرية الأميركية لسحب بوارجها الكبرى من الأطلنطى. وهكذا يمكن فى خلال أشهر قليلة، إيجاد أسطول على ساحل أميركا الغربى يستطيع أن يخوض معركة بحرية حاسمة إذا لزم الأمر. وسيكون وجوده خير درع يقى أخواننا فى أوستراليا. وقد استهوتنا جميعنا هذه الفكرة. ولكن لما كان الأوان قد فات تلك الليلة، فقد قررنا الانتظار حتى الصباح لنرى ما سنفعله بالأمير ويلز وريبالس.

ولكن لم تمض ساعتان حتى أصبحت البارجتان فى قعر البحر.

وما إن استيقظت فى الصباح، سمعت جرس الهاتف على مقربة من سريرى. كان لورد البحر الأول، هو المتحدث، وبدا لى صوته غريباً. فقال: «يا رئيس الوزراء، يؤسفنى أن أخبرك أن الطائرات اليابانية قد أغرقت الأمير ويلز وريبالس. لقد غرق توم فيليب». فقلت صارخاً: «هل أنت متأكد؟» فقال: «نعم يا سيدى». وأعدت سماعة الهاتف وسيطرت على عقلى ما تنطوى عليه هذه الكارثة الجديدة من أهوال، فلا يوجد فى المحيطين الهندى والهادى أية سفن حربية بريطانية أو أميركية كبيرة عدا تلك التى نجت من بيرل هاربور والتى أسرعت باللجوء إلى كاليفورنيا. وأصبحت اليابان المسيطرة على البحار. وغدونا نحن ضعفاء عراة.



انتصار أميركا البحرى

لم يكد شهر آذار ينتهى حتى أتمت اليابان المرحلة الأولى من خطتها الحربية التى تكللت بالنجاح، وقد وقعت أحداث كبيرة الآن أثرت على سير الحرب كلها. فقد سيطرت اليابان على هونغ كونغ وسيام والملايو ومنطقة الجزر الضخمة التى تتألف منها الهند الشرقية كلها. كما توغلت قوات اليابان داخل أراضى بورما. بينما بقيت القوات الأميركية تقاتل بشدة فى الفليبين لكن دون أى أمل.

وكانت اليابان قد وصلت إلى قمة مجدها، فالاعتزاز بالنصر العسكرى، والثقة فى القيادة، زادا من الاعتقاد بأن دول الغرب لا تتمتع بالقوة الكافية للقتال حتى النهاية. وأخذت الجيوش الإمبراطورية مراكزها على الحدود التى رسمت لها قبل الحرب لتكون أول المتقدمين. وكان باستطاعة اليابانيين فى هذه المنطقة الزاخرة بالموارد والثروات التى لا حصر لها، أن يثبتوا أقدامهم ويزيدوا من قوتهم وجبروتهم. وكانت خطتهم المرسومة منذ أمد طويل تقضى بفترة من التوقف للاستراحة وصد أى هجوم أميركى مضاد. ولكن خيل للقادة اليابانيين أن ساعة تقرير مصيرهم قد أزفت وعليهم أن يكونوا على أتم الاستعداد لها. وبدا لهم أن مشكلتهم العسكرية تقضى باختيار أحد الأمرين: إما تنظيم صفوفهم بشكل جديد، أو الاستمرار فى التقدم إلى الأمام لضمان الدفاع عن الأراضى المحتلة.

وبعد المشاورات، تقرر اعتماد فكرة التقدم والاستيلاء على جزر الأليوشان الغربية وجزيرة ميداواى وساموا وفيجى وكالدونيا الجديدة، وميناء بورسى جنوبى غينيا الجديدة. وكانت هذه السيطرة تهدد ميناء (بيرل

هاربور) الذى ما زال القاعدة الرئيسية لأميركا.

وكانت الخطط اليابانية تبدو فى منتهى الجرأة والعبقرية وخاصة عند تنفيذها. ولكنها بدأت بقياسات غير صحيحة للقوى الدولية. ولم تتمكن القيادة اليابانية من تفهم القوى الحقيقية الكامنة لدى الولايات المتحدة. وكانت تظن حتى هذه اللحظة بأن النصر سيكون حليف ألمانيا فى أوروبا. وشعرت بالرغبة العارمة بقيادة قارة آسيا نحو انتصارات وفتوحات عديدة، لتحقق أمجادها وأطماعها.

ولم يكن فى وسع أى إنسان أن يتأكد من أن ألمانيا لن تقوى على هزيمة روسيا أو إرغامها على التراجع إلى ما وراء الأورال، ثم تعود بعد ذلك إلى بريطانيا وتحتلها، أو تزحف عبر القفقاس وإيران لتلتقى مع الجيوش اليابانية فى الهند. ولإعادة التوازن العسكرى كان على أميركا أن تحقق نصراً بحرياً حاسماً يضمن لها التفوق فى المحيط الهادى، ولو لم يضمن لها الإشراف التام على هذا المحيط. ولكن لقد قدر لنا أن نفوز ونحقق هذا النصر. وكنت متأكداً بأن الأسطول الأميركى سيستعيد سيطرته التامة على المحيط الهادى، خلال شهر أيار، بفضل أية مساعدة يمكن لنا تقديمها فى هذا الشهر.

وقد باشرت اليابان سياسة التوسع هذا فى نهاية شهر نيسان عام ١٩٤٢. وقد أعدت الخطط للاستيلاء على مرفأ مورسبى وتولاغى فى جزر سليمان الجنوبية المقابلة لجزر (كوادلكنال) الكبرى. وكان احتلال مرفأ مورسبى يعنى إكمال المرحلة الأولى من سيطرة اليابان على غينيا الجديدة، كما يؤمن لها ضمانة ثابتة لقاعدتها البحرية راباول فى جزيرة بريطانيا الجديدة. ومن هناك تستطيع تطويق أوستراليا.

ووصلت الأخبار بسرعة إلى المخابرات الأميركية عن الحشود اليابانية فى هذه المياه. فقد شوهدت القوات اليابانية البحرية تتجمع فى راباول وهى آتية من قاعدتهم الرئيسية فى تروك فى جزر كاولين. وأضحى الزحف

باتجاه الجنوب أمراً محتماً. وكان من المنتظر ابتداء العمليات العسكرية يوم الثالث من شهر آيار. وكانت حاملات الطائرات الأميركية قد توزعت لتقوم بالمهام المسندة إليها، ومن بينها الهجوم الكاسح الذى قام به الجنرال دوليتل من الجو على مدينة طوكيو بالذات يوم الثامن عشر من نيسان.

أما الأميرال نيميتز فقد أحس بخطر فى الجنوب، فقام ليجمع قوة ضخمة فى بحر المرجان. وكان الرير أميرال فليتشر قد وصل إلى هناك مع قوة مؤلفة من حاملة طائرات وثلاث طرادات ثقيلة، كما وصلت قوة أخرى تتألف من حاملة الطائرات ليكسينغتون وطرادين آخرين تحت قيادة الأميرال فيتش التى وصلت من (بيرل هاربور) كما انضمت إلى هذه القوات أسراب أخرى من مختلف الطرادات وحاملات الطائرات.

وكان الأميرال فليتشر يتزود بالوقود على بعد ٤٠٠ ميل جنوبى كوادلكنال عندما علم أن العدو قد نزل فى تولاغى ليقيم هناك قاعدة بحرية له، بعد أن انسحبت الحامية الأوسترالية الصغيرة المتمركزة هناك. وقرر الأميرال فليتشر أن يبدأ هجومه على الجزيرة بالحال. لكن حاملات الطائرات المعادية كانت تشغل بال القائد فليتشر الذى لم يكن يعرف أية معلومات دقيقة عنها. وقد وصلته الأنباء أن هناك حاملتين وأربعة طرادات يابانية موجودة الآن إلى الشمال من جزر لويزياد. ولم تكن هذه القوة هى الوحيدة، بل كانت قوة بسيطة تقوم بالحراسة. وتوجه فليتشر على الفور لينقض بأقصى ما لديه من قوة، ولم يمض الوقت حتى شوهدت إحدى الحاملات الخفيفة تحترق وتستقر فى قاع المحيط بينما انسحبت بقية السفن.

وبذلك كشف فليتشر عن مكانه للعدو، مما جعله عرضة لأخطار شديدة. وكان من المنتظر أن يتلقى هجوماً صاعقاً بين لحظة وأخرى بينما لم يكن فى إمكانه إعادة تسليح قوته إلا عند العصر. وكان من حسن حظه أن الطقس الردىء أخذ يسوء باستمرار، ولم يكن العدو يملك أجهزة للرادار. وكانت قوة

العدو فى الحقيقة، قريبة جداً منه وعلى مرمى المدافع من ناحية الشرق. وبعد الظهر بدأ العدو هجومه، إلا أن الطائرات المحلقة لم تتميز طريقها وأهدافها نتيجة لسوء الطقس، فاضطرت إلى العودة. وبينما هى فى طريقها إلى الحاملات مرت فوق قوة فليتشر فظهرت على شاشات الرادار، وسرعان ما انطلقت الطائرات الأميركية لتقطع عليها طريق العودة، وتسقط عدداً منها فى معركة حامية جرت فى الظلام، ولم يعد إلى الحاملات من الطائرات المغيرة العدوة إلا بضع طائرات من أصل ٢٧ قاذفة قنابل.

وفى صبيحة اليوم التالى تفرق الفريقان تحت جناح الليل الفائت. وفى هذه المرة ساعدت الأحوال الجوية سفن العدو فاختفت بين السحب المنخفضة، بينما ظلت سفن فليتشر وسط أشعة الشمس... وبدأت عملية جديدة من البحث والاستكشاف. واستطاعت بعد فترة طائرة عاملة من «ليكسنغتون» من اكتشاف مخبأ العدو كما التقطت رسالة لاسلكية صادرة من العدو تفيد أنهم اكتشفوا أيضاً مكان حاملات الطائرات الأميركية، وبذلك أصبحت المعركة محتمة بين فريقين متعادلين من حيث القوة.

وفى تمام الساعة التاسعة صباحاً انطلقت اثنتان وثمانون طائرة أميركية، كما انطلقت تسع وستون طائرة يابانية، والتحمت القوتان فى معركة ضارية استمرت بضع ساعات. وقد وجدت الطائرات الأميركية بعض المتاعب من السحب الكثيفة المنخفضة، بينما اختفت إحدى الحاملتين اليابانيتين تحت ستار من الأمطار الشديدة، وتركز الهجوم على الحاملة اليابانية الثانية فأصيبت بعدة قنابل، واشتعلت فيها النيران وبالرغم من الأضرار التى لحقتها فقد استطاعت أن تنجو وتصل إلى قاعدتها لإصلاحها. وقد أسفرت النتيجة عن سقوط ثلاث وثلاثين طائرة أميركية مقابل ثلاث وأربعين يابانية. كما أصيبت حاملة الطائرات الأميركية «ليكسنغتون» إصابات مباشرة، مما اضطر رجال إلى نسفها وإغراقها.

وكان من جراء ذلك أن أجَّل اليابانيون تقدمهم نحو مرفأ مورسبى بالرغم من أن الطريق كان مفتوحاً أمامهم. أما الجانب الأميركى فقد كان هدفه الاحتفاظ بقوة الحاملات الأميركية. كما تأكد للأميرال نيميتس أن هناك أحداثاً على جانب كبير من الأهمية منتظر حصولها فى الشمال، مما يتطلب منه إعادة استجماع قوته. وقد اكتفى فى الوقت الحاضر من توقف اليابانيين من التقدم نحو بحر المرجان، واستدعى جميع حاملات طائراته إلى بيرل هاربور.

وكان تأثير هذه المعركة لا يتناسب مع خطورة الناحية التكتيكية التى علقت عليها، ولكن من الناحية الاستراتيجية فقد كانت النتائج مرضية باعتبار أن هذا النصر كان أول نصر تحققه القوات الأميركية على اليابان.

كان الأميرال ياماتو يهيئ نفسه لمعركة جديدة ليختبر قوة أميركا فى وسط الباسيفيك، وذلك حين يتقدم لاحتلال جزر ميداوى ومطارها الكبير الذى يتمكن بواسطته من الوصول إلى بيرل هاربور والذى يقع على بعد ۱۰۰۰ ميل نحو الشرق. فقد قرر الأميرال أن يرسل فى الوقت نفسه قوات لتحتل مراكز ذات أهمية كبرى فى جزر اليوشان الغربية، وكان بذلك يأمل أن يجتذب الأسطول الأميركى نحو الشمال لصد الهجوم على جزر اليوشان. حينئذ يلقى الأميرال ياماتو بجميع قواته الرئيسية على جزر ميداوى.

إلا أن القائدة الأميركى نيميتس كان يقظاً ومستعداً. وكانت مخابراته النشيطة تطلعه باستمرار على جميع التفاصيل حتى عن موعد الهجوم اليابانى. وبالرغم من أن غزو ميداوى قد يكون ستاراً لإخفاء حقيقة التقدم نحو جزر اليوشان، ومن ثم التقدم منها نحو القارة الأميركية فإن ميداوى كانت بالنسبة له الخطر الأكبر والأكثر حقيقة، لذلك لم يتردد عن تركيز قوته فى ذلك المكان.

وبدأت القوات اليابانية تحركها فى نهاية شهر آيار. وكانت القوة الأولى

تتجه نحو اليوشان لتحويل الانتباه إليها، ولاجتذاب بقية الأسطول الأميركى إلى ذلك الاتجاه. وكان من المفروض أن تنزل القوات اليابانية فى جزر آتو وكيسكا واداك والتى تقع إلى الغرب. كما يقوم ناغومو مساعد الأميرال ياماتو بقوة مؤلفة من أربع حاملات بضرب جزيرة ميداوى، وبعد ذلك تأتى قوات الإنزال لتحتل جزيرة ميداوى يوم الخامس من حيزران. أما الأميرال ياماتو فيعود مع أسطوله إلى الغرب بحيث يبقى فى مأمن من الطائرات الأميركية ويظل متأهباً للعودة ليضرب القوات الأميركية حين تقوم بهجومها المضاد.

وامتلأ مطار ميداوى بقاذفات القنابل الأميركية، وصدرت الأوامر لتكون القوات بأسرها على أهبة الاستعداد بانتظار الحصول على أدق المعلومات المبكرة عن اقتراب العدو. وبالفعل استمرت عمليات مراقبة العدو من الجو منذ الثلاثين من آيار. وفى يوم ٣ حزيران شوهدت إحدى عشرة سفينة حربية معادية. وسرعان ما بدأ الهجوم الأميركى الخاطف على السفن المعادية، إلا أن النتيجة لم تسفر عن أية نتيجة سوى إصابة إحدى ناقلات الزيت، لكن الأميرال فليتشر تأكد الآن حقيقة مقاصد العدو. وقد علم من مخابراته أن العدو سيهاجم ميداوى من ناحية الشمال الغربى، فحول حاملات طائراته إلى الشمال من ميدواى لتبقى على أتم الاستعداد لمهاجمة جناح الأميرال ناغومو عندما يبرز وحيثما يظهر.

وأشرق يوم الرابع من حزيران واضحاً، وفى الصباح الباكر أرسلت دورية من ميدواى إشارة طالما انتظرناها معلنة اقتراب حاملات الطائرات اليابانية. وشوهدت طائرات عديدة فى طريقها إلى ميدواى، كما شوهدت البوارج تواكب حاملات الطائرات. وبدأ الهجوم اليابانى بقوة وعنف، وقد قوبل بنفس العنف أيضاً مما اضطر الطائرات المهاجمة إلى العودة وقد فقدت نصفها تقريباً. وقد حصلت أضرار جسيمة وسقط الكثير من الضحايا، لكن المطار ظل صالحاً. وسمح الوقت لهجوم معاكس على أسطول ناغومو، وكان تفوقه الكبير

فى الطائرات المقاتلة سبباً فى تكبيد الأميركيين خسائر باهظة، وجاءت نتيجة الهجوم الباسل الذى بنيت عليه الآمال الكبار مخيبة، لكن الارتباك الذى أحدثه الهجوم لدى اليابانيين كان مذهلاً للقائد اليابانى، فأبعده عن التفكير الصحيح، لا سيما بعد أن ألح عليه طياروه بوجوب إعادة الهجوم مرة أخرى على ميدواى. وكان قد أبقى عدداً كافياً من الطائرات لمواجهة الحاملات الأميركية إذا ما ظهرت عليه فجأة، ولكن بحثه عنها لم يؤد إلى أية نتيجة، فقرر أن يقسم التشكيلات التى أعدها ويزيد من تسليحها ويقوم بهجوم آخر على ميدواى. وقد اضطر إلى إخلاء أسطح حاملاته لاستقبال الطائرات العائدة، وهكذا عرض نفسه لخطر هائل فقد فاجأته الطائرات الأميركية بقوة وعنف بينما كانت حاملاته خالية من الطائرات المقاتلة.

كان وضع الأميرال فليتشر والأميرال سبنسر ممتازاً جداً، فبإمكانهما الآن التدخل فى اللحظة المناسبة. وبدأت الطائرات تشن هجومها الصاعق، وكان الطقس قرب الحاملات المعادية غائماً فتعذرت الرؤيا وإصابة الهدف. ولم تتمكن معظم الطائرات من العثور على أهدافها عدا قلة مؤلفة من إحدى وأربعين طائرة من قاذفات الطوربيد، وحتى هذه أصيبت بخيبة أمل فظيعة من عنف المقاومة التى صادفتها، ولم يعد من هذه الطائرات سوى ستة فقط. وفى هذه اللحظة وصلت سبعة وثلاثون طائرة من الحاملة «الانتربرايز» و«اليوركتاون» وانقضت على سفينة القيادة اليابانية وأمطرتها بوابل من القنابل، وبعد قليل توزعت الطائرات المهاجمة لتلقى بباقى حمولتها فوق البوارج الثلاث المرافقة وسرعان ما اشتعلت الحرائق الهائلة فى الحاملات والبوارج اليابانية. ولم يعد بإمكان القائد الأميرال ناغومو إلا أن ينقل قيادته إلى طراد مرافق وأن يراقب الحرائق والنيران تأكل ثلاثة أرباع أسطوله.

وكان على القادة المنتصرين أن يستعدوا لمواجهة أخطار أخرى فربما يهاجم الأميرال الأكبر بأسطوله الضخم جزيرة ميداوى. والآن بعد هذه

المعركة، فقد أصيبت الطائرات الأميركية بخسائر فادحة، لكن الأميرال الأكبر ياماتو بعد أن أصدر أوامره بضرب جزيرة ميدواى عاد فألغى القرار وآثر الانسحاب التام، وربما كان ذلك بعد أن علم بالخسارة المؤلمة التى أحاقت بأقوى قطع أسطوله الضخم.

وهكذا تحطمت أسطورة تفوق اليابان فى المحيط الهادى بضربة واحدة من الأسطول الأميركى، هذا التفوق الذى أحبط جميع ما حاولناه فى الشرق الأقصى لمدة ستة أشهر. ومنذ هذه اللحظة تحولت جميع أنظارنا وتفكيرنا إلى الهجوم بدلاً من الدفاع. ولم نعد نفكر فى أين سيكون الهجوم اليابانى المقبل، بل أصبحنا نفكر أين هو المكان الأفضل لنوجه نحن ضربتنا إلى العدو.



معركة العلمين

مضت إعدادات التخطيط والتدريب بلا توقف، فى الأسابيع التى تلت التبدلات التى وقعت فى القيادة، فى كل من القاهرة والجبهة. وقد تعزز الجيش الثامن بشكل لم يسبق له مثيل من قبل فى تارخيه. ووصلت إلى مصر الفرقتان الحادية والخمسون والرابعة والأربعون قادمتين من الوطن، وغدتا أهلاً لحرب الصحراء. وارتفعت قوتنا فى السلاح المدرع إلى سبعة الوية تشتمل على أكثر من ألف دبابة، أكثر من نصفها من طراز غرانت وشيرمان الأميركيين، وغدا تفوقنا فى الكم مضاعفاً، بينما غدونا متعادلين فى الكيف، وحشدت، لأول مرة فى الصحراء الغربية، قوة مدفعية ضخمة وحسنة التدريب لتأييد الهجوم المتوقع فى كل لحظة.

وأصبح السلاح الجوى فى الشرق الأوسط تابعاً لمفاهيم القيادة العليا البرية واحتياجاتها العسكرية، دون أن نضطر، بسبب وجود شخص عظيم كماريشال الجو تيدر على رأسه، إلى اتخاذ سابقات متسرعة تمليها الأوقات الحرجة. فقد كانت العلاقات بين القيادة الجوية والجنرالات الجدد، على أحسن ما يرام. وغدا لسلاح الجو الصحراوى الذى يقوده ماريشال الجو كوننغهام، قوة تربو على الخمسمائة والخمسين طائرة. وكان ثمة مجموعتان بالإضافة إلى الطائرات العاملة من مالطة، تضم نحواً من ستمائة وخمسين طائرة، مهمتها تدمير موانئ العدو وطرق تموينه عبر البحر المتوسط والصحراء. وإذا أضفنا إلى المجموع مائة طائرة أميركية من المقاتلات والقاذفات المتوسطة، تبين أن مجموع الطائرات العاملة غدا ألفا ومائتى طائرة.

وأبلغنا اليكساندر فى مختلف البرقيات أن الرابع والعشرين من تشرين

الأول قد اختير موعداً لعملية «الخطوة السريعة» وهو الاسم الذى أطلقناه على الهجوم، وقال الجنرال فى إحدى برقياته: «ولما لم يكن هناك جناح مكشوف، فإن المعركة ستدور بحيث نخرق ثقباً فى جبهة العدو. وسيمر الفيلق العاشر الذى يضم دباباتنا والذى سيؤلف رأس رمح هجومنا عبر الثقب ويتقدم فى وضح النهار. ولن يكون هذا الفيلق تام السلاح والعتاد قبل الأول من تشرين الأول. وسيحتاج بعد ذلك إلى نحو شهر من التدريب على الدور الذى سيقوم به». ومضى الجنرال يقول: «وأرى أن من الضرورى أن يشن الهجوم الاقتحامى الرئيسى فى فترة القمر البدر. وستكون العملية رئيسية وضخمة للغاية، مما قد يستغرق بعض الوقت، لا سيما وأن خرق ثغرة مناسبة فى خطوط العدو تمر منها كافة قواتنا المدرعة قد يستغرق أكثر من ساعات النهار، لتصبح العملية حاسمة للغاية...».

ومضت الأسابيع واقترب الموعد، وكان السلاح الجوى قد بدأ معركته، مهاجماً قوات العدو ومطاراته ومواصلاته. وكان يولى عناية خاصة فى غاراته للقوافل المعادية. وأغرقنا فى شهر أيلول ثلاثين فى المائة من بواخر المحور التى تنقل المؤن إلى إفريقيا الشمالية بواسطة الغارات الجوية. وارتفع هذا الرقم فى شهر تشرين الأول إلى نحو أربعين فى المائة. أما خسارة ناقلات الزيت فبلغت ستاً وستين فى المائة. ودمرنا فى أشهر الخريف الأربعة ما يربو على مائتى ألف طن من حمولة بواخر المحور. وكانت هذه الضربات قاصمة للغاية لجيش رومل. وأخيراً وصلت الكلمة المنتظرة. فقد أبرق إلينا الجنرال اليكساندر يقول: «زيب».

وانطلق نحو من ألف مدفع ليلة البدر التم فى الثالث والعشرين من تشرين الأول تطلق حممها على مدافع العدو مدة عشرين دقيقة، ثم استدارت على مواقع مشاته تقصفها بحممها. وتحت ستار هذه النار الهائلة التى يعززها قصف ضخم من الجو، تقدم الفيلق الثلاثون بقيادة الجنرال ليز

والفيلق الثالث عشر بقيادة الجنرال لومسدن لاستغلال النجاح. وأحرزت الوحدات المتقدمة انتصارات قوية، تحت ستار النار الحامية وكانت عند الفجر شقت طرقاً داخلية لها فى صفوف العدو بعد آن قام المهندسون بتطهير الألغام وراء القوات الأمامية. ولكننا لم نتمكن من اختراق حقول الألغام على عمقها اختراقاً كاملاً، ولم يكن هناك أمل مبكر فى أن تتمكن مدرعاتنا من اختراق جبهة العدو. وشقت الفرقة الإفريقية الجنوبية طريقها فى الجنوب إلى الأمام لحماية الجناح الجنوبى للاندفاع، بينما شنت الفرقة الهندية الرابعة هجمات من هضاب الرويسات وتمكنت الفرقة المدرعة السابعة والفرقة الرابعة والأربعون من الفيلق الثالث عشر من اختراق خطوط العدو الدفاعية المواجهة لهما. وقد حقق هذا الاندفاع غرضه بإقناع العدو بالاحتفاظ بفرقتيه المدرعتين ثلاثة أيام وراء هذا الجزء من الجبهة، بينما كانت المعركة الرئيسية تتطور فى الشمال.

ومع ذلك لم نتمكن حتى الآن من فتح فجوة فى جهاز العدو العميق من حقول الألغام والخطوط الدفاعية. وعقد مونتغمرى فى الساعات المبكرة جداً من صباح الخامس والعشرين من شهر آب مؤتمراً شهده كبار قادته العسكريين، وأصدر أمره فى غضونه إلى سلاحه المدرع بالاستمرار فى ضغطه قبيل الفجر وفقاً لتعليماته الأصلية. وتم كسب أراض جديدة فى خلال النهار بعد قتال مرير، ولكن التضريس الطبيعى الذى يعرف برابية «الكلى» أضحى محور الصراع العنيف مع الفرقة الألمانية المدرعة الخامسة عشرة والفرقة الإيطالية المدرعة «ارييتى» اللتين قامتا بسلسلة من الهجمات المضادة. ولم يقم مونتغمرى بتشديد الضغط مسافة أبعد من جبهة الفيلق الثالث عشر، ليبقى على الفرقة المدرعة السابعة سليمة لذروة المعركة.

ووقعت ارتباكات خطيرة فى قيادة العدو فى هذه الآونة، فقد نقل رومل إلى المستشفى فى ألمانيا فى نهاية شهر أيلول، وخلفه فى القيادة العامة الجنرال شتوم. وأصيب شتوم بعد أربع وعشرين ساعة من بداية المعركة بنوبة

قلبية مفاجئة قضى نحبه فيها، وغادر رومل مستشفاه بطلب هتلر فاستعاد قيادته فى الخامس والعشرين.

واستمر القتال العنيد طيلة السادس والعشرين من تشرين الأول، على طول الفجوة العميقة التى تم شقها فى خط العدو، ولا سيما فى جوار «رابية الكلى». وانطلقت قوة العدة الجوية التى كانت هادئة فى اليومين الماضيين من عقالها، لتتحدى بشكل حاسم تفوقنا الجوى. ودارت عدة معارك جوية كانت تنتهى دائماً فى مصلحتنا. وقد أفلحت جهود الفيلق الثالث عشر فى تأخير حركة السلاح الألمانى المدرع وإن لم تفلح فى منعه من الانتقال إلى ما غدا يؤلف الآن القطاع الفاصل فى الجبهة. لكن سلاحنا الجوى صب على هذه الحركة الجديدة حممه الشديدة.

وقامت الفرقة الأوسترالية التاسعة بقيادة الجنرال مورسهيد فى هذه اللحظة باندفاع مثمر، فقد اتجهت إلى الشمال من الفجوة باتجاه البحر. وسارع مونتغمرى إلى استغلال هذا النجاح البارز، فأمر القوات النيوزيلندية بالتوقف عن اندفاعها نحو الغرب، وأصدر أمره إلى الأوستراليين بمواصلة التقدم نحو الشمال. وهدد هذا الاندفاع مؤخرة قسم من فرقة المشاة الألمانية فى الجناح الشمالى. وشعر فى الوقت نفسه أن قوة هجومه الرئيسى بدأت تضغط وسط حقول الألغام ومراكز المدفعية القوية المضادة للدبابات. ولهذا فقد أعاد جمع قواته واحتياطيه لهجوم جديد نابض بالحيوية.

ونشب قتال ضار طيلة السابع والعشرين والثامن والعشرين فى سبيل احتلال رابية الكلى، أمام هجمات الفرقتين المدرعتين الألمانيتين الخامسة عشرة والحادية والعشرين اللتين وصلتا من القطاع الجنوبى. وبعث الجنرال اليكساندر يصف القتال بالعبارات التالية:

«فى السابع والعشرين من تشرين الأول بدأ هجوم مدرع مضاد كبير، على النمط القديم. وقد هاجمنا الألمان خمس مرات بكل ما يتوافر لديهم من

دبابات ألمانية وإيطالية، ولكنهم لم يحققوا أى مكسب، وإنما منوا بخسائر بالغة، لا تتناسب مع خسائرنا، إذ كنا نحن نحارب فى موقف الدفاع، ولم نمن إلا بخسائر طفيفة. وقام العدو بهجوم آخر فى الثامن والعشرين، بعد عمليات استكشاف طويلة ودقيقة، استغرقت طيلة ساعات النهار الباكر، للعثور على المراكز الضعيفة وتحديد مواقع مدافعنا المضادة للدبابات. وقد جاء الهجوم بعد الظهر بشكل مركز، بينما كانت شمس المغيب وراءهم. وكانت عمليات الاستطلاع هذه المرة أقل نجاحاً منها فى الأيام السالفة، ذلك لأنه كان فى وسع دباباتنا ومدافعنا المضادة للدبابات أن تشترك مع العدو من مدى أبعد. وعندما حاول العدو تركيز قواته للقيام بالهجوم النهائى، تدخل السلاح الجوى الملكى ثانية على نطاق واسع مدمر. وألقت قاذفاتنا فى غضون ساعتين ونصف الساعة، نحواً من ثمانين طناً من القنابل على منطقة احتشاده التى كانت تتسع ثلاثة أميال طولاً فى ميلين عرضاً، وفشل هجوم العدو، قبل أن يستكمل تشكيله. وكانت هذه هى المرة الأخيرة التى حاول فيها العدو تسلم زمام المبادرة».

وقد أغرقنا فى هذه الأيام الثلاثة الواقعة بين السادس والعشرين والثامن والعشرين من تشرين الأول ثلاث ناقلات عدوة للنفط ذات أهمية حيوية بقنابلنا التى قذفتها الطائرات، فحققنا ثمرة جنية للعمليات الجوية التى كانت جزءاً لا يتجزأ من المعركة البرية.

وأعد مونتغمرى الآن خططه ومواقعه لعملية الاقتحام الحاسمة التى أطلقنا عليها اسم «الهجوم الأكبر». ونحى عن الجبهة الفرقة النيوزيلندية الثانية والفرقة البريطانية المدرعة الأولى، وكانت الأخيرة فى حاجة ماسة إلى إعادة التنظيم بعد بلائها الرائع فى صد السلاح الألمانى المدرع فى روابى «الكلى». وجمعت الفرقة البريطانية المدرعة السابعة والفرقة الحادية والخمسون ولواء من الفرقة الرابعة والأربعين إلى بعضها وأدمجت فى قوة

احتياطية واحدة. وتقرر أن يتولى النيوزيلنديون طليعة الاقتحام ومعهم لواءا المشاة البريطانيان (١٥١) و(١٥٢) واللواء البريطانى التاسع المدرع.

وكان الاندفاع الأوسترالى الرائع إلى الأمام الذى تحقق بعد قتال ضار وعنيف هو الذى أحال المعركة كلها إلى صالحنا. وبدأت فى الساعة الواحدة من صباح الثانى من تشرين الثانى عملية «الهجوم الأكبر». وتمكنت الألوية البريطانية الملحقة بالفرقة النيوزيلندية، تحت ستار قوى من المدفعية من اختراق المنطقة المحصنة، وانطلق اللواء المدرع التاسع فى زحفه، ولكنه واجه خطاً دفاعياً جديداً قوياً بمدافعه المضادة للدبابات يمتد على طول طريق الرحمن. ونشبت معركة طويلة منى فيها اللواء بخسائر فادحة، ولكنه تمكن من الاحتفاظ بالرواق مفتوحاً، وتحركت الفرقة البريطانية المدرعة الأولى لتندفع منه. وهنا وقع الصدام الأخير بين السلاحين المدرعين فى المعركة. فقد هاجمت جميع الدبابات المتبقية عند العدو نتوءنا من جانبيه، ولكنها صدت. وهنا حلت مرحلة القرار الأخير، ولكن تقارير طائراتنا الاستطلاعية دلت على أنه فى الثالث من تشرين الثانى، وعلى الرغم من بدء تراجع العدو، كانت قوات مؤخرته للتغطية على طريق الرحمن صامدة فى وجه الزحف الرئيسى لسلاحنا المدرع، مانعة إياه من التقدم. ووصل أمر من هتلر، يحظر أى تراجع، لكن النتيجة لم تعد فى أيدى الألمان. وكان علينا أن نفتح ثقباً ثانياً فى الجبهة. وشن اللواء الهندى الخامس فى الساعات المبكرة من صباح الرابع من تشرين الثانى هجوماً سريعاً تنقله السيارات على بعد خمسة أميال إلى الجنوب من تل العقاقير، حقق نجاحاً بارزاً ومنقطع النظير. وهكذا كسبنا المعركة وأصبحت الطريق مفتوحة أمام سلاحنا المدرع لمطاردة العدو عبر الصحراء الغربية.

وبدأ رومل تراجعه الكامل السريع، لكن وسائل النقل لم تكن متوافرة لديه لحمل كل ما لديه من قوات، كما أن الوقود كان ينقصه، وعلى الرغم من

أنا لألمان كانوا قد قاتلوا ببسالة، فإنهم كانوا يعطون لأنفسهم الأفضلية على حلفائهم الإيطاليين فى السيارات. وترك الألوف من ست فرق إيطالية شاردين فى الصحراء دون غذاء أو ماء، ودون أى أمل، سوى أن تقوم قوات الحلفاء بجمعهم للزج بهم فى معسكرات الأسر. وامتلأت أرض المعركة بحشد كبير من الدبابات المدمرة أو الخربة والمدافع والسيارات. وتقول سجلات الألمان: إنه لم يبق من مجموع ٢٤٠ دبابة صالحة للاستعمال، كانت متوافرة لدى الفرق الألمانية عند بداية المعركة إلا ثمان وثلاثون دبابة فى الخامس من تشرين الثانى. وكان السلاح الجوى الألمانى، قد تخلى عن محاولة الحصول على التفوق الجوى، وأصبح فى مكنة سلاحنا الآن، أن يعمل بحرية وانطلاق، لا يعيقه عائق، مهاجماً العدو بكل موارده وهو يتراجع فى أرتاله العظيمة من الرجال والسيارات باتجاه الغرب. وقد أثنى رومل نفسه ثناء عاطراً على الدور البارز الذى لعبه السلاح الجوى الملكى فى المعركة. وهكذا هزم جيش رومل هزيمة حاسمة، وغدا مساعده الجنرال فون توما، مع تسعة جنرالات من الإيطاليين أسرى فى أيدينا.

وبدت لنا آمال مشرقة فى تحويل الكارثة التى لحقت بالعدو إلى عملية إبادة. واتجه الهجوم النيوزيلندى إلى الفرقة، ولكن عندما وصل النيوزيلنديون إلى هناك فى الخامس من تشرين الثانى، كان العدو قد انسحب منها. وظل هناك أمل بقطع طريق تراجع العدو فى مرسى مطروح التى استهدفتها الفرقتان البريطانيتان المدرعتان الأولى والسابعة بهجومهما. وعندما هبط ليل السادس من تشرين الثانى، كانت الفرقتان تقتربان من هدفهما بينما كان العدو، لا يزال يحاول الهروب من الفخ الذى يكاد يطبق عليه. وفجأة سقط المطر، ونضبت كميات الوقود عند قواتنا الأمامية. فتوقفت عمليات مطاردتنا طيلة السابع من تشرين الثانى. وأدى هذا التوقف الذى استمر أربعاً وعشرين ساعة إلى الحيلولة دون إكمال عملية التطويق. لكن أربع فرق ألمانية وثمانى

فرق إيطالية قد توقفت عن الوجود كتشكيلات مقاتلة، وأسر نحو من ثلاثين ألف جندى كما وضعت قواتنا يدها على كميات كبيرة من المعدات الحربية من مختلف الأنواع. وقد سجل رومل رأيه فى الدور الذى لعبته مدفعيتنا فى هزيمته فقال: «وقد أظهرت المدفعية البريطانية مرة ثانية تفوقها المشهور. ولعل أبرز ما فيها قدرتها على الحركة، وسرعتها على التكيف وفقاً لمتطلبات قوات الهجوم».

وقد اختلفت معركة العلمين عن سائر المعارك الأخرى فى الصحراء. كانت الجبهة محدودة، وقوية التحصين، وتضم قوات كبيرة. ولم يكن هناك جناح يمكن الالتفاف حوله. وكان على الفريق الأقوى، والذى يود الهجوم، أن يحقق اختراقاً فى الجبهة. وتكاد معركة العلمين تذكرنا بمعارك الحرب الكونية الأولى فى الجبهة الغربية. وقد تكررت فى مصر، المظاهر التى سبق لنا أن رأيناها، والمحاولات نفسها لتجربة القوى واختبارها التى شهدنا فى معركة كمبريه فى نهاية ١٩١٧، وفى المعارك الكثيرة التى جرت فى عام ١٩١٨ وأهم هذه المظاهر، تمتع المهاجمين بطرق مواصلات قصيرة وطيبة، واستخدام المدفعية فى أكبر تركيز ممكن، والقصف الطبلى، وتغلغل الدبابات فى هجومها إلى الأمام.

وكان الجنرال مونتغمرى ورئيسه الجنرال اليكساندر، قد اتقنا إتقاناً كاملاً هذا النوع من الحروب بفضل التجربة والدراسة والتفكير العميق. وكان مونتغمرى فى حد ذاته مدفعياً عظيماً. وكان يؤمن، كما قال برنارد شو عن نابليون، أن المدافع تقتل الرجال. وسنراه دائماً يحاول أن يجمع نحواً من ثلاثمائة أو أربعمائة مدفع إلى بعضها، وأن يجعلها تعمل عملاً مشتركاً، تحت قيادة واحدة، مركزة، بدلاً من اشتباكات البطاريات، وهى العمليات التى لا مناص منها والتى ترافق اندفاعات السلاح المدرع فى المجالات الصحراوية. وبالطبع كان كل شىء فى المعركة على نطاق أضيق وأصغر بكثير من معارك

فرنسا والفلاندرز. وقد خسرنا أكثر من ثلاثة عشر ألفاً وخمسمائة رجل فى العلمين فى اثنى عشر يوماً، ولكننا خسرنا ستين ألفاً فى اليوم الأول وحده من معركة السوم. وقد ازدادت القوة النارية الدفاعية من الناحية الثانية عما كانت عليه فى الحرب الماضية. وفى تلك الأيام كان المفروض أن تكون القوات المحتشدة للهجوم ضعفين أو ثلاثة أضعاف القوات المدافعة لا فى عدد المدافع فحسب، بل فى عدد الرجال أيضاً، لتتمكن من اختراق الجبهة المحصنة وتحطيمها رغم المدافعين عنها. ولم يكن لدينا مثل هذا التفوق فى العلمين. وكانت جبهة العدو تتألف لا من سلسلة من الخطوط المتعاقبة من المراكز الحصينة ومواقع المدافع الرشاشة فحسب، بل من منطقة عميقة للغاية بكاملها تضم جهازاً دفاعياً شاملاً. وأمام هذه المنطقة يقوم درع هائل من حقول الألغام لم يعرف تاريخ الحروب له مثيلاً من قبل فى قوته وكثافته. ولهذه الأسباب كلها فإن معركة العلمين ستحتل دائماً صفحة مجيدة فى التاريخ العسكرى البريطانى.

وهناك سبب آخر لخلود هذه المعركة، وهو أنها ترمز فى الحقيقة إلى انقلاب فى «محور الحظ». وقد يقال، وهذا القول صحيح، أننا «قبل العلمين لم نحرز أى انتصار، ولكننا بعد العلمين لم نمن بأية هزيمة».



سقوط موسولينى

الآن وبسبب دخول الولايات المتحدة فى الحرب بعد هجوم اليابان على بيرل هاربور، قد أصبح انتصار الحرية أمراً مؤكداً، وفعلاً قد وصلنا إلى نقطة التحول فى الحرب الكونية (العالمية) الثانية ولم يأت شهر آيار حتى كانت جميع القوات الألمانية والإيطالية فى القارة الإفريقية قد أبيدت أو أسرت، كما أوقفت انتصارات الأمريكيين منذ عام فى بحر المرجان وجزيرة مايدواى، التوسع اليابانى فى المحيط الهادى، كما اتضح لهتلر أن عليه أن يدفع الثمن غالياً للغلطة الكبرى التى ارتكبها فى محاولة احتلال روسيا عن طريق الغزو، وعما قريب سيجد الشعب الألمانى نفسه وحيداً فى أوروبا، وكان فى وسعنا أن نرى الميزان ينقلب إلى مصلحتنا فى نيسان عام ١٩٤٣، حيث كانت قوافل الغواصات المعادية تضطر إلى البقاء تحت سطح البحر وكانت مطاردتها تستمر وتتواصل، بينما تقوم وحداتنا الحارسة من بحرية وجوية بحماية القوافل، والصمود للغواصات المهاجمة، وتوافر لدينا الآن القوة الكافية لتشكيل مجموعات مستقلة من السفن التى تمثل دور فرق الفرسان، وكان هذا كل أملى، ولما كان الألمان قد أنزلوا إلى البحر مائتين وخمساً وثلاثين غواصة وهو أكبر عدد دفعوا به حتى الآن، وكان بحارتها تنقصهم الخبرة، فلم تكن هجماتهم تصيب أهدافها بدقة، ولهذا فقد هبطت خسائرنا إلى ثلثمائة ألف طن، كما أغرقوا لنا أربعين غواصة فى شهر آيار وحده كما أن خسائرنا فى شهر حزيران هبطت إلى أقل رقم شهدناه منذ دخلت الولايات المتحدة الحرب وأخذت القوافل تجتاز طريقها بأمان.

كما أصبح فى وسع جيوشنا، أن تعبر البحر لمهاجمة هتلر فى أوروبا،

وذلك بسبب زوال قوة المحور من الشمال الإفريقى، كما أعيد فتح طريق القوافل المباشرة إلى مصر والهند وأستراليا، فى حماية قواتنا البحرية والجوية على طول الطريق من جبل طارق إلى السويس، وبذلك لم تعد قوافلنا تدور حول رأس الرجاء الصالح وهى الطريق التى كلفتنا غالياً من الوقت والجهد والحمولة، وأدى ذلك إلى توفير خمسة وأربعين يوماً بالنسبة إلى كل قافلة تسافر إلى الشرق الأوسط.

ولما كانت الهزيمة التى نزلت بغواصاتنا قد أثرت على جميع الأحداث مما جعل الباقى منها يتفرق فى مساحات شاسعة ونائية فى جنوب الأطلنطى والمحيط الهندى، وأصبحت وسائل دفاعنا أقل قوة، هذا وقد استمرت عملياتنا الجوية الهجومية فى خليج بسكاى فى الازدياد والقوة يوماً بعد آخر، حيث أغرقنا للعدو سبعاً وثلاثين غواصة فى شهر تموز وحده، كما أغرقنا فى الأشهر الثلاثة الأخيرة من العام ثلاثاً وخمسين غواصة، بينما كانت خسارتنا فى هذه المدة نفسها أكثر من سبع وأربعين باخرة تجارية، وقد بذلت غواصاتنا فى أشهر الخريف العاصفة جهود المستميت ولكن جهودها ذهبت هباء، وفشلت فى استعادة التفوق فى شمالى الأطلنطى.

هذا وقد أعلن الأميرال دونتس الألمانى، أن عام ١٩٤٤ سيكون عاماً ناجحاً برغم ما فيه من صعوبات ومشقات، وقال إننا سنحطم طريق تموين بريطانيا بسلاح جديد من الغواصات، وكان لهذه الثقة بعض ما يبررها، فقد كانت ألمانيا تبذل مجهوداً هائلاً، لبناء طراز جديد من الغواصات يستطيع التحرك بسرعة أكبر تحت الماء وقطع مسافات طويلة، وفى الوقت نفسه سحبت معظم غواصاتها القديمة لكى يتم تجهيزها بسلاح «شنوركل» الجديد، وقد مكنها هذا الابتكار الجديد من إعادة تعبئة بطارياتها فى الوقت الذى تكون فيه تحت الماء، وهكذا أمكنها أن تتجنب اكتشاف الطائرات لها، وأصبح من الواضح أن الغاية من الغواصات المجهزة بهذا الجهاز الجديد، هى مقاومة عبور القناة

الإنجليزية عندما تصبح قوات الحلفاء متأهبة لغزو أوروبا.

أما مسألة غزو صقلية فقد كان من رأى الجنرال أيزنهاور أن الهجوم عليها يجب أن يتم إذا كانت الغاية منه تطهير الطريق البحرى فى البحر الأبيض المتوسط، أما إذا كان غرضنا غزو إيطاليا فيجب احتلال جزيرتى سردينيا وكورسيكا لأن هاتين الجزيرتين تقعان بالقرب من رأس الحذاء الإيطالى، وعلى الرغم مما فى هذه النظرية العسكرية من وجاهة فإنى لم أكن موافقاً عليها، ولكن القوى السياسية تلعب دورها.

وبذلك أعددنا العدة لغزو صقلية، وابتدأنا عمليات النزول فيها مسترشدين بالتجارب التى مرت بنا فى شمال إفريقية، واشتركت فيها ثلاثة آلاف سفينة وقطعة إنزال كانت تحمل مائة وستين ألف رجل وأربعة عشر ألف سيارة وستمائة دبابة وألفا وثمانمائة مدفع، وقد سارت الأمور سيراً مرضياً، نتيجة لحسن التعاون بين أركان القيادة المشتركة، وكنت لأسباب سياسية قد تخليت عن قيادة الحملة فى شمال إفريقية وإسنادها للولايات المتحدة، أما الآن فقد دخلنا مرحلة جديدة هى غزو صقلية وقد تقرر أن يتخذ القرار النهائى لغزو إيطاليا على ضوء ما يسفر عنه القتال فى صقلية، فقد شعرت أنه من الضرورى أن يكون البريطانيون متساوين مع حلفائهم فى تحمل أعباء القيادة، وقد وافق حلفاؤنا الأمريكيون على ذلك، وسلمونا القيادة الفعلية للقتال، وتقرر أن يتولى اليكساندر مجموعة الجيوش الخامسة عشرة التى تضم الجيش الأمريكى السابع الذى يقوده الجنرال باتون، والجيش البريطانى الثامن الذى يقوده مونتغمرى، وتولى قائد القوات الجوية تيدر قيادة قوات الحلفاء الجوية، كما تولى الجنرال كاتنجهام قيادة قوات الحلفاء البحرية. وكان الجنرال أيزنهاور هو القائد العام للقوات كلها، وبدأت الغارات الجوية العنيفة على الجزيرة فى الثالث من تموز لتعطيل مطاراتها ومطارات سردينيا أيضاً، مما اضطر مقاتلات العدو إلى الدفاع واضطر قاذفاته

البعيدة المدى إلى الانسحاب إلى قواعد جديدة فى البر الإيطالى، وعندما اقتربت قوافلنا من الجزيرة كنا قد ضمنا السيطرة الجوية على المنطقة، ولم تحاول بوارج المحور وطائراته أن تعرقل الحملة، وتمكنا عن طريق التمويه، أن نجعل العدو فى حالة من الشك، ولم يتمكن من معرفة الهدف الحقيقى من هجومنا حتى اللحظة الأخيرة، لأن حركاتنا البحرية واستعداداتنا العسكرية كانت فى مصر مشيرة إلى أن حملتنا ستستهدف اليونان، وكنا قد حددنا اليوم العاشر من تموز لبدء الغزو، وفى صباح التاسع من تموز تحركت الأساطيل الجبارة من الشرق والغرب إلى جنوب مالطة استعداداً لإبحارها إلى شواطئ صقلية، وفى الوقت المحدود اتجهت كلها إلى ميدان الهجوم وكانت هذه العملية هى أضخم عملية جرت فى التاريخ حتى الآن، إلا أن الرياح اشتد هبوبها بعد الظهر حتى بلغت حداً من العنف جعل النزول إلى البر أمراً خطراً ولا سيما على الشواطئ الغربية، ولما كنا نود تأجيل النزول عند الضرورة، وكان الوقت قد مضى على إمكان التأجيل، فقد شعرنا بالقلق بالنسبة لقوافل الإنزال الصغيرة التى كانت تصطرع مع البحر، وقد تغرق بعضها، كما لقيت قواتنا الجوية الهابطة أسوأ حظ، حيث قذفت الطائرات الأميركية بأكثر من ثلث رجال لواء المظلات الأول، قبل الأوان، مما أدى إلى غرقهم فى البحر، أما الثلثان الباقيان فقد نزلا فوق القسم الجنوبى من صقلية، وتمكن ثمانية ضباط وخمسة وستون جندياً من احتلال الجسر وصمدوا فيه إلى أن وصلتهم النجدة بعد اثنتى عشرة ساعة، وكانت عمليات النزول من البحر تحت ستار من الحماية الجوية المستمرة ناجحة كل النجاح، وتمكنا من الاستيلاء على اثنى عشر مطاراً، وبدأ العدو بعد أن أفاق من ذهول المفاجأة يقاتل بشدة، وبعد ثمانية وثلاثين يوماً من القتال أبرق الجنرال اليكساندر يقول: «فى الساعة الواحدة من صباح اليوم السابع عشر من تموز عام ١٩٤٣ طرد آخر جندى ألمانى من جزيرة صقلية وأصبحت الجزيرة كلها فى أيدينا».

وفى التاسع عشر من تموز قامت قوة ضخمة من قاذفات القنابل الأميركية بالإغارة على مطار روما، وعلى أرصفة السكة الحديدية فيها فأوقعت أضراراً فادحة، وكان أثرها النفسى مؤلماً، وأصبح انهيار إيطاليا السريع أمراً محتملاً، لكن الأميركيين أصروا على عدم القيام بأى عمل جدى فى البحر الأبيض المتوسط قد يؤدى إلى التأثير على العمليات الحربية الأخرى، وكان هذا التحفظ سبباً فى خلق الكثير من المتاعب عندما بدأ نزولنا فى ساليرنو، وبينما كانت المناقشات الحادة دائرة بيننا، تبدل الموقف فجأة كلياً بسبب سقوط موسولينى.

وكان على الدوتشى أن يتحمل الآن أعباء الكوارث العسكرية التى قاد بلاده إليها بعد هذه السنوات الطويلة من الحكم، حيث كانت سلطته مطلقة، ولم يكن فى وسعه أن يلقى اللوم على الملكية أو النظام البرلمانى أو الحزب الفاشى أو أركان الحرب، أما وقد انتشرت الآن بين الطبقات العليمة ببواطن الأمور فى إيطاليا، الآراء بأن المحور قد خسر الحرب، فإن اللوم قد اتجه إلى ذلك الرجل الذى قذف ببلاده بتهوره إلى جانب الفريق الخاسر.

هذا وكان قد أجرى بعض التنقلات بين قادته العسكريين ومستشاريه السياسيين، فعين فى شهر شباط الجنرال امبروزيو خلفاً للجنرال كافليرو فى رياسة أركان الحرب، وكان أمبروزيو مع صديقه الدوق أكورونى وزير البلاط المستشارين الشخصيين للملك، وكانا منذ أشهر يأملان فى قلب حكم الدوتشى ووضع نهاية للعهد الفاشى، ولكن موسولينى كان لا يزال مسيطراً على مسرح العمليات الأوروبى وكأنه عامل أساسى فيه، وقد شعر بالأسى عندما طلب إليه قائده الجديد سحب الفرق الإيطالية فوراً من البلقان، لأنه كان يعتقد أن وجود هذه القوات يقيم شيئاً من التوازن فى وجه السيطرة الألمانية على أوروبا، ولم يدرك موسولينى أن الهزائم فى الخارج وانحلال الروح المعنوية فى الداخل قد أفقداه وضع الحليف بالنسبة إلى هتلر، وكان لا

يزال يتعلق بأهداب السلطة وحلمها، ولهذا فقد عارض فى طلب أمبروزيو الملح، وكان يخشى من احتمال قيامه بعمل شخصى متطرف.

ولما كان الملك الدستورى الحذر، على اتصال مستمر منذ شهر شباط، بالماريشال بادوليو الذى كان قد أقيل من منصبه بعد الكارثة اليونانية عام ١٩٤٠ ووجد فيه الملك أخيراً أنه الشخص الذى يستطيع أن يعهد إليه بإدارة شئون الدولة، فقد تم وضع الترتيبات اللازمة لذلك، وتقرر اعتقال موسولينى فى السادس والعشرين من تموز، ووافق أمبروزيو على إيجاد العملاء الذين يتولون اعتقاله، وقد استعان الجنرال بغباء، بعناصر من الحرس الفاشى القديم الذين كانوا يبحثون عن إمكانية تجديد شباب الحزب، ورأوا دعوة أكبر هيئة للحزب وهى المجلس الفاشى الأعلى الذى لم يجتمع منذ عام ١٩٣٩، الوسيلة لمواجهة الدوتشى بإنذار نهائى، وقاموا فى الثالث عشر من تموز بزيارة موسولينى وأقنعوه بدعوة المجلس الأعلى إلى اجتماع رسمى يعقد فى الرابع والعشرين من شهر تموز.

إلا أن موسولينى غادر روما فى التاسع عشر من تموز يرافقه الجنرال أمبروزيو بطريق الجو لمقابلة هتلر فى منزل له فى فيلتربيه على مقربة من ريمينى، وقد أطال الفوهرر الحديث عن وجوب بذل مجهود أضخم وأكبر، وقال أن السلاح السرى الجديد سيصبح جاهزاً للاستعمال ضد بريطانيا فى الشتاء المقبل، وأضاف أن واجبنا الدفاع عن إيطاليا «وأن تصبح صقلية بالنسبة للعدو كما كانت ستالينغراد بالنسبة إلينا».

وحث أمبروزيو رئيسه على أن يقول لهتلر بصراحة إن إيطاليا لا تستطيع المضى فى الحرب، ولكن الديكتاتور الإيطالى لم يفه بشىء، ودخل موظف إيطالى ثائر قاعة الاجتماع أثناء حديث هتلر عن الوضع يقول إن روما تتعرض فى هذه اللحظة لغارة جوية عنيفة من الأعداء، وقد وعد هتلر بإرسال إمدادات أخرى إلى صقلية، وعاد موسولينى إلى روما لا يحمل شيئاً جديداً، وعندما

اقترب بطائرته شاهد سحباً عالية من الدخان الأسود تتصاعد من مئات العربات المحترقة فى محطة قطارات ليتوريو، وفى الحال ذهب لزيارة الملك فرآه «عابساً وشديد العصبية» وقال الملك إن الموقف خطير، وليس فى وسعنا أن نستمر لمدة أطول، بعد أن أصبحت صقلية الآن فى أيدى الأعداء ورد موسولينى بأنه يأمل فى إخراج إيطاليا من المحور فى الخامس عشر من أيلول.

وفى هذا الوقت وصل إلى روما دينوغرادى الفاشى المخضرم. ووزير الخارجية السابق، والذى عارض فى إعلان بلاده الحرب على بريطانيا، وزار زعيمه القديم فى الثانى والعشرين من تموز، وأبلغه صراحة، بأنه يعتزم التقدم باقتراح لتأليف حكومة إنقاذ وطنى، وإعادة الملك إلى صلاحياته كقائد أعلى للقوات المسلحة. ولما اجتمع المجلس فى الساعة الخامسة من مساء اليوم الرابع والعشرين من تموز، اقترح غراندى، دعوة الملك إلى تولى زمام السلطة والخروج من عزلته، وتحمل مسئولياته وألقى الخطاب الذى وصفه موسولينى بأنه خطاب عنيف من رجل وجد أخيراً متنفساً لحقده العميق الدفين، وسارع تشيانو صهر موسولينى إلى تأييد غراندى واتضح للجميع أن هناك فتنة سياسية توشك أن تقع، وعندئذ طلب الحاضرون الاقتراع حول هذا الاقتراح، وفعلاً بدأت عملية الاقتراع، وقد كتب موسولينى يقول: «كان فى وسع كل إنسان أن يعرف موقف كل عضو من الأعضاء حتى قبل الاقتراع، فقد كانت هناك جماعة من الخونة تفاوضت مع التاج وهناك أيضاً فريق من الجهلة الذين لم يكونوا يدركون خطورة الاقتراع ولكنهم أدلوا بأصواتهم على كل حال» وقد وافق تسعة عشر عضواً على اقتراح غراندى بينما عارضه سبعة، وامتنع عضوان عن التصويت، ولذلك فقد قال موسولينى: «لقد آثرتم أزمة ضد العهد فليكن ما أردتم» وانتهى الاجتماع.

وفى أثناء ذلك، كان قد أعد أمر اعتقال موسولينى فى هدوء وصمت حيث كان قد بعث الدوق أكواروون وزير البلاد بتعليماته إلى أمبروزيو الذى

أوعز إلى وكلائه الموثوق بهم فى الأمن العام بتنفيذ الخطة.

وقضى موسولينى صباح الأحد الخامس والعشرين من تموز فى مكتبه، وقام بزيارة بعض الأحياء التى عانت من الغارة الجوية الأخيرة، وطلب مقابلة الملك فسمح له بهذه المقابلة فى الساعة الخامسة مساء، وعندما وصل إلى المكان الذى يقيم فيه الملك، رأى فى كل مكان تعزيزات جديدة من رجال الكاربينيرى، وكان الملك فى ملابس الماريشالية يقف فى مدخل الدار، ودخل الرجلان إلى غرفة الجلوس وقال الملك: «لم يعد هناك أى جدوى يا عزيزى الدوتشى فقد تمزقت إيطاليا شر ممزق، وانهارت معنوية الجيش والجنود لا يريدون أن يمضوا فى القتال، وقد أصبحت الآن فى هذه اللحظة الرجل الذى يكرهه الإيطاليون جميعاً، وأنا أعتقد أن الرجل الذى يصلح الآن لتولى المسئولية هو المرايشال بادوليو» فرد موسولينى قائلاً: إنك تتخذ قراراً خطيراً، لأن قيام الأزمة فى هذه اللحظة سيحمل الشعب على الاعتقاد بأن السلام أصبح متوقعاً، طالما أن الرجل الذى أعلن الحرب قد طرد من منصبه، وستعتبر الأزمة نصراً للحلفاء ولا سيما ستالين وعلى كل حال أتمنى حظاً حسناً للرجل الذى سيتحمل المسئولية.

وعهد الملك فى ذلك المساء إلى بادوليو بتأليف حكومة من القادة العسكريين وكبار الموظفين، وأذاع الماريشال فى المساء الأنباء إلى العالم، وبعد يومين نقل الدوتشى بأمر من الماريشال بادوليو إلى السجن فى جزيرة بونزا.

وهكذا انتهى عهد موسولينى الديكتاتورى فى إيطاليا والذى دام واحداً وعشرين عاماً، ارتفعت فيه إيطاليا من مهاوى الخطر البلشفى الذى كان يهددها عام ١٩٢٩ إلى مركز فى أوروبا لم تكن إيطاليا قد بلغته من قبل، وكان موسولينى قد بعث فى حياتها القومية حافزاً جديداً، وبنى لها إمبراطوريتها الإفريقية، وشيد لها الكثير من الأعمال العامة المهمة، وكان قد تغلب بعزيمته وحدها عام ١٩٣٥ على عصبة الأمم، وعلى خمسين دولة

تتزعمها دولة واحدة وأكمل احتلاله للحبشة، وكان نجاحه وانتصاره يلقى التأييد لدى عدد كبير من الإيطاليين، إلا أن غلطته الكبرى كانت فى إعلانه الحرب على فرنسا وعلى بريطانيا العظمى بعد انتصار هتلر فى عام ١٩٤٠، ولو لم يرتكب هذا الخطأ لحافظ على إيطاليا فى موقف الدولة التى تحقق التوازن والتى ينشد ودها الفريقان وهكذا مضى قدماً فى طريق الدمار.

وفى هذه اللحظة اقترف هتلر غلطة كبرى فى ميدان الاستراتيجية والتوجيه الحربى، فقد كان عليه بعدما تبين له من احتمال انسحاب إيطاليا من صفه وبعد التقدم الكبير الذى حققته روسيا، والاستعدادات الواضحة التى تقوم بها بريطانيا والولايات المتحدة لعبور القناة، أن يعمد إلى تركيز جيشه القوى وتنميته كقوة احتياطية مركزية، وكان فى وسعه بهذه الطريقة أن يستخدم المزايا الرفيعة للقيادة الألمانية وقواتها المسلحة، وأن يستفيد فى الوقت نفسه من الوضع المركزى الذى يحتله، إلا أنه حاول الاحتفاظ بكل ما كسبه، فوزع قوات هائلة فى البلقان وإيطاليا، ولو احتفظ بقوة احتياطية مركزية قوامها ثلاثون أو أربعون فرقة من خيرة الجنود وأقدرهم على الحركة، لتمكن من أن يوجه ضربته إلى أى من خصومه الذين يتقدمون نحو بلاده، وأن يخوض معركة فاصلة له كل الأمل فى كسبها والفوز فيها، وكان فى وسعه مثلاً أن يقاتل البريطانيين والأميركيين فى اليوم الأربعين أو الخمسين من نزولهم فى نورماندى فى العام التالى بقوات جديدة متفوقة، وكانت الغلطة التى ارتكبها فى توزيع قواته، هى العامل الذى مكننا من تنفيذ الهجوم الرئيسى المباشر فى أوضاع تتيح لنا آمالاً فسيحة وتحقق لنا نصراً عظيماً.

ولما عاد هتلر من اجتماعه الأخير بموسولينى، كان واثقاً من أن الإبقاء على إيطاليا فى الحرب لا يمكن أن يتم إلا عن طريق تطهير الحزب الفاشى وتشديد الضغط الألمانى على القادة الفاشيست، ولكن فى الخامس والعشرين من تموز بدأت تصل إلى مقر قيادة هتلر تقارير مزعجة من روما واتضح فى

المساء أن موسولينى إما أن يكون قد استقال أو أقيل، وأن الملك اختار بادوليو ليخلفه فى الحكم، وتبين أخيراً أن القيام بأية عملية ضد الحكومة الإيطالية الجديدة يتطلب سحب عدد من الفرق من الجبهة الشرقية، فى الوقت الذى يحتمل فيه أن تقوم روسيا بهجوم فى أية لحظة، ووضعت الخطط لإنقاذ موسولينى واحتلال روما، ودعم الفاشية الإيطالية كما وضعت خطة أخرى لمواجهة احتلال توقيع بادوليو الهدنة مع الحلفاء، وذلك بالاستيلاء على الأسطول الإيطالى واحتلال الموانئ والمواقع المهمة فى إيطاليا كلها، والسيطرة على الحاميات الإيطالية الموجودة فى البلقان.

وفى السادس والعشرين من تموز، حث هتلر مستشاريه على أن يعملوا فوراً حتى لا يتغلب عليه الإنجليز والأمريكيون ويضيعوا على الألمان ثمرة انتصاراتهم وقال: إنه يجب أن نعيد الحزب الفاشى إلى الحكم، وإلا فإننا سنتعرض لخطر ضياع إيطاليا نهائياً وانتقالها إلى جانب الأنجلو سكسونيين.



غـزو إيطاليـا

انتهى مؤتمر «كويبك» فى الرابع والعشرين من شهر آب، وطار زملاؤنا كل إلى مقره فى مختلف الجهات، وقررت أن أقضى بضعة أيام من الراحة فى مزرعة للماشية يملكها العقيد كلارك على بعد خمسة وسبعين ميلاً من كويبك وتقع وسط الجبال بجوار بحيرة الجليد الكبرى، ولأعد فى الوقت نفسه الخطاب الذى تقرر أن أذيعه فى الحادى والثلاثين من آب، وفى هذه المدة شهدت اجتماعاً للوزارة الكندية وحدثت أعضاءها بكل ما لا يعرفونه عن المؤتمر وسير الحرب، وقد أتيح لى شرف تأدية اليمين كعضو فى المجلس الخاص التابع للوزارة الكندية وعدنا إلى كويبك فى التاسع والعشرين من آب وقد شهدت اجتماعاً آخر للوزارة الكندية، وفى اليوم الحادى والثلاثين أذعت حديثى إلى الشعب الكندى وإلى العالم المتحالف معنا، قبل سفرى إلى واشنطن، ولما عدت إلى البيت الأبيض تحدثت إلى الرئيس فى مختلف الشئون وجاء الأميرال باوند أيضاً ليبحث معنا إحدى النقط البحرية. وقد وجه إليه الرئيس عدة أسئلة عن سير الحرب بصفة عامة، وقد آلمنى أن أراه وهو الموثوق به، قد فقد ما يمتاز به من دقة فى سرد الحقائق التى كانت أعظم مزاياه، وقد تبين أن ذلك راجع إلى إصابته بنوبة مفاجئة سببت له شللاً فى جانبه الأيمن، والتى بسببها قدم استقالته وقد قبلتها فى الحال، وأبرقت إلى الأميرالية معيناً نائب الأميرال سيفريت ليتولى القيادة بدلاً منه.

ولما كانت الأحداث تتوالى سراعاً فى إيطاليا، أثناء محادثاتنا فى كويبك وكنت أتابع مع الرئيس سير مفاوضات الهدنة السرية مع حكومة بادوليو، فقد تعمدت إطالة مدة إقامتى فى الولايات المتحدة، لأظل على اتصال وثيق

بأصدقائنا الأميركيين فى هذه اللحظة الدقيقة، وفى يوم وصولى إلى واشنطن جاءتنا أول أنباء رسمية بموافقة بادوليو على الاستسلام للحلفاء.

وفى الثالث من أيلول وقع الجنرال كاستيلانو الشروط العسكرية لاستسلام إيطاليا وذلك فى غابة زيتون على مقربة من سيراقوزه، وفى فجر اليوم التالى عبر الجيش الثامن مضايق مسينا ونزل فى إيطاليا.

هذا وقد أوفدنا الجنرال الأميركى تيلور فى السابع من أيلول فى مهمة سرية ليرتب مع رياسة أركان الجيش الإيطالى تسليمنا المطارات الواقعة حول العاصمة ليلة التاسع من أيلول، إلا أنه فى ذلك الوقت طلب الجنرال كاستيلانو حماية الحلفاء لإيطاليا، بسبب وجود قوات كبيرة من الألمان مسيطرة على المطارات الإيطالية، ولأن الجيش الإيطالى كان فى وضع معنوى سيئ ويفتقر إلى العتاد والذخائر، مما كان له أسوأ الأثر، وحينئذ طلب الجنرال تيلور مقابلة الماريشال الإيطالى، وكان كل شىء فى ذلك الوقت معلقاً فى كفة القدر لأن القادة الإيطاليين كانوا يخشون أن يؤدى إعلان الاستسلام إلى احتلال الألمان الفورى لروما، وإلى نهاية حكومة بادوليو، فلما قابله فى صباح اليوم الثامن من أيلول، رجاه فى تأجيل إذاعة شروط الهدنة لأن المطارات أصبحت فى أيدى الألمان، ولذلك فقد أبرق الجنرال تيلور إلى القيادة العليا فى الجزائر بأنه لا يستطيع ضمان سلامة مطارات روما، ولذا فقد تقرر العدول عن عمليات الهبوط من الجو فى هذه المطارات.

إلا أن الجنرال أيزنهاور صمم على إعلان شروط الهدنة فى الحال ورفض طلب بادوليو، متبعاً إياها بالبيان الذى أصدره الماريشال بادوليو بعد ساعة واحدة من روما، وهكذا تم استسلام إيطاليا.

ولكن القوات الألمانية بدأت فى تطويق روما، وتحصن بادوليو والأسرة المالكة فى مقر وزارة الحربية، ومنها نقلوا فى خمس سيارات إلى ميناء بسكارا على بحر الأدرياتيك، وكان فى انتظارهم طرادان، أبحرت عليهما

العائلة المالكة وبادوليو وأعضاء حكومته وكبار الموظفين إلى ميناء برنديزى فوصلوا إليها صباح يوم ١٠ أيلول، حيث شرعوا فى إقامة حكومة إيطالية معادية للفاشية فى المناطق التى يحتلها الحلفاء.

وبعد مغادرة الفارين روما، وصل إليها الماريشال كافيليا بطل معركة فيتوريو فينيتو فى الحرب الأولى، وحمل على عاتقه مفاوضة القوات الألمانية التى تحاصر روما، ووقع معها هدنة عسكرية، وبذلك أصبحت الفرق الألمانية لها كامل الحرية فى التجول داخل المدينة.

وبعد ذلك غادرت القوات الرئيسية للأسطول الإيطالى ميناءى جنوا وسبيزيا فى رحلة بحرية إلى مالطة لتستسلم للحلفاء، وذلك تنفيذاً لتعليمات الحلفاء، وقد تعرضت هذه القوات أثناء سيرها على مقربة من ساحل كورسيكا الغربى لمهاجمة الطائرات الألمانية، فأصيبت بارجة القيادة «روما» وانفجرت وغرق كل من عليها بما فيهم القائد العام للأسطول الإيطالى الأميرال برجامينى، كما أصيبت البارجة «إيطاليا» بأضرار جسيمة أيضاً، وواصلت بقية قطع الأسطول سيرها تاركة بعض القطع الصغيرة لإنقاذ الناجين، وقد استقبلها الأسطول البريطانى فى عرض البحر ورافقها إلى مالطة، كما غادرت - أيضاً - مجموعة أخرى من الأسطول الإيطالى ميناء تورينتو فى التاسع من أيلول، فوصلت إلى مالطة صباح الحادى عشر من أيلول وقد أبرق الأميرال كاتنجهام إلى الأميرالية يقول «إن أسطول البوارج الإيطالية يرسو الآن تحت حماية مدافع قلعة مالطة».

وهكذا سارت الأمور بالنسبة للحلفاء سيراً مرضياً، فقطع الجيش الثامن مضايق مسينا ولم يلق أية مقاومة واحتل ريجيو، ثم بدأ زحفه على طرق كالابريا الجبلية الضيقة، وأبرق إلينا الجنرال اليكساندر فى السادس من أيلول يقول: «إن الألمان يقاتلون فى آخر معركتهم ويخربون ويحرقون المدن، وفى هذا الوقت كانت وحدات الحلفاء البحرية من مختلف الأشكال تقطع

المضيق بين صقلية والبر الإيطالى تنقل الرجال والعتاد، ولم يتعد القتال بعض المناوشات البسيطة».

وتلقيت من الجنرال اليكساندر ليلة الثامن من سبتمبر، رسالة تبشرنى ببدء الهجوم عندما كنت أغادر كويبك عائداً إلى الوطن، وقد بعثت إليه بالرد التالى: «آمل أن تكون مراقباً لكل ما يدور فى المعركة التى يتوقف عليها كل شىء الآن، كما يجب ألا نضن بأى شىء على معركة نابولى الحاسمة» وكان رده مطمئناً وسريعاً، ويقول: «شكراً جزيلاً على عرضك المساعدة، وأننا نبذل كل شىء لنجعل من هذه العملية عملية ناجحة وسيتقرر مصيرها فى الأيام القليلة المقبلة» وقد شعرت بشىء من الارتياح عندما علمت بأن الأميرال كاتنجهام لم يتردد فى المجازفة ببوارجه والدنو بها من الساحل لمساعدة الجيش، حيث بعث بالبارجتين «دورسبايت» و«فاليانت» للاشتباك فى المعركة، وقد أصيبت لسوء الحظ البارجة «دورسبايت» بعد ظهر السادس عشر من أيلول بنوع جديد من القنابل المنزلقة التى لم نكن حتى الآن قد سمعنا عنها.

وبينما كنا لا نزال فى عرض المحيط نشق طريقنا بالتواء، عائدين إلى الوطن وجهت قواتنا ضربة حاسمة إلى ميناء تورنتو، مما أمن لبوارج الأسطول الملكى الدخول بجرأة فى هذا الميناء، كما أمن نزول قواتنا البرية على شاطئ ساليرنو دون أن تلقى أية مقاومة، ولم تتعد خسارتنا طراداً واحداً أصيب بلغم فغرق فى البحر، ولا زلت أحتفظ بالعلم البريطانى الذى رفعه اليكساندر على تورنتو والذى كان أول أعلام الحلفاء التى خفقت فوق القارة الأوروبية.

ومضت معركة ساليرنو فى طريقها، وبعد قتال مرير عانينا فيه مخاوف ومخاطر كثيرة، فشل الألمان فى قذفنا إلى البحر، وأدرك كسلرنج أنه فاشل لا محالة، وركز جناحه الأيمن على التلال القائمة وراء ساليرنو، ليؤمن سحب قواته إلى الوراء، وسرعان ما زحف الجيش الثامن بقيادة مونتغمرى فاتصل

بالجيش الخامس الذى كان قد لحق به التعب والإنهاك، وتقدم الفيلق البريطانى العاشر وإلى يمينه الفيلق الأميركى السادس، دافعين أمامهما قوات العدو المتراجعة حول فيزوف، فعبرا آثار مدينتى بومبى وهيراقليوم ودخلا نابولى فى اليوم الأول من نوفمبر، وبذلك تم لنا الانتصار.



الاستيلاء على روما

لقد توقف زحف الحلفاء فى إيطاليا لمدة شهرين بسبب ما لاقته قواتنا من صعاب فى جبهتى أنزيو وكاسينو، فى أثناء القتال الذى دار هناك، وقد تحتم علينا أن نعيد تنظيمها، وأن ننقل الجزء الأكبر من الجيش الثامن ومن ناحية الادرياتيك لكى يتأهب الجيشان للهجوم المقبل. وفى هذه الأثناء كان الجنرال ويلسون يستخدم كل ما لديه من قوات جوية ليعرقل حركات العدو، ويلحق به أفدح الخسائر، كما اشتركت قوات الحلفاء الجوية فى مهاجمة مواصلات العدو البرية أملاً فى قطعها، لكى ترغم القوات الألمانية على الانسحاب بسبب افتقارها إلى المؤن، وكذلك تحطيم الجسور والقناطر وغيرها من الأماكن الحساسة لتوقف سير القطارات إلى الشمال من روما ولكن العملية فشلت. وتمكن العدو من المحافظة على طرق إمداده، باستخدام الملاحة الداخلية ونقل شحناته بالسيارات بدلاً من القطارات، ولكنه عجز عن جمع كميات كبيرة من المؤن والذخائر تكفى قواته للاستمرار فى القتال لمدة طويلة، وظهر الضعف فى صفوفه فى أثناء القتال العنيف الذى نشب فى الأيام الأخيرة من شهر آيار. مما حقق لنا الاتصال بجيوشنا المنفصلة، كما تحقق لنا الاستيلاء على روما فى أسرع مما كنا نتوقع. كما منى سلاح الجو الألمانى بخسائر فادحة.

وقد كان الجيش الخامس بقيادة الجنرال كلارك يضم فى هذا الوقت سبع فرق بينها أربع فرق فرنسية ويحتل الجبهة الممتدة من البحر إلى نهر ليرى، كما كانت جبهة الجيش الثامن الذى يقوده الجنرال ليز. مكملة الخط عبر كاسينو إلى الجبال والذى يضم اثنتى عشرة فرقة وقد تجمع للحلفاء

بذلك ثمان وعشرون فرقة، مقابل ثلاثة وعشرين فرقة للألمان. وكانت خطواتنا التضليلية تذهل كيسلرنج مما دعاه إلى توزيع قواته على مساحة شاسعة، وبذلك لم يكن لديه فى الجبهة الممتدة بين كاسينو والبحر، حيث تقرر أن توجه ضربتنا إليها أربع فرق، وقد بدأ الهجوم فى مساء اليوم الحادى عشر من آيار، عندما أطلقت مدافعنا البالغ عددها ألفى مدفع قذائفها على العدو وعززها فى الصباح قصف جوى شديد قامت به طائراتنا وبذلك تم لنا فى اليوم الثامن عشر من آيار التغلب على العدو وتطهير كاسينو بصورة نهائية.

كما كانت هناك ست فرق يقودها الجنرال الأميركى تروسكوت قد احتشدت فى رأس شاطئ أنزيو اندفعت فى هجومها مع الجيش الثامن، ولم يمض يومان حتى اتصلت بالفيلق الأميركى الثانى.

وبذلك تحطمت المقاومة الألمانية فى مساء اليوم الثانى من حزيران، وفى يوم الرابع من حزيران، دخلت طلائع الفرقة الثامنة والثمانين إلى ساحة البندقية فى قلب العاصمة (روما).

وفى اليوم السادس من حزيران عام ١٩٤٤، أعلنت فى مجلس العموم تحرير مدينة روما على أيدى جيوش الحلفاء تحت قيادة الجنرال اليكساندر كما بعثت إلى ستالين أعلمه بذلك وبسير عملية «السيد الأكبر» نحو غايتها، وقد رد على يقول:

«تلقيت رسالتك عن النجاح الذى حققتموه فى بداية عملية «السيد الأكبر» مما بعث السرور إلى نفوسنا والأمل فى انتصارات أخرى، هذا وسيبدأ حوالى منتصف هذا الشهر هجوم الصيف بالنسبة للقوات السوفييتية كما اتفقنا فى مؤتمر طهران، على أن تتطور العمليات الهجومية خلال شهر تموز إلى هجوم عام تشنه الجيوش السوفييتية فى جميع أنحاء الجبهة».

وبعد أيام أبرق إلىَّ ستالين يقول:

«لقد أصبح واضحاً أن النزول الذى خطط له على نطاق واسع، قد نجح نجاحاً كاملاً، ولا أستطيع أنا وزملائى إلا الاعتراف بأن تاريخ الحرب لا يعرف عملية أخرى مماثلة من حيث تطوراتها وتصوراتها الواسعة وتنفيذها العبقرى.

ومن المعروف جيداً أن نابليون قد فشل فشلاً معيباً فى اجتيازه القناة بالقوة، وهتلر المجنون الذى ظل يتبجح عامين كاملين بأنه سيعبر المانش، لم يستطع أن يحزم أمره حتى على مجرد الإشارة بأنه سيحاول تنفيذ وعيده ولم يتمكن سوى حلفائنا من أن يحققوا بشرف الخطة العظيمة فى عبور المانش، ولا ريب فى أن التاريخ سيسجل هذا العمل على أنه عمل من أعظم الأعمال».

وأبلغنا الجنرال مونتغمرى فى العاشر من حزيران بأنه قد أصبح ثابت الأقدام على الشاطئ بحيث يستطيع تقبل الزيارات، فقمت ومعى الجنرال سمطس وبروك لزيارته على ظهر إحدى المدمرات كما استقل الجنرال مارشال والأميرال كينج وضباط أركان حربهما مدمرة أخرى ليكونوا معنا فى هذه الزيارة، ونزلنا إلى البر وأخذت السيارة تطوف بنا المنطقة المحدودة التى يحتلها فى نورماندى وعدنا بعد ذلك إلى المدمرة «كيلفن».

وبعد عودتى، بعثت بالرسالة التالية إلى الرئيس شرحت له فيها جميع القضايا ومن بينها بالطبع الزيارة التى ينوى الجنرال ديغول القيام بها لفرنسا والتى أعددت لها العدة دون استشارة الرئيس، قلت له فيها:

«لقد قضيت يوماً ممتعاً على الشاطئ الفرنسى وفى الداخل، وهناك كتلة ضخمة من البواخر تنتشر على مسافة تتعدى الخمسين ميلاً على طول الشاطئ، وتقوم الموانئ الاصطناعية بحماية هذه البواخر. وفى وسعى أن أقول إن كل عنصر من هذه الموانئ كان ناجحاً فى حد ذاته، وسنصبح عما قريب عاملاً مهماً فى تأمين الملاذ الأمين ضد الطقس السيئ، ويبدو أن قوة

سلاحنا الجوى وقوة وسائلنا فى مقاومة الغواصات قد ضمنت لنا حداً كبيراً من الحماية، وبعد أن قمنا بواجبات كثيرة منهكة أطلقنا نيران مدافعنا من مدمراتنا على الرغم من أننا كنا على بعد ستة آلاف ياردة ولكن العدو لم يكرمنا برد تحيتنا».



تحرير باريس

ولنبين الآن مما توضح لنا ما كانت عليه أوضاع وخطط العدو، فقد كان الماريشال روتشنادت يتولى قيادة (جدار الأطلنطى) وتحت إمرته ستون فرقة تتولى العمل فى القطاع الممتد من الأراضى المنخفضة حتى خليج بسكاى، ومن مارسيليا إلى نهاية الساحل الفرنسى الجنوبى، وكان رومل يتولى القطاع الساحلى الممتد من هولندا إلى اللوار وكان جيشه الخامس عشر المؤلف من تسع عشرة فرقة على حين كان جيشه السابع المؤلف من تسع فرق مشاة وفرقة مدرعة فى نورماندیا نفسها، أما الفرق العشر المدرعة الموجودة فى الجبهة الغربية كلها فكانت منتشرة من بلجيكا إلى بوردو، ومن الغريب أن الألمان وقد أصبحوا فى مركز المدافع، فقد ارتكبوا الأخطاء التى ارتكبها الفرنسيون عام ١٩٤٠ عندما وزعوا أقوى سلاح يمكن لهم الاعتماد عليه فى الهجوم المضاد.

ومن الغريب أن هذا الهجوم الضخم جاء مباغتاً للعدو، ففى صباح الخامس من حزيران كان رومل قد غادر مقر قيادته لزيارة هتلر فى بحتسجادن عندما حلت الضربة بقطاعه، وكان رونشتادت يعتقد بأن ضربتنا الرئيسية ستوجه من مضايق دوفر، ولكن يظهر أن هتلر وأركان حربه كانوا قد أبلغوا تقارير تشير إلى أن نورماندیا ستكون ميدان المعركة الرئيسى، وظلت تساوره الشكوك حتى بعد نزولنا، وأضاع يوماً كاملاً قبل أن يقرر إرسال أقرب فرقتين مدرعتين إلى الجبهة لتعزيزها، لأنه كان فى رأيه أن عملية الإنزال فى نورمانديا لم تكن إلا مجرد عملية أولية وفرعية، ولم يرسل القوات الاحتياطية من الجيش الخامس المرابط فى خليج كاليه جنوباً

لتشترك فى المعركة إلا بعد أن انقضى ستة أسابيع على يوم الغزو.

ومع ذلك فقد قاتلت جيوش العدو بعناد وإصرار ولم يكن من السهل التغلب عليها، ولكن على الرغم من جميع الصعوبات التى لاقيناها، فقد حققنا تقدماً طيباً باستثناء فشلنا فى احتلال كاين، التى كانت ذات أهمية عظيمة بالنسبة لنا، ولأن مونتغمرى كان قد قرر أن يقيم بوساطة القوات الأميركية فيها نقطة ارتكاز يساريه ضخمة تدور منها المعارك، ولأن أرضها كانت تصلح لإقامة أماكن لهبوط الطائرات فيها، كما كانت هذه البلدة مهمة أيضاً بالنسبة للألمان، لأن اختراق الجبهة فيها يجبر جيشهم السابع بأكمله على الانسحاب فى اتجاه جنوبى شرق اللوار، ويفتح ثغرة بينه وبين الجيش الخامس عشر من الشمال، كما يتفتح الطريق فى الوقت نفسه إلى باريس.

وقد تمكن الحلفاء فى الحادى عشر من حزيران من إقامة جبهة متصلة واندفع الأميركيون شرقاً وغرباً تؤيدهم الطائرات المقاتلة، وبعد قتال عنيف توقفوا عند أبواب الخطوط الدفاعية لمدينة شربورج فى الثانى والعشرين من حزيران.

وفى هذه الأثناء وقعت أحداث أخرى وراء الميدان أثرت على مستقبل المعركة تأثيراً حاسماً، ففى ليلة الثالث عشر من حزيران سقطت على لندن أولى القنابل الطائرة، وكانت هذه القنابل تنطلق من سواحل فرنسا الشمالية من أماكن بعيدة عن جيوشنا النازلة إلى البر، ولو كنا احتللنا هذه الأماكن فى وقت مبكر لأرحنا السكان المدنيين فى لندن من تعرضهم لهذه الغارات الجوية الفظيعة.

وفى اليوم التاسع عشر من حزيران عقد هتلر مؤتمراً فى مارجيفال على مقربة من سواسون، شهده رونشتادت ورومل، وبين له القائدان وجوب سحب الجيش السابع بانتظام قبل أن يتعرض للدمار إلى نهر السين، حيث يستطيع أن يخوض بالاشتراك مع الجيش الخامس عشر معركة حاسمة ومتحركة ولكن هتلر لم يذعن لرأيهما، وأصر كما سبق أن أصر فى روسيا وإيطاليا على وجوب القتال عن كل شبر من الأرض.

هذا وقد تم لنا فى الستة الأيام الأولى من بدء الهجوم تثبيت أقدامنا وأنزلنا (٣٢٦) ألف رجل و(٥٤) ألف سيارة و(١٠٤) آلاف طن من العتاد والذخائر، كما أقمنا جهازاً هائلاً للتموين، كما أعددنا ميناء «بورت آن باسان» ليكون الميناء الرئيسى للإمداد بالبترول فى المنطقة كلها، وفى هذه الأثناء هبت عواصف شديدة استمرت أربعة أيام فحالت دون نزول أية قوات أو معدات جديدة إلى الساحل كما ألحقت أضراراً كبيرة بحواجز الماء، وأفلتت قطع عائمة كثيرة. فاصطدمت بحواجز المياه وبالسفن الراسية فى مرافئها، وتحطم الميناء الموجود فى المنطقة الأميركية، وقد تسببت فى تعطيل تقدمنا فى الميدان، وأقام البريطانيون فى الأسبوع الأخير من حزيران رأس جسر لهم فى جنوب كاين، ولكن المحاولات التى بذلت لتوسيعه جنوباً وشرقاً منيت بالفشل.

وفى السابع عشر من شهر تموز، وقع حادث مهم للغاية، حيث أصيب رومل بجراح بالغة من جراء هجوم طائراتنا المحاربة من ارتفاع منخفض على سيارته، ولكنه بعد أن شفى من جراحه لقى حتفه فيما بعد بأمر من هتلر، كما نحى رونشتادت عن قيادة الجبهة الغربية كلها ليخلفه فيها فون كلوجه، وهو قائد أظهر تفوقاً عظيماً فى الجبهة الروسية، كما وقعت فى العشرين من تموز محاولة أخرى فاشلة لاغتيال هتلر، بوساطة قنبلة زمنية وضعها الكولونيل فون شتوفنرج، وقد قتل عدد من الضباط الذين كانوا حاضرين ولكن الفوهرر برغم الصدمة الشديدة والجراح التى أصيب بها نهض هاتفاً «من يقول إن الله لا يرعانى بحمايته».

وفى الثامن عشر من تموز هجم الجيش البريطانى بثلاثة فيالق تقدمها قصف جوى هائل، حال بين سلاح ألمانيا الجوى وبين التدخل فى المعركة وتقدمنا إلى الشرق من كاين، إلى أن حالت الغيوم الملبدة فى السماء بين طائراتنا وبين الحركة الفعالة، مما سبب تأخراً فى عملية الاقتحام فى

القطاع الأميركى لمدة أسبوع.

وفى هذه الآونة صدرت الأوامر بإلغاء الحظر الذى كانت القيادة العليا الألمانية قد فرضته على جيشها الخامس عشر والتى كانت محتفظة به وراء نهر السين، كما توجهت فرق جديدة لتعزيز الجيش السابع الذى لحق به الإجهاد، وقد تمكنت طائراتنا من عرقلة نقل هذه الفرق بالسكة الحديد.

وحانت أخيراً لحظة الهجوم الأميركى العظيم بقيادة الجنرال برادلى ففى الخامس والعشرين من تموز، اندفع الفيلق السابع جنوباً من سان لو وانضم إليه الفيلق الثامن المرابط إلى ميمنته فى اليوم التالى، تؤيدهما قاذفات القنابل الأميركية، كما اندفعت القوات المدرعة تجرف فى طريقها كل شىء مستهدفة نقطة كوتانس، ذات المركز الحساس، فقطعت طريق النجاة بالنسبة للألمان على طول ساحل نورماندیا الغربى، وأصبحت جميع مراكز الألمان الدفاعية إلى الغرب من نهر فير فى حالة من الشلل والاضطراب ومضى الزحف مندفعاً للأمام، وتم احتلال افرانسن فى الحادى والثلاثين من تموز، وتلتها الزاوية البحرية التى فتحت الطريق إلى شبه جزيرة بريتانى وقام الكنديون فى الوقت نفسه بهجوم من كاين جنوباً فى اتجاه طريق نالیز ولكنه لقى مقاومة فعالة من أربع فرق مدرعة.

وفى هذا الوقت تم تشكيل الجيش الأميركى الثالث بقيادة الجنرال باتون وشرع يعمل فى ميدان القتال، وقد أوفد هذا الجيش فرقتين مدرعتين وثلاث فرق من المشاة إلى الجنوب والغرب، لتطهير جزيرة بريتانى، بمساعدة حركة المقاومة الفرنسية التى كانت تضم ثلاثين ألف رجل، وقد تم الاستيلاء على شبه جزيرة بريتانى.

وبعد أن تم تطهير بريتانى، شرعت بقية جيش باتون فى الزحف شرقاً فى الخطاف الطويل «الذى سيصل بها إلى الثغرة الواقعة بين باريس واللوار وهبوطاً مع السين فى اتجاه روان» ودخلت قواتنا بلدة لافال فى السادس من

آب، وفى السابع منه بلدة ليمانز، ولكن الصعوبة الكبرى كانت من تموين الأميركيين الزاحفين فى مساحات طويلة شاسعة وكان من الواجب فى هذه اللحظة نقل كل شىء إلى شواطئ الإنزال الأساسية ومنها إلى الطرف الغربى من نورماندیا عبر أفرانش حتى تصل المؤن إلى الجبهة، وهكذا أصبحت أفرانش بمثابة عنق الزجاجة، وقد حانت فرصة مغرية للألمان ليشنوا هجوماً مضاداً واستحوذت الفكرة على خيال هتلر، فأصدر أوامره بأن تقوم القوات بالهجوم على مورثان، لتشق طريقها منها إلى أفرانشن، ولتقطع بذلك طرق مواصلات باتون، وأجمع القادة الألمان على استنكار هذا الهجوم الجديد، لإدراكهم أن معركة نورماندیا قد انتهت بفقدها، ولكن هتلر أصر على رأيه وفى السابع من آب شنت خمس فرق مدرعة وفرقتان من المشاة هجوماً عنيفاً على مورثان من ناحية حتى وصلتها ثلاث فرق أخرى لمساعدتها وصد العدو. ومضت قوات الحلفاء تندفع فى طريقها مهاجمة الألمان المكتظين فى الجيب الضيق الطويل، وتمكنت بفعل المدافع من أن تنزل بها خسارة هائلة، وصمد الألمان بعناد وإصرار محاولين إنقاذ ما يمكن إنقاذه بوساطة قواتهم المدرعة، وتحول المنظر إلى مذبحة وانطبق الفكان فى العشرين من آب، وقد تمكن شطر كبير من قوات العدو من الخلاص من الطوق والنجاة، إلا أن ما لا يقل عن ثمان فرق ألمانية قد تمت إبادتها فى هذه المعركة.

كما تمكن الجيش الأميركى الثالث من تطهير بريتانى والإسهام فى نصر فاليه الرائع، بدفعه ثلاثة فيالق فى اتجاه الشرق والشمال الشرقى من ليمانز، وقد وصلت فى السابع عشر من آب إلى أورليان وشاراد ودرو. ثم اندفعت فى اتجاه شمالى غربى للقاء القوات البريطانية الزاحفة على روان.

وكان أيزنهاور الذى تولى القيادة العليا الآن عازماً على تجنب خوض معركة لاحتلال باريس، ولما كانت ستالينغراد ووارسو قد برهنتا على ما فى الهجمات الجيبية من مفازع ومخاوف ومن انتشار روح الوطنية بين المدافعين،

فقد قرر تطويق العاصمة وإرغام الحامية التى بها إما على الاستسلام أو الهرب، وحانت فى العشرين من آب ساعة العمل، وكان الجنرال باتون قد عبر نهر السين على مقربة من سانت ووصل جناحه الأيمن إلى فونتبنلو، وأعلنت الحركة السرية الفرنسية الثورة وأضرب رجال الشرطة وسيطر الوطنيون الفرنسين على مراكز قيادة الشرطة ووصل أحد ضباط المقاومة الفرنسية إلى مركز قيادة باتون حاملاً تقارير مهمة وقد نقلت هذه التقارير إلى الجنرال أيزنهاور فى ليمانز، كما التحقت الفرقة الفرنسية المدرعة الثالثة بقيادة الجنرال ليكليرك والتى كانت قد هبطت إلى البر فى نورماندیا فى أول آب بجيش الجنرال باتون. وأدت دوراً مهماً فى التقدم ووصل ديغول فى اليوم نفسه فأكد له القائد الأعلى للحلفاء، أنه عندما يحين الوقت وطبقاً للاتفاقات السابقة، ستكون قوات ليكليرك أول القوات التى تدخل باريس، وما إن وصلت إلى أيزنهاور أنباء عن وقوع قتال فى شوارع العاصمة حتى قرر أن يعمل فوراً وأصدر أمره إلى ليكليرك بالزحف على باريس.

وفى الرابع والعشرين من آب تحرك الاندفاع الرئيسى بقيادة العقيد بيلونى من أورليان فى اتجاه باريس، ووصلت طليعة الدبابات فى تلك الليلة بوابة أورليان، ودخلت إلى الساحة القائمة فى مدخل دار الأمانة، وفى صباح اليوم التالى، كانت قوات بيولنى المدرعة تحتل ضفتى السين وعند الظهر تم تطويق مقر قيادة الجنرال الألمانى فون شوليتز فى «قصر موريس» وجئ بفون شوليتز أمام ليكليرك، وتم التوقيع على شرط تسليم حامية المدينة، ودخل ديغول فى السادس والعشرين من آب (أغسطس) العاصمة سيراً على قدميه إلى الشانزليزيه ومنها إلى ساحة الكونكورد، حيث استقل ورفاقه السيارات صاعدين إلى نوتردام، وبعد فترة قصيرة جرى الاحتفال الرسمى بتحرير باريس وفقاً للخطة الموضوعة.

وفى الثلاثين من آب عبرت قواتنا نهر السين من عدة جهات وكانت

خسائر العدو هائلة، فقد بلغت أربعمائة ألف رجل وأكثر من نصفهم وقعوا فى الأسر، وألفًا وثلثمائة دبابة وعشرين ألف سيارة وألفا وخمسمائة مدفع ميدان، وقد مُزق الجيش الألمانى السابع وجميع الفرق التى أُرسلت لنجدته وكتب الجنرال أيزنهاور فى تقريره الرسمى يقول: «لولا التضحيات العظيمة التى قدمتها الجيوش الإنجليزية والكندية فى معارك كاين وفاليه الوحشية، لما كان فى إمكاننا أن نحقق الزحف الرائع بوساطة قوات الحلفاء الأخرى فى المناطق الثانية».



انتصارات الروس

كان النضال الروسى يفوق فى نطاقه إلى حد كبير جميع العمليات العسكرية التى سردتها فى الفصول السابقة، ولما كان العدو قد منى بنكسات متتالية فى مطلع شتاء عام ١٩٤٣، فقد صمموا على ألا يتيحوا له فرصة للاستراحة، حتى أنهم فى منتصف شهر كانون الثانى سنة ١٩٤٤ شنوا عليه هجوماً فى جبهة طولها مائة وعشرون ميلاً تمتد من بحيرة ايلمان إلى لينغراد وتمكنوا من اختراق الخطوط الدفاعية التى أقامها العدو أمام المدينة وإلى الجنوب من هذه الجبهة، كما أنهم صدوه فى نهاية شهر شباط إلى شواطئ بحيرة بيبوس، بعد أن تحررت لينغراد نهائياً، وقد أصبح الروس بهذا الانتصار يقفون على حدود دول البلطيق كما أرغموا الألمان أيضاً على التراجع من غرب كييف إلى حدود بولندا، كما واصلوا طيلة شهر آذار ضغطهم على طول الجبهة، حتى أرغموا العدو على التراجع من جومر إلى البحر الأسود، ولم يتوقف هجوم الروس حتى تم دحر الألمان وتحطيم الجيش السابع عشر واسترداد ساتبول.

وقد أثارت هذه الانتصارات العظيمة قضايا ذات أهمية بالغة وخصوصاً بعد أن أطل الجيش الأحمر الآن على أواسط أوروبا وشرقها، كما أثارت كثيراً من التساؤلات، عن مصير بولندا والمجر ورومانيا وبلغاريا واليونان أيضاً التى ضحينا من أجلها بالكثير وعملنا المستحيل لمساعدتها وهل ستدخل تركيا الحرب إلى جانبنا؟ وهل ستحاط يوغوسلافيا بالفيضان الروسى؟ ولما كانت أوروبا قد بدأت تتطور بعد الحرب، فقد أصبح من الضرورى إعداد ترتيب سياسى سريع بالنسبة لها مع السوفييت.

لذلك فقد قام السفير السوفييتى فى لندن بزيارة وزارة الخارجية فى الثامن عشر من آيار للبحث فى الاقتراح الذى كان المستر ايدن قدمه للسوفييت وذكر فيه أن فى وسع الاتحاد السوفييتى أن يعتبر المشكلات الرومانية مؤقتاً من القضايا الخاصة به، على أن يترك مشكلات اليونان لنا لنعاجها، ولما كان الروس على استعداد لقبول هذا الاقتراح، فقد أرادوا أن يعرفوا إذا كنا قد استشرنا الولايات المتحدة بخصوصه، فإذا اتضح أننا استشرناها فليس لديهم مانع من الموافقة عليه، ولذلك فقد بعثت فى الحادى والثلاثين من آيار ببرقية إلى المستر روزفلت قلت فيها:

«آمل فى أن تتمكن من أن تمنح هذا الاقتراح بركتك، ونحن بالطبع لا نريد تقسيم البلقان إلى مناطق نفوذ، وعند الموافقة عليه، يجب أن توضح تماماً، أنه لا ينطبق إلا على أوضاع الحرب، وألا يؤثر على حقوق الدول العظمى الثلاث ومسئولياتها، التى ستمارسها فرادى فى أية تسوية سلمية بالنسبة إلى أوروبا كلها، كما أن هذا الترتيب لا يؤثر على كل حال، على التعاون الراهن القائم بيننا وبينكم، فى تخطيط سياسة الحلفاء تجاه هذه الدول وتنفيذها، ونحن نشعر أن هذا الترتيب المقترح، سيكون وسيلة نافعة فى الحيلولة دون أى خلاف فى السياسة بيننا وبينهم فى البلقان».

وقد أثار هذا الاقتراح أعصاب المستر هل وزير الخارجية الأميركية لأنه كان لا يوافق على إيجاد مناطق نفوذ لأى كان ولا حتى قبول فكرتها، ولذلك فقد أبرق الرئيس إلىَّ فى الحادى عشر من حزيران يقول:

«نحن نقر باختصار، بأن من حق الحكومة العسكرية المسئولة فى أى أرض أن تتخذ القرارات التى تتطلبها التطورات العسكرية، ولكننا على يقين من أن مثل هذا الاتفاق المقترح، سيقوى الميل الطبيعى لتوسيع هذه القرارات لتشمل آفاقاً أخرى غير عسكرية، كما أنه سيؤدى حتماً إلى اشتداد الخلاف بينكم وبين الروس، بسبب تقسيم منطقة البلقان إلى مناطق نفوذ، على الرغم من

التصميم المعلن لأن يكون هذا فى نطاق المسائل العسكرية فقط، كما أننا نعتقد أن المحاولات يجب أن تبذل عوضاً عن ذلك، لإقامة جهاز استشارى يتولى إزالة سوء التفاهم، والحد من الاتجاه إلى تنمية مناطق النفوذ الخاصة».

وقد أزعجتنى هذه الرسالة، فبعثت إلى الرئيس فى اليوم نفسه أقول: «إن العمل سيقف تماماً إذا تحتم على كل إنسان أن يستشير الآخر فى كل موضوع أو إجراء قبل اتخاذه، فالأحداث فى البلقان ستسبق فى سرعتها دائماً الأوضاع المتغيرة فى المنطقة، ويجب أن يكون هناك من يملك سلطة التخطيط والعمل، أما قيام لجنة استشارية فسيكون بمثابة عائق، نتخطاه دائماً فى حالات الطوارئ، عن طريق الاتصال المباشر بينى وبينك أو بين كل منا وبين ستالين.

ولننظر الآن إلى ما وقع فى عيد الفصح، لقد تمكنا من السيطرة على الوضع بالنسبة لتمرد القوات اليونانية طبقاً لآرائك الشخصية، لأننى كنت قادراً على إصدار الأوامر الدائمة إلى القواد العسكريين الذين كانوا فى البداية يؤيدون فكرة الصلح والتفاهم، ويعارضون فى استخدام القوة، أو حتى فى مجرد التهديد باستخدامها، وقد تحسن الوضع فى اليونان تحسناً كبيراً، كما أن الروس على استعداد للسماح لنا بتولى الشئون اليونانية، وهذا يعنى أن فى إمكان جيوش اليونان الوطنية نفسها أن تسيطر على جبهة التحرير الوطنية وعلى كل ما تبينته من النوايا السيئة، وإذا كان من المحتم علينا فى مثل هذه المصاعب أن نستشير دولاً أخرى، وأن يجرى تبادل البرقيات بشكل ثلاثى أو رباعى، فإن النتيجة الوحيدة لمثل هذه الحالة أن تسود حالة الفوضى والعجز.

ويبدو لى أنه بالنظر إلى اعتزام الروس القيام بغزو رومانيا بقوات كبيرة وإلى رغبتهم فى مساعدتها على استعادة جزء من ترانسلفانيا من المجر، على شرط أن يبدى الرومانيون إخلاصاً لمجهودها، وهو ما قد يفعلونه، فإن من

الخير أن نحذو حذو السوفييت، ولا سيما، أنه لا يوجد لنا أو لكم أية قوات هناك، وأن فى وسعهم تحقيق ما يريدون هناك على أى حال، ولهذا فإنى أقترح بأن توافق على تجربة الترتيبات التى حددتها فى رسالتى فى الحادى والثلاثين من آيار لمدة ثلاثة أشهر، على أن تعود الدول العظمى الثلاث إلى إعادة النظر فيها بعد انتهاء هذه المدة».

وقد وافق الرئيس على هذا الاقتراح فى الثالث عشر من حزيران، ولكنه أضاف يقول: إنه يجب علينا أن نحرص أشد الحرص على أن نوضح بكل جلاء أننا لا نقيم فى عملنا هذا مناطق للنفوذ، وقد وافقته على رأيه وبعثت إليه بالرد التالى:

«أننى شاكر لكم أجزل الشكر، وقد طلبت إلى وزير الخارجية أن ينقل هذه المعلومات إلى مولوتوف، وأن يوضح له أن السبب الذى حملنا على تحديد فترة الأشهر الثلاثة، هو رغبتنا فى ألا يكون هناك أى مجال للتفكير بأننا نعنى إقامة مناطق نفوذ لما بعد الحرب».

وقد أبلغت هذا لوزارة الحرب، واتفق على أن يقوم وزير الخارجية بإبلاغ الحكومة السوفييتية موافقتنا على هذا الاقتسام العام للمسئولية، وتم تنفيذ ذلك فى التاسع عشر من حزيران، لكن الرئيس لم يكن مرتاحاً للطريقة التى عملنا بموجبها، فقد تلقيت منه رسالة يقول فيها:

«لقد أزعجنا، أن يقوم رجالك بالتحدث إلينا فى هذا الموضوع بعد أن تم الاتفاق عليه مع الروس».

ولما كانت رسالته هذه تفيض بالألم وفيها معنى التأنيب فقد أرسلت إليه الرد التالى:

«إن روسيا هى الدولة الوحيدة التى تستطيع أن تفعل شيئاً فى رومانيا كما يقع العبء اليونانى من الناحية الأخرى على كاهلنا، وقد حملنا هذا

العبء منذ أن خسرنا نحواً من أربعين ألف رجل فى محاولة غير مجدية لمساعدة اليونان فى عام ١٩٤١، بالإضافة إلى أنكم قد سمحتم لنا بأن نعمل ما نريد مع تركيا، ومع ذلك فقد كنا نستشيركم دائماً فى القضايا السياسية، وأعتقد أننا كنا على اتفاق بصدد الاتجاه الذى نسير فيه، وقد يكون من السهل على أن أنزلق من ناحية المبادئ العامة إلى اليسار، وهو ما غدا مألوفاً الآن فى السياسة الخارجية، وأن أسمح للأمور بأن تسوء، فيجد ملك اليونان نفسه مضطراً للنزول عن العرش وتفرض جبهة التحرير الوطنى حكماً من الإرهاب فى البلاد، مرغمة القرويين وغيرهم من أبناء الطبقات الأخرى على تأليف أفواج للسلامة والأمن تحت إشراف الألمان لمنع البلاد من الوقوع فى الفوضى، والطريقة الوحيدة التى تمكننى من الحيلولة دون ذلك هى إقناع الروس بأن يوقفوا دعمهم لجبهة التحرير ودفعهم للأمام بكل ما لديهم من قوة، كما قمت أيضاً بالإجراءات اللازمة لأحقق وحدة يوغوسلافيا، بالجمع بين قوات تيتو وقوات الصربيين مع جميع من يؤيد الحكومة الملكية التى اعترفنا بها معاً، وكنا نطلعك فى كل مرحلة على الطريقة التى حملنا بها هذه الأعباء الثقيلة التى نتحملها الآن وحدنا، وليس أسهل هنا أيضاً من القذف بالملك وحكومته إلى الذئاب تنهشهما، ومن السماح للحرب الأهلية بأن تندلع فى البلاد، مما يثلج صدور الألمان، وإننى أجاهد لاستخلص النظام من الفوضى فى كل من البلدين، ولأركز كل الجهود على مقارعة العدو المشترك، كما أننى أواصل إطلاعك على كل ما أعمله، وكل أملى فى أن أنال ثقتك ومساعدتك فى الميادين كلها».

وجاء هذا الرد من الرئيس روزفلت لكى يضع حداً لهذا الجدل بين الأصدقاء:

«يبدو لى أن كلاً منا قام متهاوناً بعمل من جانب واحد فى اتجاه نتفق معاً الآن على أنه نافع ومفيد، ومن المهم أن نكون متفقين دائماً فى جميع القضايا التى تتعلق بمجهودنا الحربى».

وقد رددت عليه أقول: «فى وسعك أن تثق فى أننى سأتطلع دائماً إلى الاتفاق معك حول جميع الأمور قبل العمل وفى أثناء القيام به وبعده».

ومع ذلك فقد ظلت المتاعب تترى، فعندما أدرك ستالين الشكوك الأميركية فى الموقف، أصر على استشارتهم مباشرة، ولم نتمكن فى النهاية من الوصول إلى اتفاق أخير حول تقسيم المسئوليات فى البلقان، كما بعث الروس فى أوائل شهر آب بطريق التهريب بعثة من إيطاليا إلى جيش التحرير الوطنى (ايلاس) المنبثق من جبهة التحرير الوطنى والذى يعمل فى شمالى اليونان، وعلى ضوء تردد الحكومة الأميركية وسوء نية الروس، تخلينا عن محاولتنا للوصول إلى تفاهم كلى، إلى أن التقيت بستالين فى موسكو، بعد مضى شهرين، وتمت فى أثنائها أمور كثيرة فى الجبهة الشرقية.

ففى فنلندا اقتحمت جيوش سوفييتية خط مانرهايم وأعادت فتح السكة الحديدية بين لينغراد ومورمانسك، وأجبروا الفنلنديين قبل نهاية شهر آب على طلب الهدنة، وبدأ هجومهم الرئيسى على الجبهة الألمانية فى الثالث والعشرين من حزيران، ولم تحل نهاية تموز حتى كانت الجيوش الروسية قد وصلت إلى نهر النيمن بين جوردنو وكوفينو، أما الخسائر الألمانية فكانت ماحقة، إذ زال من الوجود نحو من خمس وعشرين فرقة ألمانية، كما تم تطويق عدد مماثل فى كورلاند، وفى السابع عشر من تموز، مر فى شوارع موسكو سبعة وخمسون ألف أسير ألمانى إلى جهة لا يعلمها إلا الله.

كما أنه وقع فى الثالث والعشرين من آب انقلاب عسكرى فى بوخارست أعده الملك الشاب ميخائيل وقد أخلصت الجيوش الرومانية أشد الإخلاص لملكها، إذ لم تمض ثلاثة أيام حتى كان قد تم نزع سلاح القوات الألمانية التى لم تنسحب فى اتجاه الحدود الشمالية، وجلا الألمان عن بوخارست فى الأول من أيلول، ولما دخلت الجيوش الروسية رومانيا اكتسحت البلاد بأكملها واستسلمت الحكومة الرومانية، وكذلك تم إخضاع بلغاريا، كما انتشرت

الجيوش الروسية غرباً، فزحفت من وادى الدانوب مخترقة ترانسلفانيا وجبال الألب فى اتجاه الحدود المجرية على حين كان جناحها الأيسر قد اصطف على حدود يوغوسلافيا للزحف غرباً فى اتجاه فيينا.

أما فى بولندا فقد وقعت مأساة تتطلب منا شرحاً أوفى: ففى نهاية شهر تموز، وقفت الجيوش الروسية أمام نهر الفستولا، وكانت جميع الدلائل تشير إلى أنه لن يمضى وقت طويل حتى تكون بولندا بأسرها فى أيدى الروس، وتحتم على قادة جيش المقاومة السرية البولندية وهم الذين يدينون بالولاء لحكومة بولندا التى فى لندن، أن يقرروا موعد القيام بثورة عامة ضد الألمان للإسراع فى تحرير بلادهم، وقد خولت حكومة لندن القائد العام الجنرال بور ـ كوموريسكى تحديد موعد الثورة وإعلانها، وبدأت الفرصة مواتية فعلاً، عندما حملت الأنباء فى العشرين من تموز قصة المؤامرة على هتلر، وقد تبعها بسرعة اختراق الحلفاء لجبهة نورمانديا، كما عبر الروس نهر الفستولا فى اليوم نفسه واندفعت دورياتهم الأمامية فى اتجاه وارسو، ولم يبق أى شك فى أن الألمان باتوا على وشك الانهيار العام.

ولذلك فقد قرر الجنرال بور تبعاً لذلك القيام بثورة عامة وتحرير العاصمة وكان لديه أربعون ألف رجل، وتألفت فى الوقت نفسه لجنة شيوعية لتحرير الوطن فى شرقى بولندا، وفى التاسع والعشرين من شهر تموز، وجه الحزب الشيوعى البولندى نداء من إذاعة موسكو إلى أهالى وارسو، يطلب إليهم أن يشتبكوا مع الألمان الآن، وكانت الدبابات الروسية قد اخترقت خطوط الألمان الدفاعية إلى الشرق من العاصمة، كما أصبحت الجيوش الروسية على بعد عشرة أميال من المدينة، فلم يمض أكثر من خمس عشرة دقيقة على نشوب الثورة حتى كانت المدينة كلها قد اشتبكت فى معركة ضارية، وهكذا بدأت معركة المدينة.

ولما وصلت الأنباء إلى لندن فى اليوم التالى، أخذنا ننتظر بلهفة وقلق

المزيد منها، وقد سكتت الإذاعة السوفييتية وتوقف النشاط الجوى الروسى عندما شرع الألمان فى الرابع من آب يهجمون من المراكز المنيعة داخل العاصمة ومن ضواحيها وأصبح الثائرون يواجهون الآن خمس فرق ألمانية حشدت فى المنطقة بصورة عاجلة، كما جىء بفرقة هيرمان جورنج أيضاً من إيطاليا وبفرقتين من رجال الحرس فيما بعد.

فأبرقت إلى ستالين أقول:

«تلبية لنداء عاجل من الجيش السرى البولندى، قررنا أن ننزل ـ إذا ساعدتنا الأحوال الجوية ـ نحو ستين طناً من المعدات والذخائر فى الأحياء الغربية الجنوبية من وارسو، حيث يقال: إن الثورة البولندية تشتبك مع الألمان فى قتال عنيف، وهم يطلبون فى الوقت نفسه المساعدة الروسية التى تبدو قريبة منهم».

وقد تلقيت من ستالين رداً جافاً يقول فيه:

«تسلمت رسالتك، وأعتقد أن المعلومات التى نقلها إليك البولنديون مبالغ فيها كل المبالغة، ولا توحى بالثقة مطلقاً، لأنه ليس لديهم مدافع ولا دبابات ولا طائرات، ولا أستطيع أن أتصور كيف يمكن لهذه الفصائل أن تستولى على وراسو التى حشد الألمان للدفاع عنها أربع فرق من فرق الدبابات بينها فرقة هيرمان جورنج؟».

هذا وقد استدعى فيشنسكى ليلة السادس عشر من آب سفير الولايات المتحدة فى موسكو لزيارته، وأوضح له، أنه رغبة منه فى تجنب أى احتمال لسوء الفهم، يود أن يتلو على مسامعه البيان المذهل التالى:

«لا تستطيع الحكومة السوفييتية بالطبع أن تعترض على قيام الطائرات الإنجليزية أو الأميركية بإلقاء السلاح على مقاطعة وارسو إذ إن هذا الأمر يهم الإنجليز والأميركيين وحدهم، ولكن الحكومة السوفييتية تعارض مصرة

فى هبوط الطائرات الأميركية أو الإنجليزية بعد إلقائها الأسلحة على وارسو فى الأراضى السوفييتية وذلك لأن الحكومة السوفييتية لا تريد أن ترتبط بصورة مباشرة أو غير مباشرة «بمغامرة وارسو».

وبعد مضى أربعة أيام بعثت هذا النداء المشترك بالاتفاق مع الرئيس روزفلت إلى ستالين:

«إننا نفكر فى الرأى العام العالمى، وما سيلحق به من صدمة، إذا تخلينا عملياً عن المكافحين ضد النازية فى وارسو، وأعتقد أن من واجبنا نحن الثلاثة أن نبذل كل ما فى وسعنا لإنقاذ أكبر عدد ممكن من أرواح الوطنيين فيها، ونحن نأمل أنك ستلقى المساعدات والذخائر من الجو على الوطنيين البولنديين فى وارسو أو أنك ستوافق على مساعدة طائراتنا فى أداء هذا العمل بكل الطرق الممكنة ولا ريب فى أن عامل الوقت مهم للغاية».

وكان هذا هو الرد الذى تلقيناه منه:

«تلقيت رسالتك التى اشتركت فيها مع المستر روزفلت بصدد وارسو وواجب أن أوضح آرائى تمام الإيضاح:

ستعرف هذه الحقيقة إن عاجلاً أو آجلاً، عن تلك المجموعة من المجرمين الذين شرعوا فى مغامرة وارسو، رغبة منهم فى اغتصاب السلطة، وقد استغل هؤلاء المجرمون سذاجة أهل وارسو وحسن نواياهم، فقذفوا بالعزل من أهلها أمام دبابات الألمان ومدافعهم وطائراتهم، وقد نشأ وضع لا يخدم البولنديين لتحرير وارسو، بل يخدم الهتلريين الذين يقتلون أهل وارسو بصورة وحشية.

وكان هذا الوضع الناشئ ضاراً بالجيش الأحمر من الناحية العسكرية بقدر ما هو ضار بالبولنديين أنفسهم، لأنه وجه اهتمام الألمان بشكل متزايد نحو وارسو، وقد واجهت القوات السوفييتية هجمات ألمانية مضادة وهى تقوم ببذل

كل ما فى وسعها لتحطيم هذه الهجمات التى يقوم بها الهتلريون، وليس ثمة شك فى أن الجيش الأحمر سيحطم الألمان ويحرر المدينة لأهلها، وسيكون هذا العمل خير مساعدة فعالة يمكن للجيش الأحمر أن يقدمها إلى البولنديين».

وكانت معركة وارسو قد وصلت فى هذه الأثناء إلى ذروتها، حيث صب رجال الدبابات جام غضبهم وسخطهم ومرارة خيبتهم على الأبنية المجاورة لهم، فأشعلوا فيها النيران كما أشعلوا النار فى جثث الموتى التى تملأ الشوارع، كما دفن بعضهم فى حدائق البيوت الخلفية والساحات العامة، وصارت المواد الغذائية قليلة، ولكن المدينة لم تصل إلى حد المجاعة، وقد جف الماء فى الأنابيب، وضاعف إسقاط المؤن من الجو من رفع الروح المعنوية لدى الأهالى وشد من عزائمهم.

وكنت آمل أن يساعدنا الأميركيون فى اتخاذ عمل جذرى، ولكن المستر روزفلت عارض فى ذلك.

ولما كانت قضية وارسو من الأهمية بمكان عظيم فقد اجتمع مجلس وزرائنا ليلة الرابع من أيلول، لبحثها، وكنت أود أن أقول للروس: «إننا نعتزم إرسال طائراتنا للهبوط فى أراضيكم، بعد إلقاء حمولتها فى وارسو، فإذا أسأتم معاملتها فسنوقف إرسال قوافلنا إليكم منذ هذه اللحظة».

ولا ريب أننا لو كنا اتخذنا هذه الخطوة لكانت مجدية، فقد كنا نتعامل مع رجال فى الكرملين تتحكم الأرقام فى أعمالهم دون عواطفهم وكان وقف القوافل عنهم فى هذه اللحظة الحرجة من زحفهم العظيم كفيلاً بأن يترك فى عقولهم آثاراً لا تقل عما تتركه اعتبارات الشرف والإنسانية والإيمان الكريم فى الناس العاديين الآخرين، ولهذا فقد بعثت وزارة الحرب بالبرقية التالية إلى ستالين، وكانت هذه هى الخطوة المثلى التى رأينا من الحكمة القيام بها.

«تود وزارة الحرب من الحكومة السوفييتية أن تعلم أن الرأى العام فى

هذه البلاد متأثر أعمق التأثر بالأحداث الجارية فى وارسو، وبالآلام المرعبة التى يتحملها البولنديون، ومهما كانت الأخطاء التى ارتكبت فى بداية الثورة فى وارسو، صحيحة أو غير صحيحة، فإن شعب وارسو نفسه لا يمكن أن يعتبر مسئولاً عن القرار الذى اتخذ، ولا يستطيع شعبنا أن يفهم لماذا ضن بالمساعدة المادية من الخارج على البولنديين فى وارسو وأصبح الكل عندنا يعرفون أن مثل هذه المساعدة ام يمكن إرسالها لأن حكومتكم ترفض السماح للطائرات الأميركية بالهبوط فى المطارات التى فى أيدى الروس، وإذا قدر للبولنديين فى وارسو أن يسحقوا بعد هذا كله على أيدى الألمان، وهو أمر بات متوقعاً خلال يومين أو ثلاثة كما قيل لنا، فإن الهزة التى سيصاب بها الرأى العام عندنا ستكون أكثر مما يحتمل ويطاق.

واحتراماً منا للمارشال ستالين وللشعوب السوفييتية التى نود مخلصين أن نعمل معها فى السنوات المقبلة، تود وزارة الحرب منى أن أوجه نداء آخر إلى الحكومة السوفييتية لتقدم كل ما فى وسعها من طاقة فى هذا الصدد، وأن تؤمن هبوط الطائرات الأميركية فى مطاراتكم تحقيقاً لهذا الغرض.

ولهذا فقد شرع الكرملين فى تغيير أسلوبه فى العاشر من أيلول كما بدأت قذائف المدفعية السوفييتية تتساقط على الضواحى الشرقية من وارسو، وشقت القوات البولندية الشيوعية بأمر من الروس طريقها إلى حدود العاصمة، وأخذت الطائرات السوفييتية تلقى المؤن على العاصمة، ولكن معظم المظلات لم تتفتح فتحطمت الصناديق التى بها المؤن وأخذت المجاعة تسيطر على المدينة.

وقد أدت المحاولات التى بذلتها مع الأميركيين للحصول على مساعدتهم دورها، فحلقت مائة وأربع قاذفات ثقيلة فى الثامن عشر من أيلول فوق العاصمة، وألقت فوقها المؤن، ولكن النجدة جاءت متأخرة، وجاءنى ميكولاجيك فى الثانى من تشرين الأول ليقول لى: إن القوات البولندية فى

وارسو على وشك الاستسلام للألمان. والتقطنا فى لندن آخر إذاعة صدرت عن المدينة الباسلة ونصها الآتى:

«إنها الحقيقة البشعة، لقد عوملنا أسوأ مما عومل به أتباع هتلر، عوملنا أسوأ من إيطاليا ورومانيا وفنلندا، وإننا لنبتهل إلى الله العادل القدير، أن ينزل عقابه بأولئك الذين عرضوا الشعب البولندى لظلم مروع، وأن يقتص من جميع المسئولين عما لحق بنا من عذاب».

«مثل هذا الشعب الذى استطاع حشد هذا القدر من البطولات إنما هو من الخالدين، ولقد انتصر الذين قضوا نحبهم، أما الذين عاشوا فسيمضون فى القتال، وسينتصرون، وسيقيمون الدليل من جديد على أن بولندا ستظل حية طالما أن هناك بولنديين بين الأحياء».

ولا يمكن لإنسان أن ينسى أبداً هذه الكلمات، فلقد استمر الصراع فى وارسو أكثر من ستين يوماً، وسقط فى ميدان النضال أكثر من خمسة عشر ألفاً من أربعين ألفاً من الرجال والنساء كانوا يؤلفون جيش المقاومة السرية وأصيب أكثر من مائتى ألف من سكان العاصمة، كما كلف إخماد الثورة الألمان أكثر من عشرة آلاف قتيل وسبعة آلاف مفقود وتسعة آلاف جريح.

وعندما دخل الروس المدينة بعد ثلاثة أشهر لم يجدوا شيئاً غير الشوارع المحطمة والجثث التى لم تدفن، وهكذا كان تحرير الروس لبولندا التى يحكمونها الآن، ولكنها لن تكون نهاية القصة على كل حال.



تحرير أوروبا الغربية

فى الأول من أيلول، تسلم الجنرال أيزنهاور القيادة العليا للقوات البرية فى شمالى فرنسا، وهى مكونة من مجموعة الجيوش البريطانية الحادية والعشرين بقيادة المارشال مونتغمرى، ومجموعة الجيوش الأميركية الثانية عشرة بقيادة الجنرال برادلى، وبذلك كان يسيطر على أكثر من سبع وثلاثين فرقة تضم أكثر من نصف مليون رجل، وكانت قوات العدو تبلغ سبع عشرة فرقة.

وكانت خطة الجنرال أيزنهاور تستهدف الاندفاع فى الاتجاه الشمالى الشرقى بأقصى ما لديه من قوات لاجتياح مراكز إطلاق القنابل الطائرة الألمانية واحتلال انتويرب، لأنه ما لم تحتل قوات الحلفاء هذا الميناء الضخم لم يكن فى إمكانها القيام بهجوم عبر الجزء الأدنى من نهر الراين والاندفاع إلى سهول ألمانيا الشمالية، ولذلك فقد اتجهت جيوش مونتغمرى إلى ميناء انتويرب فاحتلت مدينة أميان، وأسرت الفرقة المدرعة الحادية عشرة قائد الجيش الألمانى السابع فى أثناء تناوله الفطور فى اميان، وواصلت اندفاعها إلى مدن الحدود وهى أراس ودواى وليل، قد أخلى الألمان بروكسل فدخلتها فرقة الحرس المدرع الثالث فى اليوم الثالث من أيلول، كما اتجهت فرقة الحرب بعد ذلك شرقاً إلى لوفين.

وقبل التاسع من أيلول كانت قواتنا قد تمكنت من تطهير منطقة خليج كاليه، بما فيها من مراكز إطلاق القنابل الطائرة،وكذلك موانئ القتال وهى دبيب وبولون ودنكرك، إلا ميناء الهافر، حيث ظلت حاميته المؤلفة من أحد عشر ألف رجل تقاوم بشدة وإصرار على الرغم من قصفها بمدافع بحرية من عيار خمس عشرة بوصة ومن أكثر من عشرة آلاف طن من القنابل من الجو، حيث استسلمت فى الثانى عشر من أيلول، كما احتلت الفرقة المدرعة

البولندية مدينة غنت التى لا تبعد أكثر من أربعين ميلاً عن انتويرب.

وبقيت أمامنا القفزة الأخيرة نحو أرنهيم، حيث كان الطقس السيئ قد حال دون إيصال الإمدادات والمؤن والذخائر بطريق الجو، وكانت الفرقة الأولى التى نقلت بالطائرات بالجو فى وضع يائس، فقد عجزت عن الوصول إلى الجسر، وأصبحت محصورة فى قطاع ضيق على الضفة الشمالية، متعرضة لهجمات عنيفة، وقد بذلت كل محاولة ممكنة من الضفة الجنوبية لإنقاذها، ولكن العدو كان قوياً للغاية، وقامت بهذه المحاولات فرقة الحرب والفرقة الثالثة والأربعون ولواء المظليين البولنديين، ولكنها جميعها منيت بالفشل، حتى اضطر الماريشال مونتغمرى إلى إصدار أوامره إلى من تبقى من الفرقة بالعودة.

وبعد ذلك اتجهنا لتطهير مصب الشلوت وفتح ميناء انتويرب للملاحة حيث كانت فرقة مدرعة ألمانية ومدربة خير تدريب تتولى الدفاع عن جزيرة بريسكينز وقد أثبتت صلابتها، كما دار قتال عنيف جداً لعبور قناة ليوبولد واحتلال جنوبى بيفيلاند، وقد تمكنا فى نهاية الشهر وبعد جهود عظيمة هائلة من الاستيلاء على البرزخ كله وأسر نحو ١٢٥٠٠ ألمانى.

وهكذا أصبحت الطرق ممهدة للهجوم على وولشيرين، ووجه السلاح الجوى الملكى فى أوائل تشرين الأول الضربة الأولى حتى تمكنت طائراتنا من فتح ثغرة عظيمة وقد اشترك فى هذه العملية ثلاث وحدات من فدائيى البحرية. كما اشترك الأسطول البحرى أيضاً فى الهجوم.

وعلى الرغم من الإصابات القاسية التى وقعت برجال الأسطول فقد تمكن من مواصلة إطلاق مدافعه حتى تمكنت وحدات الفدائيين من النزول إلى الساحل، كما صبت مدافع الفيلق الكندى الثانى نيرانها القوية عبر الماء من شاطئ بريسكنيز على مدافع العدو القوية المثبتة فى دعائم من الأسمنت المسلح، وقد تمكنت وحدة الفدائيين الثامنة والأربعون من قتل وأسر بقية رجال حامية الجزيرة، ولم تمض الثامنة والأربعون من قتل وأسر بقية رجال حامية الجزيرة،

ولم تمض بضعة أيام فى قتال عنيف حتى كانت الجزيرة كلها فى أيدينا.

كما واصل برادلى، وضباطه المتحمسون، اندفاعهم القوى على الجناح الأيمن وراء باريس، على رأس مجموعة الجيوش الأميركية الثانية عشرة، فسقطت فى أيديهم شارلروا، ومونز، ولييغ، وتمكنوا خلال أسبوعين من تحرير اللكسمبورغ بأسرها وجنوبى بلجيكا، ووصلوا فى الثانى عشر من أيلول إلى الحدود الألمانية، كما اخترقوا خط سيغفريد على مقربة من آخن.

هذا وقد قامت القوات الجوية الاستراتيجية بدور بارز فى زحف الحلفاء إلى حدود فرنسا وبلجيكا، ثم عادت فى الخريف إلى دورها الأساسى فى قصف ألمانيا مستهدفة مستودعات البترول وأجهزة المواصلات كأهداف محدودة، كما أرغمت هجماتنا المستمرة الألمان على توزيع مصانعهم فى نقاط متباعدة وقد دفعت قواتنا الثمن غالياً لتحقيق هذا الهدف.

ولما كان الألمان يعتمدون على طرق مواصلاتهم الجيدة، وقد تعطل أكثرها بسبب الغارات فقد تسبب ذلك فى تكديس أكوام الفحم فى المحطات لعدم وجود عربات الشحن التى تنقلها، كما اضطر أكثر من ألف قطار من قطارات الشحن للتوقف يومياً بسبب الافتقار إلى الوقود، وكذلك بدأت محطات القوة الكهربائية والمصانع ومعامل الغاز تغلق أبوابها وهبط إنتاج البترول واحتياطيه هبوطاً هائلاً مما أثر لا على حركة القوات العسكرية فحسب، بل على النشاط الجوى وتدريب الطيارين.

وقد حذر سيبر فى شهر آب الفوهرر من شل الصناعة الكيماوية كلية بسبب الافتقار إلى المنتجات الثانوية من مصانع الزيت الكيماوى، وأخذ الوضع يزداد سوءاً يوماً بعد يوم، وقال سيبر: إنه إذا استمر الوضع فى التردى والتوقف فى حركة القطارات فإن النتيجة ستؤدى إلى كارثة إنتاجية ذات أهمية حاسمة.

وهذا السبب فقد بدأ هجومنا الجوى يحقق غاياته أخيراً.

استسلام ألمانيا

انتهت حملاتنا فى البحر الأبيض المتوسط، بانتصار مشرف، وقد تولى اليكساندر القيادة العليا فى شهر كانون الأول خلفاً لويكسون، كما تولى مارك كلارك قيادة مجموعة الجيوش الخامسة عشرة، وبالنسبة للجهود المضنية التى بذلتها الجيوش فى إيطاليا، فقد أصبحت فى حاجة إلى التوقف لفترة تعيد فيها تنظيمها وتجديد روحها المعنوية وقوتها الهجومية.

وكانت المقاومة الألمانية الباسلة والطويلة، والتى كانت غير متوقعة على جميع الجبهات، قد جعلتنا نحن والأميركيين مفتقرين إلى العتاد المدفعى، كما أرغمتنا تجاربنا القاسية، فى حروب الشتاء فى إيطاليا على تأجيل الهجوم العام حتى الربيع، إلا أن قوات الحلفاء الجوية بقيادة الجنرال كانون ظلت تقصف خطوط تموين الجيوش الألمانية حتى تم إغلاق الطريق المهم الممتد من فيرونا إلى ممر برنر، حيث كان هتلر وموسولينى يعقدان اجتماعاتهما فى أماكن عدة طوال شهر آذار، وقد تسبب إغلاق هذا الطريق فى تأخير نقل الفرقتين الألمانيتين اللتين تقرر إرسالهما إلى روسيا أكثر من شهر.

وكان لدى العدو كميات كافية من العتاد والمؤن، ولكنه كان فى حاجة إلى الوقود، وكانت وحداته لا تزال كاملة وروحها المعنوية عالية على الرغم من هزائم هتلر فى الراين وعلى نهر الأدور، ويبدو أن القيادة العليا الألمانية ما كانت لتخشى الكثير لولا سيطرتنا الجوية ولولا أننا كنا نتمتع بزمام المبادرة ونستطيع أن نوجه الضربة حيث نشاء، بينما كان الخط الدفاعى الذى اختاره الألمان سيئاً، إذ جعلوا نهر اليو الواسع وراء ظهورهم، وكان من الأفضل للألمان لو تخلوا عن شمال إيطاليا كلها وانسحبوا إلى الخطوط الدفاعية

المنيعة فى الجبال، حيث كان فى استطاعتهم أن يصمدوا أمامنا بقوات قليلة، وأن يبعثوا بما يتوافر لديهم من قوات إلى الجبهات الأخرى.

ولكن الهزيمة التى لحقت بالألمان فى جنوبى نهر اليو كانت بمثابة كارثة. ولا ريب فى أن كيسلرنغ قد أدرك ذلك، وهو ما حمله على المفاوضات التى سجلناها فى الفصل السابق، ولكن هتلر كان دائماً العقبة الكأداء، بدليل أنه عندما اقترح فيتينغهوف الذى خلف كيسلرنغ فى الانسحاب التكتيكى، جاءه الرد الصارم من هتلر وقد قال فيه: «إن الفوهرر يتوقع الآن كما توقع دائماً أن تؤدى بثبات وصلابة مهمتك الراهنة فى الدفاع عن كل شبر من أراضى شمال إيطاليا، وهى الأراضى التى أوكل إليك أمر الدفاع عنها».

وقد شرع الجيش الثامن فى هجومه مساء التاسع من نيسان بالغارات الجوية ومدافع الميدان، ولم يحل اليوم الرابع عشر من نسيان حتى كانت الأنباء الطيبة قد وصلت من جميع أنحاء الجبهة، وقد تمكن الجيش الخامس بعد قتال عنيف استمر أسبوعاً من الخلاص من المنطقة الجبلية وعبور الطرق الرئيسية الممتدة إلى الغرب من بولونا، ثم اتجه شمالاً. وفى اليوم العشرين من نيسان أمر فيتينغهوف قوته بالانسحاب متحدياً أوامر هتلر، ولكن الفرصة كانت قد ضاعت، حيث استمر الجيش الخامس فى اندفاعه نحو نهر اليو، ومهدت له الطائرات طريق تقدمه، حيث قطع خط الرجعة على ألوف الألمانيين الذين وقعوا فى الفخ وانقطعت بهم السبل فوقعوا أسرى ولم تتمكن هذه البقايا التى خلفت وراءها جميع معداتها الثقيلة قبل عبور النهر من إعادة تنظيمها، فقد طاردتها جيوش الحلفاء إلى سفوح الأريج، فى حين كان رجال المقاومة الإيطالية ينزلون المصاعب بالعدو فى الجبال والمناطق الخلفية.

وفى الخامس والعشرين من نيسان، صدرت الأوامر لقوات المقاومة بإعلان الثورة العامة وفى الحال شرعت تشن هجمات واسعة النطاق وتمكنت

من السيطرة على مدن مهمة كميلانو والبندقية وغدت عملية الاستسلام فى شمال غربى إيطاليا بالجملة، كما سلمت حامية جنوة المؤلفة من أربعة آلاف جندى نفسها إلى ضابط ارتباط بريطانى وإلى قوات المقاومة.

وفى هذه الأثناء، جاء وولف إلى سويسرا ثانية بعد أن منحه فيتينغهوف السلطات الكاملة، كما وصل رسولان آخران مفوضان إلى مقر قيادة اليكساندر، ووقّعا فى التاسع والعشرين من نيسان وثيقة الاستسلام غير المشروطة بحضور بعض الضباط البريطانيين والأميركيين والروسيين، كما أنه فى الثانى من آيار استسلم نحو من مليون ألمانى كأسرى حرب وانتهت باستسلامهم - الحرب فى إيطاليا كلها.

وهكذا انتهت حملتنا التى استغرقت عشرين شهراً، وكانت خسائرنا كبيرة إلا أن خسائر العدو كانت أعظم.

وجاءت النهاية لموسولينى أيضاً، ويبدو أنه ظل كهتلر محتفظاً بأحلامه وخيالاته، حتى اللحظة الأخيرة، فقام فى نهاية آيار بآخر زيارة لشريكه الألمانى، ثم عاد لمقر قيادته على شاطئ بحيرة جاردا، وقد انتعشت فى خاطره أحلام الأسلحة السرية التى ستؤدى إلى النصر، ولكن سرعة زحف الحلفاء من جبال الأبنين قد قضت على هذه الأحلام.

وقرر موسولينى فى الخامس والعشرين من نيسان أن يحل ما تبقى من قواته المسلحة وأن يطلب إلى كردينال ميلانو ورئيس أساقفتها أن يرتب اجتماعاً له مع أعضاء اللجنة السرية العسكرية لحركة التحرر الوطنى الإيطالية، ودارت المحادثات فى قصر الكردينال فى ظهر ذلك اليوم، ولكن موسولينى خرج غاضباً منه، وفى المساء سار موسولينى على رأس قافلة تضم معظم الباقين من زعماء الفاشية إلى دار الشرطة فى كومو، بعد أن ارتدى معطفاً وخوذة من التى يرتديها الجنود الألمان، ولكن دوريات رجال المقاومة أوقفت القافلة وتعرف أفرادها على موسولينى فوضعوا أيديهم عليه ونقلوه

إلى السجن، كما اعتقل آخرون من بينهم عشيقته السنيورة بيتاتشى، وحمل الدوتشى وعشيقته فى اليوم التالى بأمر من الشيوعيين فى السيارة إلى خارج البلدة وقتلا، ونقل جثماناهما إلى ميلانو، حيث علقا من الأقدام على خطافات اللحم فى محطة بنزين فى «بياز إلى لورينو»، وهكذا كانت خاتمة الديكتاتور الإيطالى.

وقد واصلت الجيوش النازية زحفها فى ألمانيا بقوة، وأخذت المسافات بينها تضيق يوماً بعد يوم، وكان أيزنهاور فى أوائل شهر نيسان قد اجتاز نهر الراين وأخذ يندفع إلى ألمانيا وأواسط أوروبا ضد عدو كان لا يزال يقاوم بضراوة فى بعض الجهات، وإن كان عاجزاً عن وقف زحفنا المظفر، وكانت بولندا خارج نطاق إمكاناتنا وكذلك كانت فيينا، التى ضاعت فرصتنا فى الوصول إليها قبل الروس، عن طريق زحف سريع من إيطاليا قبل ثمانية أشهر، عندما ضوعفت قوات الجنرال اليكساندر، لتمكين حركة الإنزال فى فرنسا من النجاح، وكان الروس قد زحفوا على المدينة من الشرق والجنوب وامتلكوها.

وقد بدا لى أنه ليس هناك ما يحول بين الحلفاء الغربيين وبين احتلال برلين، وكان الروس على بعد خمسة وثلاثين ميلاً منها، وكان الألمان قد تحصنوا فى خنادقهم على نهر الأدور، وكان من المتوقع أن تدور معارك شديدة للغاية قبل أن يتمكن الروس من عبور النهر واستئناف الهجوم، وكان الجيش الأميركى التاسع من الناحية الأخرى قد عبر نهر الألب على مقربة من مجدبورج وغدا على بعد ستين ميلاً من برلين وتوقف هناك، وبعد أربعة أيام شرع الروس فى هجومهم وأتموا تطويق برلين فى الخامس والعشرين من نيسان، مع أن ستالين كان قد أبلغ ايزنهاور أن ضربته الرئيسية الثانية ضد ألمانيا، ستشن فى حوالى النصف الثانى من شهر آيار، ولكنه تمكن من الزحف قبل شهر من الموعد الذى حدده، ولعل فى تقدمنا السريع نحو نهر الألب، التفسير الصحيح لزحف الروس بمثل هذه السرعة.

وفى الخامس والعشرين من نيسان عام ١٩٤٥، التفت طلائع قوات الجيش الأول الأميركى القادمة من ليبزيغ بالقوات الروسية على مقربة من تورغاو على نهر الألب، وهكذا تم شطر ألمانيا إلى شطرين، ورأينا الجيش الألمانى ينحل أمامنا، وسقط فى الأسر أكثر من مليون ألمانى فى الأسابيع الثلاثة الأولى من شهر نيسان.

ولما كان الجنرال أيزنهاور يعتقد بأن النازيين المتعصبين سيحاولون الدفاع عن جبال بافاريا وغربى النمسا، فقد اتجه بالجيش الأميركى الثالث جنوباً، ودخل جناح الجيش الأيسر إلى تشيكوسلوفاكيا، فوصل إلى بوديغوفيك وبيلسين وكارلسباد وأصبحت براغ فى متناول أيدينا. ولم يكن هناك ما يحول دون احتلالها من الناحية العسكرية، وقد اقترحت على ترومان أن يقوم أيزنهاور باحتلال العاصمة التشيكية، ولكن ترومان عارض الفكرة، وبعد أسبوع أبرقت شخصياً إلى أيزنهاور بذلك، ولكنه رد علىَّ بأنه إذا تطلب الوضع فقد يجتاز الحدود إلى الخط العام الممتد من كارلسباد إلى بيلسين فبوديغوفيك، وقد وافق الروس على ذلك، وبعد أن تحركت قوات أيزنهاور إلى الخط الجديد، عارض الروس بشدة فى أن يستمر الجيش الأميركى الثالث فى زحفه حتى نهر فولتافا، الذى يمر عبر مدينة براغ، وهكذا توقف الجيش الأميركى، فى حين ظهر الجيش الأحمر على الضفتين الشرقية والغربية لنهر مولداو واحتل مدينة براغ، فى التاسع من شهر آيار، أى بعد يومين من التوقيع على الاستسلام العام فى ريمز.

ولما كان موضوع احتلال الحلفاء الرئيسيين لألمانيا قد درس دراسة عميقة فى صيف عام ١٩٤٣ بالاتفاق مع رؤساء أركان الحرب، فقد تقرر أن تحتل ألمانيا بأكملها إذا أريد نزع سلاحها بصورة فعالة، أما إذا أريد التخلص منها بتقسيمها ثلاث مناطق احتلال رئيسية متساوية حجماً، فيجب أن يحتل البريطانيون الشمال الغربى، والأميركيون الجنوب والجنوب الغربى والروس المنطقة الشرقية،

كما يجب أن تكون مدينة برلين منطقة مشتركة منفصلة يحتلها الحلفاء الثلاثة، وتم الاتفاق على هذه التوصيات، وقدمت إلى المجلس الاستشارى الأوروبى الذى كان يتألف من السفير السوفييتى المسيو جوسييف والسفير الأميركى المستر وبنانت والسير وليام سترانغ من وزارة الخارجية البريطانية.

وبدأ الموضوع فى ذلك الوقت مجرد شىء نظرى، فلم يكن فى استطاعة أى إنسان أن يتكهن آن ذاك كيف ومتى ستنتهى الحرب، وكانت الجيوش الألمانية لا تزال تحتل مناطق واسعة من روسيا، وكان لابد أن يمضى عام واحد على الأقل قبل أن تضع الجيوش البريطانية والأميركية أقدامها فى أوروبا الغربية، وعامان قبل أن تدخل هذه الجيوش ألمانيا، وهكذا ظلت هذه الاقتراحات كغيرها موضوعة على الرف، وكانت الفكرة السائدة فى تلك الأيام أن روسيا لن تستمر فى الحرب بعد أن تستعيد حدودها السابقة، وكان على الحلفاء الغربيين أن يبذلوا جهوداً ضخمة لإقناع الروس بعدم التراخى فى مجهودهم، ولهذا فإن موضوع الاحتلال الروسى لألمانيا لم يتبلور فى أفكارنا ولا فى المحادثات البريطانية الأميركية، كما لم يثر فى اجتماع الكبار الثلاثة فى طهران.

وعندما اجتمعنا فى القاهرة فى طريق عودتنا إلى الوطن فى تشرين الأول عام ١٩٤٣، أثار رؤساء أركان الحرب الأميركيون الموضوع، ولكن لم تكن إثارتهم إياه بناء على طلب من روسيا، وقد ظلت مسألة الاحتلال الروسى لألمانيا، لا تعدو أن تكون أمنية أو خيالاً، كما أنه قد قيل لى إن الرئيس روزفلت رغب فى أن يغير وضع احتلال المنطقتين البريطانية والأميركية فى ألمانيا، لكى تكون طرق مواصلات القوة الأميركية فى ألمانيا مستندة إلى البحر مباشرة ولا تمر عبر فرنسا، ولم نتوصل إلى قرار، وكان من رأى أركان حرب القيادة البريطانية أن الخطة الأصلية هى الأفضل، كما كان يشاطرهم زملاؤهم الأميركيون فى هذا الرأى، وقد توصلنا فى مؤتمر كوبيك فى أيلول

عام ١٩٤٤ إلى اتفاق ثابت بيننا.

وعندما اقتنع الرئيس بهذا الرأى العسكرى، اشترط أن تتمكن الجيوش الأميركية من الحصول على منفذ قريب إلى البحر ضمن منطقة الاحتلال البريطانى، واتفقنا على أن بريمن وضحيتها بريمن هافن، تفيان بهذا الغرض وبمتطلبات أميركا، وتقرر أن يعهد إلى القوات الأميركية بالإشراف عليها.

وقد قبلت الخطة التى وضعناها فى كويبك فى مؤتمر يالته الذى عقدناه فى شهر شباط عام ١٩٤٥، دون أية دراسة، وتركنا البحث الشامل فيها إلى معاهدة الصلح، كما اقترحنا - أيضاً - أن نتفق على مناطق الاحتلال فى النمسا، ووافق ستالين بعد جهود كبيرة بذلتها لإقناعه، على أن تعطى للفرنسيين منطقة احتلال ضمن المنطقتين البريطانية والأميركية وأن نعطى لها مقعداً فى مجلس الإشراف الحليفى، وكان مفهوماً للجميع أن هذا الاتفاق على مناطق الاحتلال، يجب ألا يعرقل سير الحركات العملية لجيوش الحلفاء، وأن يكون فى وسع أى جيش أن يحتل برلين أو براغ أو فيينا إذا وصل إليها قبل غيره، وعندما افترقنا فى شبه جزيرة القرم، لم نفترق كحلفاء فحسب بل كأصدقاء، نواجه عدواً ما زال قوياً.

وشهد الشهران اللذان تليا ذلك الاجتماع تبدلاً هائلاً نفذ إلى أعماق تفكيرنا، حيث كان قد تقرر مصير ألمانيا الهتلرية. حيث كان الروس يحاربون داخل برلين نفسها، كما أضحت فيينا ومعظم أجزاء النمسا فى أيديهم، وأصبحت العلاقات بين روسيا وبين الحلفاء الغربيين فى حالة سيئة من التوتر، وظلت كل قضية تتعلق بالمستقبل قائمة لا حل لها بيننا، وقد طرح الكرملين المنتصر الظافر جانباً، كل ما اتفقنا عليه أو تفاهمنا بشأنه فى يالته، وبرزت مخاطر جديدة لا تقل فظاعة عن تلك التى تغلبنا عليها، على العالم الممزق المتعب.

وقد زاد قلقى لهذه التطورات المنذرة بالشر، حتى قبل وفاة الرئيس روزفلت، وكان هو بدوره أيضاً قد أحس بالقلق والاضطراب، وقد سجلت فى

هذا الكتاب ما أحس به من غضب بسبب اتهامات مولوتوف بشأن اتصالات برن. وعلى الرغم من زحف جيوش أيزنهاور الظافرة، فقد وجد الرئيس ترومان نفسه فى النصف الأخير من شهر نيسان، يواجه أزمة ضخمة، وكنت أحاول منذ مدة أن أبصر الحكومة الأميركية بالتبدلات الهائلة التى أخذت تطرأ على المسرحين السياسى والعسكرى.

وكان الجنرال أيزنهاور قد اقترح، أنه فى الوقت الذى تعطى فيه الحرية للجيوش من الشرق والغرب، بالزحف والتقدم دون اعتبار مناطق الاحتلال وأن فى وسع هذه الجيوش بعد أن يتم اتصالها فى أية منطقة، أن تنسحب إلى ما وراء حدود مناطق الاحتلال المقررة، كما تعطى الصلاحيات لتوجيه طلبات الانسحاب ولإصدار الأوامر المتعلقة بها، إلى قواد مجموعات الجيوش، وبذلك تتم عمليات الانسحاب وفقاً لمقتضيات العمليات الحربية، وقد رأيت أن هذا الاقتراح سابق لأوانه، وأنه يتجاوز الاحتياجات العسكرية الفورية.

وعلى ضوء هذا الرأى وجهت رسالة فى الثانى عشر من نيسان إلى الرئيس الجديد المستر ترومان، ولما كان الرئيس حديث عهد بكل هذه المشكلات التى تواجهنا، فقد كان من الطبيعى بالنسبة له، أن يلجأ إلى مستشاريه، ولهذا فقد أحرزت الفكرة العسكرية المجردة، تأكيداً وتأييداً أكثر مما تستحقه، وقد أبرقت إليه أقول:

«إننى على أتم الاستعداد للتقيد بمناطق الاحتلال، ولكننى لا أحب أن أرى قوات الحلفاء والقوات الأميركية، ترغم على الرجوع فى أية نقطة، تلبية لطلبات سخيفة من قائد روسى محلى، وأرى أن يتفق على هذا بين الحكومات، بحيث تتوافر لأيزنهاور الفرصة ليقرر فوراً وفى المنطقة نفسها، الإجراء الذى يجب أن يتخذ وفقاً لطريقته».

«ولما كان قد اتفق على مناطق الاحتلال بصورة عاجلة فى كويبك فى شهر أيلول عام ١٩٤٤، عندما لم نكن نتوقع أن تتمكن جيوش الجنرال

أيزنهاور من إحراز هذا التوغل العميق داخل ألمانيا، وليس فى الإمكان تبديل هذه المناطق إلا عن طريق الاتفاق مع الروس، إلا أنه فى الوقت الذى يتم فيه النصر النهائى فى أوروبا، يجب علينا أن نحاول فوراً وفى اليوم نفسه إقامة مجلس الإشراف الحليف فى برلين، وأن نصر على توزيع عادل للمواد الغذائية التى تنتجها ألمانيا على جميع أجزاء البلاد، وقد كانت منطقة الاحتلال الروسى فى الوقت الحاضر، تنتج أكبر نسبة من المواد الغذائية فى حين أن عدد سكانها كان ضئيلاً، بالنسبة لغيرها من المناطق، كما لا يملك الأميركيون نسبة كافية من المواد الغذائية فى مناطقهم تكفى لأهلها، أما نحن البريطانيون المساكين، فسنأخذ ما تبقى من حطام حوض الروهر والمناطق الصناعية الأخرى التى تعتمد مثلنا فى الأوقات العادية على ما تستورده من كميات ضخمة من المواد الغذائية».

ولما كان المستر ايدن فى واشنطن، فقد وافق تماماً على آرائى التى بعثت بها برقياً إليه، ولكن رد المستر ترومان، لم يتقدم بنا خطوة واحدة إلى الأمام، فقد اقترح أن تنسحب قوات الحلفاء، من المناطق المتفق على احتلالها فى ألمانيا والنمسا، عندما تسمح الأوضاع العسكرية بهذا الانسحاب.

وكان هتلر يفكر فى أثناء ذلك فى المكان الذى يجب أن يقف فيه وقفته الأخيرة، وكان حتى العشرين من نيسان لا يزال يفكر فى مغادرة برلين «واللجوء» إلى حصنه فى الجنوب فى جبال الألب البافارية، وقد عقد فى ذلك اليوم اجتماع شهده كبار القادة النازيين.

ولما كانت الجبهة الألمانية المزدوجة فى الشرق والغرب، قد أصبحت معرضة للانقطاع والانشطار شطرين بسبب اندفاع الحلفاء من الناحيتين فقد وافق على إقامة قيادتين منفصلتين، وعهد إلى الأميرال دونتس بأن يتولى المسؤولية العسكرية والمدنية فى الشمال، وأن يكون مكلفاً بإعادة مليونى لاجئ ألمانى من الشرق إلى الأراضى الألمانية، أما فى الجنوب فقد تقرر أن

يتولى الماريشال كيسلرنغ قيادة ما تبقى من الجيوش الألمانية، كما تقرر أن يشرع فى تنفيذ هذه المخططات عقب سقوط برلين.

وفى الثانى والعشرين من نيسان، اتخذ هتلر قراره الأخير والخطير بالبقاء فى برلين حتى النهاية، وفى الحال أتم الروس تطويق العاصمة، بعد أن فقد الفوهرر كل قدرة على السيطرة على الأحداث، وقد أعلن لمن تبقى من الزعماء النازيين معه بأنه سيموت فى برلين، وكان غورنغ وهملر قد غادرا برلين بعد مؤتمر العشرين من نيسان، وقد طافت برأسيهما أفكار التفاوض لعقد الصلح واتجه غورنج إلى الجنوب، وافترض أن هتلر قد تنازل عن سلطاته ببقائه فى برلين، وقد طلب منه تأكيداً رسمياً بأن يكون خليفته، وكان رد هتلر، أن طرده من جميع مناصبه، وبعدها وقع أسيراً هو ومائة من كبار قادة السلاح الجوى الألمانى فى أيدى القوات الأميركية.

ولم يبق مع هتلر من كبار شخصيات العهد إلا جوبلز وبورمان حتى النهاية، وكانت القوات الروسية، قد بدأت تقاتل فى شوارع برلين، وفى الساعات الأولى من صباح التاسع والعشرين من نيسان كتب وصيته الأخيرة، واستمر يؤدى أعماله العادية فى الملجأ الموجود تحت دار المستشارية إلى أن وصلته الأنباء عن نهاية موسولينى، وبعد أن تناول غداءه فى اليوم الثلاثين صافح أفراد حاشيته، ثم انسحب إلى غرفته الخاصة. وانتحر بمسدسه، وكانت بجواره ايفا براون - التى كان قد تزوجها سراً - بعد أن تناولت السم وتم إحراق الجثتين فى باحة المستشارية، وكانت نهاية مؤلمة للرايخ الألمانى.

هذا، وقد عقد من تبقى من القادة النازيين مؤتمراً أخيراً، وحاولوا التفاوض مع الروس، إلا أن جوكوف طلب الاستسلام بلا قيد ولا شرط وفى الحال اختفى بورمان دون أن يترك أثراً، وقتل جوبلز أولاده الستة بالسم، ثم أمر رجال حرسه بإطلاق النار عليه وعلى زوجته، ووقع من تبقى من رجال مركز قيادة هتلر أسرى فى أيدى الروس.

وصلت إلى الأميرال دونتس تلك الليلة البرقية التالية:

«لقد عينك الفوهرر، أيها الأميرال الأكبر، خلفاً له، بدلاً من ماريشال الرايخ السابق جورنغ، وسيصلك الخطاب الرسمى، إذ هو فى الطريق إليك، وعليك أن تتخذ فوراً جميع الإجراءات التى يتطلبها الموقف، بورمان».

وكان دونتيس على اتصال بهملر، وقد سيطرت الفوضى، فأخذ يعد العدة لتنظيم أمر الاستسلام.

أما هملر، فكان قد ذهب إلى الجبهة الشرقية وأخذ يجرى اتصالات شخصية موعزاً بها مع الحلفاء الغربيين، مؤملاً الوصول إلى صلح منفرد، منذ عدة أشهر، وقد جدد الآن المحاولة عن طريق الكونت برنادوت رئيس الصليب الأحمر السويدى، ولكن عروضه رفضت كلها فاختفى ولم يسمع عنه شىء، إلى أن قبض عليه متنكراً، وعند ذلك تناول قارورة من سم السيانيد فمات لتوه.

أما نهاية المسرحية فى الشمال الغربى فكانت أقل إثارة، فقد وصلت أنباء الاستسلام فى إيطاليا فى الثانى من آيار، وكانت قواتنا قد وصلت إلى لبوبيك الواقعة على البلطيق، واتصلت بالروس، فقطعت خط الرجعة على القوات الألمانية الموجودة فى الدانمارك والنرويج، ووصلنا فى الثالث من آيار مدينة خمبورغ دون مقاومة، واستسلمت الحامية دون قيد أو شرط، وبعد ذلك وصل وفد ألمانى إلى مقر قيادة مونتغمرى فى لونبرغ هيث، برئاسة الأميرال فريدبرغ الذى حاول الوصول إلى اتفاق باستسلام يشمل القوات الألمانية فى الشمال التى تواجه الروس أيضاً، وقد وقع وثيقة الاستسلام لجميع القوات الألمانية فى شمال غربى ألمانيا وهولندا والجزر وشلزويغ هولشتين والدانمارك.

وتوجه فريدبرغ إلى مقر أيزنهاور فى ريمز حيث انضم إليه الجنرال يودول فى السادس من آيار، الذى أصر على استسلام كامل، وقد وقع

فريدبرغ وثيقة الاستسلام الكلى فى صباح السابع من آيار، كما وقَّع عليها اللفتنانت جنرال بيدل سميث والجنرال بودل، وشهد عليها قائدان «فرنسى وروسى»، وبذلك أوقفت جميع الأعمال الحربية فى منتصف ليل الثامن من آيار، وتم التصديق الرسمى من قبل القيادة العليا الألمانية فى برلين طبقاً للترتيبات التى وضعها الروس فى التاسع من آيار، ووقَّع الوثيقة قائد عام القوات الجوية بندر بالنيابة عن أيزنهاور والماريشال جوكوف بالنيابة عن الروس والماريشال كاتيل بالنيابة عن ألمانيا.

وعندما أصدر دونتيس أوامره بالاستسلام كانت هناك تسع وأربعون غواصة فى عرض البحر، وقد استسلم نحو من مائة غواصة فى الموانئ، فى حين قام البحارة الألمان بتخريب نحو من مائتين وعشرين غواصة قبل الاستسلام. ولا ريب أن هذه الأرقام تقوم دليلاً على إصرار ألمانيا فى جهودها وعلى مدى احتمال سلاح الغواصات الألمانى، كما خسر الألمان فى ثمانية وستين شهراً من القتال سبعمائة وواحدة وثمانين غواصة.

وبعد استسلام العدو بلا قيد أو شرط، أحس الظافرون والخاسرون على حد سواء، براحة لا توصف، أما بالنسبة إلينا فى بريطانيا والإمبراطورية البريطانية، إذ كنا الوحيدين الذين خضنا الحرب من أول يوم فيها حتى آخر يوم، فلقد كان هناك معنى لانتهاء الحرب، يفوق المعنى الذى يحمله بالنسبة لأقوى حلفائنا وأكثرهم بسالة.

وعندما طلب إلى، أن أتحدث إلى الأمة وجهت إليها الكلمة التالية:

«كم كان بودى أن أبلغكم الليلة، أن جميع متاعبنا ومشكلاتنا قد انتهت ولو كان فى استطاعتى إبلاغكم ذلك لكان فى إمكانى أن أنهى خدمتى التى استمرت خمس سنوات، ولكن أرى لزاماً علىَّ، أن أحذركم كما حذرتكم من قبل عندما تسلمت هذه الأعباء، بأنه ما زال أمامنا الكثير لنفعله، وأن عليكم أن تستعدوا لجهود أخرى بدنية وعقلية ولاحتمال تضحيات ثابتة فى سبيل

القضايا العظيمة، فعليكم ألا تضعفوا ولا تهنوا بأى شكل من الأشكال، فى يقظتكم وحذركم وانتباهكم، ومع أن أفراح الأعياد ضرورية للروح الإنسانية، إلا أنه يجب أن تضفى عليها القوة والمرونة، لكى يعود كل رجل وامرأة إلى العمل الذى يجب أن يعمله».

فما زال علينا فى القارة الأوروبية أن نتأكد من أن الأهداف النبيلة والبسيطة التى خضنا غمار الحرب من أجلها لن يكون مصيرها التجاهل فى الأشهر التى تلى النصر، وأن كلمات الحرية والديموقراطية والتحرير لن تفقد معانيها الحقيقية كما فهمناها، ولن يكون كبير جدوى من عقاب الهتلريين على جرائمهم إذا لم يقم حكم القانون والعدالة فى أوروبا، وإذا قدر للحكومات الجماعية أو البوليسية أن تحل محل الغزاة الألمان.

«وعلينا ألا ننسى أبداً أن هناك اليابان على الرغم من قوتها المنهارة، وضعفها، تمثل مائة مليون من الناس، لا يرى المحاربون منهم فى الموت ما يفزع أو يخيف، وليس فى وسعى فى هذه الليلة أن أحدد لكم الوقت أو الجهود التى سنحتاج إليها لإرغام اليابانيين على إصلاح ما ارتكبوه بغدرهم وفظاعتهم، فنحن، مثل الصين التى احتملت ما احتملته من أضرار فظيعة دون أن يطرأ عليها وهن أو ضعف، ونحن ملتزمون بأحكام الشرف، وروابط الولاء الأخرى للولايات المتحدة أن نمضى فى هذه الحرب العظيمة، فى ذلك الطرف النائى من العالم إلى جانبها دون ضعف أو تردد، وعلينا أن نتذكر أن استراليا ونيوزيلندا وكندا كلها مهددة تهديداً مباشراً من هذه القوة الشريرة، وهذه الدول من ممتلكاتنا المستقلة تهب لنجدتنا فى أحلك ظروفنا، وعلينا ألا نترك أية مهمة تتعلق بسلامتها ومستقبلها غير ناجزة، وسأكون غير جدير بثقتكم وبكريم عواطفكم إذا لم أواصل النداء لكم قائلاً: إلى الأمام، دون تردد ودون خوف، ودون لين ودون هوادة، إلى أن تكملوا واجبكم كله، وإلى أن يصبح العالم كله آمناً مطمئناً وخالياً من كل شائبة».

القنبلة الذرية

وصل الرئيس ترومان إلى برلين فى اليوم الذى وصلت فيه إليها، وقد كنت متلهفاً للتعرف عليه، وكانت علاقاتى الودية معه على الرغم من بعض الخلافات، قد أقيمت عن طريق المراسلة، فقمت بزيارته فى صباح اليوم التالى لوصولنا، وقد تأثرت بما يبدو عليه من إشراق ودقة فى الحديث، وقدرة على الحسم فى المواقف.

وقد قام كل منا منفرداً بجولات فى المدينة، فى اليوم التالى لوصولنا، ولم تكن المدينة إلا حطاماً من الخرائب، ولم يكن قد صدر بيان عن زيارتنا ولذلك فقد كانت الشوارع خالية إلا من المارة العاديين، إلا أننى رأيت حشداً من الناس فى الساحة الواقعة أمام دار المستشارية، وعندما نزلت من السيارة ومشيت بين هؤلاء الناس، هتف لى الجميع، باستثناء رجل عجوز واحد، هز رأسه هزة تنطوى على عدم الموافقة، وكانت كراهيتى لهم قد زالت باستسلام ألمانيا، وقد تأثرت تأثراً بالغاً بمرآهم، وبما يبدو على وجوههم من إنهاك وتعب، وعلى أجسامهم من ملابس رثة مهلهلة، ودخلنا دار المستشارية، وقضينا وقتاً طويلاً نجوب أبهاءها وقاعاتها المحطمة، كما رأينا الملجأ الذى أعده هتلر لنفسه للاحتماء فيه من الغارات الجوية، كما رأينا الغرفة التى انتحر فيها هو وزوجته.

وكان المسلك الذى اتبعه هتلر، أكثر ملاءمة لنا منْ المسلك الذى كنت أخشى أن يتبعه، فقد كان فى وسعه فى أى وقت من الأشهر الأخيرة من الحرب أن يطير إلى إنكلترا وأن يسلم نفسه قائلاً: «افعلوا بى ما تشاءون، ولكن أتركوا شعبى الذى لم يكن له حول أو طول»، ولا ريب عندى فى أنه فى

مثل هذه الحالة كان سيشترك مع مجرمى نورمبرغ فى مصيرهم، لأن المبادئ الخلقية للحضارة الحديثة تقضى بأن يعدم المنتصرون قادة الدول المنهارة فى الحرب، ولا ريب فى أن مثل هذه المبادئ ستدفع القادة فى أى حرب مقبلة إلى المضى فى القتال إلى النهاية، فمهما ضحوا بأرواح جديدة فإن مصيرهم واحد، وفى مثل هذه الحالة فإن جماهير الشعب التى لا شأن لها فى شن الحروب أو إنهائها هى التى تدفع الثمن الإضافى.

أما الرومان فقد كانوا يتبعون سبيلاً مغايراً، ولا شك فى أن الفضل فى انتصاراتهم يعود إلى ما تميزوا به من رأفة بقدر ما تميزوا به من قوة.

وفى السابع عشر من تموز، وصلت أنباء هزت العالم بأسره، فقد قام ستمسون بعد ظهر ذلك اليوم بزيارة مسكنى، وبسط أمامى ورقة كتب عليها «ولد الطفل بصورة مرضية» وتبينت من حديثه أن شيئاً بارزاً قد وقع، واستمر يقول «إن هذه الجملة تعنى أن التجربة التى أجريت فى صحراء المكسيك قد نجحت، وأن القنبلة الذرية أصبحت أمراً واقعاً»، وعلى الرغم من أننا كنا نتابع هذا البحث مما يصل إلينا من أنباء متفرقة، إلا أننى لم أعرف من قبل على الأقل بموعد التجربة الحاسمة، كما أنه لم يكن فى وسع أى عالم مسؤول أن يتكهن بما قد يقع عندما تجرى تجربة أول تفجير ذرى، هل هى عديمة الجدوى أو أنها مبيدة وقاتلة؟

ولقد عرفنا الآن أنه قد تمت «ولادة الأطفال» بشكل مرض، لكن ليس فى وسع أى إنسان حتى الآن تقدير النتائج العسكرية الفورية لهذا الاكتشاف، كما لم يقم أى إنسان حتى الآن بتقدير أى شىء عنها.

ووصلت فى الصباح التالى، طائرة تحمل وصفاً كاملاً لهذا الحدث العظيم، فى التاريخ البشرى، وجاء ستمسون بالتقرير إلى، وأننى أشرح الآن القصة كما أتذكرها.

فقد فجرت القنبلة أو ما يعادلها على قمة «بيلون» ـ عمارة فرعونية ارتفاعها مائة قدم ـ وقد أخليت منطقة دائرية نصف قطرها عشرة أميال من كل إنسان، ووقف العلماء ومساعدوهم وراء دروع ضخمة من الأسمنت المسلح، وملاجئ تبعد نحواً من المسافة، وكان الانفجار مروعاً، فقد ارتفع عمود هائل من اللهب والدخان إلى مقربة من حدود المنطقة الجوية التى تحيط بأرضنا المسكينة، وكان التخريب داخل دائرة قطرها ميل واحد كامل، وهكذا بدت النهاية السريعة للحرب الكونية ولأشياء أخرى أيضاً.

وقد دعانى الرئيس للتشاور معه بعد ذلك، وكان معه الجنرال مارشال والأميرال ليهى، وكنا قد وضعنا خططنا بالنسبة لليابان، على أساس مهاجمة جزرها الأصلية بقصف جوى مرعب، وبغزو تقوم به جيوش هائلة، وكنا نتوقع مقاومة شديدة من اليابانيين الذين يقاتلون حتى الموت، بتكريس رجال الساموراى، لا فى المعارك الحربية الضخمة فحسب، بل فى كل كهف وحفرة أيضاً، وتصورت منظر جزيرة أوكيناوا، حيث آثر عدة ألوف من اليابانيين بدلاً من الاستسلام، أن يقفوا فى صف واحد، وأن يقضوا على أنفسهم بالقنابل اليدوية بعد أن كان قادتهم قد أتموا طقوس الانتحار المعروفة بالهاراكيرى.

ويعنى القضاء على المقاومة اليابانية رجلاً رجلاً واحتلال بلادهم شبراً شبراً، ضياع مليون أميركى ونصف هذا العدد من البريطانيين أو أكثر منه، هذا إذا تمكنا من إيصال هذه القوات إلى بلادهم، أما الآن فقد اختفى هذا الكابوس المرعب، وطلعت أمامنا صورة بدت لنا جميلة ومشرقة، وهى أن تنتهى الحرب كلها بهزة أو بهزتين عنيفتين، وفكرت لتوى، كيف يمكن لهذا الشعب اليابانى الذى كنت دائم الإعجاب بشجاعته، أن يرى فى هذا الطيف من السلاح الغيبى أو فوق الطبيعى، ذريعة تحفظ له شرفه وتحرره من التزاماته بالموت حتى آخر رجل محارب.

وكان هناك شىء أهم، وهو أننا لن نحتاج إلى الروس، إذ إن نهاية

الحرب مع اليابان لم تعد تعتمد على تدفق جيوشهم، لتوجيه الضربة الأخيرة والحاسمة، ولم نعد فى حاجة إلى أن نطلب منهم منة أو فضلاً، وأصبح فى وسعنا أن نواجه مشكلات أوروبا على حقيقتها، ووفقاً لمبادئ الأمم المتحدة الواسعة، وبدا أننا أصبحنا فجأة واقعين تحت سيطرة رغبة رحيمة فى اختصار المذبح فى الشرق، وأمل أكثر إشراقاً وسعادة فى أوروبا، وعلى أى حال، لم يكن هناك ما نضيعه فى النقاش، فى هل تستعمل القنبلة الذرية أو لا تستعمل؟ واتضح لنا أن تجنب مذبحة هائلة لا حدود لها، وأن الوصول بالحرب إلى نهاية، وبالعالم إلى السلام، وأن مد يد الرحمة إلى شعوبه المعذبة عن طريق غرض لقوة طاغية، لا تكلف إلا بعض انفجارات، كلها أمور جاءت بعد هذه الأخطار والمتاعب، كمعجزة من معجزات الإنقاذ.

وكانت موافقة بريطانيا المبدئية على استعمال هذا السلاح، قد صدرت فى الرابع من شهر تموز أى قبل إجراء التجربة، أما القرار النهائى فقد أصبح الآن بين يدى الرئيس ترومان، الذى يملك السلاح ولم يداخلنى الشك قط فيما سيكون عليه هذا القرار، وفى أنه كان على حق فى اتخاذه، لكن الحقيقة التاريخية تظل قائمة، ويجب الحكم على ضوئها فى مستقبل الأيام، وهى أن القرار الذى اتخذ باستخدام القنبلة الذرية لإرغام اليابان على الاستسلام، لم يكن فى يوم ما مصدر خلاف، حيث كان هناك اتفاق إجماعى وأوتوماتيكى ودون حاجة إلى سؤال أو نقاش حول المائدة التى كنا نجلس عليها. ولم أسمع أى اعتراض من أية جهة، على أن الواجب يحتم علينا عدم استعمالها.

وكان السؤال الدقيق المعقد، هو ماذا سنقول لستالين؟ بعد أن أصبحنا فى غير حاجة إلى مساعداته فى إخضاع اليابان، وكان ستالين قد تعهد فى مؤتمرى طهران ويالته، بأن تهاجم روسيا السوفييتية اليابان فور هزيمة الجيش الألمانى، وتحقيقاً لهذا الوعد، بدأ من أوائل آيار، حركة نقل واسعة ومستمرة للقوات السوفييتية إلى الشرق الأقصى على سكة حديد سيبيريا،

ورأينا الآن أنا لسنا فى حاجة إلى هذه القوات، وبذلك يكون ستالين قد فقد قوة المساومة، التى كان قد استخدمها بنجاح مع الأميركيين فى يالته، إلا أنه كان على كل حال حليفاً عظيماً فى الحرب ضد هتلر، وقد شعرنا فى هذه اللحظة أن من الواجب إبلاغه (الحقيقة الجديدة العظيمة) التى أصبحت تسيطر على الموقف دون أن نعطى له التفاصيل، ولكن كيف ننقل إليه هذا النبأ؟ أيكون النقل كتابة أم شفوياً؟ وهل سيكون الإبلاغ فى جلسة رسمية أو خاصة أو فى أثناء اجتماعاتنا اليومية أو بعدها؟ وقد اختار الرئيس أخيراً الوسيلة، فقال، أعتقد أن من الخير أن أبلغه النبأ بعد اجتماعاتنا، وأن أقول له إننا توصلنا إلى اختراع طراز جديد من القنابل يختلف عن النوع المألوف، وسيكون ذا أثر حاسم فى عدم استمرار اليابانيين فى الحرب، وقد وافقت الرئيس على هذا الإجراء.

كما استمرت فى هذه الأثناء الهجمات المدمرة على اليابان من الجو والبحر، ولم تحل نهاية شهر تموز، حتى كان الأسطول اليابانى قد اختفى من الوجود تقريباً، كما سيطرت الفوضى على الوطن، وأخذ الديبلوماسيون المحترفون يميلون إلى الاقتناع بأن الطريقة الوحيدة لإنقاذ اليابان من التفكك الكلى، هى أن يصدر الإمبراطور أمره فوراً بالاستسلام، ولكن السلطة كانت لا تزال فى أيدى زمرة من العسكريين الذين صمموا على أن يقودوا البلاد كلها إلى الانتحار الجماعى، بدلاً من قبول الهزيمة، ولم يرهب الدمار الرهيب الذى يواجههم، هذه الزمرة الحاكمة المتعصبة، التى ما فتئت تؤمن بمعجزة من نوع ما، تقلب الوضع إلى صالحهم.

هذا، وقد بحثت مع الرئيس فى محادثات طويلة عدة على انفراد أو مع بعض مستشاريه، ما يجب أن نفعله، وأشرت إلى الثمن الباهظ فى أرواح الأميركيين وفى أرواح البريطانيين أيضاً، إذا ما فرضنا على اليابان «الاستسلام بلا قيد ولا شرط» وتركت للرئيس أن يقرر، ما يضمن لنا

الحصول على كل ما نراه ضرورياً للسلام والأمن فى المستقبل، ويترك لليابانيين فى الوقت نفسه بعض المظاهر للحفاظ على كرامتهم العسكرية، مع التأكيد لهم بوجودهم القومى إذا ما قاموا بتنفيذ جميع الضمانات التى يطلبها المنتصرون، وقد رد الرئيس على باشمئزاز قائلاً: ـ إنه لا يعتقد فى وجود أى شرف عسكرى لليابانيين بعد هجوم بيرل هاربور.

وقد تقرر أخيراً أن نوجه إنذاراً نهائيّاً إلى اليابان، نطلب فيه استسلام قواتها العسكرية بلا قيد ولا شرط فوراً، ونشرنا هذه الوثيقة فى السادس والعشرين من تموز، لما رفض حكام اليابان العسكريون هذا الإنذار، أعد سلاح الجو الأميركى خططه تبعاً لذلك لإلقاء قنبلة ذرية على هيروشيما، وأخرى على ناجازاكى، واتفقنا على أن نعطى للأهلين كل فرصة ممكنة، وتم وضع الإجراء بالتفصيل وللتقليل إلى أكبر حد ممكن من الخسائر فى الأرواح، قامت الطائرات الأميركية فى السابع والعشرين من شهر تموز، بإلقاء نشرات على إحدى عشرة مدينة يابانية، تحذرها فيها أنها سوف تتعرض لقصف جوى هائل، وهوجمت ست من هذه المدن فى اليوم التالى، كما حذرت الطائرات اثنتى عشرة مدينة أخرى فى اليوم الحادى والثلاثين من تموز. وقصفت أربعاً منها فى اليوم الأول من آب، ووجه الإنذار الأخير فى الخامس من شهر آب.

وفى اليوم السادس من آب ألقيت القنبلة الذرية الأولى على هيروشيما، كما ألقيت فى اليوم التاسع من آب القنبلة الذرية الثانية على مدينة ناغازاكى، وفى اليوم التالى وافقت الحكومة اليابانية ـ على الرغم من فتنة قام بها بعض العسكريين المتطرفين ـ على قبول الإنذار، على شرط ألا يؤثر ذلك على سلطات الإمبراطور كحاكم مطلق، فدخلت أساطيل الحلفاء خليج طوكيو، وتم فى اليوم الثانى من أيلول توقيع وثيقة الاستسلام الرسمية على ظهر البارجة الأميركية «ميسورى» وكانت روسيا قد أعلنت الحرب على

اليابان فى الثامن من شهر آب، أى قبل أسبوع واحد من انهيارها، ومع ذلك طالبت بجميع حقوق الدولة المحاربة.

ومن الخطأ الافتراض بأن القنبلة الذرية، هى التى قررت مصير اليابان، فقد كان المصير المحتوم بالهزيمة ينتظرها، قبل إلقائها، وقد فرضت هذا المصير قوة الحلفاء البحرية المتفوقة التى مكنت الحلفاء فى الوقت نفسه من احتلال القواعد البحرية فى المحيط، لتشن منها الهجوم النهائى، ولترغم الجيش اليابانى فى الوطن على الاستسلام، دون أن توجه إليه أية ضربة، فقد تحطمت بحرية اليابان، حيث دخلت الحرب وهى تملك أسطولاً من البواخر تزيد حمولته على خمسة ملايين ونصف مليون من الأطنان، ثم زاد هذا الرقم من البواخر التى استولت عليها أو بنتها، ولكن نظام القوافل والحراسة الذى وضعته كان غير كاف وكان مفتقراً إلى التنظيم، وقد تم إغراق بواخر يابانية تزيد حمولتها على ثمانية ملايين ونصف مليون من الأطنان، ذهب منها نحو خمسة ملايين ضحية للغواصات.

ولما كانت خيبة الأمل، هى الطابع الذى تميز به مؤتمرنا الثلاثى الأخير، فلن أحاول أن أشرح جميع القضايا التى أثيرت فى مختلف الجلسات، وأن كانت لم تسو ولم تحل، وسأكتفى بالحديث عما أعرفه بخصوص القنبلة الذرية، وبتخطيط قضية الحدود الألمانية ـ البولندية، لأن هذه الأحداث لازالت تعيش معنا حتى الآن.

فقد تم الاتفاق بيننا فى مؤتمر يالته، على أن تتقدم روسيا بحدودها الغربية مع بولندا إلى خط كرزون، كما كنا قد اعترفنا دائماً لبولندا فى حقها بدورها فى الحصول على تعويضات مناسبة من الأرض الألمانية، وكان السؤال هو إلى أى مدى؟ وإلى أية مسافة فى ألمانيا يجب أن تمضى بولندا فى توسيع حدودها؟ فقد اختلفنا حول تلك أكبر اختلاف، وكان ستالين قد أراد توسيع حدود بولندا الغربية على طول نهر الأودر حتى نقطة التقائه بنهر

النيبيسى الغربى، وكان رؤساء الحكومات الثلاث، قد تعهدوا علناً فى يالته، باستشارة الحكومة البولندية، وبترك الموضوع للتقرير النهائى فى مؤتمر الصلح، وكان هذا خير ما استطعنا عمله، ولكننا واجهنا فى تموز عام ١٩٤٥ وضعاً جديداً، فقد وسعت روسيا حدودها إلى خط كرزون، وكان هذا يعنى كما أدركت أنا وروزفلت، أن الملايين الثلاثة أو الأربعة من البولنديين الذين يعيشون على الجانب الثانى من الخط، يجب أن ينزحوا إلى الغرب، وواجهنا الآن أمراً أسوأ من هذا، فقد وسعت حكومة بولندا التى يسيطر عليها السوفييت حدودها لا إلى النيبيسى الشرقى بل إلى الغربى أيضاً، ويسكن الألمان معظم هذه المنطقة، وعلى الرغم من أن عدة ملايين قد فروا غرباً، إلا أن عدداً كبيراً قد ظل فى مكانه، فماذا سنصنع بهؤلاء؟ كما أن نقل أربعة ملايين بولندى أمر سيئ فى حد ذاته، فهل يتحتم علينا أن ننقل ثمانية ملايين ألمانى أو أكثر أيضاً؟ وحتى لو أمكننا تحقيق ذلك، فليس هناك ما يكفيهم من الطعام فى الأقسام المتبقية من ألمانيا، لأن معظم القمح الذى نتجه ألمانيا فى الأراضى التى أخذها البولنديون، وإذا حرمنا هذا القمح، فإننا معشر الحلفاء الغربيين سنظل مسيطرين على مناطق صناعية خربة، وشعب متضخم جائع، وهنا يكمن خطر بالنسبة لسلام أوروبا فى المستقبل أكبر من الخطأ الذى تمثله الالزاس واللورين، أو ممر دانزيغ، وسيأتى يوم يطالب فيه الألمان باسترداد أراضيهم، ولن يكون فى وسع البولنديين أن يحولوا بينهم وبين استعادتها.

والآن يجب علىَّ أن أتحدث عن الاتصالات الشخصية والاجتماعية التى خففت شيئاً من حدة مناقشاتنا الجدية، وكان على كل وفد من الوفود الكبيرة أن يقيم الولائم للوفدين الآخرين، وقد وقع الدور على الولايات المتحدة أولاً، وعندما جاء دورى، اقترحت أن نشرب نخب «زعيم المعارضة المقبل أياً كان الزعيم» وقد سر المستر أتلى الذى كنت قد دعوته إلى المؤتمر، تطبيقاً

لنظريتى فى أن من واجب رئيس كل حكومة فى أوقات الأزمات أن يعد نائباً له يعرف كل شىء، ويستطيع أن يحافظ على الاستمرار فى حالة وقوع أحداث، كما كان العشاء السوفييتى رائعاً أيضاً، واشتمل على حفلة موسيقية عزف فيها كبار الفنانين الروس، وقد استمرت الحفلة إلى ساعة متأخرة من الليل، حتى أننى اضطررت إلى التسلل والذهاب.

وعندما انتهى اجتماعنا الرسمى فى اليوم التالى، أى فى الرابع والعشرين من تموز، ونهضنا جميعاً، رأيت الرئيس يتجه إلى ستالين فيقف بجانبه، ويأخذ الرجلان فى حديث وليس معهما إلا المترجمان، وكنت واقفاً على بعد خمسة ياردات تقريباً، حيث كنت أرقب باهتمام بالغ الحديث الخطير التاريخى، لأنى كنت أعرف ما اعتزم الرئيس أن يقوله، وكان يهمنى أن أعرف مدى تأثير قوله على ستالين، وأنى لأرى الصورة أمامى الآن وكأنها وقعت بالأمس، لقد بدا عليه السرور، وقال قنبلة جديدة! لها قوة خارقة! قد تكون حاسمة فى تقرير الحرب كلها مع اليابان! يا له من حظ سعيد! كانت هذه الانطباعات التى حملتها تلك الساعة، وكنت على ثقة من أنه لم يقدر تماماً أهمية ما قيل له، وبدا لى أن القنبلة الذرية لم تلعب دوراً فى متاعبه وجهوده، ولو كانت لديه أية فكرة ولو ضئيلة، عن الثورة التى تحدث الآن فى الشؤون العالمية بسبب هذا الاختراع لكان رد فعله مغايراً تماماً، ولم يكن أسهل عليه من أن يقول «شكراً لك على إبلاغك أياى نبأ قنبلتك الجديدة وبالطبع أنا أعرف شيئاً عن الحقائق المتعلقة بها، فهل تسمح لى بأن أبعث بخبرائى فى العلوم النووية لمقابلة خبرائك فى صباح غد؟»، ولكن وجهه ظل مرحاً وطبيعياً، ولما انتهى الحديث بين الزعيمين، استفهمت من الرئيس، عن كيفية سير الأمور؟ فرد على بقوله إن ستالين لم يوجه إليه أى سؤال.

وعاد المؤتمر للاجتماع فى اليوم الخامس والعشرين من تموز، وكان هذا آخر اجتماع حضرته، وقد أثرت من جديد موضوع بولندا، وقلت إن حدودها

الغربية لا يمكن أن تقرر دون أن نأخذ بعين الاعتبار مشكلة المليون وربع المليون من الألمانيين الذين يعيشون فى المنطقة، وهنا أكد الرئيس بأن أية معاهدة للصلح لا يمكن أن تبرم دون موافقة مجلس الشيوخ الأميركى ومشورته، وعلينا إذن أن نجد حلاً، يستطيع أن يوصى به معتذراً للشعب الأميركى، فقلت إننا إذا سمحنا لبولندا بأن تكون دولة الاحتلال الخامسة فى ألمانيا دون أن نتخذ الترتيبات لتوزيع المواد الغذائية، التى تنتج فى ألمانيا بصورة عادلة على الشعب الألمانى كله، ودون أن نتفق على التعويضات وغنائم الحرب، فإن مؤتمرنا يكون فاشلاً، لأن جذور المشكلات لا تزال قائمة أمامنا، ولم نصل حتى الآن إلى اتفاق بشأنها. فقال ستالين: إن الحصول على الفحم والمعادن من الروهر أهم بكثير من المواد الغذائية. وقلت: إن هذه المعادن يجب أن تتم مقايضتها بالمؤن من المنطقة الشرقية، وإلا فإن المعدنين لن يستطيعوا استخراج الفحم والمعادن. وكان رد ستالين: إنهم قد ألغوا فى الماضى استيراد المواد الغذائية من الخارج وفى وسعهم أن يواصلوا استيرادها. فسألته، إذن كيف يمكن لهم أن يدفعوا التعويضات؟ فرد قائلاً، «ما زال هناك شحم كثير على جسم ألمانيا» ورفضت أن أقبل فكرة المجاعة فى الروهر لأن البولنديين يريدون الاحتفاظ بجميع المناطق التى تنتج القمح فى الشرق. وقلت إن بريطانيا نفسها تفتقر إلى الفحم. فقال ستالين: «إذن فليشتغل الأسرى الألمان فى مناجمكم، إن هذا ما أفعله أنا الآن» وأضاف قائلاً: وما زال هناك أربعون ألف ألمانى فى النرويج وفى وسعك أن تأخذهم من هناك. وقلت: إننا نصدر الفحم الذى نحتاج إليه إلى فرنسا وهولندا وبلجيكا، فلماذا يبيع البولنديون الفحم إلى السويد فى حين تحرم بريطانيا نفسها الشىء الذى تحتاج إليه لمساعدة البلاد المتحررة؟ فرد ستالين قائلاً: «ولكنها تبيع الفحم الروسى وما زال موقفنا أصعب من موقفكم، فقد خسرنا أكثر من خمسة ملايين رجل فى الحرب، ونحن فى أشد الحاجة إلى الأيدى العاملة، وعدت إلى نقطتى أثيرها من جديد، سنرسل الفحم من الروهر إلى بولندا أو إلى أى مكان آخر، بشرط أن نحصل بدلاً منه

على المواد الغذائية لعمال المناجم الذين ينتجون الفحم».

وهنا توقف ستالين لحظة ليفكر، وقال: إن القضية كلها تحتاج إلى المزيد من الدرس، فوافقته على ذلك، وقلت إننى لا أريد إلا الإشارة إلى المتاعب التى نواجهها، وهذا بالنسبة إلىَّ هو كل ما يهمنى.

وبما أنه لا يمكننى أن أتحمل مسؤولية تتجاوز النتائج التى توصلنا إليها فى مؤتمر بوتسدام، فقد أثرت فى المؤتمر جميع النقاط التى لم نتفق عليها وتركتها معلقة، وهكذا فقد تكدست مجموعة ضخمة من القضايا التى لم نصل إلى اتفاق بصددها، وكنت أعتزم إذا ظهرت نتائج الانتخابات فى بلادنا فى صالحنا، وعدت إلى الحكم، كما كان متوقعاً، أن أشتبك مع السوفييت فى حطام مكشوف لتقرير هذه القضايا، فما كنت لأقبل قط، وما كان للمستر ايدن أن يقبل أيضاً، أن يكون نهر النييسى الغربى حداً لبولندا، وكنا قد قبلنا بخط الأودر والنييسى الشرقى كتعويض على بولندا مقابل انسحابها إلى خط كرزون، ولكن ما كان لأية حكومة أرأسها، أن تقبل اجتياح الجيوش الروسية لجميع المناطق الممتدة حتى النييسى الغربى وإلى ما وراءه أيضاً، ولم تكن القضية تتعلق بالمبدأ فحسب، وإنما كانت تتناول حقيقة هائلة، تؤثر على نحو ثلاثة ملايين آخرين من المشردين الذين سيجلون عن بيوتهم.

وكانت هناك قضايا أخرى، وكان لزاماً علينا أن نصمد بسببها أمام الروس وأمام البولنديين الذين بدوا وكأنهم بعد أن ابتلعوا هذه القطع الكبيرة من الأرض الألمانية قد أصبحوا أشد أنصار السوفييت، ولكن نتائج الانتخابات العامة، قد أدت إلى تجزئة المفاوضات كلها، وإلى وصولها إلى نتائج سابقة لأوانها، وأنا لا أقول هذا لأنحى باللائمة على وزراء الحكومة الاشتراكية التى خلفتنا، والذين أُقحموا فى المفاوضات دون دراسة جدية سابقة، كما لم يكونوا على إطلاع على آرائى وخططى، بحيث يشتبكون فى نزاع فى نهاية الأمر، ويحكمون عليه بالفشل إذا اقتضى الأمر، بدلاً من

السماح بتجاوز نهرى الأودر والنييسى الشرقى، وإعطاء الأراضى الواقعة وراءهما إلى بولندا، وكان فى الإمكان إصلاح الوضع حتى فى مؤتمر بوتسدام.

ولكن تحطيم الحكومة القومية البريطانية واختفائى عن المسرح فى ذلك الوقت الذى كنت لا أزال أتمتع فيه بنفوذ عظيم وقوة كبيرة، قد جعلا من المستحيل الوصول إلى حلول مرضية.

ولو كانت الظروف عادية، لشعرت بالحرية فى أن أقضى بضعة أيام فى استمال القضايا الرسمية بالطريقة المألوفة، وكان فى وسعى من الناحية الدستورية، أن أنتظر انعقاد البرلمان بعد بضعة أيام، وأن أودع المجلس الجديد، وكان فى وسعى عن طريق مثل هذا الترتيب أن أتقدم إلى المجلس وإلى الشعب قبل الاستقالة حاملاً خبر استسلام اليابان، ولكن الحاجة إلى تمثيل بريطانيا فوراً تمثيلاً قوياً يستند إلى صلاحيات صحيحة فى المؤتمر الذى غادرناه، والذى كانت القضايا الكبرى التى بحثناها فيه ما زالت معلقة أمامه، جعلت كل تأجيل فى الاستقالة، يتنافى مع المصلحة العامة، وقد كان حكم الناخبين من الناحية الأخرى مبرمًا ومبعرًا بشكل طاغ، مما جعلتى غير راغب فى البقاء ساعة أخرى مسؤولاً عن تصريف شؤونهم، فطلبت التشرف بالمقابلة الملكية، وتوجهت فى الساعة السابعة إلى القصر، حيث رفعت استقالتى إلى الملك، وأشرت على جلالته بأن يعهد بالحكم إلى المستر آتلى، ووجهت إلى الأمة الرسالة التالية التى أرى أن أختم بها هذا الكتاب:

«لقد سجل الشعب البريطانى قراره فى الأحداث التى جمعها اليوم، ولهذا فقد أزاح عن عاتقى المسؤولية التى اضطلعت بها فى أوقات أكثر حلوكة وظلاماً، ويؤسفنى، أننى لم يسمح لى، بإكمال العمل ضد اليابان، ولكن جميع الخطط والإعدادات لإكمال هذا العمل قد تمت، وستظهر النتائج فى وقت أقرب بكثير مما كان فى استطاعتنا أن نتصوره أو نتخيله، وستقع على عاتق الحكومة الجديدة مسؤوليات ضخمة فى الخارج والداخل، ولنتوجه كلنا

بالدعاء لها بأن توفق فى تحمل هذه المسؤوليات.

ليس أمامى الآن إلا أن أعرب للشعب البريطانى، الذى عملت من أجله، طيلة تلك السنوات الخطيرة، عن عميق شكرى، للتأييد الكامل، الذى لم تشبه أية شائبة من التردد، والذى أولانى إياه فى أثناء قيامى بالواجب، كما أعرب عن صادق عرفانى لمظاهر العطف التى غمر بها الشعب خادمه المطيع».



الخاتمة

تموز ١٩٤٥ ـ شباط ١٩٥٧

أتاحت لى هذه الطبعة الجديدة من المذكرات التى وضعتها عن الحرب الماضية الفرصة اليوم لأستعرض الأحداث الضخمة التى وقعت فى الاثنى عشر عاماً الأخيرة التى تلت انتهاء الحرب، ولأعرب عن آرائى تجاهها.

فعندما غادرت بوتسدام فى الخامس والعشرين من شهر تموز عام ١٩٥٤، كنت أتوقع الفوز فى الانتخابات بأغلبية معقولة، وكان من المذهل أن تصدمنى الحقائق المرة القاسية، ولما كانت إدارة دفة الحرب ومعالجة الأوضاع عند نهايتها الظافرة، قد ألهتنى عن فهم حقيقة ما وقع فى الجزر البريطانية، ولو أننى فهمتها حين ذاك، لكان فى إمكانى أن أرتب الأمور بشكل مغاير تماماً، فلقد جاء رأى أغلبية الجنود، بعد ما أظهروه لى فى أثناء تلك الفترة من علائم الحب والنوايا الطيبة، مفاجئاً لى تمام المفاجأة، كما كانت نتائج الانتخابات وأرقامها مفاجأة أكبر لأوروبا وأميركا وروسيا، لأن الجميع كانوا لا يتوقعون بعد ما رأوا من ثبات الشعوب البريطانية ما مكنها من التغلب على جميع المحن التى مرت بها فى عام ١٩٤٠، والذى جعل من السهل عليها أن تجتاز سنوات النضال الخمس منتصرة ظافرة، ألا تتبدل الحكومة.

كما لم أحاول فى أثناء مؤتمر بوتسدام حتى اللحظة الأخيرة أن أشتبك مع روسيا فى خصام، بسبب سلوكها الذى يبعث على الدهشة والذهول منذ أيام مؤتمر يالته، وكان أملى كبير فى ألا تنسحب الجيوش الأميركية من المناطق الواسعة التى احتلوها فى أوروبا الوسطى. فلقد كانت هذه هى الورقة الرابحة الوحيدة التى يحملها الحلفاء فى أيديهم عندما توقف القتال،

للوصول عن طريقها إلى تسوية مرضية، ولم تكن بريطانيا تطلب شيئاً لنفسها، ولكنى كنت واثقاً من أنها كانت ترى فى هذا التقدم الذى تقوم به روسيا فى جميع الاتجاهات، شيئاً يفوق كل ما هو عدل، وظهر أن الأميركيين لم يكونوا مدركين لخطورة الوضع، أما الدول التابعة، كما أصبحت تدعى، فتحتلها الجيوش الروسية، كما كانت برلين فى أيديهم، مع أنه كان فى وسع مونتغمرى أن يحتلها لو سمح له بذلك، وكان الروس يسيطرون على فيينا، ولم يكن يسنح لممثلى الحلفاء، حتى كأفراد بالوصول إلى العاصمة المهمة، أما بالنسبة للبلقان، فقد أصبحت رومانيا وبلغاريا محتلتين، كما كانت يوغوسلافيا تهتز تحت نيتو زعيمها الوطنى المشهور، وكان الروس قد احتلوا براغ بموافقة أميركا كما يبدو، وهم يسيطرون على بولندا التى اتفق على أن يمتد حدها الغربى إلى قلب أوروبا على حساب ألمانيا، ومع ذلك فقد اتضح أن وجهة النظر الأميركية كانت ترى أن هذه الأمور ضرورية للإبقاء على ألمانيا تحت السيطرة، كما كانت تهدف إلى عدم الوقوف فى صف بريطانيا ضد روسيا.

وكنت ولا أزال أحترم الشعب الروسى الباسل كل الاحترام، إلا أن ظل هذا الشعب أناخ بكلكله المدمر على مسرح ما بعد الحرب، ولم تكن هناك حدود مرئية للضرر الذى يمكن لهذا الظل أن يحدثه، ولما كانت بريطانيا وأميركا، بتصميمها الكلى على الانتصار على دول المحور، لم تضعا الشروط الكافية لتقرير مصير أوروبا المثلة ومستقبلها، فقد خضنا الحرب لا دفاعاً عن استقلال البلاد الصغيرة فحسب، بل لنعلن الحقوق للأفراد ولنضمنها أيضاً، كما نضمن الحريات التى تقوم عليها أسس الحياة الخلقية، ولما كانت لروسيا السوفييتية أهداف أخرى تهتم بها، فقد شددت قبضتها على الأراضى التى اجتاحتها جيوشها، وأقامت حكومات ائتلافية فى جميع الدول القابعة وراء الستار الحديدى يشترك فيها الشيوعيون، وكان الأمل يتركز فى

إمكان الاحتفاظ بالديموقراطية بأى شكل من الأشكال، ولكن الشيوعيين أخذوا يضعون أيديهم على المراكز المهمة فى بلدة بعد أخرى، ومن ثمَّ شرعوا فى اضطهاد الأحزاب السياسية الأخرى ومضايقتها، مطوحين بزعمائها إلى حياة النفى والتشريد، كما جرت محاكمات وأعمال تطهير، وفى الحال سيطرت الشيوعية على رومانيا والمجر وبلغاريا.

وقد كافحت كفاح الجبابرة دفاعاً عن بولندا فى مؤتمرى يالته وبوتسدام، وباء كفاحى بالفشل.

وقام الوزراء الشيوعيون بانقلاب مفاجئ فى تشيكوسلوفاكيا مما أثار يقظة الرأى العام العالمى، وتحطمت الحرية فى داخل البلاد، وحظر عليها التعامل بحرية مع الغرب.

كما يرجع الفضل إلى بريطانيا على الغالب، فى بقاء اليونان مستقلة بصورة غريبة بين هذه الدول، فقد خاضت بمساعدة بريطانيا وأميركا حرباً أهلية طويلة، ضد العصاة الشيوعيين، وبعد كل تلك الجهود والآلام الطويلة التى فرضتها الحرب الكونية الثانية تبين أن أكثر من نصف أوروبا لم يفعل أكثر من استبدال طغيان بآخر.

وتبدو هذه النقاط اليوم شيئاً عادياً مألوفاً، وقد أصبح الكفاح الطويل وغير الفاشل إلى حد ما، لوقف تيار الاجتياح الروسى أو الاجتياح الموحى به من الروس جزءاً من أعمالنا اليومية وحياتنا، وكان من الضرورى حقاً فى بعض الأحيان، كما هى الحالة بالنسبة إلى القضايا الصحيحة، تخفيف الحماس والتنكر للانتهازية، ولم يكن من السهل أبداً فى ذلك الوقت أن ينتقل الإنسان بأفكاره من انتصار عظيم منهك على طغيان واحد، إلى توقع حملة مضنية وباهظة التكاليف ضد طغيان آخر.

وكانت منظمة الأمم المتحدة لا تزال فى طفولتها، إلا أنه اتضح منذ

البداية، أن العيوب الموجودة فيها قد تقيم الدليل على أنها من الخطورة إلى الحد الذى يبطل الأهداف التى قامت من أجلها. على أى حال تبين أنها لا تستطيع أن تؤمن بسرعة وبصورة فعالة بتلك الوحدة، وتلك القوى المسلحة التى تحتاج إليها أوروبا الحرة والولايات المتحدة للمحافظة على كيانهما، وكنت قد اقترحت فى إحدى محاضراتى أن تكون الأمم المتحدة مجهزة بقوة دولية مسلحة، كما ألححت بالنسبة إلى المستقبل الراهن وإلى المستقبل البعيد المدى على استمرار العلاقة الإنكليزية ـ الأميركية الخاصة، التى كانت إحدى النظريات الأساسية التى كرست لها حياتى السياسية.

وقد قدر للسنوات الثلاث التالية، أن تشهد مشروعاً اقترب من تحقيق هذا الهدف وإن لم يصل إليه تماماً.

ولا أريد أن أحتكر الفضل فى جميع هذه الأمور، ولعل من مزايا المعارضة، أن الإنسان الذى يكون فى خارج الحكم، يستطيع أن يمضى بخياله إلى آفاق أوسع من تلك التى يمضى إليها أولئك الذين شاء لهم طالعهم أن ينقلوا المخططات إلى حيز التنفيذ، فقد تمكنت الحكومة البريطانية بوحى من ذلك الإنسان ذى القلب الكبير والحكمة البالغة المستر أرنست بيفن، أن تتولى زمام القيادة فى إعادة بناء جزء من المجتمع الأوروبى، أو ما تبقى من أوروبا على الأقل، وقد كانت الأفكار الأولى منبعثة من الأخطار الناجمة عن احتمال بعث ألمانيا، وقد وقعت بريطانيا وفرنسا فى عام ١٩٤٧ معاهدة دنكرك، التى التزمتا فيها أن تساعد الواحدة منهما الأخرى فى حالة تعرضها لهجوم ألمانى، إلا أن حقائق الحاضر غير المطمئنة، أخذت تكشف مخاوف الماضى.

وبعد مضى أشهر طويلة من النشاط الديبلوماسى، تم التوقيع على معاهدة بروكسل فى عام ١٩٤٨، وتعهدت كل من فرنسا وبريطانيا العظمى وهولندا وبلجيكا ولوكسمبرغ، بموجب هذه المعاهدة، بأن تساعد بعضها بعضاً فى حالة تعرض أى منهما لعدوان أياً كان مصدره، ولم يذكر اسم ألمانيا فى هذه المعاهدة.

وقد تم إنشاء منظمة عسكرية برياسة الماريشال مونتغمرى، لتقدير الموارد المدخرة للدفاع، ولوضع خطة تتناول هذه الموارد، وقد أسميت هذه المنظمة بالاتحاد الغربى، وقد أيدت هذه الإجراءات، وأعربت عن أملى بقوة، فى أن تحمل الولايات المتحدة على نوع من الارتباط معها، إذ بدون مساعدتها، تكون المنظمة ناقصة إلى حد مخيف.

وكنا سعداء فى أن يكون على رأس وزارة الخارجية الأميركية فى هذا الوقت الجنرال مارشال، البعيد النظر والكثير الإخلاص، الذى عملنا معه بروح الزمالة الوثيقة والثقة طوال سنوات الحرب، وقد حاول الجنرال والرئيس ترومان، ضمن الحدود التى يفرضها الكونغرس والرأى العام الأميركى، أن يضيفا وزناً وأهمية للجهود التى كانت تبذل حين ذاك فى أوروبا، وقد أثمرت الجهود المبذولة على جانبى الأطلنطى، وتم التوقيع فى شهر نيسان عام ١٩٤٩، على معاهدة شمال الأطلنطى، التى التزمت الولايات المتحدة بموجبها، لأول مرة فى تاريخها، مع مراعاة الحقوق الدستورية للكونغرس، بمساعدة حلفائها إذا ما هوجموا، وقد تضمنت الدول الأوروبية التى وقعت على المعاهدة بالإضافة إلى دول معاهدة بروكسل، كلاً من النرويج والدانمارك وأيسلندا وإيطاليا والبرتغال، كما وقعت كندا أيضاً على المعاهدة مقدمة دليلاً إضافياً جديداً على الثقة التى كنا نصفها - نحن فى بريطانيا - دائماً فى صداقتها وولائها.

وكان العمل الذى تلا ذلك معقداً كل التعقيد، وقد نجم عنه إقامة منظمة حلف الأطلنطى، التى ترأسها هيئة تخطيط عسكرية، يتولى قيادتها الجنرال أيزنهاور، الذى جعل مقر قيادته فى فرساى، ونشأ من الجهود التى بذلتها القيادة العليا لمنظمة حلف شمال الأطلنطى فى أوروبا ثقة هادئة ورصينة فى أن أى غزو قادم من الشرق، سيلقى مقاومة فعالة ومنتجة.

ومن الثابت أن حلف الأطلنطى قد حقق بوجوده فى البداية أكثر مما

حقق بعمله، فقد أعاد إلى أوروبا الثقة، ولا سيما البلاد الواقعة على مقربة من الاتحاد السوفييتى وتوابعه، وقد سبب هذا الأثر انحساراً لحق بقوة الأحزاب الشيوعية فى البلاد المهددة، وفى بعث ظهر فى النشاط القومى الصحيح فى ألمانيا الغربية.

وقد جاءت التجربة العصيبة فى شهر حزيران عام ١٩٤٨ عندما قطع الروس برلين عن العالم الخارجى، وكانت غايتهم إدخال برلين كلها فى الدولة الشيوعية التى أقاموها فى شرقى ألمانيا، وبدا أن على بريطانيا وفرنسا وأميركا إما أن تتخلى عن المدينة أو تبعث بقوافل التموين إليها من ألمانيا الغربية بطريق القوة، وهو حق مشرو لها، وقد عثر على حل لحسن الحظ، أمكن عن طريقه تجنب الكثير من الأخطار، فقد بدأ الجسر الجوى فى العمل، وحتى أوائل شباط عام ١٩٤٩، كان قد نقل أكثر من مليون طن من المؤن إلى برلين بوساطة الطائرات الأميركية والبريطانية طوال مدة الحصار وهى ثمانية شهور، وقد اضطر الروس إلى الإذعان فى الوقت المناسب، وتخلوا عن الحصار الذى فرضوه.

وكانت المساعدة الاقتصادية للحلفاء أمراً حيوياً، فنحن فى بريطانيا أنفقنا أموالاً ضخمة فى الحرب، بحيث إننا مهما اقتصدنا فسنظل نعانى ضائقة شديدة، وعلى الرغم من القرض الأميركى الضخم، فإن الوضع كان يتجه عندنا نحو الخطورة، كما كانت بقية أجزاء أوروبا تعانى الحالة نفسها على درجات متفاوتة، ولولا مشروع العون الاقتصادى الذى وضعه الجنرال مارشال والتعاون المتبادل مع ست عشرة دولة أوروبية أخرى، فإن أوروبا كانت ستنهار حتماً إلى حالة من الخراب والفقر، تنمو فيها جذور الشيوعية بسرعة هائلة.

وكان هناك رأى آخر لآمالنا المتعلقة بتوحيد أوروبا وتقويتها لمواجهة أى عدوان خارجى، أو هدم داخلى، فالأفكار التى استهللت بها خطابى فى فولتون، قد ترجمت إلى حد كبير إلى أفعال وحقائق عن طريق الجهود

الحكومية، وسلسلة المعاهدات والمنظمات الرسمية التى شرحتها بإيجاز، وكان من المهم جداً بالنسبة للمفاهيم البعيدة المدى، عن فكرة أوروبا المتحدة التى جعلناها مثلنا الأعلى النهائى، أن تجد لها ندوة تناقش فيها وتدرس، وكان يوجد عدد كبير من أبرز الساسة الأوروبيين وقادة الفكر يحملون الآراء نفسها، وقد شرعنا فى عام ١٩٤٧ فى «الحركة الأوروبية» التى تستهدف الدعوة إلى وحدة أوروبا، وبحث الوسائل التى تؤدى إلى تنفيذها عملياً، ولكن بصورة تدريجية، لأن من الخطأ فى المشروعات الضخمة، أن يحاول المرء تنفيذ كل شىء فوراً، كما أنه من الصعب فى قضايا من هذا الطراز أن يحاول المرء التخطيط وكأنه فى عملية عسكرية، وكانت مهمتنا إقامة اتحادات ووشائج أدبية وثقافية وأخلاقية واجتماعية فى جميع أنحاء العالم.

وقد قويت شوكة «الحركة الأوروبية» واشتد نشاطها، وأدت دوراً بارزاً فى التفكير الحكومى، وقد أشار الجنرال مارشال، إلى أن هذه الفكرة كانت من جملة الأسباب التى حملته على وضع مشروعه لمساعدة أوروبا اقتصادياً، وأثمرت المناقشات المتعددة التى جرت عن خلق المجلس الأوروبى فى عام ١٩٤٩، متخذاً مدينة ستراسبورغ مركزاً له، وتم فى هذه المدينة إنجاز الكثير من الأعمال النافعة مع اختلاف الخطوط وظلال الدعايات.

هذا وقد احتلت القنبلة الذرية، وطفلتها القنبلة الهيدروجينية، وهما آخر ما امتلكه الإنسان من الأسلحة المدمرة الشاملة للبشرية، المكانة المتألقة، فى جميع أفكارنا المتعلقة بشؤون الدفاع، وكانت بريطانيا والولايات المتحدة، قد اتفقتا فى مطلع الحرب الماضية، على تجميع معلوماتهما وتجاربهما فى البحث النووى، وقدمنا بلا ثمن، ثمار سنوات الاكتشافات والتجارب التى توصل إليها الرواد من علماء الطبيعة الإنكليزية فى هذا الميدان، كإسهام منا للمشروع السرى الضخم المشترك، الذى شرع فى تنفيذه فى الولايات المتحدة وكندا، وكان فى وسع هؤلاء الذين خلقوا هذه الأسلحة، أن يسيطروا على

العالم ويستعبدوه، كما كان يفعل غيرهم، من ذوى الأيدى المشكوك فى صدقها، ولكنهم أثبتوا جدارتهم بمسؤولياتهم، إلا أن الأسرار تسربت على أى حال إلى الاتحاد السوفييتى، فساعدت العلماء الروس إلى حد كبير فى أبحاثهم، وانعكست بعد ذلك جميع النظريات المقبولة عن الاستراتيجية العسكرية، وخلق نظام جديد لم نكن نحكم به من توازن القوى، يقوم على أساس حيازة وسائل الإبادة المتبادلة.

وقد شعرت فى نهاية الحرب العظمى بالرضا عن نفسى، لأنى توصلت مع الرئيس روزفلت فى كويبك فى عام ١٩٤٣ إلى أحسن اتفاق فى هذا الصدد، وقد نص على التأكيد بأن بريطانيا وأميركا لن تستخدما هذه الأسلحة ضد بعضهما البعض، كما أنهما لن تستخدماه ضد فريق ثالث إلا بعد الاتفاق المشترك بينهما، وألا تقوما بنقل أية معلومات تتعلق بالموضوع إلى فريق آخر إلا بعد موافقة مشتركة من الدولتين المتعاقدتين.

إلا أن الكونغرس الأميركى أصدر فى عام ١٩٤٦ قانوناً يحظر بموجبه نقل أية معلومات من الحكومة الأميركية إلى أية دولة أخرى، وكان الشيخ مكماهون الذى تبنى مشروع القانون لا يعرف شيئاً فى هذا الوقت عن اتفاق كويبك، وقد أبلغنى فى عام ١٩٥٢، أنه لو كان يعلم بوجود هذا الاتفاق لما صدر قانون مكماهون، وقد وجهت الحكومة البريطانية الاشتراكية (العمالية) احتجاجاً فى هذا الصدد، كما أنها لم تكشف عن اتفاقية كويبك والإفضاء بوجودها، إلى لجنة مكماهون على الأقل، ولو فعلت ذلك لبررت موقفنا، ولوفرت علينا سنوات طويلة من البحث المضنى والباهظ التكاليف ومن التطوير أيضاً، وهكذا حرمت بريطانيا حصتها فى المعلومات التى كان لها حق مؤكد فيها، وبذلك فإننا لم نتمكن من تفجير قنبلتنا الذرية إلا فى عام ١٩٥٢.

وهكذا فإن الأساس المضمون لآمالنا فى السلام يرتكز على هذه الناحية، أى على حيازة أميركا وتفوقها فى الأسلحة النووية، ولا تعتبر جيوش الدول

الغربية شيئاً مهماً، إذا ما قورنت بالعدد الذى لا يحصى من الفرق التى تستطيع روسيا نشرها من البلطيق إلى حدود يوغوسلافيا، ولكن المعرفة الأكيدة بأن الزحف الذى سيؤدى إلى إطلاق القوة الجوية المدمرة من عقالها، هى الكابح الزاجر.

وعندما كانت الولايات المتحدة هى المالكة الوحيدة والفعالة للأسلحة الذرية، كانت هناك فرصة للوصول إلى تسوية عامة ودائمة مع الاتحاد السوفييتى، ولكن ليس من طبيعة الدول الديموقراطية أن تستخدم ما تتمتع به من مزايا وتفوق فى التهديد وفى اتباع أساليب الديكتاتورية، ولا ريب فى أن الحالة الفكرية التى كانت مسيطرة حين ذاك، ما كانت لتسمح بأى نوع من خشونة القول مع حليفتها السابقة، مع أنه كان فى وسع هذه الخشونة لو استعملت، أن توقف الكثير من التطورات غير اللائقة التى وقعت، ولكن الولايات المتحدة آثرت بتأييدنا طبعاً أن تقف موقفاً أكثر تعقلاً بالنسبة لمشكلات الإشراف على استخدام الأسلحة النووية وجاءت معارضة لوسائل المراقبة الفعالة فأحبطت كل شىء.

وقد أدت هذه التطورات إلى تبديل كل ناحية من نواحى التخطيط العسكرى والسياسى، وأصبحت القواعد الضخمة اللازمة لتموين الجيوش فى الحربين الكبيرتين الماضيتين أكثر الأهداف تعرضاً للدمار، وفى وسع قذيفة واحدة، تلقى بها طائرة واحدة، أن تدمر جميع المشاغل والمخازن فى قاعدة قناة السويس، التى كانت المصدر الرئيسى لتموين الجيش الثامن فى الصحراء بالمعدات والذخائر، وفى وسع الموانئ مهما حمتها المدافع المضادة للطائرات والطائرات المحاربة، أن تصبح مقبرة الأساطيل التى كانت تتولى فى الماضى حمايتها، كما كان إجلاء المدنيين وغير المحاربين من المدن اقتراحاً معقولاً حتى فى أيام تطور الأساليب الجديدة فى القصف الجوى فى الحرب الأخيرة، أما اليوم، فعلى الرغم من الرغبة فى مثل هذا الإجلاء، فإن

وسائله لا تعدو أن تكون شيئاً مخففاً من أهوال كوارث الحرب النووية المدمرة المهلكة، كما قد تحتم تبديل جميع الترتيبات الدفاعية لمواجهة الوضع الجديد وما زالت الأسلحة التقليدية ضرورية للمحافظة على النظام فى ممتلكاتنا، ولخوض ما يسميه الناس بالحروب الصغيرة، ولكننا لا نستطيع إنتاج القدر الكافى منها، لأن إنتاج الأسلحة النووية ووسائل توجيهها والتصرف فيها، باهظة التكاليف للغاية بحيث تستنزف كل مخصصاتنا.

وظلت الآمال فى قيام اتصالات أكثر وداً مع روسيا، تسيطر على فكرى دائماً، وبدا لى أن الفرصة قد توافرت بوفاة ستالين الفجائية فى آذار عام ١٩٥٣، وكنت قد أصبحت رئيساً للوزارة ثانية، وقد اعتبرت موت ستالين نقطة فاصلة فى تاريخ روسيا، فقد سبب طغيانه الكثير من الآلام لبلاده، ولأماكن أخرى فى العالم، وكانت الشعوب الروسية فى نضالها ضد هتلر، قد بنت لنفسها الكثير من حسن النية فى الغرب، وفى الولايات المتحدة قبل غيرها من دوله، ولم يكن فى وسع أى إنسان أن يتكهن بالنسبة إلى سياسات الكرملين الغامضة بمن سيخلف ستالين، وعلينا ألا نقسو فى الحكم على قادة روسيا، فقد غزت أوروبا بلادهم ثلاث مرات فى نحو من قرن، وليس فى وسعهم أن ينسوا بسهولة، بورودينو وتانبرغ وستالينغراد، كما أنهم لا زالوا يذكرون المذابح التى قام بها نابليون فى بلادهم، ولا يمكنهم أن يغفروا لألمانيا القيصرية أو النازية فظائعها، ولكن السلامة لا تتحقق عن طريق العزلة، ولم يحاول ستالين أن يعزل الجمهوريات السوفييتية وحدها وراء ستار حديدى عسكرى وسياسى وثقافى، بل حاول - أيضاً - أن يقيم له خطاً عميقاً من المراكز الأمامية فى الدول لاحتياجات الاتحاد السوفييتى الاقتصادية، ومنع كل اتصال لها بالعالم الحر، وحتى ببعضها البعض، ولكن لا ريب أن جميع المفكرين يرون فى بعض المظاهر الموحية بالأمل، شيئاً من الجلاء فى الأوضاع الراهنة، فالعقيدة الشيوعية آخذة فى الانفصال تدريجياً عن الآلة العسكرية

الروسية، وستواصل الشعوب ثورتها على الإمبراطورية الاستعمارية السوفييتية لا لشيوعيتها، بل لأنها غريبة عنها، ولأنها طاغية ومستبدة، ولن يؤدى سباق التسلح حتى فى الأسلحة النووية والصواريخ الموجهة إلى إيجاد الطمأنينة أو صفاء الذهن للدول الكبرى التى تسيطر على المساحات الشاسعة من الأرض فى آسيا أو شمالى أميركا، أو إلى البلاد التى تقع بينها، وإننى لا أوجه نداء لنزع السلاح، فهذه نتيجة طبيعية ومظهر للتجاوب الحر بين الشعوب، إنه العقل الذى يسيطر على السلاح، وإننى أرى أن تتحدث الشعوب الحرة إلى عقول شعوب روسيا وشريكاتها.

وقد بدا لى أن جواً أهدأ قد يسيطر بعد وفاة ستالين، وبهذه الصورة عرضت بعض أفكارى على مجلس العموم فى الحادى عشر من آيار عام ١٩٥٣، واقترحت عقد مؤتمر غير رسمى بين رؤساء الدول الكبرى، فقد ينجح من حيث فشلت الاتصالات الحادة المتكررة، وأوضحت أن مثل هذا الاحتمال يجب ألا يصحب استرخاء فى علاقات الأمم الحرة واستعداداتها إذ إن أى إضعاف لجهودنا الدفاعية، سيشل أى اتجاه نافع للسلام، ولم يتحقق تماماً ما استهدفته وبحثت عنه.

ولا أقصد مطلقاً أن أنحى باللائمة على أية جهة من الجهات بالنسبة إلى الأمور المزعجة التى وقعت منذ عام ١٩٤٥، ولا ريب أن أولئك الذين كانوا مسؤولين عن الحكم فى بريطانيا فى السنوات التى تلت الحرب، قد اضطربوا أمام المشكلات المعقدة التى واجهوها فى الداخل والخارج، وكانت الأساليب التى اختاروا اتباعها لحل هذه المشكلات، مفروضة عليهم، إما من الظروف التى أوجدتها، أو من السياسات العقائدية المقررة سلفاً ولم تكن نتائجها دائماً نافعة لبريطانيا أو للعالم الحر.

وتجلت فى السنة التالية المحاولات الشيوعية المضايقة للغرب، واستغلال الشعور الوطنى فى آسيا، ومحاولة السيطرة على الأماكن المكشوفة فى شبه

جزيرة كوريا، ففى الهند الصينية على الرغم من أن الخصم الكبير للفرنسيين هوشى مينة، كان منزوياً فى موسكو، إلا أن العون المادى الذى تلقته العصابات لم يكن على نطاق كبير، كما أرغم عدد ضئيل نسبياً من الإرهابيين فى الملايو عن طريق قتل المزارعين البريطانيين والموالين من الصينيين والماليزيين أرغموا قوات بريطانية كبيرة على البقاء لإعادة فرض النظام.

وكنا أنا والرئيس روزفلت وتشاينج كاى شيك، قد سجلنا عام ١٩٤٣ تصميمنا على أن تكون كوريا مستقلة، وكانت قد تحررت فى نهاية الحرب من اليابانيين، واحتل الأميركيون الأقسام الجنوبية منها، بينما احتل الروس أقسامها الشمالية، وأقيمت دولتان كوريتان، وأخذت العلاقات بينهما تتأزم وتحتد، وغدتا أشبه ما تكونان بالدولتين الألمانيتين الشرقية والغربية، وأحبطت المعارضة السوفييتية كل محاولة قامت بها الأمم المتحدة لإعادة توحيد البلاد، وأخذ التوتر وحوادث الحدود يتجهان إلى الازدياد، وشرع الكوريون الشماليون فى الخامس والعشرين من شهر حزيران عام ١٩٥٠، فى غزو كوريا الجنوبية، وأخذوا يتقدمون بسرعة، فطلبت الأمم المتحدة من الغزاة أن يتوقفوا وينسحبوا، ولعب الحظ السعيد دوراً بارزاً فى وقف «الفيتو» السوفييتى عن منع تنفيذ قرار مجلس الأمن ونواياه، «إذ تغيب الاتحاد السوفييتى عن الجلسة لأنه قاطعها» ولكن أخطاء نظام الأمم المتحدة ظلت عرضة للاستغلال مرة بعد أخرى فى السنوات التالية، وهيأت الأمم المتحدة فى هذه المناسبة الإطار الذى قامت فيه الولايات المتحدة بالعمل الفعال، وأحاطت هذه الحقائق العارية بقرار تاريخى وخطير اتخذه الرئيس ترومان، إذ لم تمض فترة قصيرة جداً على انتشار أنباء الغزو، حتى كان الرئيس قد توصل إلى الاستنتاج بأن التدخل العسكرى الفورى للولايات المتحدة، هو السبيل الوحيد لإنقاذ الوضع، وكانت القوات الأميركية هى أقرب القوى من مسرح الاعتداء وأكثرها عدداً، ولكن هذا لم يكن كل شىء، فقد كتب فى مذكراته يقول:

«وتأكدت من أننا إذا سمحنا لكوريا الجنوبية فى السقوط، فإن سقوطها سيشجع الزعماء الشيوعيين على أن يطئوا بأقدامهم دولاً أخرى أقرب إلى شواطئنا، وإذا سمحنا لمثل هذا التطور بأن يقع دون تحد من جانبنا فإنه سيعنى الحرب العالمية الثالثة».

وكان سير الحرب شاقاً ومخيباً للآمال، وباهظ التكاليف فى الدماء التى سفكت، حتى تمكنت قوات الحلفاء من وقف الغزاة الشماليين، وأخذ تدخل القوات الجوية يؤتى ثماراً فعالة، ونفذ الجنرال ماك آرثر المهمة بحماس وجرأة، حيث استعادت قوات الحلفاء سيول فى اليوم الرابع عشر من آذار عام ١٩٥١، ووصلت بعد شهرين إلى خط العرض الثامن والثلاثين واجتازته، وفى هذه الأثناء تدفقت قوات المتطوعين الصينيين، كما بدأت النجدات تتدفق على نهر بالو، فى شكل جيوش كبيرة العدد وإن كانت فقيرة العتاد، ورأى القادة العسكريون الأميركيون أن من الصعب عليهم أن يقبلوا وجود هذا «الملجأ الممتاز»، وراء حدود منشوريا، وكانت هناك ـ أيضاً ـ قواعد الطائرات السوفييتية النفاثة التى كانت تتدخل بصورة مستمرة فى القتال، وعندما اشتد الضغط للسماح بمهاجمة الأراضى الصينية من الجو عارض الرئيس ترومان هذا الضغط بشدة لأن هذه الخطوة كانت متناهية فى الخطورة، وقال:

«إن الحمر يقومون بسبر أغوار الضغط فى أسلحتنا، وعلينا أن نواجه اندفاعهم بدورنا مع شعور متزايد من القلق، وقلت لمجلس العموم فى اليوم الثلاثين من شهر كانون الثانى «إن قضية العالم ستقرر فى أوروبا، فهناك يكمن الخطر الأكبر»، وامتنعت عن الإدلاء بآرائى مخافة أن يعتبر ذلك بمثابة انتقادات موجهة إلى القادة العسكريين الأميركيين، مما قد يعرقل جهودهم، أو يضعف الارتباطات التى توثق مصايرنا، وقد أسهمت القوات البريطانية وقوات جامعة الشعوب إسهاماً ضيقاً وإن كان فعالاً فى القتال، ولكن أميركا احتملت العبء كله تقريباً، ودفعت الثمن بمائة ألف من زهرة شبابها».

وقد أخذت الإمبراطوريات الغربية تنهار فى أمكان آخر من القارة الآسيوية، كما أرغم حلفاؤنا الهولنديون على الخروج من جزر الهند الشرقية، التى كانوا قد جعلوا منها نموذجاً فى الإدارة الفعالة، كما تحمل الفرنسيون سنوات طويلة من خيبة الأمل ومن الحروب الموهنة المضنية فى الهند الصينية، حتى تجاوزت الإصابات بين الضباط فى كل عام عدد من تخرجهم كلية سان سير من الضباط الجدد، وتمكنت الجيوش الشيوعية التى تعززت بقوة من النجدات الصينية، من إحراز السيطرة التدريجية على شمالى البلاد، وعلى الرغم من قصص المقاومة البطولية، اضطر الفرنسيون إلى الجلاء عن هذه المنطقة العظيمة المأهولة بالسكان، وبعد مفاوضات طويلة وشاقة، أمكن إنقاذ شىء ما من حطام الآمال المهدمة، فقد ظهرت ثلاث دول جديدة إلى حيز الوجود، وهى فيتنام الجنوبية ولاوس وكمبوديا، وتأكد استقلالها، وإن كان استقلالها لم يتضح تماماً، أما فيتنام الشمالية، فقد أقامت لها حكومة شيوعية منفصلة شأنها فى ذلك شأن كوريا الشمالية، وهكذا كان التقسيم من جديد، هو الحل للصراع بين المصالح الشيوعية والغربية، وظلت الخلافات الداخلية تمزق هذه الدول الجديدة، التى تهددها جارتها الجبارة إلى الشمال.

وكانت التبديلات التى وقعت فى آسيا، شيئاً لا يقاس بحساب، ومن المحتمل أن تكون هذه التبديلات محتومة لا مناص منها، وإذا كان القارئ يجد فى هذا العرض القصير لمحة من الأسف، فعليه ألا يفترض أنه ناجم عن العداء لحق الشعوب الآسيوية فى تقرير مصيرها، لكن الوسائل التى اتبعت فى الوصول إلى الوضع الراهن، تستدعى قليلاً من التفكير والتأمل، فهل كان من الضرورى، أن يسفك هذا القدر الكبير من الدماء؟ أو لم يكن فى الإمكان الوصول عن طريق التطور إلى النتيجة السعيدة نفسها مع مزيد من الثبات والاستقرار، بدلاً من الارتجال الذى دفع به الضغط الأجنبى،

والذى بسببه ضاع نفوذنا بسبب الهزائم السابقة التى منينا بها فى حرب الشرق الأقصى.

لقد دار شطر كبير من الحرب العالمية الثانية للدفاع عن الجسر البرى الذى يربط آسيا بإفريقيا، والحفاظ على تموينانتا من الزيت، وحماية قناة السويس، وكانت دول الشرق الأوسط، ولا سيما مصر، قد تمتعت بمزية الحماية التى أضفيناها عليها من الغزو الألمانى والإيطالى، دون أن تكلف نفسها عناء الاشتراك فى الدفاع عن نفسها!! وقد أعقبت الحرب زيادة جديدة فى عدد الدول المستقلة التى كانت توجد ضمن الممتلكات السابقة للإمبراطورية العثمانية، وكان خروج الفرنسيين من سورية ولبنان مؤلماً لهم، ولكنه كان محتوماً، وليس فى وسع أى إنسان أن يزعم أننا حصلنا لأنفسنا على أى قدر من الفوائد هناك، فقد شهد العالم فى هذه المنطقة اندفاعاً فى الإحساس الوطنى، كان من المقدر لنتائجه أن تسير سيرها فيما بعد، فالشعوب الإسلامية من أندونيسيا حتى مراكش فى حالة غليان واضطراب، وأدى تصميمها إلى مواجهة الدول الغربية ولا سيما تلك التى تتحمل مسؤوليات وراء البحار، إلى مشكلات ذات صعوبة خاصة، وفى وسع هذه الشعوب، وسط الهتافات الصاخبة للاستقلال والحكم الذاتى، أن تنسى المنافع الكثيرة والمهمة التى أضفاها عليها الحكم الغربى!! ومن الصعب أيضاً الاستعاضة عن النظام الذى طبقته الدول الاستعمارية فى هذه المناطق الشاسعة، بأنظمة جديدة ومستقرة من الحكم السيادى!!

وكانت مشكلة فلسطين من أعقد المشكلات التى واجهتها بريطانيا فى هذه الأرجاء، ولقد كنت منذ صدور وعد بلفور فى عام ١٩١٧، من أخلص أنصار القضية الصهيونية ومؤيديها، ولم أشعر قط أن البلاد العربية قد جنت منا إلا العدل فى معاملتها!! فالعرب مدينون لبريطانيا ولبريطانيا وحدها فى وجودهم كدول، فنحن خلقنا هذه الدول، فلقد دفعت الأموال

البريطانية والمستشارون البريطانيون بها سريعاً فى طريق التقدم، وكانت الأسلحة البريطانية هى التى تتولى حمايتهم، وكان لنا، وما زال كما آمل، عدد من الأصدقاء الأوفياء والشجعان فى المنطقة، وكان الملك عبد الله حاكماً فى منتهى الحكمة، وأدى اغتياله إلى زوال الفرصة فى تسوية سلمية للمشكلة الفلسطينية، وكنت أتابع فى العراق بإعجاب سلوك نورى السعيد الشجاع والحكيم، إذ كان يخدم بإخلاص ملكه، ويقود بلاده فى طريق الحكمة، دون أن يتأثر بالتهديدات الخارجية، أو بالضجيج المتأثر من الخارج فى الوطن، ومن سوء الحظ أن هؤلاء الرجال كانوا من الشواذ[1].

وواجهت الحكومة البريطانية كدولة منتدبة، المشكلة الشاقة من الجمع بين هجرة اليهود إلى «وطنهم القومى»!! وحماية حقوق السكان العرب، ولا يستطيع إلا القليلون منا لوم اليهود على آرائهم العنيفة المتطرفة فى هذا الموضوع، وليس فى مكنة شعب عانى خطر الإبادة الكلية لوجوده القومى، أن يكون عاقلاً ومنطقياً كلياً، ولكن أعمال الإرهابيين اليهود الذين حاولوا تحقيق أهدافهم عن طريق اغتيال الموظفين البريطانيين والجنود، كانت مظهراً غريباً من مظاهر نكران الجميل، ترك أثراً عميقاً فى النفوس، وليس هناك من بلاد فى العالم أقل صلاحاً لمقارعة الإرهاب، من بريطانيا العظمى، ولا يعود هذا إلى الضعف أو الجبن، وإنما إلى ضبط النفس والفضائل، وإلى طريقة الحياة التى عشناها فى جزيرتنا التى نجحنا فى الدفاع عنها، وأحست الحكومة البريطانية بلذعة جرائم القتل فى فلسطين، وبالمهانة من بلاد الشرق الأوسط، وحتى من حلفائنا، فكان من الطبيعى أن تقرر أخيراً فى عام ١٩٤٨ غسل أيديهن من مشكلة فلسطين، وأن تترك اليهود وحدهم، يجدون طريقة خلاصهم، وأدت الحرب القصيرة التى وقعت بصورة مسرحية، إلى تبديد ثقة البلاد العربية فى نفسها، بعد أن أطبقت على فلسطين آملة فى نصر سريع.

وأدى العنف الذى صاحب ولادة دولة إسرائيل إلى اشتداد المتاعب فى

(١) هذا هو رأى المؤلف الخاص وقد وجدنا نقله بدقة وأمانة بدون أى تعليق.

الشرق الأوسط بصورة مستمرة، وإنى لأتطلع بإعجاب إلى ما تم إنجازه من عمل هناك فى بناء دولة واستصلاح صحراء وتقبل هذا العدد الكبير من اليهود من جميع أطراف المعمورة، ولكن الوضع قاتم تماماً، فوضع مئات الألوف من العرب الذين أخرجوا من ديارهم، والذين يعيشون حياة الفاقة والعوز، فى المناطق الحرام التى خلقت حول حدود إسرائيل، خطر وفى منتهى الوحشية، ويكثر العرب من ترديد العداء الذى لا ينطوى ولا يزول للدولة الجديدة، ولا يستطيع القادة العرب الأبعد نظراً، أن يدعوا إلى الاعتدال، دون أن يتعرضوا لخطر الإسكات والتهديد بالاغتيال، إنه منظر مظلم وخطر عنيف لا حدود له، وهناك شىء واضح، فالشرف والحكمة يتطلبان بقاء دولة إسرائيل والحفاظ عليها، والسماح لهذا الشعب بأن يعيش فى سلام مع جيرانه «شرف من يا تُرَى!» وفى وسع هذا الشعب أن يأتى إلى المنطقة بإسهام لا يقدر بثمن من المعرفة العلمية والعمل والإنتاج، ومن الواجب إعطاؤه الفرصة لمصلحة الشرق الأوسط كله!!

وقبل أن أنتهى من هذا العرض الموجز للأمور التى أثرت علىَّ منذ انتهاء الحرب، أرى أن ألقى نظرة على الأمم المتحدة، ففى وسع أى جهاز لحكومة عالمية أن يفشل بسهولة فى تحقيق غرضه، وكان من رأيى عندما دنت الحرب من نهايتها، أن من الواجب أن تتحكم أعظم العقول وأعظم الأفكار التى يملكها البشر فى مصير العالم، وكان هذا المشروع يقضى، إذا تحتم تمثيل جميع البلاد كبيرها وصغيرها، أن تضعف البلاد المذكورة، فالمغزى الذى تقدمه الأمم المتحدة، ليس إلا تأكيداً لا جدوى منه لتعادل النفوذ والسلطان، لا يمت بصلة إلى الحقائق المجردة، وقد أسفرت النتيجة عن عمليات من النشاط اللامع وراء الكواليس تحاول أن تقبض على زمام الحكومة العالمية، وقد استعملت كلمة "المحاولة" لأن صوت أى بلد لا يعد سكانها أكثر من مليون أو مليونين، لا يمكن أن يقرر أو حتى يتحكم فى أعمال الدول الكبرى، وتميل

الأمم المتحدة فى شكلها الحالى إلى مصانعة الدول الديكتاتورية وإرهاب الدول الضعيفة، وليس من حق الدول الصغرى، أن تتحدث باسم الجنس البشرى كله وعليها أن تقبل، ولا ريب فى أنها ستقبل ذلك عن طيب خاطر، مرتبة أكثر خفضاً، ولكنها أكثر قرباً من الدول الكبرى، ويجب أن تقوم على حكم العالم مجموعة من القادة المبارزين فى مجموعات من البلاد المؤلفة حسب أوضاعها الجغرافية، وأن عملية السماح لهذه المجموعات بأن تؤلف نفسها دون الحكم عليها بحسب قواتها أو عدد سكانها هى التى تتولى تقرير الموضوع كله.

ولا أرى من وراء كل ما قلت، الإيحاء بأن جميع الجهود والتضحيات التى بذلتها بريطانيا وحلفاؤها، والتى سجلتها فى هذه المذكرات قد ضاعت عبثاً، ولم تؤد إلا إلى قيام وضع أكثر خطورة وظلاماً، مما كان عليه الوضع فى البداية، وإننى على النقيض من ذلك، أتمسك برأيى السابق فى أن محاولاتنا لم تذهب سدى، فقد أصبحت روسيا دولة تجارية عظمى، ويجرى لأهلها فى كل يوم بحماس تام ومتزايد هذه التعقيدات والملطفات الموجودة فى الحياة البشرية، التى تجعل من خطط كارل ماركس ومشروعاته، أموراً مضى عهدها، وغدت أصغر من أن تتفق مع المشكلات العالمية، ولقد أخذت القوى الطبيعية تعمل بحرية أكبر، وبفرصة أعظم، فى نشر الآراء والأفكار المتعلقة بفردية الرجال والنساء وتنوعيها، وهذه القوى أضخم وأكثر ليونة فى هذا الكيان الواسع من إمبراطورية الكون، مما قد تصوره كارل ماركس فى كوخه الحقير، وعندما يضيق نطاق الحروب نفسها بالفرعية المتبادلة نفسها للقضاء عليها، يصبح من المتوقع بصورة متزايدة تأجيلها وعدم اللجوء إليها، وستستمر الخلافات حتماً بين الدول أو القارات أو مجموعات الدول، ولكن المجتمع الإنسانى سينمو فى أشكال متعددة، بحيث لا تفهمه الأجهزة الحزبية، وما دام العالم الحر متماسكاً والحالة هذه، ولا سيما بريطانيا العظمى

والولايات المتحدة، وما دامتا تحتفظان بقوتهما، فستجد روسيا أن السلام والرخاء أجدى نفعاً من حرب الإبادة، وأن توسيع آفاق الفكر ومجالاته، عملية تتطلب الاندفاع عن طريق البحث عن الفرص لكل من يطلبها، ومن الخير أيضاً، إذا ما التزم الجميع جانب الحكمة والروية، أن تسيطر الرغبة فى تأمين الفرص للجميع على مشاعر الجنس البشرى وتعمل بمثابة ضابط لها.

شارتويل - ويسترهام - كنت **ونستون تشرشل**

١٠ شباط ١٩٧٥



الفهـــرس

الجزء الثانى «سقوط فرنسا»

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

الفصل السادس عشر

الفصل السابع عشر

الفصل الثامن عشر



مذكرات تشرشل

يعتبر تشرشل (١٨٧٤ - ١٩٦٥) أحد أهم الزعماء فى التاريخ البريطانى والعالمى الحديث. شغل منصب رئيس وزراء بريطانيا عام ١٩٤٠، واستمر فيه خلال الحرب العالمية الثانية. استطاع رفع معنويات شعبه أثناء الحرب حيث كانت خطاباته إلهاماً عظيماً إلى قوات الحلفاء. كان أول من أشار بعلامة النصر بواسطة الإصبعين السبابة والوسطى. بعد انتهاء الحرب خسر الانتخابات سنة ١٩٤٥، وأصبح زعيم المعارضة ثم عاد إلى منصب رئيس الوزراء ثانية فى عام ١٩٥١ وأخيراً تقاعد فى سنة ١٩٥٥.

حصل على جائزة نوبل فى الأدب لسنة ١٩٥٣ للعديد من مؤلفاته فى التاريخ الإنجليزى والعالمى. وفى استطلاع لهيئة الإذاعة البريطانية (BBC) سنة ٢٠٠٢ اختير كواحدٍ من أعظم مائة شخصية بريطانية.

والآن أيها القارئ الكريم، أتركك مع تلك المذكرات الممتعة لتتعرف على أهم وأخطر فترة من تاريخ العالم الحديث.

Sir Winston Churchill

W.Salama 010 15 17 873

دار الحرم للتراث

٤٥ سوق الكتاب الجديد - العتبة - القاهرة

ت: ٠٢/٢٥٩١٦٠٢١